



تدبر القرآن الكريم

دراسة تأصيلية

المجلد الأول









دراسة موضوعية تحليلية حول تدبُّر القرآن الكريم، تبيِّن أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وعناية العلماء به، وتبرز أسباب التدبُّر والأمور المعِينة عليه، والقواعد والضوابط التي من شأنها أن تعِين المسلم على تدبُّر القرآن الكريم، والمنهج الأمثل لتدبُّر القرآن الكريم.

ولما كان خير الحديث كتاب الله؛ فإنَّ فهمه وتدبُّره والعمل به تصديقاً للأخبار، وعملاً بالأحكام، أنفس ما يبذل المرء فيه أنفاسه، وأنفع ما يمضى فيه أوقاته، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حول القرآن؛ فتشرح غامضه، وتوضِّح مبهمه، وتبيِّن جوانب العظمة في آياته، وشرف العلم من شرف المعلوم.

والله عزوجل هو الذي خلق الإنسان من طين، فسوَّاه وفهَّمه وعلَّمه، وأنزل إليه هذا الكتاب المبارك ليتدبَّر آياته، ويسِير عليه دستوراً عظيماً، ومنهجاً قويماً؛ حتى تستقيم أموره، وتهنأ حياته.

لذا كانت هذه الدراسة، ومن أجل إحياء عبادة التدبُّر في النفوس، جاء هذا العمل، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن نجد نفعه وأثره يوم نلقاه.






isbn 978-625-645-184-1
9 786256 451841


22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم


تدبر القرآن الكريم
دِراسة تأصِيليّة
المجلد الأول

تصنيف المملكة العربية السعودية

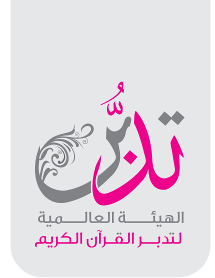
ح محمد عبد الجواد محمد الصاوي ، 1445هـ

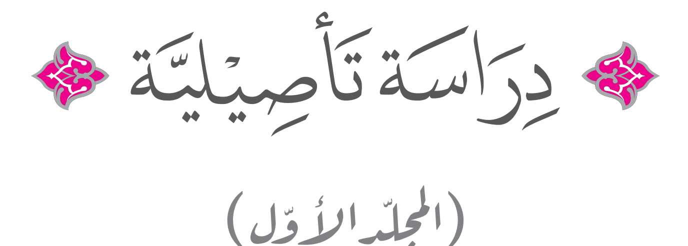
الصاوي، محمد عبد الجواد محمد
تدبر القرآن الكريم دراسة تأصيلية.
محمد عبد الجواد محمد الصاوي - ط1 - جدة ، 1445هـ
2مج.

رقم الإيداع: 1445/17786
ردمك: 978-603-04-9922-9 (مجموعة)
ردمك: 978-603-04-9923-6 (ج1)





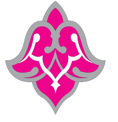




دراسة تأصيلية

(المجلد الأول)

د/ محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي



أصل هذا الكتاب: (رسالة علمية قدمت لنيل درجة الدكتوراه من كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عام ١٤٣٦ وأجيزت بدرجة ٩٨ وتقدير ممتاز)





دراسة تأصيلية

المجلد الأول

د/ محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

القياس: 17 X 24 سم

عدد الصفحات: 600 ص

ISBN: 978-625-645-184-1

رقم الإيداع في المملكة العربية السعودية

1445/17786

ردمك : 978-603-04-9922-9

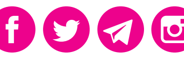
الطبعة الأولى

1445هـ - 2024م



طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com



Sertifika No: 65276



Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul




الإهداء

إلى اللذان ربياني صغيراً.. ودعوا لي كثيراً.. وشملاني بكلِّ الخير..

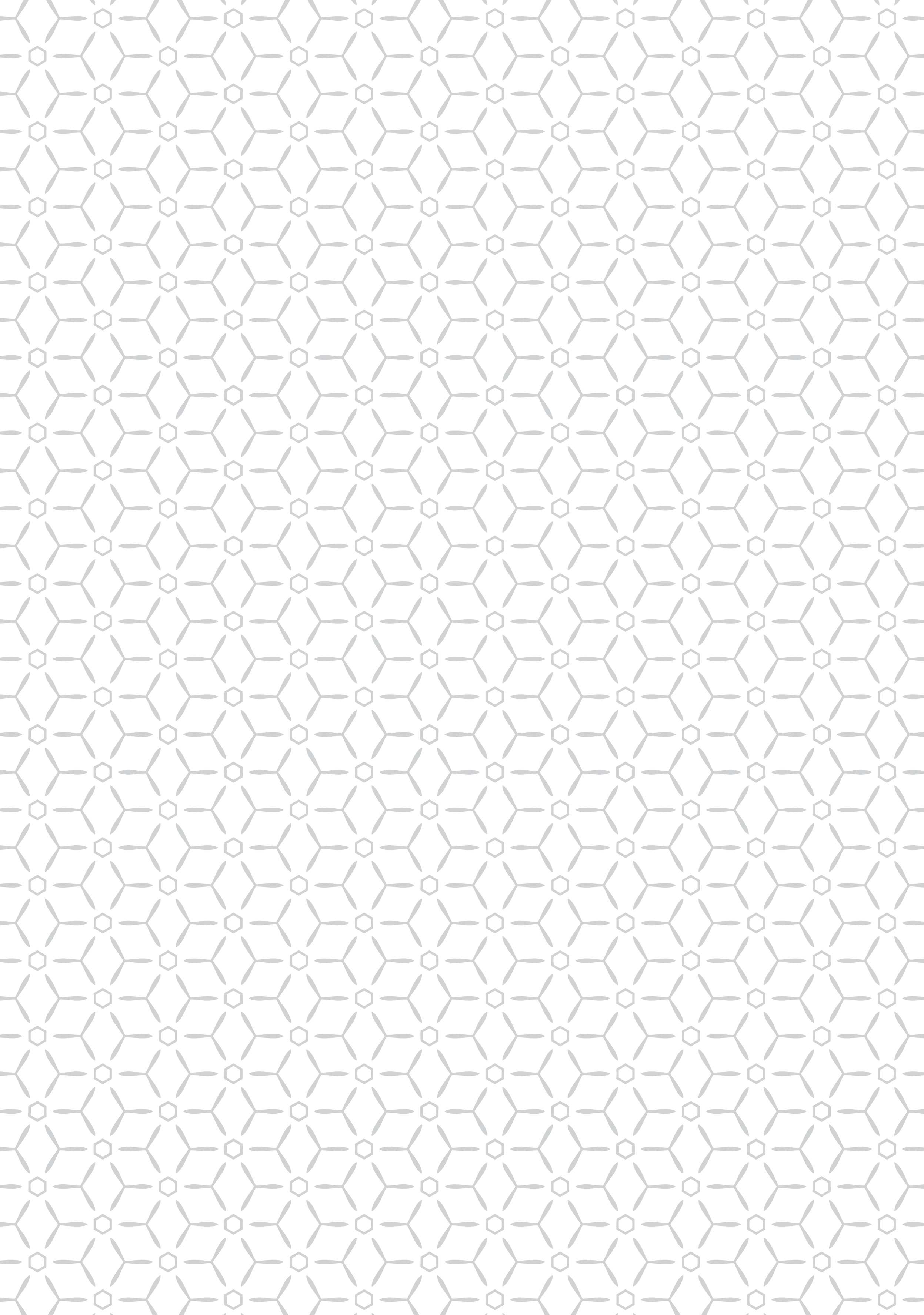
إلى والدي العزيز الذي علَّمني أن الأعمال الكبيرة لاتتمُّ إلا بالصبر والعزيمة والإصرار..

وإلى أمي الغالية.. قطرة في بحرك العظيم.. حباً وطاعة وبراً..

إلى أغلى جوهرتين في الدنيا.. متعني الله ببرهما وردِّ جميلهما ما حييت..

أهدي ثمرة من ثمار غرسهما.. آن لها القطاف.



المقدمة

"الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين، أنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من أشجاره، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً، وكلما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيراً، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حي على الفلاح، نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

أسمع والله لو صادف آذانا واعية، وبصر لو صادف قلوباً من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذاً، وتحكَّمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل"[١].. أما بعد:

فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها.

ولما كان خير الحديث كتاب الله؛ فإنَّ فهمه وتدبُّره والعمل به تصديقاً للأخبار، وعملاً بالأحكام؛ هو أنفس ما يبذل المرء فيه أنفاسه، وأنفع ما يمضي فيه أوقاته، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حول القرآن؛ فتشرح غامضه، وتوضِّح مبهمه، وتبيِّن جوانب العظمة في آياته، وشرف العلم من شرف المعلوم.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق الإنسان من طين، فسوَّاه وفهَّمه وعلَّمه، وأنزل إليه هذا الكتاب المبارك ليتدبَّر آياته، ويسِير عليه دستوراً عظيماً، ومنهجاً قويماً؛ حتى تستقيم أموره، وتهنأ حياته.

وقد اعتنى القرآن الكريم في آيات متعددة بالدعوة إلى تدبُّره والعمل به، وهي الثمرة المرجوة من إنزال هذا الكتاب العظيم، في نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

لذا كانت هذه الدراسة، ومن أجل إحياء عبادة التدبُّر في النفوس، جاء هذا العمل، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن أجد نفعه وأثره يوم ألقاه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧-٢٨).

أ- التعريف بالموضوع وأسباب اختياره وأهميته:

* التعريف بالموضوع :

دراسة موضوعية تحليلية حول تدبُّر القرآن الكريم، تبيِّن أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وعناية العلماء به، وتبرز أسباب التدبُّر والأمور المعِينة عليه، والقواعد والضوابط التي من شأنها أن تعِين المسلم على تدبُّر القرآن الكريم، والمنهج الأمثل لتدبُّر القرآن الكريم.

* أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

لَّما كان حفظ كتاب الله آخذاً في الانتشار، وتدبُّره والعمل به آخذاً في الاندثار عند كثير من الناس، ولما كان القرآن الكريم ليس فقط كتاباً ونصاً يتلى فحسب، ولكنه منهج كامل للحياة؛ ينظِّم العلاقات، ويحْيي القلوب، ويرقى بالأخلاق؛ كان من الضرورة الملحة تدبُّر آياته، وفهم المعنى العميق لنصوصه، حتى تصبح آيات القرآن منهجاً مُعاشاً في الحياة.

ومن أجل ذلك كان لاختيار هذا الموضوع أسباب عدة، أُجملها فيما يلي:

١) الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وتعالى بالتدبُّر الصحيح للقرآن، فقد أنزله عَزَّوَجَلَّ للتدبُّر والعمل به، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[ص : ٢٩].

٢) التدبُّر مفتاح تفسير القرآن الكريم، فالقرآن بحر فيَّاض بالخيرات والكنوز، والتدبُّر هو المفتاح الذي يعين على استخراج تلك الكنوز والتنقيب عنها، "ومن

معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخر في الألفاظ المعروفة في كلِّ زمن، حقائق غير معروفة لكلِّ زمن، فيجلِّيها لوقتها حين يضجُّ الزمان العلمي في متاهته وحيرته"[1].

٣) التدبُّر هو المُعِين بإذن الله على إيجاد الحلول للمشكلات المستجدَّة في كلِّ العصور، وهو ما يؤكِّد صلاحية الإسلام لكلِّ زمان ومكان: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

٤) انشغال كثير من الناس وانصرافهم عن تدبُّر القرآن والعمل به بأمور أخرى، وتفشِّي هجر القرآن لدى الكثيرين من أفراد الأمة.

٥) إحياء وإبراز طرق التدبُّر، والعيش مع القرآن، وتذليل سبله، وإبراز قواعده ومنهجه لأفراد الأمة.

٦) التأسي والاقتداء بالنبي ﷺ؛ لأنَّ تدبُّر القرآن هو سنَّته ﷺ والصحابة الكرام من بعدِه، وقد كان ﷺ ربما يكرِّر الآية الواحدة كثيراً، كما ورد أنه قام الليل وهو يكرِّر قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨][2]، وهو أيضاً هدي كثير من الصحابة والصالحين؛ حيث كانوا يكرِّرون الآيات، يتفكَّرون وينظرون ويعتبرون.

٧) التدبُّر دليل الاهتمام؛ وبالتالي التطبيق والممارسة وهي النقطة الأهم في حياة الأمة، فإذا تدبَّرنا القرآن نقلناه إلى حقول الممارسة وإلى ميادين السلوك.

---

(١) وحي القلم للرافعي (٢/ ٥٦).

(٢) **حسن**. أخرجه النسائي، وابن ماجة، من حديث أبي ذر، وحسَّنه الألباني في صحيح النسائي (١٠٠٩).

٨) تدبُّر القرآن من أسباب دخول غير المسلمين في الإسلام، وقد سجَّل التاريخ عن جمع من الكفار أنهم لما سمعوا القرآن قالوا: إنه ليس بقول البشر، وبعد تفكُّر وتدبُّر دخل أولئك في الإسلام، وصار بعضهم من الصحابة الكرام.

٩) التدبُّر سبب لحصول الخيرية التي أخبر بها المصطفى ﷺ في قوله: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»[١]، وتعلّم القرآن وتعليمه لا ينحصر في الحفظ فقط، بل بالتلاوة والفهم الصحيح، والتطبيق السليم .

١٠) لم يجد موضوع التدبُّر العناية الكافية لنشره وإشاعته والدعوة إليه في الميادين العلمية، فلم أقف من خلال بحثي المبدئي على دراسة أكاديمية متخصصة في الموضوع من جوانبه المختلفة، وخاصة قواعد وضوابط التدبُّر الصحيح للقرآن الكريم.

١١) إثراء المكتبة القرآنية بالجديد في موضوع يُعتبر من أهم الموضوعات العلمية في المكتبة الإسلامية والتفسيرية على وجه الخصوص.

ومما سبق من أسباب اختيار الموضوع، تتبيَّن أهميته وشدَّة الحاجة إليه، وأنه هداية من هدايات القرآن التي يجب على المسلم أن يرجع إليها في كلِّ زمان ومكان.

والموضوع كما يظهر لي ابتداءً - خلال إعداد هذه الخطَّة — موضوع مهم، كثير الفائدة، كبير القَدْر، تضمَّن الكثير من المفاهيم والوسائل والضوابط المهمَّة للتدبُّر الصحيح للقرآن الكريم، تتطلَّب تسليط الضوء عليها، وسَبْرها وتأصيلها، والتنقيب في كنوزها، ولعلَّ هذا هو ما يتركّز عليه العمل في البحث.

فأستعين الله وحده على هذا العمل، وأسأله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به كاتبه وقارئه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٧)، في كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه.

ب - الدراسات السابقة في الموضوع:

لم أقف على رسالة علمية أكاديمية متخصصة تناولت موضوع التدبُّر بعناية في الجامعات السعودية والعربية بعامة، وما وقفت عليه من دراسات متخصصة في موضوع التدبُّر، كان ما يلي:

١) أثناء بحثي في قاعدة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية رسالة مسجلة بعنوان: **تدبُّر القرآن الكريم، مفهومه وضوابطه - الحسن بوقسيمي**، (دكتوراه)، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالمغرب ١٩٩٦م؛ فبذلت جهداً ووقتاً كبيراً للوصول إليها؛ حتى سهل الله لي الاتصال بالدكتور/ الحسن بوقسيمي، وأفادني بأنَّه لم يبحث الموضوع، وإنما كان فكرة سجلها فقط.

٢) ومما وقفت عليه أيضاً: رسالة دبلوم للباحث: محمد ولد أباه في النصف الأول من القرآن، سجِّلت في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالمغرب، ورسالة دكتوراه للباحث: محمد أحمد ولد محمد مبارك، في النصف الثاني من القرآن، في جامعة القرويين عام ١٤٢٨-١٤٢٩هـ، وكلاهما في تحقيق ودراسة نظم: **مراقي الأوَّاه في تدبُّر كتاب الله**، للشيخ الموريتاني: أحمد بن أحمذي، وهي منظومة علمية تضمَّنت ثمانية آلاف وثلاثمائة بيت من الرجز، في تفسير كلام الله تعالى من أول الفاتحة إلى نهاية الناس.

٣) ومما وقفت عليه أيضاً : مجموعة من الأبحاث والرسائل التي نشرتها: الهيئة العالمية للتدبُّر، ومركز تدبُّر للاستشارات التربوية والتعليمية، طُبع منها مجموعة الملتقى الأوَّل باسم: (مفهوم التدبُّر - تحرير وتأصيل)، والبقية منها طُرِحت في الملتقى العلمي الثاني لتدبُّر القرآن الكريم، وقد تجاوزَت خمسة عشر بحثاً، لا تخرج عن كونها

محاولات علمية جيدة لخدمة موضوع التدبُّر، وكان من توصيات الملتقيَيْن المشار إليهما، وبحضور جملة من المتخصصين: (السعي لإعداد دراسات علمية في تدبُّر القرآن الكريم)، وما هذا المشروع إلا محاولة لتأصيل تدبُّر القرآن الكريم، فالبحوث المذكورة هي جهود فردية تناولت أجزاء متفرِّقة من الموضوع من وجهة نظر أصحابها، وهم يوصون بأهمية الدراسات العلمية المتخصصة .

ولقد بذلت بتوفيق من الله جهداً ووقتاً كبيراً للتأكد من عدم تسجيل الموضوع، زرت فيه عدداً من المكتبات في مدينة الرياض والمدينة النبوية ومكة المكرمة وجدة، ورجعت إلى عدد من أدلَّة الرسائل الجامعية في جميع جامعات المملكة، وبعض الجامعات العربية مثل جامعة الأزهر، وجامعات الأردن، حتى تأكَّدت ولله الحمد من عدم تسجيل الموضوع في الأقسام المتخصِّصة في أيٍّ منها، وهذا ما شجَّعني للعمل فيه، والمضيِّ في إعداد خطَّته، رغبةً وأملاً مني في خدمة كتاب الله تعالى من خلال هذا البحث.

وبعد الموافقة على موضوع البحث وبدئي فيه؛ عرفت بتسجيل موضوع رسالة ماجستير في التدبر، بعنوان: (تدبر القرآن الكريم دوافعه وموانعه، جمعاً ودراسة) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، للباحث/ عبد اللطيف التويجري، ونوقشت بتاريخ ١٠/ ٠١/ ١٤٣٥هـ، ولم أتمكن من الاطلاع منها -لحين انتهائي من البحث-، سوى على الخطة التي قدمها الباحث عند تسجيل الموضوع.

وبعد قبول موضوع رسالتي هذه وخطتها من عمادة الدراسات العليا بالجامعة، وبدئي في البحث، تم تسجيل أكثر من موضوع متعلِّق بالتدبُّر في الجامعات الأخرى، ومن ذلك:

١ – تدبُّر القرآن عند الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمعاً ودراسة– عبد الله بن عمر العمر (ماجستير) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٢– تدبُّر القرآن عند الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمعاً ودراسة– (ماجستير) بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض.

وأسأل الله العون والتوفيق أن ينفع ويبارك جميع الجهود المبذولة في مجال التدبُّر.





د - منهج البحث والعمل فيه:

سار العمل في البحث على اتباع المنهج الاستقرائي التحليلي، والسَّير على المنهج التالي:

١) الجمع واستقراء عامة ما كتب في الموضوعات، وتقسيمها على مباحث الرسالة.

٢) استنتاج ما أمكن من ضوابط للتدبُّر من خلال كلام المفسِّرين وأقوال أهل العلم المنثورة في بطون كتبهم، والتعريف بهذه الضوابط، ودراستها دراسة تفصيلية، مع ذكر الأمثلة التطبيقية لذلك من خلال الدراسة.

٣) تأصيل المباحث المشتركة مع علم التفسير وأصول الفقه من كتب الأصول المعتمدة، ومما وجدته من كلام للعلماء والمحققين في علوم القرآن.

٤) جمع ما يختص بأسباب وشروط التدبُّر الصحيح لكتاب الله الكريم من عامة كتب أهل العلم، واستنتاج ذلك من كلام العلماء المفسِّرين والمحققين بالرجوع إلى كتبهم ومصنَّفاتهم المخطوطة والمطبوعة.

٥) الاستدلال بنصوص الوحيين على ما جمعته في الموضوع من ضوابط التدبر، وشواهد اللغة وقواعد الأصول، مدعَّمة بفهم السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم.

٦) ذكر الأمثلة التطبيقية في التأصيل النظري في ثنايا البحث بدون فصله بقسم مستقل، لما في ذلك من إيضاح للمسائل النظرية بتوسُّع، وتحاشياً للتكرار.

٧) العرض والتحليل الواضحَين لمفردات الموضوع وكلِّياته.

٨) صياغة البحث صياغة علمية تتناسب مع الموضوع، ومراعاة أصول وقواعد كتابة البحث العلمي.

٩) توثيق المادة العلمية في البحث من خلال ما يلي:

- عزو الآيات الواردة في البحث إلى مواطنها في المصحف بذكر اسم السورة ورقم الآية، مع كتابتها بالرسم العثماني.

- توثيق القراءات بعزوها إلى مصادرها المعتمدة مع توضيح تواترها من شذوذها.

- عزو الأحاديث الواردة في البحث إلى مصادر السنَّة المعتمدة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالإحالة عليهما، وأذكر رقم الحديث، والكتاب والباب الذي ورد فيه، وإن كان الحديث في غيرهما: ذكرت الحكم عليه أولاً، ثم اسم الكتاب والجزء والصفحة ورقم الحديث إن وجد، دون ذكر الكتاب أو الباب اختصاراً، وأكتفي غالباً بتصحيح الشيخ الألباني للحديث، واعتبره في الحكم عليه.

- توثيق الأقوال المنقولة عن العلماء والمحققين أو عن المصادر العلمية الأخرى بالإحالة إلى مصدر المعلومة، وذكر الجزء والصفحة، مرتبة في الحاشية على حسب وفياتهم.

- الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط، ووضع الأقواس المناسبة في موضعها أثناء البحث على النحو التالي: علامة القوسين الصغيرين: > < لنصِّ الحديث النبوي، وإذا نقلت قولاً عزوته في المتن لقائله وضعته بين قوسين: ( )، وإن

لم أذكر القائل، وضعته اقتباساً بين علامتي تنصيص: " "، وأشير في الحاشية للمصدر، وإذا نقلت كلاماً بمعناه أو تصرفت فيه كثيراً، لا أضعه بين أقواس، وأكتفي بوضع حاشية في نهايته، فيها: انظر: ... تعني أني استفدت الفكرة الإجمالية أو الكلام بمعناه من هذا المصدر.

- الترجمة الموجزة للأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في ثنايا البحث .
- عزو الشعر لقائله، والإحالة على دواوين الشعر وكتب اللغة التي وردت فيها.
- التعريف الموجز بالطوائف والفِرَق الواردة في البحث.
- التعريف الموجز بالأماكن والمواضع وكلّ ما يحتاج إلى تعريف.
- التعريف بمعاني الألفاظ الغريبة والمصطلحات العلمية.
- إلحاق البحث بفهارس تفصيلية.

أسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً صواباً نافعاً مباركاً..



هـ- أبرز العقبات التي أحاطت بالبحث:

من نعمة الله عليَّ أن هيَّأ لي بحث هذا الموضوع القيِّم الكبير، الذي يخدم أعظم رسالة نزلت من السماء، ويسَّر أسبابه، وإتمامه.

وكنت أنشد فيه أولاً الاستيعاب والشمول، وأطلت المدة في البحث رجاء أن ألمَّ بجميع جوانبه، واستقصي كلَّ ما كُتب فيه؛ غير أنَّ الكمال عزيز، ويأبى الله عَزَّوَجَلَّ ألا أن يجعل العصمة والكمال لكتاب غير كتابه.

لذا فقد اعترض تميُّز البحث للوجه المنشود جملة من العقبات، أبرزها ما يلي:

١- طول الموضوع وتشعبه، وندرة الدراسات الأكاديمية فيه.

٢- خلو الموضوع تقريباً من كتابات ومصنفات أثرية مستقلة فيه، فهو يحتاج إلى تنقيب دقيق في بحر المفسرين والمحققين من العلماء، لاستخراج كنوزه، والوقوف على أسراره ودرره.

٣- تداخل الموضوعات لدى من كتب فيه من المعاصرين، فالأسباب هي الوسائل عند البعض، والموانع هي أثر الهجر عند آخرين، وهكذا.

٤- قلة الكتابة العلمية التأصيلية فيه، وقد اعتنت مؤخراً الهيئة العالمية لتدبر القرآن (تدبُّر) بذلك، غير أن غالب ما كُتب في الموضوع هي رسائل وعظية دعوية تربوية، غلب عليها ذلك.

٥- تداخل قواعد التدبر أو غالبها ببعض قواعد التفسير.

٦- عدم وجود كتابات السابقة ودراسات متخصصة؛ تناولت قواعد التدبر وضوابطه خاصة بالعناية والبحث، بل لم تتوفر في كتابات السابقين وكتبهم تناول ذلك، مما جعله موضوعاً جديداً يحتاج إلى وقت وتأمُّل.

٧- أنَّ كثيراً من النصوص الأثرية والأقوال الواردة عن أهل العلم في التدبُّر؛ حمالة أوجه، يمكن الاستشهاد بها في مواضع متعددة من البحث، مما كان سبباً في تكرار بعض المسائل والنقولات أكثر من مرَّة، في مواضع مختلفة.

٨- أنَّ التدبُّر موجَّه للمسلمين ولغير المسلمين، واستصحاب ذلك مهم أثناء البحث في كافة الفصول والمباحث، مما يوجد بعض الإشكال والتداخل في الفهم أحياناً.

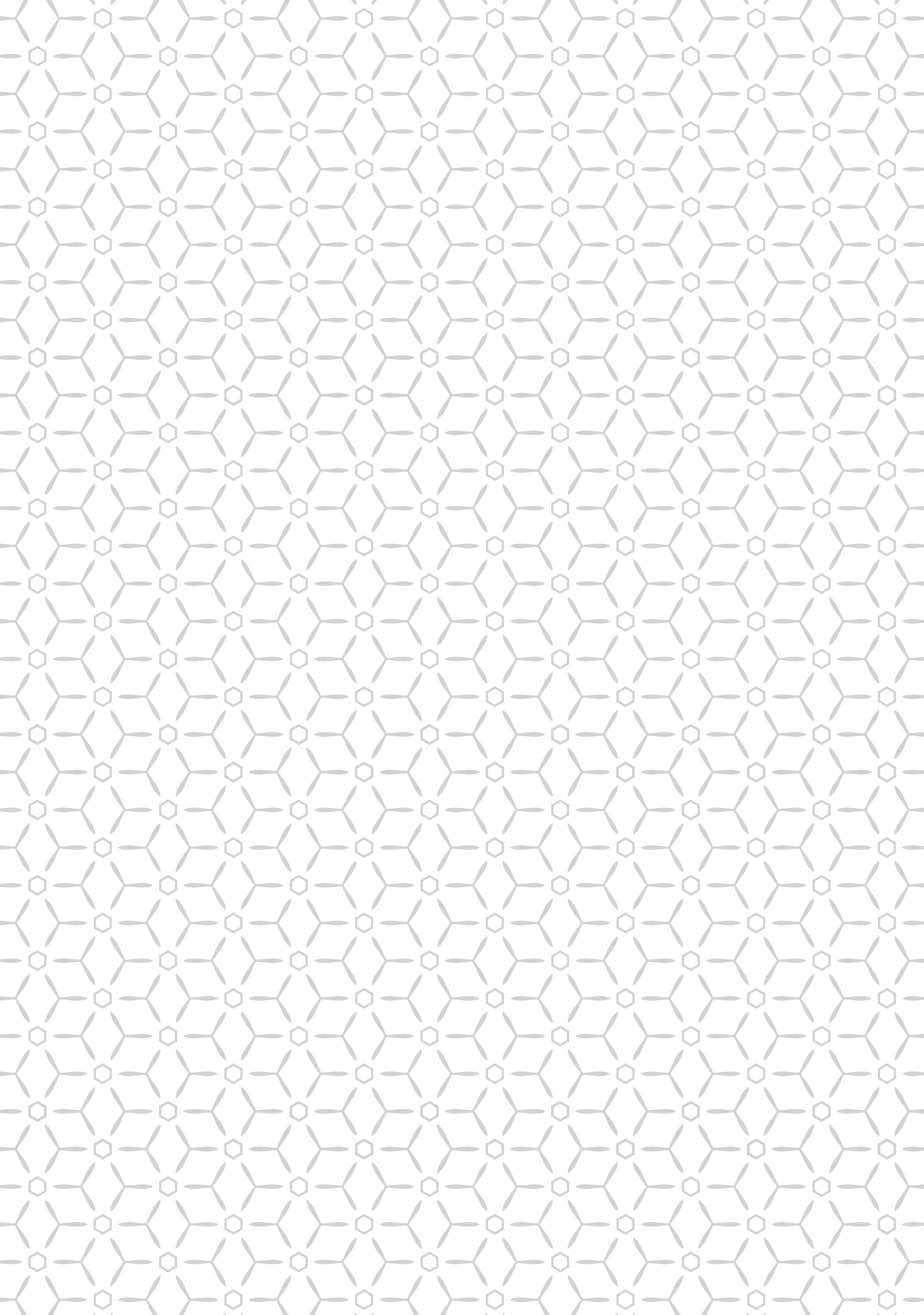
٩- الخلاف الطويل بين المعاصرين في عدم الاستقرار على تعريف دقيق للتدبر، وهذا يزيد الأمر إشكالاً وتعقيداً.

١٠- كثرة أعباء ومسؤوليات الباحث، التي أدَّت إلى عدم التفرغ التام للعمل في البحث، فتمَّ خلال سنوات، تقلَّب فيها بين حالات وأحوال مختلفة، مما اضطر للمراجعة والتغيير في البحث مراراً، إضافة إلى بروز تكرار لأفكار مختلفة، ونصوص ونقولات متنوعة؛ تغفره طول المدة، وتعفو عنه ضخامة المادة العلمية.

فلعلَّ قارئه بعد ذلك أن يغضَّ الطرف عن التقصير، ويعين بالرأي والتقرير.

وأعترف ختاماً أنَّ المنشود كان أكبر من المعقود، وكان الأمل في إنتاج عمل تأصيلي مميز ينفع الله به كاتبه وقارئه، لكنَّ ما ذكرت وأسلفت حال بيني وبين تمام ما أردت، وأعترف بالتقصير والخلل، ولله الحكمة البالغة، وأرجوه أن ينفع بما اكتمل، ويتجاوز عن التقصير والزلل، وهو المستعان في الأمر كله، وأسأله أن يتقبَّل صالح العمل.





شكر وتقدير

وبعد.. فإني أتقدَّم بالشكر كله أوله وآخره، وسرّه وإعلانه لصاحب الجود والفضل والإحسان، الذي لا أحصي ثناءً عليه عَزَّوَجَلَّ، فهو أهل الحمد والفضل والجود والمنِّ، أحمده أولاً وآخراً، وأشكره ظاهراً وباطناً، على نعمه السابغة، وفضائله المتتابعة، فلولا فضله وتيسيره وعونه ما تمَّ هذا العمل، فله الحمد أن اختارني للعمل في خدمة كتابه، وفي إحياء موضوع التدبُّر وتأصيله، وله الحمد كله، وهو الحقيق بالمنة والفضل، وله الشكر وهو للشكر أهل، وقد تجلَّى لي لطفه وعونه في كل أحوالي، رغم تقصيري في حقه وإهمالي، فله المنة والحمد، في كل نعمة أنعم بها عليَّ في قديم أو حديثٍ، أو سرٍّ أو علانية، وأسأله عَزَّوَجَلَّ أن يبارك هذا العمل، وأن يكتب له قبول النووي في رياض الصالحين، ويجعله خالصاً صواباً، مباركاً نافعاً حتى ألقاه وقد رضيه مني وغفر لي به، وأجزل لي المثوبة، وكفر عني به السيئات..

ثمَّ أثنِّي بالشكر والتقدير، والثناء الجزيل لمن أمرني الله بالشكر لهما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، للوالدين الكريمين اللذين ربياني صغيراً، وعلَّماني كبيراً، وكانا سبباً في سلوك سبيل العلم وأهله، ولست أوفيهما بعض حقهما عليَّ إلا بالدعاء لهما ألا يحرمهما الله الأجر والثواب، وأن يقرَّ أعينهما بصلاح الذرية، ويمدَّهما بالصحة والعافية، والعمر المديد على الطاعة والإيمان والعمل الصالح.

ثمَّ الشكر لمن علَّمني وأخذ بيدي نحو طريق العلم النافع، وربطني بتدبُّر القرآن في قوله وفعله، وسلوكه وتوجيهه لي، شيخي وأستاذي ومعلِّمي الأول الذي أكنُّ له الفضل بعد الله في طريقي العلمي، والذي رافقته مرافقة الولد للوالد خلال حقبة زمنية مباركة، فنهلت من تربيته وأدبه وسمْته قبل علمه ودرسه؛ سماحة شيخنا

الوالد/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكم حثَّني على سلوك سبيل العلم، وأخذ بيدي، وكان متابعاً لي وموجِّهاً؛ حتى أدركَتْه المنية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت له اليد الطولى في سلوك طريق التدبُّر، وكم كنت أسعد وأستمتع في درسه بقوله عند تفسير الآيات: (ومن فوائد الآية الكريمة) ثمَّ يفيض بما فتح الله عليه من الفوائد التدبُّرية المتميزة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وجعله شريكاً في ثواب هذا العمل، ونوَّر له قبره ووسَّع له فيه، وجمعنا به ووالدينا مع المصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنَّة.

وأرفع في هذا المقام دعوة صادقة لشيخي ومشرفي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد العزيز العواجي، الذي تعلَّمت منه الأدب قبل العلم، وقد بذل جهوداً مضنية مشكورة، ولم يبخل عليَّ برأي ولا مشورة، وكانت لمساته واضحة مبرورة؛ فجزاه الله عني خير الجزاء وأوفاه.

والشكر موصول لكل من ساهم برأي أو جهد أو نصيحة، ولم يبخل عليَّ بنصح أو تقويم أو توجيه أو فائدة علمية خلال مسيرة العمل في البحث.

أسأل الله جلَّت قدرته أن ينفعني بهذا العمل المتواضع، وأن يجعله خالصاً صواباً.. وأن يباركه ليكون عِلماً ينتفع به، باقياً لي بعد الرحيل من هذه الدنيا.

اللهم هذا منك ولك فتقبله بقبول حسن، وأنبته نباتاً حسناً، واجمعنا مع والدينا، وأسلافنا، وعلمائنا، ومشايخنا، وإخواننا، وأزواجنا وذرِّياتنا مع نبيك وحبيبك ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنة .. آمين.

وكتبه:

د/ محمد بن عبد الجواد الصاوي

عند مراجعة الطباعة – غرة شعبان ١٤٤٥هـ

تمهيد

حثُّ الشارع على التدبُّر

فقد أكرم الله هذه الأمة بإنزال القرآن الحكيم؛ ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور، وجعله موعظة، وهداية، وبركة، ونوراً، وشفاءً لما في الصدور، وكما قال سبحانه عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] .

وأمر سبحانه عباده أن يتأمَّلوا في آياته، وينظروا في عظاته، تحقيقاً للغاية الكبرى التي نزل القرآن من أجلها، وهي التدبُّر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

ومن نظر بعين البصيرة في أحوال الناس قبل بعثة سيد ولد آدم؛ نبينا محمد ﷺ، وما كانوا عليه من جهل وقتل وظلم وعدوان، وما عاشوه من كفر وطغيان، وانحراف عن الفطرة السليمة؛ ثمَّ أرجع بصره متأمِّلاً في أحوال أولئك القوم أنفسهم حين تنوَّروا بنور الإسلام، وتخلَّقوا بأخلاق القرآن؛ عرف البَوْن الشاسع، والفرق الهائل الذي أحدثه هذا الكتاب العظيم في نفوسهم، حتى صاروا به قادة الأمم، وأئمة الدنيا.

ولا غرو ولا عجب.. فهو كتاب لم يصنعْه لهم بشر، ولم يصغه أساتذة ومفكِّرون، بل هو كلام الخالق عَزَّوَجَلَّ؛ أنزله رب العالمين، على أشرف الخلق أجمعين، بلسان عربي مبين، لم يترك فيه خيراً إلا أرشدهم إليه، ولا شراً إلا حذَّرهم ونهاهم عنه، وفصل به بين العباد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] .

فهو النور والخير الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ليكون منهجاً للعباد في كلِّ زمان ومكان، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥].

ولَمَّا كان التدبُّر هو الغاية الكبرى من إنزال القرآن للعمل به، حثَّ الشارع عليه بأساليب مختلفة، فجاء الحثُّ على التدبُّر في القرآن الكريم نفسه، وفي سنة المصطفى العدنان ﷺ، وفي هدي الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

آيات القرآن الكريم التي تحثُّ على التدبُّر.

تنوَّعت أساليب القرآن التي دعا فيها إلى التدبُّر، ويمكن إجمالها في أسلوبين؛ مباشر، وغير مباشر، وتفصيل ذلك فيما يلي[1]:

الأسلوب الأول: الأمر المباشر بتدبُّر القرآن الكريم.

وقد جاء ذلك في أربع آيات من القرآن الكريم دعا فيها سبحانه عباده إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أنَّ علة إنزال القرآن التدبُّر، وهي علة عظيمة قائدة إلى الفلاح والفوز في الدارين، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، وسأتناول التفصيل فيها، وذكر مسائلها وفوائدها، وبيانها حسب ترتيب نزولها، على النحو التالي:

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

---

[1] ممن ذكر جملة من هذه الأساليب وقسَّمها وأجمل فيها القول الدكتور: فهد الوهبي في بحث له بعنوان: (تأصيل منهجية التدبُّر) من بحوث الملتقى الثاني للتدبر، ص٧-١٣.

هذه الآية مكية، فيها بيان للغاية العظمى التي من أجلها نزل القرآن، والخطاب فيها جاء بالحثِّ والإغراء، والإخبار عن الكتاب بنعوت وصفات بعضُها شاهد على أنه ميسَّر للذكر والتناول، وبعضها أمارة على أنه حقيق بالتأمل والتدبُّر.

وقد جاءت هذه الآية في سياق عجيب، حيث تخللت الحديث عن داود وسليمان عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، ثمَّ جاء الحديث عن خلق السماء والأرض، ثمَّ بيَّنت عدم استواء جزاء المتَّقين والفجار في قوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] استدلالاً على تقرير البعث، فمن الحقائق الثابتة الاستدلال على البعث بأنه لا يمكن المساواة بين المتَّقين والفجَّار، وإلا لاختلَّ نظام العدل، وتعالى الله عن ذلك.

وقد افتتحت هذه الآية بوصف كتاب الله تعالى، وبيان مصدره ومُبَلِّغِهِ إلى العالمين، إذ إنَّ عِظَمَ الأمر من عِظَمِ مُصدره، وعَظَمة الخطاب ناشئة من عَظَمة المتحدِّث به، وهو رب العالمين سبحانه وتعالى، وأهمية الرسالة كامنة في مَنْزِلَةِ حاملها ومبلِّغها، وهو سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ.

والكتابة: ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللّفظ، فالأصل في الْكِتَابَةِ: النّظم بالخطّ، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سمّي كلام الله- وإن لم يُكْتَبْ- كِتَاباً[١].

وجاء لفظ: ﴿كِتَٰبٌ﴾ منكَّراً للتعظيم، لأنَّ الكتاب معلوم، فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه[٢].

---

[١] انظر: المفردات في غريب القرآن (٦٩٩).

[٢] انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥١)، تدبُّر القرآن الحكم والحكمة، د/ أحمد الفريح (٢٠٧)، ضمن أبحاث مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق.

فهو كتاب؛ فيه من الوضوح والجلاء والتمام والغَناء والحجة والبرهان؛ بحيث لا يعسُر إحرازه وتلقِّيه، ويشقُّ على اللبيب كفُّ سماعه وتخطِّيه، فجمع له بين مسوغي التنكير: الوصف والإخبار لئلا يستعجَب ويستراب به.

وقد وصف الله القرآن هنا بأنه كتاب مجموع بين دفتي المصحف، فأخبر عنه بالحال التي هو عليها بين أيدي الناس.

وقد وصفه سبحانه بأنه نزل من عنده بقوله: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ ونسب الفعل إليه بنون العظمة إشارة إلى عظمة القرآن المنزَّل من عند الله العظيم سبحانه وتعالى[1].

وفيها الإشارة إلى أنَّ إنزالَه بلسان رجل من المخاطبين لبث فيهم عمرًا لا يكذبونه؛ عونٌ لهم على الإيمان والاستجابة أول أمرهم بتدبُّره، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨] والمراد: أنزلناه عربيًا بلغتك، إرادة أن يفهمه قومك فيتذكَّروا[2]، ففيه رحمتهم وإقامة الحجَّة عليهم.

وفي قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ إيحاء بأنَّ في إنزاله على سيد الأنبياء والمرسلين بيان لعظمة هذا الكتاب[3]، فالمتحدِّث بمضمون هذا الكتاب رب العالمين، والمنزِّل له جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سيد الملائكة أجمعين، ومبلِّغه محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين، فحريٌ بكتاب مرَّ على هذه السلسلة العظيمة أن يؤخذ به، وأن يُجعل منهاج حياة[4].

وصورة بلوغه إلى الخلق: إنزال إلى نبي مجتبى، ووحي إلى رسول مصطفى؛ ففيها من كمال تدبير مُنزله عَزَّوَجَلَّ، وعظيم حكمته وتقديره؛ ما يغري بتدبُّر الكتاب المنزل وتعزيره.

---

(١) انظر: نظم الدرر (١٦/ ٣٧٤).

(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٢٨٣).

(٣) انظر: نظم الدرر (١٦/ ٣٧٤).

(٤) انظر: تدبُّر القرآن الحكم والحكمة، للفريح (٢٠٨)، ضمن أبحاث مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق.

وفي وصفه بأنه: ﴿مُبَرَكٌ﴾ إشارة إلى اشتماله على نفع المخاطبين، وأنَّ أصل النفع في غيره معدوم، لا سيما وأنَّ نفع الإيمان بالذي أنزله عَزَّوَجَلَّ كامل طاردٌ لكلِّ ضرر؛ كضرر شركهم وغفلتهم، فحثَّهم على تدبُّر الكتاب رفقًا بهم، وسَوقًا لهم إلى ما فيه محض منفعتهم.

"ووصفه بالبركة لأنَّ أجمعها فيه، لأنه يورث الجنة وينقذ من النار، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة"[1].

فمن لم يستجبْ لأمر القرآن ويطوِّع نفسه لتعاليمه، ولم ينفعه القرآن فينقذه من النار ويدخله الجنة؛ لم ينتفع ببركة القرآن، فقارئ القرآن لن ينال من بركة القرآن إلا بقدر ما يستجيب لأمر القرآن، ويسير على هديه، ويطبِّقه على واقع حياته، فبَرَكَة القرآن لا حدود لها، ويغترف منها كلُّ قارئ بحسب تطبيقه لتعاليمه[2].

وفي قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾بيان الحكمة من إنزاله؛ أي: أنزلناه ليتفكَّروا في آياتِه التي من جُملتها هذه الآيات المعرِبة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة، ويقفوا على ما فيه ويعملوا به، وفي الآية دليل على أنَّ الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبُّر والتفكُّر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبُّر[3].

والتدبُّر يكون بالنَّظر في عواقب الآيات، وما تشير إليه من دلالات وعبر، وما توصل إليه من المعاني الباطنة الخفية، والنكت اللطيفة التي لا تحصل إلا بطول النظر والتأمل في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٠٢).

(٢) انظر: تدبُّر القرآن الحكم والحكمة، للفريح (٢١٠)، ضمن أبحاث مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق. وسيأتي التفصيل عن بركة القرآن في المبحث السادس من الفصل الثاني في الباب الأول.

(٣) انظر: مدارك التنزيل (٤/ ٣٨)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤/ ٣٧)، إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٥)، البحر المديد (٥/ ٢٣)، روح المعاني (١٢/ ١٨١)، فتح القدير (٤/ ٤٩٤).

ثمَّ بيَّن سبحانه نتيجة التدبر بقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فبعد أن بيَّن سبحانه الحكمة البالغة من إنزال كتابه، وهي التدبُّر، والاعتبار بما فيه من الآيات، لتورثهم ذكرى وخوفاً وخشية، ولذلك أعقب التدبُّر حصول أثره، فليس بعد التدبُّر إلا حصول الذكرى لأولي الألباب، ولذلك قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ "أي: وليتَّعظ بالقرآن أولوا العقول"[1].

فالألباب جمع لبّ، واللُّبُّ: هو العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء[2].

وأولو الألباب: هم أصحاب العُقُول السليمة، والتعبير به يحوي معنى العقل وزيادة، فاللبُّ يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به، والعقل يفيد أنه يحصر معلومات الموصوف به، فهو مفارق له من هذا الوجه[3].

وقد دلَّت الآية على أنه بحسب لبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكُّر والانتفاع بهذا الكتاب، والاستجابة لأمر الله سبحانه، وأنَّ التذكُّر من شأن المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، فهم ممن تدبَّروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا، والكافرون أعرضوا عن التدبُّر فلا جرم؛ فاتهم التذكُّر[4].

*** ومن الفوائد التي تستفاد من هذه الآية ما يلي:**

الأولى: من تأمَّل هذه الآية وجد تعليل إنزال القرآن بأمرين: أولهما تدبُّره، وثانيهما: ما يحصل لأولي العقول من تذكُّر به، وهو إنما ينشأ عن التدبُّر، فعاد الأمر إلى التدبُّر.

---

[1] انظر: مدارك التنزيل (٣/ ١٥٤).

[2] مفردات ألفاظ القرآن (٧٣٣).

[3] انظر: الفروق اللغوية للعسكري (٨٤).

[4] انظر: تيسير الكريم المنان (٧١٢)، التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٣).

الثانية: سمَّى الله تعالى القرآن الكريم كتابًا لما جمع فيه من الأخبار والقصص، والأحكام والمواعظ والأمثال، والأوامر والنواهي والزواجر، والإنذار والإعذار، والتحذير والبشارة إلى غير ذلك[١].

وأطلق الكتاب في هذا السياق على القرآن للإشارة إلى أنَّ المؤمنين — الموجَّه لهم الخطاب في تلك الآية — هم المعنيُّون وحدهم بكتابته، ليظلَّ محفوظًا أبد الدهر.

فلفظة الكتاب تَبِيْن عن جمعه في صدورهم، وضمِّه لآياته في رقاعهم[٢].

الثالثة: عبَّر في هذه الآية بالإنزال، وفي آيات أخر بالتنزيل؛ لأنَّ الإنزال يكون للنازل دفعة واحدة، والتنزيل يكون للنازل بالتدريج[٣]، والإنزال أعمُّ من التنزيل[٤].

وقد عبَّر به هنا مع أنَّ القرآن لم ينزل جملة واحدة، لبيان أنه وحدة واحدة، فأي جزء تدبَّره المتدبِّر دلَّ على ما يدلُّ عليه باقيه، وكذلك لبيان سهولة نزوله، وعظم الحاجة إليه كالحاجة إلى الماء والحديد وغيرهما مما قارنه النزول في القرآن.

الرابعة: وصف الله الكتاب العزيز بأنه ﴿مُبَرَكٌ﴾ وفي هذا الوصف تعظيم وتشريف له، والمقصود بكون الذِّكر الحكيم مباركاً: أي أنه موضع للخيرات الإلهية الدينية والدنيوية المستقرَّة فيه.

والتنكير في هذا اللفظ للتكثير والتعظيم، أي: بركاته كثيرة عميمة جداً، ونفعه جليل عظيم جداً، وكل آيات القرآن مبارك فيها لأنها: إما مرشدة إلى خير، وإما صارفة عن شر

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ (٣/ ٣٧١).

(٢) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٥٥).

(٣) فالتنزيل لما فيه من تضعيف العين يفيد التكثير المتلائم مع التدريج، فزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى. وانظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٥٧).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (٨٠٠).

وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل، ولا بركة أعظم من ذلك[١].

الخامسة: في الآية قراءتان:

الأولى: قرأ الجمهور: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بإدغام التاء في الدال[٢]، وفيه بيان علة إنزال هذا الكتاب هي تلاوته وتدبُّره[٣]، وتوجيه الأمر إلى عموم الناس لا يفيد بأنَّ الأمر منصرف عنه ﷺ؛ بل إنَّ الأمر بالتدبُّر موجه إليه ﷺ ابتداءً إذ هو المبلِّغ لكلام الله، ولقد كان ﷺ في غاية التدبر والإنعام للنظر، والتدبُّر بأجلى الفكر لكتاب الله تعالى[٤].

وفي قراءة التشديد وإدغام التاء في الدال إشارة إلى أنه لابد من تدبُّر وتأمُّل كل ما يقرع السمع من آيات وكلمات، وتأمَّل ما ترمي إليه من معاني لا تظهر بادئ الأمر، ولا تنجلي معانيها إلا بشيء من الجهد والتأمل الذي يوحي إليه التشديد على الدال في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾.

الثانية: ﴿لِتَدبَّرُوْا﴾ وهي قراءة أبي جعفر[٥] وشيبة؛ بالتاء الفوقية على الخطاب للنبي ﷺ وأتباعه وأصحابه بحذف إحدى التاءين[٦]، ورويت هذه القراءة عن عاصم[٧]، وهي قراءة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]، والأصل: لتتدبروا بتاءين، فحذف إحداهما تخفيفاً[٩].

---

[١] انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥١)، وانظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٦١).

[٢] انظر: السبعة في القراءات (٥٥٣)، النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٦١).

[٣] انظر: جامع البيان (٢١/ ١٩٠)، البحر المحيط (٩/ ١٥٣)، نظم الدرر (١٦/ ٣٧٤).

[٤] انظر: نظم الدرر (١٦/ ٣٧٥).

[٥] انظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٦١).

[٦] انظر: جامع البيان (٢١/ ١٩٠)، مدارك التنزيل (٣/ ١٥٣)، البحر المحيط (٩/ ١٥٣).

[٧] انظر: السبعة في القراءات (٥٥٣).

[٨] انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٢)، فتح القدير (٤/ ٤٩٤).

[٩] انظر: معاني القراءات للأزهري (٢/ ٣٢٦)، بحر العلوم (٣/ ١٦٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٢)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٩/ ٣٧٤)، روح المعاني (١٢/ ١٨١).

وفي هذه القراءة توجيه اشتراك الأمة بالتوجيه الرباني بأن تتدبَّر كتاب ربها سبحانه وتعالى، فهي مقصودة بالتدبُّر مخاطبة به.

وكلا القراءتين صواب تجوز القراءة بأحدهما، والقاعدة التفسيرية: أنَّ القراءات يبيِّن بعضها بعضاً[1].

"ولما كان السياق للذِّكر، وأُسند إلى خُلاصة الخلق — محمد ﷺ بقوله: ﴿إِلَيْكَ﴾- وكان استحضار ما كان عند الإنسان وغفل عنه لا يشقُّ لظهوره، أظهر التاء حثًّا على بذل الجهد في إعمال الفكر والمداومة على ذلك؛ فإنه يفضي بعد المقدِّمات الظنية إلى أمور يقينية قطعية إما محسوسة، أولها شاهد في الحس فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾"[2].

السادسة: في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولم يقل: ليدَّبروه، إشارة واضحة إلى أنَّ من شأن المؤمنين أن يتدبَّروه آية آية، وموضوعاً موضوعاً، وسورة سورة حتى يصلوا لمنتهاه، ثمَّ يعيدون الكرَّة مرة بعد مرة طيلة حياتهم، فيجب أن يكون هذا هجيرهم وديدنهم حتى تنكشف لهم أسراره [3].

السابعة: أعقب الله الإخبار بإنزال القرآن الأمر بالتدبُّر مباشرة، ولم يذكر الحلقة التي تصل بين إنزال القرآن والتدبُّر وهي التلاوة أو الاستماع، وفي ذلك إشارة إلى أهمية المبادرة إلى التدبُّر الذي يعقبه التذكُّر والاعتبار، وذلك يؤكِّد أهمية استحضار جانب التدبُّر أثناء القراءة، بل يجب على المسلم أن يهيئ نفسه لتدبُّر القرآن قبل أن يشرع بتلاوته[4]، "وظاهر هذه الآية يعطي أنَّ التدبُّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذا أفضل من الهذّ، إذ التدبُّر لا

---

[1] انظر: قواعد التفسير (١/ ٩٠).

[2] انظر: نظم الدرر (١٦/ ٣٧٦).

[3] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٦٣).

[4] انظر: تدبُّر القرآن الحكم والحكمة، د/ الفريح (٢١٦)، ضمن أبحاث مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق.

يكون إلا مع الترتيل"[١].

الثامنة: من تدبَّر قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وقارنه بما جاء في سورة النساء ومحمد والمؤمنون؛ يجد أنَّ العبارات اختلفت في هذه الآية عن تلك الآيات الثلاث، حيث عبَّر هنا بالتدبُّر مسبوقًا بلام التعليل، وعبَّر عن القرآن بالكتاب، وأخبر عنه بكونه مبارك، ووجَّه الخطاب نصاً للنبي ﷺ، وهذا عكس ما في آية النساء ومحمد والمؤمنون تمامًا، فلم يرد فيها شيء مما ذكرت البتة، فتغايرت العبارات لتغاير السياقات، وتباين المخاطبين، وهذا كلُّه يؤكِّد على أنَّ المخاطب بالتدبُّر في هذه الآية هم المؤمنون[٢]. والله أعلم.

الآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

جاءت هذه الآية المكيّة بتوبيخ الكفَّار على إعراضهم عن الهداية واتباع الحق، وجاء باستفهام إنكاري تعجُّبي، ينكر الله فيه عليهم عدم تدبُّرهم للقرآن الذي يلقى على مسامعهم ليل نهار، فيعلموا أنه المعجز الذي لا يُعارَض فيصدِّقوا به وبمن جاء به[٣].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما كانت الآيات — التي قبلها- فيها من البلاغة المعجزة، والحِكَم المعجبة داعية إلى تقبُّلها بعد تأمُّلها، وكانوا يُعرضون عنها، ويفحشون في وصفها؛ تارة بالسحر والشعر والكهانة وغيرها؛ تسبَّب عن ذلك الإنكار عليهم، فقال معرضاً عنهم إيذاناً بالغضب، مسنداً إلى الجمع الذي هو أولى بإلقاء السمع: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ المتلوَّ

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٠٣).

(٢) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٦٤).

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٥٤)، البحر المحيط (٧/ ٥٧٣)، وانظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٤١).

عليهم، فينظروا في أدباره وعواقبه، ولو لم يبلغوا في نظرهم الغاية بما أشار إليه الإدغام، ليعلموا أنه موجب للإقبال والوصال، والوصف بأحسن المقال[1].

"إنَّ عدم ممارستهم التدبُّر قد قادهم إلى النار، ولو أنهم تدبَّروا القرآن لما سقطوا في تلك المهالك، ولعرفوا صدق رسولهم، وأدركوا صدق رسالته، ولكن عدم تدبُّرهم قادهم إلى الهلاك والبوار"[2].

*** ويمكن إجمال فوائد هذه الآية في مسائل أبرزُها:**

الأولى: ورود حرف (لم) بعد الاستفهام الإنكاري يرجِّح أنها تنفي عنهم التدبُّر في الماضي، وتحضُّهم عليه حالة نزول الآية ومستقبلاً، وقد أشار الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ) لهذا المعنى فقال: (يتضمَّن حضُّهم على تدبُّر هذا القول الذي هو القرآن العظيم; لأنهم إن تدبَّروه تدبُّراً صادقاً، علموا أنه حق، وأنَّ اتباعه واجب، وتصديق من جاء به لازم)[3].

وفيها دلالة أخرى -والله أعلم- إلى أنَّ كفار مكة المخاطبين بتلك الآية سيتدبَّرون القرآن، وسيؤمنون به مستقبلاً، وقد كان[4].

الثانية: التعبير بالقول هنا دون القرآن أو الكتاب؛ للإشارة إلى أنَّ كفار قريش كانوا يسمعونه مقولاً من النبي ﷺ والصحابة، ولأنهم سمَّوه قولاً، فخاطبهم بما يعتقدونه تهيئة لقيام الحجَّة عليهم، وهم لم يكونوا يقرؤونه قراءة، أو يكتبونه كتابة، بخلاف المنافقين فقد ورد في خطابهم القرآن لأنهم كانوا يقرؤونه.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ١٥٠)، البحر المحيط (٧/ ٥٧٣)، وانظر: أفلا يتدبرون القرآن - أ.د/ طه العلواني (٢٦-٢٧).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٣٣٩).

(٤) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٤٣).

وفي التعبير به أيضًا إشارة إلى أنهم كانوا يجعلونه في منزلة بقية الأقوال التي يستمعون إليها من البشر، فلا يلتفتون لمعانيه، ولا يدقّقون لما فيه.

ولعلَّ فيه أيضًا إشارة واضحة إلى أنهم أمة القول بمختلف فنونه وأغراضه: شعراً، ونثراً، ومثلاً وحكمة، فكيف لم يتدبَّروا هذا القول الذي جاء على وفق طرائقهم اللغوية، وسلائقهم البيانية، وهم أمراء الفصاحة، وملوك البلاغة والبيان؟!، كل هذا كامن في التعبير بتلك اللفظة، فهي تحكي حالتهم، وتكشف سريرتهم، وتعكس ما كانوا عليه بدقة متناهية، ووضوح تام[(١)].

الثالثة: قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ)، عند قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾: (فإنهم لو تدبَّروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكنَّ المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودلَّ هذا على أنَّ تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبُّره أنَّ على قلوبهم أقفالها)[(٢)]. والله أعلم.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

هذه الآية مدنية النزول، جاءت في معرِض الاستدلال بالإيمان بالرسالة، وبيان مصدر الوحي وأنه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فوردت في سياق الحديث عن المنافقين، بعبارة ليس فيها تحكُّم أو إلزام بما يدفعه المناظر المنصف المحتكِم إلى البرهان؛ بل فيها غاية إنصاف الإنسان، وتقدير عقله ومداركه.

---

(١) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٤٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥٥٥) .

وفيها"يعرض عليهم القرآن خطَّة؛ هي غاية ما يبلغه المنهج الرباني من تكريم الإنسان والعقل الإنساني واحترام هذا الكائن البشري وإدركه الذي وهبه له الخالق المنان؛ يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن إلى إدراكهم هم، وتدبُّر عقولهم..، ويعيِّن لهم منهج النظر الصحيح، كما يعيِّن لهم الظاهرة التي لا تخطئ إذا اتبعها ذلك المنهج، وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة، ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى...، ودلالتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى"[1].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لَمَّا حكى أنواعَ مكر الْمُنَافِقِين وكَيْدِهم؛ لأجل عَدَم اعتِقَادِهم صحَّة دَعْوَى النَّبي ﷺ للرِّسَالَة؛ أمرهم الله تعالى بأن يَنْظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائِل الدَّالَّة على صِحَّة النُّبوَّة؛ فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء:٨٢][2].

*** ويمكن إجمال دلالات هذه الآية على أهمية التدبُّر والحثِّ عليه؛ في مسائل أبرزُها:**

أولاً: أنَّ تدبُّر القرآن حقَّ تدبُّره فيه أمارة قاطعة، وحجَّة ساطعة على صحَّة نبوة النبي ﷺ[3].

ثانياً: الهمزة في قوله: ﴿ أَفَلَا ﴾ للاستفهام الإنكاري، وهذا يؤيِّده السياق القرآني للآية، لأنَّ هذه الآية الكريمة وردت في سياق الإنكار على المنافقين.

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤٥هـ): (وهذا استفهام معناه الإنكار أي: فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه، فإنه في تدبُّره يظهر برهانه، ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمَّله)[4].

---

[1] في ظلال القرآن (٢/ ٧٢١).

[2] انظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٦/ ٥١٩).

[3] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (١٤).

[4] البحر المحيط (٣/ ٧٢٥).

"فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم؛ مع توفُّر أسباب التدبير لديهم"[١].

ثالثاً: الآية وإن كانت في ظاهرها وردت في سياق خطاب المنافقين في المدينة؛ إلا أنَّ دلالتها تتَّسع لتشمل المنافقين في كلِّ زمان ومكان.

ولا يعني نزولُ الآيةِ في سياق غيرِ المؤمنينَ أنَّ المؤمنينَ لا يُطلبُ منهم التَّدبُّر، بل هم مأمورونَ به، وداخلونَ في الخطابِ من باب أولى؛ لأنَّهم أهلُ الانتفاعِ بتدبُّرِ القرآنِ، وإنَّما المرادُ هنا: بيانُ من نزلت بشأنه الآياتُ، دون بيان صِحَّةِ دخولِ المؤمنينَ في الخطابِ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

رابعاً: ذَكَر الله جَلَّجَلَالُهُ في هذه الآية لفظة القرآن، وذَكَر في غيرها لفظة القول والكتاب -كما سبق- لأنَّ المخاطبين بالتدبُّر هنا هم المنافقون، وقد كانوا يقرؤون القرآن في حضرة المسلمين، ويرددون آياته على ألسنتهم دون تدبُّر، فجاءت تلك اللفظة تعكس حالهم، وتحكي صنيعهم الظاهر.

وتعريف القرآن بـ (أل) فيه إشارة إلى فخامته وعظمته فهو القرآن العظيم، المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ[٣].

خامساً: حضُّ المنافقين في الآية على تدبُّر القرآن يحتمل معنيين:

أ) أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبُّر تفاصيله.

ب) أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق.

---

[١] التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

[٢] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (١٩)، وانظر: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل (٧٠-٧١) ورقة د/ مساعد الطيار بعنوان: (مفهوم تدبر القرآن).

[٣] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٢٠).

وسياق هذه الآيات يرجِّح حمل التدبُّر هنا على المعنى الأول، أي لو تأمَّلوا وتدبَّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام، وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أنَّ المعنى الأول أشدُّ ارتباطاً بما حُكيَ عنهم من أحوالهم[1].

سادساً: معنى قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، أي: لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق؛ بعضه فصيح بليغ حسن، وبعضه مردود ركيك فاسد، فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة= ثبت أنه من عند الله، والمعنى: أفلا يتفكَّرون في القرآن فيعرفوا بعدم التناقض فيه، وصدق ما يخبر به عن الغيوب أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فنظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه، على ماو صفه الله تعالى به – لا يتفاوت، وأنَّ ما يكون من عند غير الله لا يخلو من تناقض واختلاف، فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف عُلِم أنه من عند قادر على ما لا يقدر غيره، عالم بما لا يعلمه سواه[2].

سابعاً: جاء التعبير بالفعل (وجد) دون غيره في مكانه تماماً؛ لأنَّ في دلالته إشارة إلى أنَّ هذا القرآن لو كان من عند غير الله لعثروا فيه بيسر وسهولة على تناقض واختلاف؛ لأنَّهم أهل بصيرة نافذة في الكشف عن حقائق الكلام ومراميه، وأنواع التراكيب المختلفة فيه، فلو كان من عند غير الله لاتَّضح عند المتدبِّرين ما فيه من اختلاف[3].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٥/ ١٣٨).

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (٢٠٦)، لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٤٠٢).

(٣) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٢٥).

الآية الرابعة: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

هذه الآية مدنية، جاءت في سياق الحديث عن المنافقين، وهي لوماء عسيرة، وكاشفة شديدة، جمع فيها بين الإنكار ونشر ما سعى المنافقون إلى طيِّه من فساد القصد وخبْث السريرة، فتدبُّر القرآن لا يلين لمن كانت هذه حاله؛ لأنَّ محلَّ قرار الذكرى من نفسه مقفل، كما قال الشاعر(١):

تَرَى عَيْنُهُ مَا فِي الْكِتَابِ وَقَلْبُهُ عَنِ الدِّينِ أَعْمَى وَاثِقٌ بِقُفُولِ(٢)

لذلك ذكر حالهم -من الاستنكاف- الموجبة لقسوة القلب، واستحقاق اللعنة قبل الإنكار عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٣]؛ فهو أعظم وأجلُّ من أن يصيب حظَّ نوره، وثمرة هدايته القبيل والدبير.

فوردت الآية محقِّقة لمعنى الآية المتقدِّمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم؛ ولا يتبعون طريق الإسلام.

فهم بين أمرين: إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه؛ لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف، وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة(٣).

والمقصود: أنَّ الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه، أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب، والاستفهام في الآية: تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه(٤).

---

(١) اللسان (قفل) (١١/ ٥٦٢) بلا نسبة، ونسبه في تاج العروس (٣٠/ ٢٦٧) لأم القرمد.

(٢) **القُفُول**= جمع قُفْل -بضم القاف-، وهو ما يغلق به الباب مما ليس بكثيف ونحوه، والقُفُول المصدر من معانيه: الرجوع من السفر، واليُبُوس. انظر: اللسان (قفل) (١١/ ٥٦٢).

(٣) انظر: تفسير مفاتيح الغيب للرازي (٢٨/ ٥٥).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٣).

والهمزة في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير: أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبَّرون القرآن.

ثمَّ قال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فأنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبُّر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبيَّن أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن[(١)].

ومناسبة الآية لما قبلها: جاءت الآية بعد قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢]، وفيها الحديث عن المعاصي والزجر عنها، فجاءت هذه الآية بعدها؛ كالتهييج لهم على ترك ما هم فيه من الكفر الذي استحقوا بسببه اللعنة، أو كالتبكيت لهم على إصرارهم على الكفر، والله أعلم بمراده[(٢)].

ومن تأمَّل الآية وجد فيها حصر الناس في قسمين: إما متدبِّر للقرآن على طاقته؛ أو أنَّ على قلبه قُفل - والعياذ بالله -.

*** ومن فوائد ودلالات هذه الآية على أهمية التدبُّر ما يلي:**

الأولى: رأي جمهور المفسِّرين أنَّ (أم) منقطعة بمعنى (بل)[(٣)]، وأنَّ حرف (أم) للإضراب الانتقالي، والمعنى: بل على قلوبهم أقفال، وهذا الذي سلكه جمهور المفسِّرين، وهو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢][(٤)].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/ ٢٥٦).

(٢) انظر: لباب التأويل (٤/ ١٤٨).

(٣) وهي المسماة عند النحويين: أم المنقطعة، وبذلك سماها الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٥)، وهي هنا خالصة لمعنى الإضراب لأنَّ المعنى على الإخبار عن قلوبهم بأنها مقفلة.

(٤) خلافاً لما يوهمه أو توهَّمه ابن هشام في «مغني اللبيب»، انظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٣).

=

"وهمزة التقرير للتَّسجيل عليهم بأنَّ قلوبهم مقفلة لا يتوصَّل إليها ذكر"[١].

وتجوز أن أن تكون الهمزة للتوبيخ، فيكون المعنى: انتقال من توبيخهم على عدم التدبُّر إلى توبيخهم بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبُّر والتفكُّر[٢].

الثانية: عبَّر هنا بالقلب ولم يعبِّر بالأفئدة لإظهار غلظة قلوبهم، وكشْف بشاعة نفوسهم من إبطان الكفر وإظهار الإيمان، وفيها أيضًا: إشارة إلى أنَّ هؤلاء يجب أن يتحوَّلوا عمَّا هم فيه من عدم التدُّبر حتى تصل المواعظ سهلة طيِّعة إلى قلوبهم.

ومادة القلب أيضًا: تفيد النَّظر في عواقب الأمور، وهي أشدُّ انسجامًا مع التدبُّر الذي فيه تقليب للأمور، والنظر في عواقبها[٣].

الثالثة: تنكيرُ القلوبِ إمَّا لتهويلِ حالِها، وتفظيع شأنها، بإيهام أمرِها في القساوةِ والجهالةِ، كأنَّه قيلَ: على قلوبٍ منكَرةٍ لا يعرفُ حالُها، ولا يُقادرُ قدرُها في القساوةِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ بها قلوبُ بعضٍ منْهم وهم المنافقونَ[٤]، والحال هو الجمع بين الوصفين جميعاً.

وقد عدَّ ابن هشام في المغني (٦٦) من شواهده قول الأخطل:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ

ووجهه في الآية: أنَّ الهمزة في قوله:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ للإنكار، فهي بمثابة النفي، وشرط أم المتصلة أن لا تقع بعده، فتكون نافية كالهمزة، ويطلب بهما التعيين؛ كما في قول زهير:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَــوْمٌ آلُ حِصْــنٍ أَمْ نِسَــــاءُ

قال ابن هشام في المغني (٦١): (وتسمَّى أيضاً معادلة لمعادلتها للهمزة في إفادة الاستفهام).

[١] انظر: الكشاف (٤/ ٣٢٦)، مدارك التنزيل (٣/ ٣٢٨).

[٢] انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٣/ ١٩٧).

[٣] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٣٥).

[٤] انظر: إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٩)، البحر المديد (٥/ ٣٧٢).

الرابعة: الأقفال: جمع قفل، وهو استعارة مكنية إذ شبَّهت القلوب -التي طبعها التعقُّل- في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية[1] في قول أبي ذؤيب الهذلي[2]:

وإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَها … أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ[3].

وروعة هذه الاستعارة أنها جعلت القلب وكأنه "بمنزلة الباب المرتجِّ الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القُفْل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختمُ والقفْل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن، وتأمَّل تنكير القلب وتعريف الأقفال؛ فإنَّ تنكير القلوب يتضمَّن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: (أم على القلوب أقفالها) لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله: أقفالها بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: (أقفال)، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أنَّ المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها والله أعلم"[4].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٤).

(٢) **أبو ذؤيب الهذلي**= خويلد بن خالد الهذلي، شاعر جاهلي إسلامي، أدرك الجاهلية، وقدم المدينة عند وفاة النبي ﷺ، وأسلم في خلافة الصِّدِّيق، وكان أشعر هُذَيْلٍ، وكانت هُذَيْلٌ أشعر العرب، تُوُفيّ غازيًا بإفريقية في خلافة عثمان، وقد شهِدَ سقيفة بني ساعدة، وصلّى على النبي ﷺ. انظر: معرفة الصحابة لابن منده (٨٥٥)، الاستيعاب (٤/ ١٦٤٩).

(٣) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ … والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، المفضليات (٤٢٢).

(٤) شفاء العليل لابن القيم (٩٥-٩٦).

وعبَّر بـ﴿ عَلَىٰ ﴾ في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ ليبيِّن أنَّ هذه الأقفال قد استولت على تلك القلوب، وقهرتها، وسيطرت عليها، وتمكَّنت منها(١).

وقد دعا القرآن في الآيات الأربعة السابقة إلى التدبُّر دعوة مباشرة وصريحة، وأبان أنَّ علَّة نزول القرآن هي التدبُّر.

والخطاب في هذه الآيات شمل كلَّ أحد، فدلَّت الآيات في مجملها على أهمية التدبُّر وعظيم منزلته، وأنه ممكن للجميع وميسَّر لكلِّ مخاطب، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

وتوجيه التدبُّر للمنافقين والكافرين يدلُّ على أنَّ التدبُّر المطلوب منهم مما يمكنهم فعله، لكنه ليس شاملاً لكلِّ ما يدخل في مفهوم التدبُّر.

والأصلُ أنَّ التدبُّر يدعو إلى الفهم، ويعين عليه، وليس شرطاً له، إذ عامة ألفاظ القرآن واضحة بيِّنة المعنى، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله.

الأسلوب الثاني: الأمر غير المباشر والحثُّ على تدبُّر القرآن الكريم.

وجاء ذلك بطرق متنوعة، منها:

الأول: توجيه خطاب القرآن لأصحاب العقول والألباب والنهى(٢).

---

(١) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٣٤).

(٢) ورد قوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين أيضًا، وورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر:٥]، وورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ في موضعين.

والمقصود به حثُّ أصحاب تلك العقول والألباب إلى استعمالها في تدبُّر القرآن، والاهتداء بها فيه، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:١٢٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣١٠هـ): (إنَّ فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلُّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ يعني: أهل الحجى والعقول... وخصَّ تعالى ذكره بأنَّ ذلك آيات لأولي النُّهَى، لأنهم أهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبُّر والاتِّعاظ)[1].

الثاني: ضرب الأمثال للناس للتذكُّر والاعتبار والتدبُّر.

فقد ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن، وحثَّ على تأمُّلها وتذكُّرها، في آيات عديدة، وفي مجالات متعددة؛ فضرب الله فيه الأمثال للإيمان والكفر، والعلم النافع، وفضحِ النفاق، والحثِّ على الإنفاق والترغيب في الخير، والتنديد بالشرِّ، وتصوير الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ولإقامة الأدلة والبراهين، وبيان خيري الدنيا والآخرة[2].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

---

[1] جامع البيان (١٨/ ٣٢١).

[2] انظر: أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (٧).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (حثَّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله)[1].

- ومما جاء في القرآن الكريم من تلك الأمثال وتوضيح الهدف منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

وقد أبان الله مصير من لم ينتفع بتلك الأمثال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥-٣٩].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (يقول تعالى ذكره: وكلُّ هذه الأمم التي أهلكناها والتي سميناها أو لم نسمها، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ يقول: مثَّلنا له الأمثال،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٤٤).

ونبهناها على حججنا عليها، واعذرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نهلك منهم أمة إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة)[1].

الثالث: ذكر القصص القرآني للاعتبار بها، والتدبُّر فيها.

ففي القرآن الكريم جملة من القصص التي تدعو إلى التفكُّر فيها، والاعتبار بأحوال أصحابها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فصرَّح الله سبحانه بأنَّ في تلك القصص عبرة، وطريق الاعتبار بها هو تدبُّر القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) في ذكره لفوائد قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]: (المراد الكلام الذي هو أحسن القصص، وهو عام في كلِّ ما قصّه الله، لم يخصَّ به سورة يوسف؛ ولهذا قال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]، ولم يقل: بما أوحينا إليك هذه السورة، والآثار المأثورة في ذلك عن السلف تدلُّ كلها على ذلك، وعلى أنهم كانوا يعتقدون أنَّ القرآن أفضل من سائر الكتب، وهو المراد، والمراد من هذا حاصل على كلِّ تقدير، فسواء كان أحسن القصص مصدراً أو مفعولاً أو جامعاً للأمرين؛ فهو يدلُّ على أنَّ القرآن وما في القرآن من القصص؛ أحسن من غيره، فإنا قد ذكرنا أنهما متلازمان، فأيهما كان أحسن كان الآخر أحسن)[2].

وقد أحسن ابن جرير الطبري (٣١٠هـ) عند تفسير آية الأعراف حيث كان عمله مثالاً يحتذى للتدبُّر حين قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤٥٥-٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩).

فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارِ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذَّبوا رسلَنا من نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكَّروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بمن قبلهم من النّقم والمَثُلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوَّتك، إذ كان ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ من خفيِّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم، وفي علمك بذلك وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم= الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء)[1].

ومن تدبَّر القرآن رأى عجباً فيما قصَّه الله تعالى عن الرسل مع أممهم قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٤-٥][2].

وبهذا يبين أثر القصص القرآن في الهداية والإيمان واليقين عند التدبُّر الصحيح والتأمل بقصد الاعتبار والاستبصار.

الرابع: تعليل الآيات وختمها بما يدعو إلى التدبُّر.

فإنَّ كثيراً من الآيات خُتمت بدعوة إلى التدبُّر والتفكُّر، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩].

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٧٤).

(٢) بيان كلمة التوحيد (١/ ٣٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه:١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ في سبعة مواضع.

كما ورد قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ في ثمانية مواضع.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع.

وجاء قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ في ستة مواضع.

وورد قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ في خمسة مواضع.

وورد قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ في ثلاثة مواضع.

وغيرها من الآيات الكثيرة.

فهي دعوة وحثٌّ لتحقيق الغايات التي نزلت من أجلها الآيات؛ ولا يكون ذلك إلا بتدبُّر القرآن والتأمُّل فيه، والعمل بما يتضمَّنه من أوامر وتوجيهات.

وقد أخبر الله تعالى أنَّ الغافلين والكافرين والمتكبِّرين والمكذِّبين؛ مصروفون عن تدبُّر آياته وفهمها والانتفاع بها، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٨هـ): (أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي)(١).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (إنَّ الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عمَّ بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبِّرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادِّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فَهُدوا للاعتبار به، اتَّعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم، لأنه جلّ ثناؤه قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ فلا تبديل لكلمات الله)(٢).

الخامس: الاستفهام الذي يدعو إلى الوقوف مع الآيات والتأمُّل في مقاصدها.

وذلك في جملة من الآيات، منها:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

---

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧) برقم: (٨٩٨٢).

(٢) جامع البيان (١٣/ ١١٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وردت في ثلاثة عشر موضعاً.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في موضعين.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ في ثلاثة مواضع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

وقد ورد غيرها من الآيات في نفس الموضوع بصيغ مختلفة.

وقد تكرَّرت هذه الآيات في مواضع كثيرة من القرآن، مما يؤكِّد أنَّ الغرض هو الحثُّ على الوقوف مع الآيات، والتأمُّل والتفكُّر وإعمال العقل والبصر والسَّمع فيها، والنظر في دلالاتها وهداياتها، والانتفاع بها، والامتثال لها، وهذا هو التدبُّر.

السادس: ذكر أمور تعين على تدبُّر القرآن وتتضمَّنه وتدعو إليه.

وهذه الأمور هي مدخل وسبب للتدبُّر، ومنها:

أ) **الأمر بالترتيل**: في مثل قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

"ولم يقتصر سبحانه على الأمر بالفعل، بل أكَّده بالمصدر، اهتمامًا به، وتعظيمًا له؛ ليكون ذلك عونًا على تدبُّر القرآن وتفهُّمه، وكذلك كان ﷺ يقرأ"[1].

ب) **الأمر بتلاوة القرآن حقَّ التلاوة**، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

---

[1] الشمعة المضية بنشر قراءات السبعة المرضية (١/ ١٣٢).

والمقصود في هذه الآية كما عليه عامة المفسِّرين: أنَّ معنى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حقَّ اتباعه، وهو قول ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، وسفيان الثوري[(١)]، وقال مجاهد: (يعملون به حقَّ عمله)[(٢)].

قال عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ: أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ، وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ الله، وَلَا يُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ)[(٣)].

ولا يكون العمل به إلا بعد العلم والتدبُّر.

قال الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٥٤هـ): (عبَّر عن التدبُّر والفهم بالتلاوة حقَّ التلاوة؛ ليرشدنا إلى أنَّ ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الأهواء والبدع مع أهل العلم والفهم، والتعبير يشعر بأنَّ أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبي ﷺ نفياً مؤكداً لا حظَّ لهم من الكتاب إلا مجرَّد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبَّرون حِكَمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه؛ لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به النبي ﷺ ولا ضرر في إعراضهم.

وأما الآخرون فإنهم لتدبُّرهم وفهمهم أسرار الدين، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلَّفين، يعقلون أنَّما جاء به هو الحق الذي يتَّفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم، وفي نظام معايشهم، فيؤمنون به، وإنما يُنتفع بإيمان أمثالهم)[(٤)].

---

(١) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (١/ ٢٨٨)، والطبري في جامع البيان (٢/ ٥٦٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٦)، وعزاه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢١٨) لابن عباس برقم: (١١٥٧).

(٤) تفسير المنار (١/ ٣٦٨).

السابع: ثناء الله على المستمعين لآياته المتدبِّرين لها، وبيان عاقبة غيرهم.

والسَّماع الذى شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم يَجتمعون عليه؛ لصلاح قلوبِهم وزكاة نفوسهم هو: سماع آيات الله تعالى بتدبُّر وتفكُّر، وهو سماع النبيِّين والمؤمنين، وأهل العلم والمعرفة[1].

قال الله تعالى لَّما ذكَر من ذكَره من الأنبياء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم:٥٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وبهذا السماع أمر الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وعلى أهله أثنى فقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

وقال في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

فالقول الذي أُمروا بتدبُّره هو القَوْل الذى أمروا باستماعه، وكما أثنى على هذا السَّماع

---

[1] انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٥٥٧-٥٥٨).

بتلك الكيفية وهذه الآثار وذاك التدبُّر، فقد ذمَّ المعرضين عنه[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩﴾ [مريم:٥٨].

وقال: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣].

والمستمعون سماع تدبُّر وفهم، هم المنتفعون بالقرآن؛ فتقشعرَّ جلودهم خوفًا من الوعيد، ثمَّ تلين جلودهم عند سماع الوعد، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وأما المعرضون عن التدبُّر؛ فقد آتاهم الله حرية التدبُّر والتفكُّر والاختيار، وعرض عليهم آياته العظيمة، ولكنهم هجروها، فلم يمتثلوا أمره، ولم ينزجروا عن نهيه، فكانت عاقبتهم الخسران والضلال المبين: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[النحل:٣٣].

وقد "ذمَّ الله المحرِّفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرَّد التلاوة وهي الأماني"[2]، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٥٥٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٩).

يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة:٧٨]، أي: لا علم لهم إلا مجرَّد التلاوة دون تفهُّم وتدبُّر[١].

وأقام الله الحجَّة عليهم بالسماع فقال سبحانه: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

وبيَّن كفايته لهم بالقرآن عن طلب الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١].

ثم بيَّن عاقبة ونتيجة هجر التدبُّر والانتفاع، في شكاية النبي ﷺ لربه من قومه الذين هجروا القرآن وتدبُّره، في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

ثم في العاقبة الوخيمة، والنهاية الأليمة، في مثل قول أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

والمشركون كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يسمعونه، وإذا تلي عليهم أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه، وهذا من هجرانه، وترك عِلْمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبُّره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه[٢].

والمقصود مما سبق.. أنَّ القرآن الكريم جاء بأساليب متنوعة في الدعوة إلى التدبُّر، والحثِّ عليه، من نحو ما ذُكر، ومما يجري مجراه، ويدلُّ على معناه ومقتضاه، وهو باب عظيم دالٌّ على وجوب التدبُّر، وعِظم أثر تركه. والله المستعان..



---

(١) انظر: فتح القدير (١/ ١٢٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٨).

الأحاديث النبوية التي تحثُّ على التدبُّر

من تأمَّل السنة النبوية وجد أنَّ النبي المصطفى ﷺ حثَّ على التدبُّر بقوله وفعله، ويمكن تقسيم ما ورد في ذلك إلى قسمين:

أولاً: الحثَّ على التدبُّر والتنفير من هجره، في أقواله ﷺ.

ويتجلَّى ذلك فيما يلي:

أ- حثُّ النبي ﷺ على الاجتماع لتلاوة القرآن ودراسته.

- ومن ذلك: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[1].

فالسكينة والرَّحمة والذِّكر؛ مقابل التلاوة المقرونة بالدِّراسة والتدبُّر.

ب- تحديده ﷺ للمدة التي يُختَم فيها القرآن.

- ومن ذلك: لما راجع عبد الله بن عمرو بن العاص النبي ﷺ في قراءة القرآن، لم يأذن له في أقل من ثلاث ليالٍ، وقال: «**لا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاثٍ**»[2].

فدلَّ على أنَّ فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته لا مجرد التلاوة.

---

[1] **صحيح**. أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٩)، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

[2] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (١١/ ٣٨٩) برقم: (٦٧٧٥)، والدارمي في سننه (٢/ ٩٣٦) برقم: (١٥٣٤)، وابن ماجه (١/ ٤٢٨) برقم: (١٣٤٧)، وأبو داود (٢/ ٥٤) برقم: (١٣٩٠)، والترمذي (٥/ ١٩٨) برقم: (٢٩٤٩)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٥٧).

ج- تحذيره ﷺ من طرق المنحرفين مع القرآن.

ومن ذلك:

- وصف الخوارج في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[١].

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (ليس حظُّهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب)[٢].

- وعن عثمان بن أبي دهرش، أنَّ النبي ﷺ صَلَّى صَلَاةً جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «**يَا فُلَانُ، هَلْ أَسْقَطْتُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ شَيْئًا؟**»، قَالَ: لَا أَدْرِي يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: فَسَأَلَ آخَرَ فَقَالَ: لَا أَدْرِي يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: «**هَلْ فِيكُمْ أُبَيٌّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: «**يَا أُبَيُّ، هَلْ أَسْقَطْتُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي شَيْءٍ؟**»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، آيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُتْلَى عَلَيْهِمْ كِتَابُ اللهَّ فَلَا يَدْرُونَ مَا يُتْلَى مِنْهُ مِمَّا تُرِكَ؟ هَكَذَا خَرَجَتْ عَظَمَةُ اللهَّ مِنْ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَشَهِدَتْ أَبْدَانُهُمْ وَغَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ الله مِنْ عَبْدٍ عَمَلًا حَتَّى يَشْهَدَ بِقَلْبِهِ مَعَ بَدَنِهِ**»[٣].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٥٨) باب إثم من راءى بقراءة القرآن، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٠٦٣).

[٢] المنهاج شرح مسلم بن الحجاج (٦/ ١٠٥)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١٢/ ٢٩٣).

[٣] **ضعيف**. أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٩٨)، وذكره ابن الأثير في جامع الأصول (٥/ ٦٤٨) برقم: (٣٩٢٤)، وعزاه للإمام مالك في الموطأ، ولم أقف عليه، قال الحافظ العراقي في تخريج =

ثانيًا: الحثَّ على التدبُّر، في أعماله وتطبيقه ﷺ.

ويظهر ذلك فيما يلي:

أ- قيامه ﷺ بالقرآن في الصلاة، وتدبُّره له.

ومن ذلك:

- حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى أَصْبَحَ؛ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨])[1].

- وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: (قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً)[2].

وفيه بيان تقديم التدبُّر على كثرة التلاوة، لقراءته ﷺ آية واحدة في ليلة كاملة.

أحاديث الإحياء (١٧٨): (ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبيّ بن كعب، وإسناده ضعيف). وضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٠٥٠).

وابن أبي دهرش ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٢٢٠)، وابن حبان في الثقات (٧/ ١٩٦) يروي عن آل الحكم بن أبي العاص عن النبي ﷺ، وهو من رواة المراسيل كما عدَّه ابن العراقي في تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل (٢٢٣).

[1] **صحيح**. أخرجه النسائي في سننه (٢/ ٢٤) برقم: (١٠٨٤)، وابن ماجه (١/ ٤٢٩) برقم: (١٣٥٠)، وأحمد في مسنده (٣٥/ ٢٥٦) برقم: (٢١٣٢٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٢٤) برقم: (٨٣٦٨)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٥٩) وقال: رجاله ثقات، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٦٧) برقم: (٨٧٩) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣٣٤)، والألباني في مشكاة المصابيح (١٢٠٥).

[2] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (١/ ٥٧٠) برقم: (٤٤٨)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٤٤٨).

- وعن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أنه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رسول الله ﷺ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية كلها.. [آل عمران:١٩٠]»[(١)].

- وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ)[(٢)].

- وبنحوه حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ اللَّيْلَةَ التَّمَامَ فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ وَسُورَةَ النِّسَاءِ، ثُمَّ لا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إِلا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغِبَ، وَلا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ إِلا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَعَاذَ)[(٣)].

---

(١) **حسن**. أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٧) برقم: (٦٢٠)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٣/ ١٦٧) برقم: (٥٦٨)، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٧٢) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد في مسنده (٤١/ ٣٦٩) برقم: (٢٤٨٧٥) بسند ضعيف، وفيه ابن لهيعة، والحديث عند ابن المبارك في الزهد برقم: (١١٩٦)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٢٥) من طريق آخر، وحسّنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٣/ ١٥٥)، وجوّد الألباني إسناده في أصل صفة الصلاة (٢/ ٥٠٦).

فهذا تطبيق نبوي عملي للتدبُّر؛ ظهر أثره بالتسبيح والسؤال والتعوُّذ.

- وروى مُطَرِّف بن عبد الله، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ» - يَعْنِي: يَبْكِي -[1].

ب- تلاوته ﷺ القرآن بما يعين على تدبُّره.

ومن ذلك:

- حديث أَنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه سُئِلَ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: (كَانَتْ مَدًّا)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَمُدُّ بِـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وَيَمُدُّ بِـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وَيَمُدُّ بِـ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١][2].

- ولما سئلت أمُّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ تَنْعَتُ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا، وقالت: (كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:١-٤])[3].

والقراءة بهذه الطريقة فيها تحقيق للتأني في القراءة من أجل التدبُّر.

---

[1] **صحيح**. أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦) برقم: (١٠٩)، وأحمد في مسنده (٢٦/ ٢٤٧) برقم: (١٦٣٢٦)، والنسائي في سننه (١/ ٢٩٢) برقم: (٥٤٩)، (١٠٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٣٩) برقم: (٦٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٩) برقم: (١٨٨٩). وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٢١٣)، وفي صحيح الترغيب (٣٣٢٩).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٤٦)، في كتاب فضائل القرآن، باب مدِّ القراءة.

[3] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/ ٢٠٦) برقم: (٢٦٥٨٢)، وأبو داود في سننه (٤/ ٣٧) برقم: (٤٠٠١)، والترمذي (٥/ ١٨٢) برقم: (٢٩٢٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٠١)، وفي صحيح الترمذي (٢٩٢٧).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٤٩هـ) معلّقاً: (وإنما كان يفعل ذلك -والله أعلم- لأمر الله له بالترتيل، وأن يقرأه على مكْث، وألا يحرِّك به لسانه ليعجَل به، فامتثل أمر ربه تعالى؛ فكان يقرؤه على مَهْل ليبيِّن لأمته كيف يقرؤون، وكيف يمكنهم تدبُّر القرآن وفهْمه)[(١)].

ج- تأثره ﷺ عند تلاوة القرآن أو سماعه من غيره.

ومن ذلك:

- عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ [إبراهيم:٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»[(٢)].

- وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: (قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!، قَالَ: «**إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ»، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ)[(٣)].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٠٢) في كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥٨٢) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ ﴾، وبرقم: (٥٠٥٠) في كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، وبرقم: (٥٠٥٥) في باب البكاء عند قراءة القرآن. وأخرجه مسلم في صحيحه =

- ومن ذلك قوله ﷺ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا: سُورَةُ الْوَاقِعَةِ، وَسُورَةُ الْقِيَامَةِ، وَالْمُرْسَلَاتِ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ»(١).

د- مدارسته ﷺ القرآن مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في رمضان.

- قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ)(٢).

فكان يدارسه القرآن، والمدارسة تختلف عن التلاوة والضبط، بأنها تتعلَّق بالحروف والمعاني(٣).

وأيضاً: فكونه ﷺ يكون أجود الناس حين يلقاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمدارسة؛ دليل على تدبُّره القرآن، وعمله المباشر به، فيزيد جوده ﷺ عندما يتأثَّر بالقرآن، بعد مدارسته وتدبُّره.

وجميع النصوص السابقة تبيِّن كيف كان النبي ﷺ يتدبَّر القرآن قولاً وعملاً.

برقم: (٨٠٠) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلبه القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبُّر.

(١) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٨) برقم: (٥٩٩٧)، وسعيد بن منصور في التفسير (٥/ ٣٧٠) برقم: (١١٠٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٢) برقم: (٣٠٢٦٨)، والترمذي في السنن (٥/ ٤٠٢) برقم: (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦) في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وبرقم: (٣٢٢٠) في كتاب بدء الخلْق، باب ذِكْر الملائكة، وبرقم: (٣٥٥٤) في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

(٣) انظر: كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) أ.د/ ناصر العمر (١١٥).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وأخبار الصحابة والتابعين ومن تبعهم من سلف هذه الأمة وأقوالهم وأفعالهم بذلك مستفيضة مشهورة، سيأتي بيان شيء منها فيما يأتي من البحث بإذن الله[١].

ولا عجب أن يقتدي به ﷺ أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وتابعوهم بإحسان في ذلك.

وإن دلَّ ما سبق على أهمية التدبُّر شرعاً، فقد دلَّ العقل أيضًا عليه.

فإنَّ من لوازم استخلاف الله عَزَّوَجَلَّ بني آدم في الأرض -كما في قوله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]-، أن يبيِّن لهم منهجاً واضحاً يؤدُّون به حق الخلافة على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وهذا يتمُّ بما يوحيه إلى أنبيائه من الشرائع عبر الزمان، فلما آلت الخلافة لهذه الأمة الخاتم، وأنزل عليها هذا الكتاب العظيم الذي لا كتاب بعده، كان لابدَّ أن يحوي بين دفَّتيه منهج تحقيق الخلافة، وحتى تعرف الأمة تفاصيل هذا المنهج فلا بد لها من تدبُّر آياته؛ والمراد به، "بالتأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك"[٢]من العمل والاتباع[٣].

"إنَّ الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس-حين تستمع لها وتنصت- أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك، والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة.. مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه! وإنَّ العكوف على هذا القرآن- في وعي وتدبُّر لا مجرد التلاوة والترنُّم! - لينشىء في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق،

---

[١] انظر: المبحث الثاني من الفصل الثاني، في الباب الأول،، بعنوان: (عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم).

[٢] تيسير الكريم الرحمن (١٨٩-١٩٠).

[٣] من مقال للشيخ أ.د/ ناصر العمر بعنوان: تدبُّر القرآن فريضة، على موقع المسلم، على شبكة الانترنت.

ومن الإيجابية والعزم والتصميم؛ ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب،... وإنَّ رؤية حقائق الحياة، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية، لهي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة. تهدي إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى، غير ما توجه إليه سائر التصويرات والتقريرات البشرية"[١].

ومما يوضح أهمية التدبُّر: أن يُعلم أنه لا يمكن الوقوف على كنوز القرآن إلا بسلوك طريق التدبُّر؛ فبقدر ما يمنُّ الله عليه من تدبُّر كتابه يكون وقوفه على كنوزه، وظفره بها، وأي كنوز أحقُّ من أن يُبذَل في نيلها نفيس أوقات العمر من كنوز القرآن، وما الأمر إلا كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فسبحان الله.. ماذا حُرِم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس الهدى من مشكاتها من الكنوز والذخائر!، وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر)[٢].

ومما يعين على إدراك أهمية التدبُّر: أن يستشعر العبد عظيم العلوم والمعارف التي يتحصَّل عليها بالتدبُّر، ويتَّضح هذا جلياً في العلماء الذين أولوا هذا الأمر عنايتهم، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وغيرهما من العلماء الربانيين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (ومن تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، فأحكمت ألفاظه، وفصِّلت معانيه أو بالعكس على الخلاف؛ فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذي ولا يداني، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٥-١٤٢٦).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٩١)، ومدارج السالكين (١/ ٢٨).

الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى؛ ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات، التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشِّعر: إنَّ أعذبه أكذبه.

وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعيِّنة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلِّم المعيَّن على الشيء الخفي أو الدقيق، أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير؛ فإنه إن تأمَّلت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد ولا يملُّ منه العلماء وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويسوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن.

كما قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]،وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[الزخرف:٧١]، وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ [الإسراء:٦٨]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك:١٦-١٧]، وقال في الزجر: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال في الوعظ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ

سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٦]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكلِّ معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: (إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شر ينهى عنه)[١]، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧].

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم؛ بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا، ورغبت في الأخرى، وثبَّتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفَت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم)[٢].

والمقصود من ذلك كله.. بيان أهمية التدبُّر، وحثَّ الشارع عليه، لأنه الغاية التي نزل من أجلها القرآن الكريم، والحمد لله.



---

[١] أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (٧٤)، وأحمد في الزهد (١٣٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣٠).

[٢] تفسير ابن كثير (١/ ١٩٩).




الباب الأول

مفهوم التدبر وحكمه وأهميته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

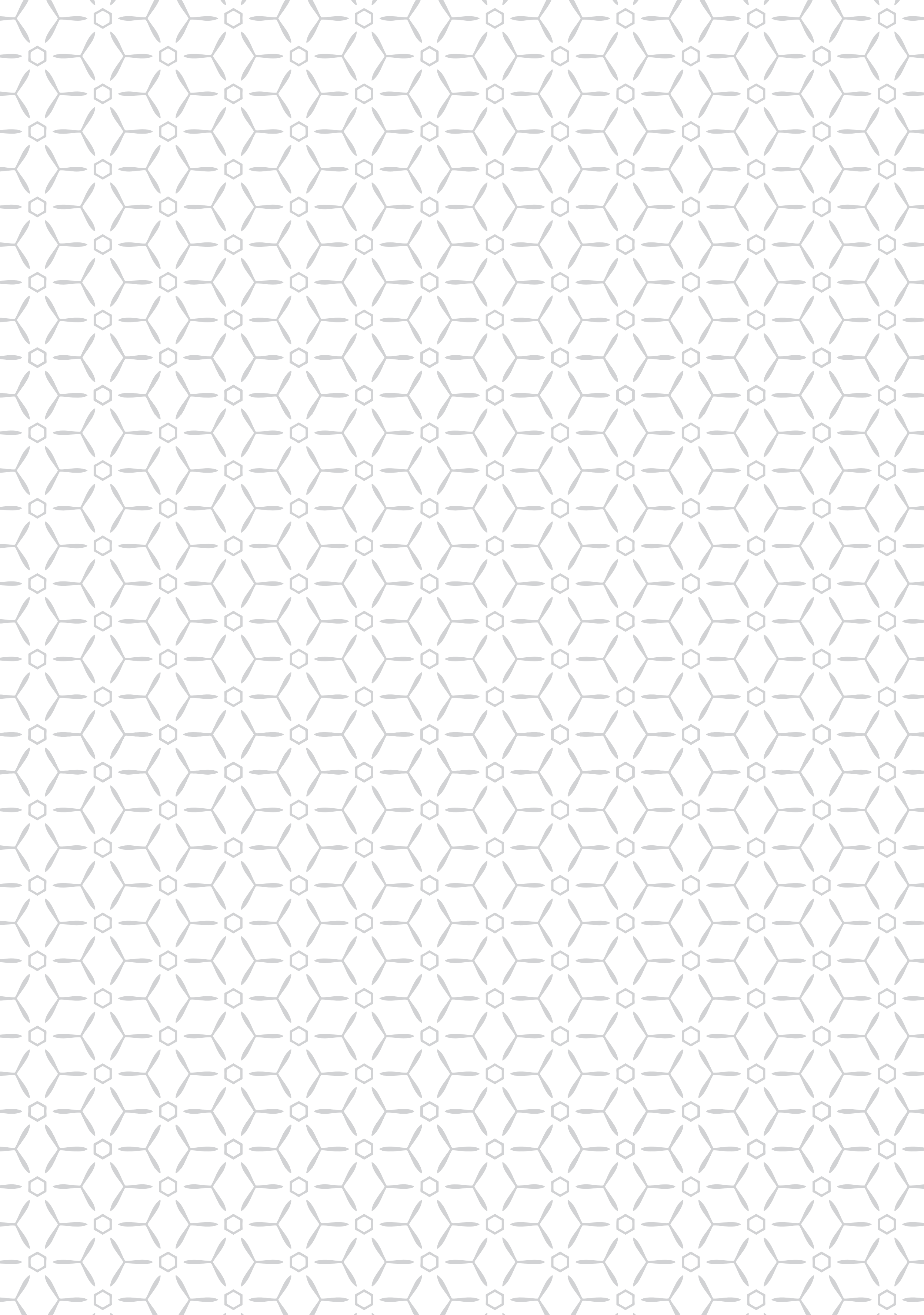
تدبُّر القرآن؛ معناه وأركانه وواجباته وسننه

الفصل الثاني

أهمية تدبُّر القرآن الكريم

الفصل الثالث

حكم تدبُّر القرآن ومراتبه



الفصل الأول

تدبُّر القرآن الكريم

معناه وأركانه وواجباته وسننه

المبحث الأول: مفهوم التدبُّر في اللغة والشرع

إنَّ تحديد المصطلحات من الأمور المهمَّة التي يجب التعرُّض لها في تأصيل العلوم والمعارف، إذ أنَّ فهم المعاني واستيعابها من الوسائل المهمَّة التي تعين على تحقيق الهدف والتطبيق، ولذا سنبدأ البحث بما نحتاجه من تعريف للتدبُّر، في مطلبين:

- المطلب الأول: دلالة كلمة التدبُّر في اللغة:

التدبُّر لغة: أصل التدبُّر من: دَبَرَ -بفتح الدال والباء-، مأخوذ من مادة (د ب ر)، وجُلُّه في قياس واحد، وهو: آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ، خِلَافُ قُبُلِهِ[1]؛ وكنَّي بهما عن العضوين المخصوصين، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه أَدْبَار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال:١٦]، وقال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، أي: قدَّامهم وخلفهم.

وقال: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال:١٥]، وذلك نهي عن الانهزام[2].

وقوله: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]: أواخر الصلوات[3]، لأنَّ مع كلِّ سجدة أدباراً[4].

وقوله: ﴿وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]، أي: تواليها عند الصُّبحِ في آخر اللّيل إذا أَدبَرَتْ مُوَلِّيَةً نحو المغرب[5]، لأنَّ لها دبراً واحداً في وقت السَّحر[6].

---

[1] انظر: العين (٨/ ٣١)، معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣٢٤)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١٨٨)، لسان العرب (٤/ ٢٦٨).

[2] المفردات في غريب القرآن (٣٠٧).

[3] انظر: العين (٨/ ٣٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٦)، لسان العرب (٤/ ٢٦٨).

[4] المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٣١٠).

[5] انظر: العين (٨/ ٣٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، لسان العرب (٤/ ٢٦٨) .

[6] المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٣١٠).

ودُبُرُ الشَّهرِ: آخِرُهُ، عَلَى المَثَلِ؛ يُقَالُ: جِئْتُكَ دُبُرَ الشَّهْرِ وَفِي دُبُرِه وَعَلَى دُبُرِه، وَالجَمْعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ: أَدبار؛ يُقَالُ: جِئْتُكَ أَدْبار الشَّهْرِ وَفِي أَدْباره[1].

ويقال: دَبَرَ السَّهْم الهدف: سقط خلفه، ودَبَرَ فلان القوم: صار خلفهم[2]، قال تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام:٤٥] أي: استؤصل آخرهم.

والدابر يقال للمتأخِّر والتابع، إمّا باعتبار المكان، أو باعتبار الزمان كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [النازعات:٣٣]، أي ولَّى وذهب، أو باعتبار المرتبة[3].

وأَدبَرَ: أعرض وولَّى دبره، قال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر:٢٣]، وقال: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج:١٧]، وقال ﷺ: «**وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[4]، أي: لا يولي بعضكم بعضاً دبره[5]، وذلك أن يترك كلُّ واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه[6].

---

(١) لسان العرب (٤/ ٢٦٨).

(٢) انظر: العين (٨/ ٣٢)، جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٥)، المحكم (٩/ ٣١٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٨).

(٣) انظر: معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٥)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، مختار الصحاح (١٠١)، لسان العرب (٤/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٠٦٥) في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، وبرقم: (٦٠٧٦) في باب الهجرة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٥٥٨) في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٨٢)، والجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠).

(٦) معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٤) -كتاب الدال، باب الدال والباء وما يثلثهما- (مادة: دبر).

والتَّدابُر: المُصارَمة والهِجْران، مأخوذ من أن يُوَلِّيَ الرجل صاحبَه دُبُرَه وقفاه، ويُعرِضَ عنه بوَجهه ويهجره[1].

وقيل: لا يذكر أحدكم صاحبه من خَلْفِه[2].

وتدابر القوم: إذا ولَّى بعضهم عن بعض، وتقاطعوا وتعادَوا، والدِّبَار مصدر دابرته، أي: عاديته من خلفه[3].

والمدبَرة: الإدبار، أنشد ثعلب:

هَذَا يُصادِيكَ إِقْبالًا بِمَدْبَرَةٍ ... وَذَا يُنادِيكَ إِدْباراً بِإِدْبارِ[4]

وَرَجُلٌ أُدَابِرٌ: يَقطَع رَحِمَهُ; وَذَلِكَ أنه يُدبِرُ عَنْهَا ولا يُقبلُ عَليهَا [5].

والاستدبار: طلب دبر الشيء[6].

والتدبيرُ: التفكُّر والنظر في عواقب الأمور، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]، يعني: ملائكة موكَّلة بتدبير أمور[7].

---

[1] انظر: العين (٨/ ٣٤)، تهذيب اللغة (١٤/ ٨٠)، لسان العرب (٤/ ٢٧٢) فصل الدال المهملة، تاج العروس (١١/ ٢٦٥) مادة: دبر.

[2] المفردات في غريب القرآن (٢٠٧).

[3] انظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٩٧)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٤)، المحكم (٩/ ٣١٣)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، لسان العرب (٤/ ٢٧١-٢٧٢).

[4] المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٣١١).

[5] انظر: معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٥)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، لسان العرب (٤/ ٢٧٢) .

[6] المفردات في غريب القرآن (٣٠٧).

[7] انظر: العين (٨/ ٣٣)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧).

والتدبير: عتق العبد عن دُبُر، أو بعد موت صاحبه(١).

والدِّبَار: الهلاك الذي يقطع دابرتهم، ودبر القوم يدبرون دباراً إذا هلكوا(٢).

الدَّبارُ الْهَلَاكُ، بالفتح، مثل الدَّمار.

والدَّبْرَة: نقيضُ الدَّوْلَة، فالدَّوْلَةُ فِي الْخَيْرِ والدَّبْرَةُ فِي الشَّرِّ. يُقَالُ: جَعَلَ الله عَلَيْهِ الدَّبْرَة(٣).

وقيل: سمِّي يوم الأربعاء في الجاهلية دِبَاراً لتشاؤمهم به(٤).

ويقال: أدبر القوم: ولَّى أمرهم إلى آخره(٥).

وقطع الله دابره وغابره، أي: آخره وما بقي منه(٦).

وولّى دُبُرَه: انهزم. وكانت الدُّبُرة له: إذا انهزم قرنه، وكانت الدُّبُرة عليه: إذا انهزم هو، وجعل الله الدابرة عليهم بمعنى الدُّبُرة، وولّوا دبرة: منهزمين(٧).

---

(١) انظر: العين (٨/ ٣٣)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٤)، المحكم (٩/ ٣١٤)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، المغرب في ترتيب المعرب (١٦٠)، مختار الصحاح (١٠١)، لسان العرب (٤/ ٢٧٣)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١٨٨).

(٢) انظر: العين (٨/ ٣٣)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٨٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، مختار الصحاح (١٠١)، لسان العرب (٤/ ٢٧٣).

(٣) لسان العرب (٤/ ٢٧٣).

(٤) انظر: العين (٨/ ٣٣)، جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، وقد ضعَّف هذا المعنى ابن فارس في معجم المقاييس في اللغة (٣٢٥) قال: وفي مثل هذا نظر.

(٥) لسان العرب (٤/ ٢٧٣) فصل الدال المهملة.

(٦) انظر: العين (٨/ ٣٢)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٤)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٧)، مختار الصحاح (١٠١)، لسان العرب (٤/ ٢٦٨).

(٧) أساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، المغرب في ترتيب المعرب (١٦٠)، مختار الصحاح (١٠١).

والدَّبِير من الفتيل: المَدْبُور، أي: المفتول إلى خلف، والقبيل بخلافه. ورجل مُقَابَل مُدَابَر، أي: شريف من جانبيه.

وشاة مُقَابَلَة مُدَابَرَة: مقطوعة الأذن من قُبُلها ودُبُرها[1].

ودابرة الطائر: الإصبع التي في مؤخّر رجله، ودابِرَة الحافر: ما حاذى مؤخَّر الرّسغ.

والدَّبُور: ريح مِن قِبَلِ القِبْلَة دابرة نحو المشرق، سمِّيت دبوراً لأنها تجيء من دبُر الكعبة[2].

والدَّبْرَة من المزرعة، جمعها دَبَار[3]، قال بشر بن أبي خازم[4]:

تحدَّر ماءُ البئر عَن جُرشِيَّة   على جربة تعلو الدِّبارَ غرُوبُها[5].

يقال: فلان ما يدري قِبَالَ الأمر من دِبَارِه؛ أي: أوَّلَه من آخره.

والدَّبْر: النّحل والزّنابير ونحوهما مما سلاحها في أدبارها، الواحدة دَبْرَة.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٥)، المحكم (٩/ ٣١٣)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، لسان العرب (٤/ ٢٧٢).

(٢) انظر: العين (٨/ ٣٢)، جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٥)، المحكم (٩/ ٣١١-٣١٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، لسان العرب (٤/ ٢٦٩).

(٣) انظر: المحكم (٩/ ٣١٤)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧).

(٤) **بشر بن أبي خازم**= عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل، من فحول شعراء الجاهلية، من الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد ابن خزيمة، أجمع عليه أهل الكوفة أنه من أشعر الناس، وقيل للحطيئة: من أشعر الناس؟ قال: ابن أبي خازم بقوله:

رمتني صروف الدهر من حيث لا أرى   فما حال من يرمى وليس بـرام

فـلو أنهـا نبـل إذاً لا تقيـتها   ولكـنني أرمى بغـير سهام

انظر ترجمته: المؤتلف والمختلف للدارقطني (٢/ ٦٥٨)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب (٣٩٢)، ديوان بشر بن أبي خازم، بشرح: مجيد طراد (٢٧).

(٥) ديوان بشر بن أبي خازم (٢٧).

والدَّبْرُ: المال الكثير الذي يبقى بعد صاحبه للأعقاب، ولا يثنّى ولا يجمع[1].

ودَبَرَ البعير دَبَراً، فهو أَدْبَرُ ودَبِرٌ: صار بقرحه دُبْراً، أي: متأخّرا، والدَّبْرَة: الإدبار[2].

والتدبُّر مشتق من الدُّبُر، أي: الظهر، اشتقوا من الدُّبُر فعلاً، فقالوا: تدبَّر إذا نظر في دُبُر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة[3].

يقال: دبَّر الأمر وتدبَّره: إذا نظر في أدباره وما تؤول إليه عاقبته.

ويقال: اسْتَدْبَرَه: أي: رأى في عاقبته مالم يرَ في صدره.

ويقال: عرف الأمر تَدَبُّراً: أي بأَخَرَة[4][5]، ومنه قول جرير:

فَلاَ تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَكُمْ   وَلاَ تَعْرِفُونَ الأَمْرَ إِلاَّ تَدَبُّرَا[6]

وقال أكثم بن صيفي[7] لبنيه: (يا بَنِيَّ لا تَتَدَبَّروا أعجاز أمورٍ قد ولّت صُدُورُها).

---

(١) انظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٦)، المحكم (٩/ ٣١٤)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٨)، لسان العرب (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) انظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٩٦)، المحكم (٩/ ٣١٤)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

(٤) **الأَخَرَة** = آخر كل شيء، ويستعملها النقاد أحيانًا في بيان أحوال الرواة؛ فيقولون (اختلط بأخرة) أي في آخر عمره، وتقول بعته بأخرة وبِنَظِرَةٍ؛ أي بنسيئة.

(٥) انظر: العين (٨/ ٣١)، المحكم (٩/ ٣١٣-٣١٤)، أساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، المغرب في ترتيب المعرب (١٦٠)، مختار الصحاح (١٠١)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١٨٩)، لسان العرب (٤/ ٢٧٣).

(٦) ديوان جرير (١٨٩).

(٧) **أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي**= من ولد كعب بن عمرو، وهو من حكماء العرب، وأحد المعمرين، وهو عم حنظلة بن الربيع بن صيفي الصحابي المشهور، اختلف في إسلامه، وعدَّه أبو نعيم وغيره =

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته.

فهو بمعنى التفكير في دُبُر الأمور، وذلك بأن يُدَبِّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته[1].

ولذا قيل: هو النظر في العواقب بمعرفة الخير، أو: إجراء الأمور على علم العواقب[2].

ويقال: إنَّ فلاناً لو استقبل في أمره ما استدبره لهُديَ لِوِجْهَةِ أمرِه. أي: لو علم في بَدْءِ أمرِه ما عَلِمَه في آخره لاسترشد لأمره[3].

والتدبُّر: مصدر الفعل المزيد المضعَّف: تَدَبَّر. أصله: دبَر. فزيدت الباء للتكثير، ثم زيدت التاء للتكلُّف، فصار تّدَبَّر.

وعليه فإنه أبلغ مصادر الفعل، وهو بمعنى النَّظر في عواقب الأمور كالتدبير.

والفرق بينهما أنَّ التدبُّر أبلغ لأنه يتضمَّن الحدث، وتكثيره الحاصل بزيادة الباء، والتكلُّف الحاصل بالتاء، وهو يعني بذل الجهد بعد التكثير، وبذل الجهد يعمِّق الحدث[4]، ويستعمل التدبُّر بمعنى التفكُّر في الأمر مطلقاً[5].

من الصحابة، روي في إدراكه النبيَّ ﷺ وإسلامه أخبار لا تصح؛ ذكرها الحافظ في الإصابة وبيَّن وهاءها، ورجَّح ابن عبد البر وغيره أنه لم يصحَّ إسلامه في حياة النبي ﷺ، ولعلَّه الأقرب. انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٣٤٢)، الاستيعاب (١/ ١٤٥)، الإصابة (١/ ٣٥٠-٣٥١).

[1] انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٨٠)، مختار الصحاح (١٥٣)، مجمل اللغة لابن فارس (١/ ٣٤٥)، المفردات في غريب القرآن (٣٠٧)، لسان العرب (٤/ ٢٧٣)، تاج العروس (١١/ ٢٦٥).

[2] التعريفات (٥٤).

[3] لسان العرب (٤/ ٢٧٣).

[4] انظر بحث بعنوان: مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته من القرآن، د/ محمد هندي ص٧.

[5] انظر: مختار الصحاح (١٠١).

ومن المفسِّرين من ذهب إلى أنَّ التدبير والتدبُّر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها[١].

ومما سبق نعرف أنَّ أصل التَّدبُّر في الأمر: التأمل والتفكُّر فيه، أصله هو النظر في أدبار الأمور؛ أي: أواخرها ونتائجها، وعواقبها[٢]، ثمَّ استُعْمل في كلِّ تأمُّل[٣]، سواءً كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أم في سوابقه وأسبابه، أم في لواحقه وأعقابه[٤].

* بيان المعنى العام للتدبر.

التدبُّر في الأمر: التفكير فيه، أي: تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة[٥].

وهو بمعنى قول بعضهم: إعمال النَّظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له[٦].

أي: تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل[٧]، وهذا تفسير له بالتفكُّر.

وبعضهم يفرِّق بينهما باعتبار أنَّ التدبُّر: تصرُّف القلب بالنظر في العواقب، وأما التفكُّر: فتصرّفه بالنظر في الدليل[٨].

---

(١) انظر: مفاتح الغيب (١٠/ ١٥١)، اللباب في علوم الكتاب (٦/ ٥١٩).

(٢) انظر: العين (٨/ ٣٣)، معجم المقاييس في اللغة (٢/ ٣٢٤).

(٣) انظر: الكشاف (١/ ٥٤٠)، مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٣٧٨)، البحر المحيط (٣/ ٧٢٣)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٣/ ١٥٩)، روح البيان (٢/ ٢٤٤)، فتح القدير (١/ ٥٦٧)، محاسن التأويل (٣/ ٢٣٣)، تفسير المراغي (٥/ ١٠٢).

(٤) انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٣/ ١٥٩)، محاسن التأويل (٣/ ٢٣٣)، تفسير المراغي (٥/ ١٠٢).

(٥) تاج العروس (١١/ ٢٦٥).

(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٧).

(٧) انظر: مدارك التنزيل للنسفي (١/ ٣٧٨)، الكليات (٢٨٧).

(٨) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (٧٥)، غرائب التفسير للكرماني (١/ ٣٠٠)، التعريفات (٥٤).

وعبَّر عنه بعضهم بأنه: التفكُّر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره[1].

وهو بمعنى قول من فسَّره بالنظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء[2].

وهما تعريفان مقاربان، والله أعلم [3].

والتدبُّر بمعناه العام المتداوَل يرجع استعمالُه في الغالب إلى معناه اللغوي المأخوذ من مادة (د ب ر)، فالتدبير في الأمر: النظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبر التفكُّر فيه، فهو عبارة عن آلية منهجية فعالة تجعل الإنسان المتدبِّر يقوم بعملية نقد ذاتي لباطنه وسلوكياته الظاهرة؛ قصد الارتقاء بفكره وتزكية نفسه من خلال مقارنة حاله مع مقتضى الكلام المُتَدَبَّرِ.

إنَّ عملية التدبُّر عبارة عن سعي المسلم لتربية نفسه بالوحي من خلال إبصاره لمدى التزامه بتطبيق مقتضاه.

أو هو: تأمُّل المسلم في مستوى تلاوته واتباعه للقرآن، ومدى تأسِّيه بالرسول العدنان ﷺ.

وعندما يلتزم المسلم بتطبيق هذا المفهوم يكون حينئذٍ قد خطا خُطوته الأولى في الطريق الذي يحقق له مبدأ ربَّانيته[4].

- المطلب الثاني: مفهوم تدبُّر القرآن الكريم في الشرع.

التدبُّر من الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم على أصل معناها اللغوي، ولم تنتقل إلى اصطلاح شرعي جديد، وهذا حال أغلب كلمات القرآن.

---

[1] لباب التأويل للخازن (٤/ ١٤٧).

[2] انظر: المحرر الوجيز (٢/ ٨٣)، التعريفات (٥٤)، الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ٢٦٨).

[3] انظر: مفهوم التدبر (١٥٦-١٥٨) ورقة د/ خالد السبت بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل .

[4] انظر: مقالاً بعنوان: نظرة في تدبر الوحي - طارق زوكاغ، منشور بمجلة البيان عدد: (٢٧٩) ذوالقعدة ١٤٣١هـ، صـ(١٦-١٧).

لذا لا يصحُّ -والله أعلم- أن نفرد له تعريفاً شرعياً مستقلاً؛ كما في مصطلح الصلاة والزكاة وغيرهما من الكلمات المنقولة عن معناها اللغوي إلى اصطلاح شرعي معروف، بل يبقى التعريف على الاستعمال اللغوي، وبه تُفَسَّرُ الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وهذا هو عمل المفسِّرين ﷺ، فإنهم عرَّفوا التدبُّر بمعناه اللغوي، وذكروا في كل آية ما يناسب السياق.

يوضح هذا أنَّ الحقيقة الشرعية هي: اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً في الشـرع، كالصلاة للعبادة المخصوصة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، وكالإيمان للاعتقاد والقول والعمل[1].

قال الآمدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣١هـ): (وأما الحقيقة الشرعية فهي استعمال الاسم الشـرعي فيما كان موضوعاً له أولاً في الشرع، وسواء كان الاسم الشرعي ومسمَّاه لا يعرفهما أهل اللغة، أو هما معروفان لهم غير أنهم لم يضعوا ذلك الاسم لذلك المعنى، أو عرفوا المعنى ولم يعرفوا الاسم، أو عرفوا الاسم ولم يعرفوا ذلك المعنى، كاسم الصلاة والحج والزكاة ونحوه، وكذلك اسم الإيمان والكفر)[2].

بناءً على ذلك: فإنَّ التدبُّر حقيقةٌ لغويةٌ متَّفقٌ على معناها، ولم ينتقل إلى حقيقة شرعية، وإنما يفسَّر عند الإضافة بما يناسب المضاف إليه.

ثمَّ إنَّ التدبُّر قد أصبح حقيقة عرفية عند المفسِّرين، والمراد بها: تدبُّر القرآن، فإذا أطلق التدبُّر عندهم فالمراد به أخصّ من المدلول العام للتدبُّر[3].

---

(١) انظر: شرح مختصر الروضة (١/ ٤٨٨)، شرح مختصر ابن الحاجب (١/ ٢١٥)، البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ١٣). ومثال الحقيقة الشرعية: تخصيص الهدي المذكور في قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: بالنَّعم، مع كونه أخص من المعنى اللغوي الشامل لكل ما يُهدى للكعبة، وتخصيص الإيمان والكفر بالمعنى المعروف شرعاً.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٢٧-٢٨).

(٣) انظر: مفهوم التدبر (٨٨-٨٩) ورقة د/ فهد الوهبي بعنوان: تحرير معنى التدبُّر عند المفسِّرين.

ومما يكشف عنه المعنى اللغوي؛ أنَّ التدبر هو التفكُّر الاستنتاجي الذي يعقب مقدمات، وهو خلاصة التأمل في معطيات معينة، فعندما يكون التعامل مع نص لا يسمى تأمل المعنى تفكُّراً مطلقاً إنما استخلاص معنى من معطياته، فكلُّ تفكُّر في القرآن هو تدبُّر؛ لأنه مرهون بما يحتويه النص، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن التفكُّر في النص ينبغي أن يكون من داخله، وليس من افتراضات القارئ وأسبقياته، ويؤكد ذلك ما اقترن به أمر التدبر، وهو أنه سيقود المتأمل إلى حقائق تكشف عنها بُنية النصِّ وتفاصيله، وهي كونه من عند الله، وإحكام آياته، ونفي الاختلاف عنه، وربط إدراك عدم الاختلاف في القرآن يشير إلى المستوى الأعمق فيه، حيث إن التعامل السطحي معه، قد يبدي للقارئ التباساً في ترتيبه "حيث يراه في ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب"[(١)]، كما أنَّ التدبُّر بما هو تفكر لا حدود له في معاني النص وحججه ومضامينه، فإنه غاية القرآن، ومفتاح الهداية، لذلك اقترنت الآيات باستنكار إعراض المشركين عن القيام به[(٢)].

❖ معنى تدبر القرآن عند العلماء والمفسِّرين.

عامة المفسِّرين على تعاريف متقاربة للتدبُّر، وتنوَّعت عباراتهم في ذلك تنوع ترادف لا تضاد، ومن ذلك:

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٠هـ): (أصل التدبُّر الدبور، لأنه النظر في عواقب الأمور)[(٣)].

وقال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٨٩هـ): (التدبر: النّظر فِي الْأَمر إِلَى آخِره) [(٤)].

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٨٩).

(٢) انظر: بحث بعنوان: المستويات القرآنية لمنهج التعامل مع النص، د. عبد الرحمن حللي، أستاذ التفسير بجامعة حلب، على موقع: مركز الدراسات القرآنية: https: / /www.arrabita.ma /alquran.

(٣) النكت والعيون (١/ ٥١٠).

(٤) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/ ٤٥٢).

وقال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (التدبر، تصرف القلب بالنظر في العواقب)[١].

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥١٦هـ): (هو النظر في آخر الأمر، ودبر كل شيء آخره)[٢].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨هـ): (معنى تدبُّر القرآن: تأمُّل معانيه، وتبصُّر ما فيه)[٣].

وقال أيضاً: (وتدبُّر الآيات: التفكُّر فيها، والتأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأنَّ من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل مَن له لقحه دَرُور لا يحلبها، ومهرة نَثُور لا يستولدها)[٤].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٢هـ): (هو النَّظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، وهذا أمر بالنظر والاستدلال)[٥].

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠٦هـ): (هو النَّظر في عواقب الأمور وأدبارها)[٦].

وقال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧١٠هـ): (والتدبُّر: التأمل والنظر فى أدبار الأمور وما يؤل إليه في عاقبته ثم استعمل في كلِّ تأمُّل)[٧].

وقال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤١هـ): (ومعنى تدبُّر القرآن: تأمُّل معانيه، وتفكُّرٌ في حكمِه، وتبصُّر ما فيه من الآيات)[٨].

وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤٥هـ): (وهو التفكُّر في الآيات، والتأمُّل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء)[٩].

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٣٠٠).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٢٥٤).

(٣) الكشاف (١/ ٥٤٠)، وانظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ٨٦).

(٤) الكشاف (٤/ ٩٠).

(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٨٣)، وانظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (٢/ ٢٦٨).

(٦) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥١).

(٧) مدارك التنزيل (١/ ٣٧٨).

(٨) لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٤٠٢).

(٩) البحر المحيط (٩/ ١٥٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبُّره وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر)[١].

وقال أيضاً: (وتدبُّر الْكَلَام: أن ينظر فِي أوله وَآخره، ثمَّ يُعِيد نظره مرَّة بعد مرَّة، وَلِهَذَا جَاءَ على بِنَاء التفعُّل كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن)[٢].

وقال ابن عادل رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٨٠هـ): (والتدبُّر عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها، ودبر الشيء آخره) [٣].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩١١هـ): (وتسنُّ القراءة بالتدبُّر والتفهُّم... وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به؛ فيعرف معنى كل آية، ويتأمَّل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب)[٤].

وقال الخطيب الشربيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٧٧هـ): (والتدبُر تصرُّف القلب في طلب معاني الأشياء)[٥].

وقال إسماعيل حقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٢٧هـ): (والتدبُّر إحضار القلب للفهم)[٦].

وقال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧٠هـ): (وأصل التدبُّر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثمَّ استعمل في كل تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه)[٧].

---

[١] مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).

[٢] مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣).

[٣] اللباب في علوم الكتاب (٦/ ٥١٩)، وعرَّفه به أيضاً: شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩هـ) في حاشيته على البيضاوي - عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي (١/ ٧).

[٤] الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٦٩).

[٥] السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ١٤٦).

[٦] روح البيان (٦/ ٩٤).

[٧] روح المعاني (٣/ ٨٩).

وقال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٤هـ): (التدبُّر: هو النَّظر في إدبار الأمور وعواقبها، وتدبُّر الكلام هو النَّظر والتَّفكُّر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له)[١].

وعرَّفه السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ) بأنه: (التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك)[٢].

وقال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (والتدبُّر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له؛ وأصله أنه من النظر في دبر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمِّل بادىء ذي بدء)[٣].

وقال أيضاً: (والتدبُّر: التفكُّر والتأمُّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنَّما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيثُ كُلَّما ازداد المتدبِّر تدبُّراً، انكشف له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر... ومعناه: أن يتعقَّب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يَدْبُر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة)[٤].

وقال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢١هـ): (والتدبُّر هو التأمُّل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك؛ فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرَّد ألفاظ لا تأثير لها)[٥].

وعامة ألفاظ المفسِّرين تدور على إعمال الفكر والنَّظر بالتأمل والتفهُّم في آيات القرآن الكريم للتوصُّل إلى معانيها.

---

[١] تفسير المنار (٥/ ٢٣٣).

[٢] تيسير الكريم الرحمن (١٨٩).

[٣] التحرير والتنوير (١٨/ ٨٧).

[٤] التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٢).

[٥] أصول في التفسير (٢٣).

ومما يظهر أنَّ التدبُّر معنى أخصُّ من المعرفة التفصيلة لمعاني الآيات، فالتدبُّر يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الكلام في الجملة، وهذا يدفع للعمل بما تمَّ تدبُّره لاستحضار العاقبة، وفي هذا تعلُّق واضح بأصل المعنى اللغوي للتدبُّر الدال على النظر في ما يؤول إليه آخر أمره، والذي ينتهي عند من تأمُّله إلى العمل به.

وقال عبدالرحمن حبنكة الميداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٥هـ): (التَّدبُّر عند أهل اللغة هو التفكُّر، لكن مادَّة الكلمة تدور حول أواخر الأُمُور وعواقبها وأدبارها، فالتدبُّر هو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هذا نستطيعُ أن نفهم أن التدبُّر هو: **التفكُّر الشَّامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة**)[1].

وقيل: (هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحِكَمه، والمراد منه)[2].

وقيل في تعريف التدبُّر: "**هو العمل على تحقيق وتحديق النظر في ما يبلغه المعنى القرآني المَدِيدُ من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم**.

وهذا نظر لا يتناهَى، فإنَّ المعنى القرآني له أصل يبدأ منه، ولكن منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائم طلبًا للمزيد من المعنى القرآني.

وكلّ تَعَقُلٍ وتَفَكُّرٍ وتَفَقُّهٍ وتَفَهُّمٍ للبيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم لا يكون من تدبُّر القرآن الكريم في شيْءٍ"[3].

---

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ (١٠).

(٢) انظر: مفهوم التدبر (١٥٩) ورقة د/ خالد السبت بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل.

(٣) انظر: العزف على أنوار الذكر (١٠-١١).

وعرفه الدكتور: عمر المقبل وَفَّقَهُ اللهُ، بأنَّه: **(تأمُّل الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علماً أو عملاً)**[1].

ويقال هو: النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعبر والمقاصد، بما يثمر العلوم النافعة، والأعمال الزاكية.

وقد ورد عن جماعة من السلف تفسير التدبُّر بالعمل والامتثال، ونحو ذلك مما يقع في القلب، ويظهر على الجوارح.

ولا ريب أنَّ هذا أعلى مراتب التدبُّر، وقد يحصل ببعض ذلك كما لا يخفى[2].

❖ التعريف المختار للتدبُّر.

التدبُّر مبنيٌّ على التأمُّل في المعاني، والتفكُّر في المواعظ، والنَّظر في العواقب، والعلم بمرامي الكلام، والتزامه ظاهرًا وباطنًا بالائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه.

ورغم وضوح معنى التدبُّر، وتقارب تعريفاته من حيث العموم، إلا أنه وقع فيه خلاف قوي بين المعاصرين[3]، مع أنه مصطلح قرآني نزل من الله في كتابه الكريم، وهو داخل فيما قال الله عنه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]. وقد يشيع المصطلح ويظهر معناه، حتى إذا أراد الباحثين أن يضعوا له حداً وتعريفاً، وجدوا صعوبة في وضع معنى ضابط، يشرح هذا الواضح الظاهر.

وربما يرجع ذلك: إلى أنَّ ضبط تعريف التدبُّر في الأبحاث العلمية، ما زال في أطواره الأولى، وعادة ما تناقش المصطلحات وتحرر، وتُتلقى بالقبول والرفض، الذي ينتهي غالباً

---

[1] انظر بحث له بعنوان: قواعد وضوابط التدبر– قدِّم كورقة في الندوة التي نظمتها وزارة الشؤون الإسلامية بالتنسيق مع مركز تدبُّر للاستشارات بعنوان: (تدبر القرآن في مدارس وحلقات ودور تحفيظ القرآن الكريم)، مساء الأحد ٥/ ٢/ ١٤٣٢هـ، في مقر مركز تدبُّر بالرياض، وانظر رابط البحث على شبكة الانترنت.

[2] انظر: مفهوم التدبر (١٥٩-١٦٠) ورقة د/ خالد السبت بعنوان: (مفهوم التدبر تحرير وتأصيل).

[3] انظر كتاب: مفهوم التدبر، إذ يظهر فيه الاختلاف الكبير في حدِّ تعريف للتدبُّر بين الباحثين.

بأنَّ الخلاف لفظي نسبي، وليس مطلوباً الاتفاق على تعريف لفظي واحد، إذا اتَّحدت المعاني أو قاربت المقصود.

ولعلَّ الذي يظهر بعد كلِّ ما سبق، مما يصلح أن يكون تعريفاً مختاراً للتدبُّر اصطلاحاً من خلال فهم لمعناه القرآني؛ أنه: **التأمُّل والتفكُّر والنظر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علماً وعملاً**[1].

فأفاد قوله: (التأمُّل والتفكُّر والنظر في الآيات): أنَّ التدبُّر يتطلَّب جهداً وتأمُّلاً ونظراً في الآيات، وإعمالاً للفكر والعقل لفهم المراد.

وقوله: (للاهتداء بما دلَّت عليه)؛ أي بقصد الاهتداء بدلالة الآيات ومعناها، فهذه غاية التدبُّر ومقصوده، وقد وصف الله كتابه فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ولا يتأتى الوصول إلى هدايات القرآن الكريم إلا بالتدبُّر.

قوله: (علماً وعملاً)؛ لأنَّ التدبُّر إذا خلا من هذين الأمرين فهو ناقص، وإنما عطفتُ بالواو؛ لأنَّ التدبُّر الصحيح هو ما قرن فيه العلم بالعمل، والآيات التي يظهر فيها جانب العلم أكثر من العمل بمعناه الخاص، مثل آيات النعيم والعذاب الأخروي، أو بعض الأحكام الفقهية، أو الآيات الكونية؛ كلُّها ينبغي أن تورِث خشية في القلب، وإجلالاً وتعظيماً لله، فيستقيم بالعلمِ بها العملُ كله بعد ذلك. والله أعلم..



(١) وأقرب التعريفات السابقة لهذا المعنى؛ تعريف الدكتور: عمر المقبل، وفقه الله. وحيث أنَّ بعض العلوم لا يمكن أن تحدَّ بحدٍّ جامع مانع، فيكفي فيه ما كان أكثر دقة وتوضيحاً للمقصود، انظر: المحرر في علوم القرآن، أ.د/ مساعد الطيار (٢٣-٢٤).

المبحث الثاني: الفرق بين التدبُّر والتفسير.

يمكن بيان العلاقة بين التدبر والتفسير وذلك بمعرفة مصطلح التفسير أولاً، ثم المقارنة بينه وبين التدبُّر.

*** معنى التفسير في اللغة:**

التفسير: تفعيل من الفَسْر، وهو: البيانُ[1]، أو الإبانةُ وكشفُ المُغَطَّى[2].

فالفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه[3].

يقال: فَسَر الشيءَ يفسِرُه — بالكَسر-، ويفْسُرُه-بِالضَّمِّ- فَسْراً، وفَسَّرَهُ: أَبانه، والتَّفْسير: كَشف الْمُراد عَنِ اللَّفْظِ الْمُشْكل[4].

قال ابن القطَّاع رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥١٥هـ): (والتشديدُ أعمُّ)[5]، وبه جاء القرآنُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]؛ أي: بيانًا وتفصيلاً[6].

---

[1] انظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢٨٣)، لسان العرب (٥/ ٥٥)، القاموس المحيط (٤٥٦)، تاج العروس (١٣/ ٣٢٣).

[2] انظر: الصاحبي في فقه اللغة (١٤٥)، العين (٧/ ٢٤٧)، الصحاح للجوهري (٢/ ٧٨١)، مجمل اللغة لابن فارس (١/ ٧٢١)، مختار الصحاح (٢٣٩)، لسان العرب (٥/ ٥٥).

[3] معجم مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٤).

[4] انظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢٨٣)، معجم الفروق اللغوية (١٣٣)، لسان العرب (٥/ ٥٥)، التوقيف على مهمات التعاريف (١٠٤)، تاج العروس (١٣/ ٣٢٣).

[5] كتاب الأفعال (٢/ ٤٧٨).

[6] انظر: جامع البيان (١٩/ ٢٦٧)، الكشف والبيان للثعلبي (٧/ ١٣٢)، الوجيز للواحدي (٧٧٩)، معالم التنزيل (٦/ ٨٣)، المحرر الوجيز (١/ ٣)، لباب التأويل (٣/ ٣١٤)، البحر المحيط (٨/ ١٠٤).

ويقال: استفسرته كذا، أي سألته أن يُفَسِّره لي[١].

والفَسْر: التفسيرُ وهو: بيانٌ وتفصيلٌ للكتاب [٢].

ومما سبق يلاحظ أنَّ اشتقاق كلمة (فَسَرَ) تدلُّ على البيان والإيضاح والإظهار والكشف؛ فتفسير الكلام: بيانه وإيضاحه وإظهاره والكشف عن المراد منه[٣].

قال الزمخشري: (وكذلك كلُّ ما ترجم عن حال شيء؛ فهو تفسرته)[٤].

*** معنى التفسير في الاصطلاح:**

تنوَّعت عبارات المفسِّرين في تعريف التفسير اصطلاحاً[٥]، ومن أشهرها ما يلي:

١- قال الثعلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٢٧هـ): (هو كشف المنغَلِق من المراد بلفظه، وإطلاق المحتبس عن فهمه)[٦].

---

[١] انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٧٨١)، لسان العرب (٥/ ٥٥)، تاج العروس (١٣/ ٣٢٤).

[٢] العين للخليل (٧/ ٢٤٧).

[٣] انظر: تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه، لـ د/ علي العبيد (١٦).

[٤] أساس البلاغة (٢/ ٢٢).

[٥] قال الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه: التفسير والمفسرون (١/ ١٢): (يرى بعض العلماء: أنَّ التفسير ليس من العلوم التى يُتكلَّف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويُكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيِّن لألفاظ القرآن ومفهوماتها. ويرى بعض آخر منهم: أنَّ التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو المَلَكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلَّف له التعريف، فيذكر فى ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات... وغير ذلك. وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلَّفوا الحدَّ للتفسير، وجدناهم قد عرَّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه).

[٦] الكشف والبيان (١/ ٨٧).

٢- وقال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٨٩هـ): (التَّفْسِير: هو ذكر المعنى الواضح، كما تقول في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي: لا شكّ فيه)[(١)].

٣- وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨هـ): (التفسير: هو التكشيف عما يدلُّ عليه الكلام)[(٢)].

وتبعه على هذا التعريف جماعة من المفسِّرين[(٣)].

٤- وقال ابن جزيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤١هـ): (معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه أو إشارته أو فحواه)[(٤)].

٥- وقال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤١هـ): (وهو بيان المعاني المعقولة فكل ما يعرف به الشيء ومعناه فهو تفسير، وقد يقال فيما يختصُّ بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير)[(٥)].

٦- وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤٥هـ): (هو: علم يَبْحَثُ عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك)[(٦)].

٧- وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (علمٌ يعرف به فَهْمُ كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ،

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٢٩٥).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٧٩).

(٣) منهم: الرازي في مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥٧)، والنسفي في مدارك التنزيل (٢/ ٢٣٦)، وأبو حيان في البحر المحيط (٨/ ١٠٤)، والخطيب الشربيني في السراج المنير (٢/ ٦٦٠).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥).

(٥) لباب التأويل (١/ ١٢).

(٦) البحر المحيط (١/ ٢٦).

وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ)[١].

٨- وعرَّفه في موضع آخر بقوله: (هو عِلْمُ نُزولِ الآيةِ وسورتِها وأقاصيصِها والإشاراتِ النَّازلةِ فيها، ثُمَّ ترتيبُ مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمِها ومتشابِهها، وناسخِها ومنسوخِها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقِها ومقيدِها، ومجملِها ومفسرِها. وزادَ فيه قومٌ فقالوا: علمُ حلالِها وحرامِها، ووعدِها ووعيدها، وأمرِها ونهيِها، وعِبَرِها وأمثالِها)[٢].

٩- وقال أيضاً: (واعلم أنَّ التفسير في عرف العلماء: كشف معاني القرآن وبيان المراد)[٣].

١٠- وقال ابن عرفة المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٠٣هـ): (هو العلم بمدلول القرآن، وخاصية كيفية دلالته، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ)[٤].

١١- وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٣١هـ): (توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه، بلفظٍ يدلُّ عليه دلالة ظاهرة)[٥].

١٢- وقال الزُّرْقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٦٧هـ): (علم يُبْحَثُ فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية)[٦].

---

[١] البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣).

[٢] البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٨).

[٣] البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٩)، وبهذا التعريف عرَّفه الكافيجي (٨٧٩هـ) في كتابه التيسير في قواعد التفسير (٢١)، وابن القاسم (١٣٩٢هـ) في مقدمة التفسير وحاشيته (١١٤).

[٤] تفسير ابن عرفة (١/ ٥٩).

[٥] التوقيف على مهمات التعاريف (١٠٤).

[٦] مناهل العرفان (٢/ ٣).

١٣- وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (اسم للعِلْم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسُّع)[١].

١٤- وقال شيخنا محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢١هـ): (بيان معاني القرآن الكريم)[٢].

ومن خلال ما سبق نجد أن أقوال العلماء في تعريف التفسير متقاربة، وتتنوع ألفاظها وإلا فالمعنى واحد يمكن التعبير عنه بأنه: **كشف معاني القرآن وبيانها بما يحصل به فهم القرآن الكريم.**

وبعد معرفة معنى التفسير ؛ يمكن بيان **العلاقة بين التدبُّر والتفسير** فيما يلي:

١- أنَّ التدبُّر لا يكون إلا بعد معرفة التفسير الصحيح للآية وفهم المعاني، وسبق تعريف الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨ هـ) للتدبُّر بأنه: (تأمُّل معانيه، وتبصُّر ما فيه)[٣].

فالمعاني إذاً معلومة للمتدبِّر، لذا فإنه ينتقل إلى التأمُّل والتبصُّر لأجل الوصول إلى التدبُّر.

٢- أنَّ التفسير في عمل المفسِّرين يشمل التدبُّر، فكتب التفسير مشتملة على الكثير من تدبُّر القرآن، والحثِّ عليه، وذكر ثمرات لتدبر آياته.

٣- أنَّ التدبُّر من أكبر مقاصد التفسير، وذلك لأنَّ كثيرًا من آيات القرآن الكريم هي آيات عظة وعبرة، وبيان تلك العبر والعظات هي من التفسير قطعًا، لكونها بيان المراد من هذه الآيات.

٤- أنَّ المقصود الأصلي للتفسير هو بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو الاتعاظ والاعتبار بعد فهم معاني الآيات[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١).

(٢) أصول في التفسير (٢٣).

(٣) الكشاف (١/ ٥٤٠).

(٤) انظر: مفهوم التدبر (١١١-١١٥) ورقة د/ فهد الوهبي بعنوان: تحرير معنى التدبُّر عند المفسِّرين.

٥- أنَّ التدبُّر دافع لموهم التعارض بين الآيات القرآنية التي قد تكون في التفسير: بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨ هـ): (فإن قلت: أليس نحو قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧]، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل:١٠]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢]، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، من الاختلاف؟ قلت: ليس باختلاف عند المتدبِّرين)[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤ هـ) عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]: (أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله؛ كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردُّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردُّوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين، وذمَّ الزائغين)[٢].

وقال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧٠ هـ): (وما يظنُّ من الاختلاف كما في كثير من الآيات، ومنه ما سبق آنفًا[٣] ليس من الاختلاف عند المتدبِّرين)[٤].

---

[١] الكشاف (١/ ٥٤٠).

[٢] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٤٠).

[٣] جاء هذا بعد كلامه على آية التدبر في سورة النساء وما قيل في معناها.

[٤] روح المعاني (٣/ ٨٩).

- وبعد بيان العلاقة بين التفسير والتدبُّر يمكن **التفريق بين التدبُّر والتفسير** من عدة وجوه على النحو التالي[1]:

أولاً: أنَّ التدبُّر أمر به عامة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، فهو واجب الأمة على كل حال، ولذلك خوطب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر.

وأما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة البشرية، ولذا فإنَّ الناس فيه درجات كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله)[2]ولذا جاء الأمر بالتدبُّر في كتاب الله دون التفسير.

ثانياً: أنَّ التدبُّر لا يحتاج إلى شروط غير فهم المعنى العام، مع حسن القصد وصدق الطلب، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر ١٧]، أما التفسير فله شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على الله، وقد تورَّع عنه بعض السلف، ولذا يمكن أن يقال: لا يُعذر المسلم في التدبُّر، ويعذر في التفسير.

ثالثاً: أنَّ التدبُّر هو الغاية من نزول القرآن لأنه باعث على الامتثال والعمل، وأما التفسير فهو وسيلة للتدبر، ولذا يقال إنَّ التدبُّر أصل والتفسير فرع منه.

فالتفسير مرحلة سابقة على التدبُّر كخطوة أوَّلية لحصوله ؛ ولكن لا يُحصر التدبُّر على مجرد العلم أو الشعور المبني على التفسير لأن التدبُّر أشمل، فلو وقف الإنسان مع آيات

---

(١) استفدت في بيان الفروق من عدة بحوث من كتاب: مفهوم التدبر- تحرير وتأصيل، وكتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) أ.د/ ناصر العمر، وغيرها.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١/ ٧٥).

القرآن وقوفا مجردًا ولو لم يفهمها ويعرف تفسيرها لعدَّ هذا تدبرًا، ولأثَّر فيه بالخير وعاد عليه بالنفع، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم التي ذكرها العلماء، ومن ذلك أنَّ بعض الذين لا يتكلَّمون العربية إذا سمعوا القرآن تأثَّروا به واستشعروا اختلافه عن كلامه البشري الذي يسمعونه ليل نهار.

رابعاً: التدبُّر هو محاولة فهم القرآن والتفاعل معه والتأمل في مشاهده والتفكُّر فيه، وهو أمر يقدر عليه كلُّ أحد.

أما التفسير فهو علم له قواعده وأصوله، وغرضه توضيح لمعاني القرآن واستنباط لأحكام وتشريعاته؛ ولذا يحتاج لمتخصص.

خامساً: لابد للتدبُّر من تفسير بسيط وفهم يسير لمعاني الآيات، ولابد للتفسير من تدبُّر كثير، فالتدبُّر أصل التفسير، والتفسير فرع من التدبُّر.

سادساً: أن التدبر واجب على كل حال، وأما التفسير فليس بواجب على كل حال بل هو واجب بحسب الحاجة إليه، ولذا جاء الأمر بالتدبر في كتاب الله دون التفسير.

سابعاً: التفسير هو كشف معنى اللفظ أو الجملة عموماً، وأما التدبُّر ففيه معنى الوقوف مع آيات القرآن ملياً وسماعها بتأنٍّ وتؤدة، ومحاولة استخراج فوائدها ومعانيها الإيمانية ودلائلها السلوكية ؛ فكأنَّ التدبُّر هو معالجة لآيات الذكر الحكيم، وهذا واضح من لفظ التدبُّر ذاته من وجهين:

الأول: أنه مأخوذ من الدبر وهو آخر الأشياء فهو من هذا الوجه بحث عن المراد من الآيات القرآنية واستقصاء معانيها وغاياتها وتطلب آخر ما تنادي به وتدعو إليه.

الثاني: أنَّ لفظ التدبُّر نفسه على وزن التفعل، وفيه ما فيه من الدلالة على المعاناة والبحث والتنقيب والوقوف مع الآيات للوصول إلى هداياتها ونيل بركاتها. ولذلك فإن المتأمِّل

لكتاب الله يجد أن الله لما أمر بالاستماع إلى القرآن أمر بالإنصات فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وقال مخبراً عن الجن أنهم لما سمعوا القرآن: ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ فحصل لهم بالإنصات الهداية والرشاد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩- ٣٠].

ومن جملة ماسبق يظهر أنَّ "التدبر أوسع من التفسير، فالتدبُّر يحصل من كل مسلم حتى ولو لم يمتلك آلة تؤهِّله لأن يفسِّر القرآن ويُبحر في غوامضه، بل كل مسلم مأمور أن يتدبَّر القرآن، وليس كل مسلم مأمور أن يفسِّر القرآن ؛ إذ إن للتفسير شروطاً، وللمفسِّر مؤهلات لابد من توفُّرها فيه، وإذا وقع المسلم على معنى في كتاب الله ولم يكن من أهل التفسير فلا يقل هذا الرأي الذي وقع عليه، لأن القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي، ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يشيعه حتى يستوثق من صحته عند أهل العلم" [١].



[١] انظر كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٢٧) .

المبحث الثالث: الفروق الدلالية بين التدبُّر وبين مرادفاته.

للتدبُّر مترادفات بينها اتفاق واختلاف، وربما تداخلت بعضها في المعنى، أو كانت وسيلة له.

وهذه المعاني وإن كانت متقاربة في المعنى إلا أنها ليست بمعنى واحد، وترادفها هو ترادف جزئي فقط.

وبما أنَّ التدبُّر لم يُذكَر في القرآن إلا مع القرآن، فهذا يدلُّ على خصوصيةٍ لهذه الكلمة ليست لغيرها مما تشابه في معناها، ولهذا كان لابدَّ من بيان الفروق الدلاليَّة بين التدبُّر وبين هذه المرادفات؛ لإدراك سرِّ اختصاص كلٍّ منها بما اختصَّ به.

ومن هذه المترادفات التي بمعنى التدبُّر أو من المعاني الموصلة إليه: التأمل، والتفكُّر، والنظر، والتذكر، والاعتبار، والاستبصار، والتعقُّل، والتأويل، والاستنباط.

فنجد أنَّ من أهل اللغة من عرَّف التفكُّر: بالتأمل[١]، ومن عرَّف التبصُّر بالتأمُّل والتعرُّف[٢]، ومنهم من عرَّف النَّظر بأنه: التأمل والفحص[٣].

وسأتناول الحديث عن كل معنى من هذه المعاني مفرِّقاً بينه وبين التدبُّر، من خلال المطالب التالية:

---

[١] انظر: الصحاح (٢/ ٧٨٣) (فكر)، لسان العرب (٥/ ٦٥).

[٢] انظر: الصحاح (٢/ ٥٩١) مادة (بصر)، لسان العرب (٤/ ٦٥)، تاج العروس (١٠/ ٢٠٧)، القاموس المحيط (٣٥١).

[٣] انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (٣٢٦)، تاج العروس (٦/ ٥٤٢).

- المطلب الأول: التدبُّر والتأمل.

التأمُّل[١] في اللغة: التَّثَبُّتُ في النَّظر[٢]، ومنه قول تميم بن مقبل[٣]:

تأمَّل خَلِيلي! هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ   تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ فَوْقِ إِطَانِ[٤]

وقول المِرَارُ[٥]:

تَأَمَّلْ مَا تَقُولُ وَكُنْتَ قِدْمًا   قُطَامِيًّا تَأَمُّلُهُ قَلِيلُ[٦]

---

(١) لم يرد لفظ التأمُّل في القرآن الكريم صراحةً، وإنما أشارت إليه العديد من الآيات التي تأمر بالنَّظر في خلق الله، والتَّثبت في رؤية عجائب الكون وآثار السابقين، ونعت الله على المشركين عدم تأمّلهم في الآيات الكونية والشرعية، مما جعلهم في غيِّهم يعمهون، واقترنت آيات كثيرة بالأفعال: (يروا)، (ينظروا) بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار، وإدامة الرؤية أو النظر. انظر: موسوعة نضرة النعيم (٣/ ٨٤٦)، المعين على تدبر الكتاب المبين (٦).

(٢) انظر: العين، مادة: أمل (٨/ ٣٤٧)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٤٠).

(٣) **تميم بن مقبل**= هو تميم بن أبيّ بن مقبل بن عوف بن حنيف العجلان، شاعر جاهلي إسلامي، من شعراء قيس، من المعمرين، بلغ مائة وعشرين سنة، عاش في الجاهلية دهراً ثمَّ أدرك الإسلام فأسلم، وعاش زمناً طويلاً في الإسلام حتى أدرك زمن معاوية. انظر: مقدمة ديوان ابن مقبل (٣-٦).

(٤) من استشهد بالبيت في التأمل جاء بقول زهير بن أبي سلمى:

تأمَّل خَلِيلي! هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ   تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ من فَوْقِ جرثم

والصواب في ذلك البيت أنَّ مطلعه: تبصَّر خليلي، كما في ديوان زهير (٦٥)، ومطلع هذا البيت الذي أرادوا الاستشهاد به هو لتميم بن مقبل، كما سبقت الإشارة له.

والظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة التي ترافق زوجها في السفر والارتحال، أو هي المرأة في الارتحال، وتحمَّلن: أي انطلقن وذهبن، والعلياء وإطان أو إضان موضعان. انظر: ديوان ابن مقبل (٢٣٩).

(٥) **المرار بن سعيد بن حبيب الفقعسيّ**= أبو حسان، من شعراء الدولة الأموية، كان مفرط القصر، ضئيلاً كثير الشِّعر، نسبته إلى (فقعس) من بني أسد بن خزيمة. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦٨٨)، الأغاني (١٠/ ٤٦٢).

(٦) لم أقف على ديوان له، والبيت استشهد به ابن قتيبة في المعاني الكبير في أبيات المعاني (١/ ٢٨٧)، وابن =

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ): (الهمزة والميم واللام أصلان: الأول: التثبُّت والانتظار، والثاني: الحَبْل من الرَّمل)[١].

وفي القاموس المحيط: (تأمَّلَ: تَلَبَّثَ في الأَمْرِ والنَّظَرِ)[٢].

ويتَّضح من هذا: أنَّ التأمُّل يدور حول التثبُّت والتلبُّث والانتظار، ومن هذا الوجه يختلف عن التدبُّر الذي يراد منه التتبُّع حتى الوصول إلى غاية المقصد[٣].

وقيل في تعريف التأمُّل هو: تدقيق النظر في الآيات بغرض الاتعاظ والتذكر[٤].

وعرَّفه العسكريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ) بالنظر فقال: (التأمُّل هو: النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ولا يكون إلا في طول مدة، فكل تأمُّل نظر، وليس كل نظر تأمُّلًا)[٥].

وعرَّف المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٣١هـ) التأمُّل بالتدبُّر فقال: (التأمُّل: تدبُّر الشيء وإعادة النظر فيه مرَّة بعد أخرى ليتحقَّقه)[٦].

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٩٤هـ) مفرِّقاً بين التأمل والتدبُّر: (التأمُّل: هو استعمال الفكر، والتدبُّر: تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل)[٧].

فارس في مقاييس اللغة (١/ ١٤٠)، وابن سيده في المحكم (٦/ ٢٩٥)، وابن منظور في لسان العرب (١٢/ ٤٨٩)، والزبيدي في تاج العروس (٢٨/ ٢٧). و**الْقُطَامِيُّ**= الصَّقْرُ، وَهُوَ مُكْتَفٍ بِنَظْرَةٍ وَاحِدَة.

[١] مقاييس اللغة (١/ ١٤٠)، مادة (أمل).

[٢] القاموس المحيط (٩٦٣)، مادة (أمل).

[٣] انظر: مفهوم التدبر (٢٥) ورقة د/ عويض العطوي، بعنوان: التدبر عند اللغويين .

[٤] انظر: نضرة النعيم (٣/ ٨٤٦)، المعين على تدبر الكتاب المبين (٦) .

[٥] الفروق اللغوية (٧٥).

[٦] التوقيف على مهمات التعاريف (٨٩).

[٧] الكليات (٢٨٧).

ومن هنا تتضح جملة من الفروق بين التدبُّر والتأمُّل؛ منها:

أولاً: أنَّ التأمُّل قد يحدث بالبصـر وحده مع إدامة النظر والتثبت والاستمرار والتأني، ثمَّ يعقبه التفكُّر الذي يؤدي إلى استخلاص العِبرة، أما التدبُّر فهو النظر العقلي بالبصيرة إلى عواقب الأمور، فهو من أعمال القلوب.

ثانياً: أنه قد روعي فيه إدامة الفكر واستمراريته؛ وعليه فلا تكون النظرة الواحدة تأمُّلاً.

ثالثاً: إذا نظرنا في معنى التدبُّر مقارنة بالتأمُّل نجد أنه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل، لأنه يعني التفكُّر في أدبار الأمور وأعقابها — كما سبق معنا –[1].

- المطلب الثاني: التدبُّر والتفكُّر.

التَّفَكُّرُ في اللغة: اسْم للتَّفكير، والاسم الفِكْرُ والفِكْرَةُ. والمصدر الفَكْرُ بالفتح. يقال: ليس لي في هذا الأمر فِكْرٌ، أي ليس لي فيه حاجة، والفتح فيه أفصح من الكسر. وَيَقُولُونَ: فكَّرَ فِي أمره، وتفكَّرَ، وَرجل فِكِّير: كثير الإقبال على التفكُّرِ والفِكْرَة، وكلُّ ذَلِك مَعْنَاهُ وَاحِد[2]، ويقال: تفكَّر في الأمر: إذا أدام النظر فيه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ [الأعراف:١٨٤][3].

وقد عرَّف جماعة من أهل اللغة التفكُّر بالتأمل[4].

وعند الأزدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢١هـ): (هو ما وقع بخَلَد الإِنسان وقلبه، الواحدَة: فِكْرَة وفِكْر وفِكَر)[5].

---

(١) انظر: نضرة النعيم (٣/ ٨٤٥-٨٤٦)، وسبق الكلام عن تفسير التدبر في المبحث الأول.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١٦) مادة (فكر)، الصحاح (٢/ ٧٨٣) مادة (فكر).

(٣) انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٨/ ٥٢٤٢).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١٦) مادة (فكر)، الصحاح (٢/ ٧٨٣) مادة (فكر)، تاج العروس (١٣/ ٣٤٥).

(٥) انظر: جمهرة اللغة (٢/ ٧٨٦)، مادة (فكر).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ): (الفاء والكاف والراء: تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يقال: تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا. وَرَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ)[١].

قال ابن سيده رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٨هـ): (إعمال الخاطِرِ في الشيء) [٢].

وفي القاموس المحيط: (إِعمالُ النَّظَرِ في الشيءِ) [٣].

وقال الفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٠هـ): (تَرَدُّدُ القلب بالنَّظر والتدبُّر لطلب المعاني) [٤].

*** والتفكر في الاصطلاح:**

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٢هـ): (الْفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جولان تلك القوَّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب) [٥].

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٣هـ): (حقيقة التفكُّر: ترديد العلم في القلب بالخبر عنه)[٦].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨١٦هـ): (تصرُّف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب)[٧].

وعرَّفه السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩١١هـ) بقوله: (التفكُّر: جولان القُوَّة المفكِّرة بَين الخواطر بِحَسب نظر الْعقل) [٨].

---

[١] انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٦)، مادة (فكر).

[٢] المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٧/ ٧)، مادة (فكر)، والمخصص (٤/ ٤٩).

[٣] القاموس المحيط (٤٥٨)، مادة (فكر).

[٤] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٤٧٩).

[٥] المفردات في غريب القرآن (٦٤٣).

[٦] انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٥٢).

[٧] التعريفات (٦٣)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (١٠٤)، وتفسير روح البيان (٥/ ١٦)، ودستور العلماء (١/ ٢٢٥)، ونضرة النعيم (٤/ ١٠٦٥).

[٨] معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (٢٠١).

فالتفكُّر: سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكلُّ قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء، وقيل: التفكر: تصفية القلب بموارد الفوائد[1].

*** الفرق بين التدبُّر والتفكُّر:**

ومن هنا نعلم أنَّ بين التفكُّر والتدبُّر تقارب واضح؛ ولذا فقد يجتمعان في شيء واحد فيقال تفكَّر في الكلام، وتفكَّر في الخلق.

والتفكُّر هو استخدام للعقل المشار إليه بالنَّظر والقلب، وليس من دلالاته الوصول إلى الغايات، بل الاعتبار بالمشاهدات وما يماثلها من دلائل القدرة، لذا نجده يُذكر مع الآيات المنظورة (الكون)، دون الآيات المسطورة (القرآن)؛ لأنَّ ذلك هو مجاله، وقد جعل أبو هلال العسكري جوهر الفرق بين اللفظين يرجع إلى مقصد كلٍّ منهما (العواقب، والدلائل)[2]، بناءً على الفرق المعجمي في دلالة كل منهما، فقال: (التدبُّر: تـصرُّف القلب بالنظر في عواقب الأمور، والتفكُّر: تصـرف القلب بالنَّظر في الدلائل)[3].

وعليه فيمكن **التفريق بين التفكُّر والتدبُّر** من وجوه:

الأول: أنَّ التفكُّر أظهر في النظر في الآيات الكونية الواقعة والمشاهدة كما قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، وهذا غالب استعمال القرآن.

---

(١) انظر: التعريفات (٦٣).

(٢) انظر: مفهوم التدبر (٢٣-٢٤) ورقة د/ عويض العطوي، بعنوان: التدبر عند اللغويين.

(٣) معجم الفروق اللغوية (١٢١)، وقاله الجرجاني في التعريفات (٥٤)، والمناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (٩٣) فصل الدال، وانظر أيضاً: القاموس الفقهي (١٢٨).

وقد يأتي بمعنى التفكر في الآيات القرآنية كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

أما التدبُّر فهو أظهر في النَّظر في الآيات القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

الثاني: أنَّ كلاً من التدبُّر والتفكُّر من عمل القلب وحده؛ إلا أنَّ التفكر تصرُّف القلب، وجولان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقليَّة بالنَّظر في الدليل، ولا يشترط فيه إدامة النظر، ولا تجاوز الحاضر إلى ما يؤول إليه الشيء مستقبلاً.

والتدبُّر تصرُّفه بالنَّظر العقليِّ في عواقب الأمور، فيتجاوز الحاضر إلى المستقبل. والله أعلم.

- المطلب الثالث: التدبُّر والنظر.

النّظر لغة: اسم لحسّ العين، ومصدر لقولهم: نَظَرَهُ، ونظر إليه نَظَراً ومَنْظَراً ونَظَراناً ومَنْظَرَةً وتَنْظَاراً بمعنى: تَأَمَّلَهُ بِعَيْنِهِ، ويقال: نظر لهم بمعنى رثى لهم وأعانهم، ونظر بينهم: حَكَمَ[١].

و(النون والظاء والراء) أصلٌ صحيح، يرجع فروعُه إلى معنًى واحد، وهو تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ثمَّ يُستعار ويُتَّسَع فيه، فيقال: نظرت إلى الشَّيءِ أنظُر إليه، إذا عاينْتَه، تقول: نَظَرْتُ إلى كذا وكذا من نَظَر العين، ونَظَر القلب[٢].

وقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] فالمراد أنّها نضرت بنعيم الجنّة، والنّظر إلى ربّها عَزَّوَجَلَّ[٣].

---

[١] انظر: القاموس المحيط (٤٨٤)، تاج العروس (١٤/ ٢٤٥).

[٢] انظر: العين (٨/ ١٥٤)، مقاييس اللغة (٥/ ٤٤٤)، مادة (نظر).

[٣] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٥٣).

"والنّظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني"[١].

واستعمال النّظر في البصر أكثر استعمالاً، ويستعمل في البصيرة أيضاً، يقال: نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه رأيته أم لم تره، ونظرت إليه: إذا رأيته وتدبَّرته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

أمَّا قولهم: نظرت في كذا. فالمعنى تأمَّلته، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، إذ يراد منه الحثُّ على تأمُّل حكمته في خلقها[٢].

ومنهم من عرَّف النَّظر بأنه: التأمُّل والفحص[٣].

وقد فرَّق أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ) بين النَّظر والتأمُّل بأنَّ النظر هو: طلب معرفة الشيء من جهته ومن جهة غيره.

والتأمُّل هو: النَّظر المؤمَّل به معرفة ما يطلب، ولا يكون إلا في طول مدَّة، فكلُّ تأمُّل نظر، وليس كلُّ نظر تأملاً[٤].

وَأما الْجَاهِل فَلَا عِبرة بِهِ وَلَا بنظرِه، بل وَلَا نَظر لِبَصرِه، وَلذَا قيل: إِن الْمُرَاد بِالنَّظرِ هُوَ التفكُّر والتأمُّل[٥].

ويتَّضح مما سبق: أنَّ عماد كلمة (النَّظر) هو المعاينة التي أداتها العين، وبهذا يكون النَّظر أقرب للتفكُّر منه إلى التدبُّر، ولعلَّ كلاً من (التفكر والنظر) أداتان يمكن أن يوصلا إلى القدرة على التدبُّر. والله أعلم.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٧٧).

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز (٥/ ٨٢).

(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (٣٢٦)، تاج العروس (٦/ ٥٤٢).

(٤) انظر: معجم الفروق اللغوية (٥٤٢-٥٤٣).

(٥) انظر: تاج العروس (١/ ١٢٣).

- المطلب الرابع: التدبُّر والتذكُّر.

التَّذَكُّرُ: مصدر تذكَّرَ، على وزن: تَفَعَّلَ، وهذا الوزن يفيد التدرُّج والارتقاء شيئاً فشيئاً. وهو طلب ذِكر ما نُسـي، أو يقال: هو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، والذِّكر: رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن، وذَكَّره فتذكَّر: أي وعظه فاتعظ، قال الله تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠]، أصله: سيتذكَّر، فأدغمت التاء في الذال[1].

والذِّكْرُ: الحِفْظُ لِلشَّيْءِ تَذْكُرُه، والذِّكْرُ أَيضاً: الشَّيْءُ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ، والذِّكْرُ: جَرْيُ الشَّيْءِ عَلَى لِسَانِكَ، والذِّكْرُ والذِّكْرى، بِالْكَسْرِ: نَقِيضُ النِّسْيَانِ، وَكَذَلِكَ الذُّكْرَةُ؛ قَالَ كعب بن زهير[2]:

أَنَّى أَلَمَّ بِكَ الخَيالُ يَطِيفُ   ومَطافُه لَكَ ذِكْرَةٌ وشُعُوفُ[3].

---

[1] انظر: شمس العلوم (٤/ ٢٢٨٦)، الكليات (١/ ٦٧).

[2] **كعب بن زهير بن أبي سلمى**= شاعر من الصحابة، يكنى أبا عقبة، كان شاعراً فحلاً مجيداً، وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه لأبيات قالها لما هاجر أخوه بجير بن زهير إلى النبي ﷺ فهرب، ثم أقبل إلى النبي ﷺ مسلماً فأنشده في المسجد قصيدته التي أولها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول. فيقال إنه لما بلغ قوله:

إنَّ الرسول لسيف يستضـاء به   مهنَّـد من سيــوف الله مسلول

أشار رسول الله ﷺ بكمِّه إلى من حواليه من أصحابه أن يسمعوا، وفيها يقول:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حــــدباء محمـول

نبئــت أنَّ رســول الله أوعــدني   والعفـو عند رسـول الله مـأمول

وأسلم، فأمَّنه النبي ﷺ، وكَسَاهُ بُرْدَةً لَهُ. انظر ترجمته: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٠٠)، معجم الصحابة (٢/ ٣٨١)، معجم الشعراء (٢/ ٣٨١)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٣٧٧)، الاستيعاب (٣/ ١٣١٣)، أسد الغابة (٤/ ١٧٥)، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥١).

[3] انظر: ديوان كعب بن زهير (٨٠). يُقَالُ: طَافَ الخيالُ يَطِيفُ طَيْفاً ومَطَافاً وأَطافَ أَيضاً. والشُّعُوفُ: الوِلُوعُ بِالشَّيْءِ حَتَّى لَا يُعْدَلَ عَنْهُ.

وَتَقُولُ: ذَكَّرْتُه ذِكْرَى؛ غَيْرَ مُجْرَاةٍ. وَيُقَالُ: اجْعَلْه مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ وذِكْرٍ بِمَعْنًى. وَمَا زَالَ ذَلِكَ مِنِّي عَلَى ذِكْرٍ وذُكْرٍ، وَالضَّمُّ أَعلى، أَي تَذَكُّرٍ[1].

في الاصطلاح: عرَّف بعض العلماء التذكُّر بأنه: طلب الذِّكر بالفكْر، والنَّظر، ونصب الآيات؛ للتذكر بها فيها وما تقتضيه من مدلولاتها[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) في منزلة التذكُّر: (والتّذكّر تفعّل من الذّكر، وهو ضدّ النّسيان، وهو حضور صورة المذكور العلميّة في القلب، واختير له بناء التّفعّل لحصوله بعد مهلة وتدرّج، كالتّبصّر والتّفهّم والتّعلّم)[3].

قال الله تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠] فأخبرَ أن من يخشاه يتذكَّر، والتذكُّر هنا مستلزم لعبادته، وقيل في المعنى: سيتَّعظ بالقرآن من يخشى الله.

فالتذكُّر سبب التزكِّي، فالعبد إذا تذكَّر خاف ورجا؛ فتزكى، فذكر الحكم وذكر سببه، ذكر العمَل وذكر العلْم، وكل منهما مستلزم للآخر؛ فإنه لا يتزكى حتى يتذكَّر ما يسمع من الله ومن رسوله ﷺ، فلابد لكلِّ مؤمن من خشية وتذكُّر، وهو إذا تذكَّر فإنه ينتفع وقد تتم المنفعة؛ فيتزكى.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣] أي: إنما يتَّعظ من يرجع إلى الطاعة، وقال: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٨][4].

ومتى قويت إنابة العبد وتذكُّره: لم تشتدَّ حاجته إلى العظة - وهي الترغيب والترهيب - ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

---

[1] انظر: لسان العرب (٤/ ٣٠٨).

[2] انظر: تفسير ابن فورك (١/ ٣٥٢).

[3] مدارج السالكين (١/ ٤٤٠).

[4] انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية (٢٢).

ومما سبق يتَّضح أنَّ التذكير عام والتذكُّر خاص[1].

وقد أسند التذكُّر والاتعاظ إلى من له لبّ، لأنهم هم الذين يجدي فيهم التذكُّر[2].

العلاقة بين التذكُّر والتفكر والتدبُّر:

قَالَ الْحَسَن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (ما زال أهل العلم يعودون بالتفكُّر على التذكُّر، وبالتذكُّر على التفكُّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال، فَأَوْرَثَتِ العلم)[3].

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧هـ): (عودوا بالتذكُّر على التفكُّر وبالتفكُّر، على التذكُّر)[4].

قَالَ الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٨١هـ) مفرِّقا بين التذكُّر والتفكُّر: (التَّذَكُّر فَوق التفكُّر فَإِن التفكُّر طلب والتذكُّر وجود، وأبنية التَّذَكُّر ثَلَاثَة أَشْيَاء: الِانْتِفَاع بالعظة، واستبصار الْعبْرَة، وَالظفر بثمر الفكرة.

وَإِنَّمَا ينْتَفع بالعظة بعد حُصُول ثَلَاثَة أَشْيَاء: بِشدَّة الافتقار إِلَيْهَا، والعمي عَن عيب الْوَاعِظ، وبذكر الْوَعْد والوعيد.

وَإِنَّمَا تستبصر الْعبْرَة بِثَلَاثَة أَشْيَاء: بحياة الْعقل، وَمَعْرِفَة الْأَيَّام، والسلامة من الْأَغْرَاض.

وَإِنَّمَا تجنى ثَمَرَة الفكرة بِثَلَاثَة أَشْيَاء: بقصر الأمل، والتأمل فِي الْقُرْآن، وَقلة الْخلطَة وَالتَّمَنِّي والتعلق والشبع والمنام)[5].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فمنزلة التّذكّر من التّفكّر منزلة حصول الشّيء المطلوب بعد التّفتيش عليه، ولهذا كانت آيات الله - المتلوّة والمشهودة ذكرى، كما قال في

---

[1] انظر: تفسير غرائب القرآن للنيسابوري (٢/ ١١٦).

[2] انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٦٠).

[3] التبصرة لابن الجوزي (٦٥)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)، والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٥١٩).

[4] أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥١٧) برقم: (١٤٠٩٠).

[5] منازل السائرين (١٩-٢٠).

المتلوّة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [غافر:٥٣-٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨]، وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق:٦-٨].

فالتّبصرة آلة البصر، والتّذكرة آلة الذِّكر، وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة؛ لأنّ العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدلّ بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتّبصرة، والغفلة بالتّذكرة؛ لأنَّ التّبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها.

فترتيب المنازل الثّلاثة أحسن ترتيب، ثمّ إنَّ كلًّا منها يمدُّ صاحبه ويقوِّيه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٦-٣٧])[١].

وقد ورد التَّذكُّر والذِّكرى في القرآن الكريم في مواضع عديدة اقترن بعضها بالاستفهام الإنكاريّ، واقترن بعضها بلفظ «لعلّ» الّتي تفيد الحثَّ على التَّذكُّر ببيان الأسباب الدّاعية إليه، وجاءت آيات أخرى تمدح المتذكّرين وتجعل الذّكرى من صفات أولى الألباب، وقد سجّلت آيات أخرى على الإنسان قلّة تذكّره أو عدم تذكّره مع وجود الدّاعي لذلك من تلاوة آي القرآن أو جعل اللّيل والنّهار خلفة أو إطالة العمر ونحو ذلك[٢].

---

[١] مدارج السالكين (١/ ٤٤٠-٤٤١).

[٢] انظر: نضرة النعيم (٣/ ٩١٦-٩١٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (مبدأ كل علم نَظَرِي وَعمل اخْتِيَاري؛ هُوَ الخواطر والأفكار فَإِنَّهَا توجب التصورات؛ والتصورات تَدْعُو إِلَى الإيرادات، والإيرادات تَقْتَضِي وُقُوع الْفِعْل، وَكَثْرَة تكراره تُعْطِي الْعادة، فصلاح هَذِه الْمَرَاتِب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها...، وَاعلم أَن الخطرات والوساوس تُؤَدِّي متعلَّقاتها إِلَى الْفِكر؛ فيأخذها الْفِكر فيؤديها إِلَى التَّذَكُّر، فيأخذها الذّكر فيؤديها إِلَى الْإِرَادَة، فتأخذها الْإِرَادَة فتؤديها إِلَى الْجَوَارِح وَالْعَمَل، فتستحكم فَتَصِير عَادَة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعهَا بعد قوتها وتمامها)[(١)].

ومما سبق تظهر العلاقة الواضحة بين التدبُّر والتذكُّر. والله أعلم.

- المطلب الخامس: التدبُّر والاعتبار.

الاعتبار لغة: مصدر (اعتبر) وهو مأخوذ من مادّة (ع ب ر) التي تدلُّ على النفوذ والمضيّ في الشّيء، يقال: عبرت النَّهر عبوراً، وعبر النّهر (بالفتح والكسر) شطَّه.

فأمّا الاعتبار والعبرة فهما مقيسان من عبري النّهر ؛-أي شاطئيه-، لأنَّ كلَّ واحد منهما مساوٍ لصاحبه، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢] ، كأنّه قال: انظروا إلى من فعل ما فعل فعوقب بها عوقب به، فتجنَّبوا مثل صنيعهم لئلَّا ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك، ومن الدّليل على صحَّة هذا القياس قول الخليل: عبّرت الدّنانير تعبيرا إذا وزنتها ديناراً ديناراً، والعبرة الاعتبار بما مضى[(٢)].

وقال الرّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٢هـ): (أصل العَبْرِ: تجاوزٌ من حال إلى حال...، وَالاعْتبَارُ والعِبْرَةُ: بالحالة التي يتوصَّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ﴾ [آل عمران:١٣]، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢])[(٣)].

---

(١) الفوائد (١٧٣-١٧٤).

(٢) انظر: مادة عبر في: العين (٢/ ١٢٩)، تهذيب اللغة (٢/ ٢٢٩-٢٣٠)، مقاييس اللغة (٤/ ٢٠٨)، لسان العرب (٤/ ٥٣٢)، تاج العروس (١٢/ ٥١١).

(٣) المفردات في غريب القرآن (٥٤٣).

واصطلاحاً: هو النّظر في حقائق الأشياء وجِهات دلالتها، ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها، أو: هو الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهدة إلى غيره.

وقيل: الاعتبار: هو التدبُّر، وقياس ما غاب على ما ظهر، ويكون بمعنى الاختبار والامتحان كعبرت الدراهم أواعتبرتها، فوجدتها ألفاً، وبمعنى الإيقاظ، وبمعنى الاعتداد بالشيء في ترتيب الحكم.

وقيل: مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سمِّيت العِبرة عِبرة والمعبَر معبراً، واللفظ عبارة. ويقال: السعيد من اعتبَر بغيره، والشَّقي من اعتبر به غيره[(١)].

وقال المناويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٣١هـ): (العبرة والاعتبار: الاتعاظ، ويكون بمعنى الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحُكم)[(٢)].

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن مبرءاً عن الاختلاف والتضاد، ليحصل فيه كمال التدبُّر والاعتبار[(٣)].

ومما سبق تظهر العلاقة بين التدبُّر وبين الاعتبار، فالتدبُّر وسيلة مهمة للاعتبار، والاعتبار ثمرة ونتيجة من نتائج التدبُّر.

ومن تدبَّر قول الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣]، وقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، وجد أنَّ الله قرَن الاعتبار بأولي النظر والبصر الذين يعقلون الأمور، ويُحسِنون الفهم والتدبُّر في الحقائق. والله أعلم.

---

(١) انظر: شمس العلوم (٧/ ٤٣٤٩)، التوقيف على مهمات التعاريف (٥٥)، الكليات للكفوي (١٤٧).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (٢٣٥).

(٣) انظر: الاعتصام (٢/ ٨١٨).

- المطلب السادس: التدبُّر والاستبصار.

لغة: (الْبَصَرُ) حَاسَّةُ الرُّؤْيَةِ، و(أَبْصَرَهُ) رَآهُ، و(بَصُرَ) بِهِ أَيْ عَلِمَ، وَبَابُهُ ظَرُفَ، وَبُصْرًا أَيْضًا فَهُوَ (بَصِيرٌ)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه:٩٦]. و(التَّبَصُّرُ) التَّأَمُّلُ وَالتَّعَرُّفُ، وَ(التَّبْصِيرُ) التَّعْرِيفُ وَالْإِيضَاحُ، وَ(الْبَصِيرَةُ) الْحُجَّةُ وَ(الِاسْتِبْصَارُ) فِي الشَّيْءِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة:١٤]، قَالَ الأخفش: جَعَلَهُ هُوَ (الْبَصِيرَةَ) كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ: أَنْتَ حُجَّةٌ عَلَى نَفْسِكَ، والبَصَرُ: نَفاذٌ فِي الْقَلْبِ. وبَصرُ الْقَلْبِ: نَظَرُهُ وَخَاطِرُهُ. والبَصِيرَةُ: عَقِيدَةُ الْقَلْبِ[١].

والاستبصار في الاصطلاح: هو "العلم بعد التأمُّل"[٢].

والبَصِيرَةُ: الاسم من الاستبصار في الدِّين وتحقيق الأمر، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية:٢٠][٣].

الفرق بين البصير والمستبصر: أنَّ البصير على وجهين:

أحدهما: المختصُّ بأنه يدرك المبْصَر إذا وُجِد، وأصله البصر، وهو صحَّة الرؤية، ويؤخذ منه صفة مبصر بمعنى راء، والرائي هو المدرِك للمرئي، والقديم راء بنفسه.

والآخر: البصير بمعنى العالِم، تقول: منه هو بصير، وله به بَصَر وبصيرة أي علم،

والمستبصر: هو العالم بالشيء، بعد تطلُّب العلم؛ كأنه طلب الإبصار، مثل المستفهم والمستخبر المتطلِّب للفهم والخبر، ولهذا يقال: إن الله بصير، ولا يقال: مستبصر، ويجوز أن

---

[١] انظر: الصحاح (٢/ ٥٩١-٥٩٢)، لسان العرب (٤/ ٦٤)، تاج العروس (١٠/ ٢٠١) مادة: بصر.

[٢] الكليات للكفوي (٦٧).

[٣] شمس العلوم (١/ ٥٤٢).

يقال: إن الاستبصار هو أن يتَّضح له الأمر حتى كأنه يبصره، ولا يوصف الله تعالى به، لأنَّ الاتضاح لا يكون إلا بعد الخفاء[1]، ولأنه لم يرد عن الشارع الحكيم وصفه بذلك.

ومما سبق تتَّضح العلاقة بين الاستبصار والتدبُّر، فإذا قلنا أنه: العلم بعد التأمُّل، فإنه يكون أثراً للتدبُّر ونتيجة له، والله أعلم..

- لطائف في الفرق بين التأمل، التفكُّر والنظر والتذكر والاعتبار والاستبصار.

الأولى: قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (وأما اسم التذكُّر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمى واحد، كما أنَّ اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة؛ فالصارم يدلُّ على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدلُّ عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدلُّ دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين، فينطلق عليه اسم التذكُّر لا اسم الاعتبار، وأما النظر والتفكُّر فيقع عليه من حيث أنَّ فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً، فكلُّ متفكِّر فهو متذكِّر، وليس كلُّ متذكِّر متفكِّراً، وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عن القلب، وفائدة التفكُّر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة، فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر)[2].

الثانية: فرَّق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) بينها؛ وأبان الفرق بين التدبُّر والتأمل والتفكُّر والنظر والتذكُّر والاعتبار والاستبصار فقال: (وهذه معان متقاربةٌ تجتمع في

---

(١) معجم الفروق اللغوية (١٠٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٦).

شيء، وتتفرَّق في آخر، ويسمَّى تفكُّراً: لأنه استعمال الفكرة في ذلك، وإحضاره عنده، ويسمَّى تذكُّراً: لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه...، ويسمَّى نظراً: لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه، ويسمى تأملاً: لأنه مراجعة للنظر كرَّة بعد كرَّة حتى يتجلَّى له وينكشف لقلبه، ويسمَّى اعتباراً: وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة؛... إيذاناً بأنَّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه الى المقصود به...، ويسمَّى تدبُّراً: لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها...، وتدبُّر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثمَّ يعيد نظره مرَّة بعد مرَّة، ولهذا جاء على بناء التفعُّل؛ كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن، وسمِّي استبصاراً: وهو استفعال من التبصُّر، وهو تبيُّن الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة، وكلٌّ من التذكُّر والتفكُّر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكُّر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكُّر يحصِّله، والتذكُّر يحفظه)[1].

- المطلب السابع: التدبُّر والتعقُّل.

التعقُّل لغة: من العقل، و(الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَاللَّامُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ مُنْقَاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ، أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ، ومِنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ، وَهُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

والعَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَل يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل، والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فؤادك. ويقال: هو ما يُفْهَمُ من العَقْل، وهو العَقْل واحد، كما تقول: عَدِمْتَ مَعْقولاً أي ما يُفْهَمُ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢-١٨٣) بتصرف يسير.

منك من ذهْنٍ أو عَقْل، وقلبٌ عاقلٌ عَقولٌ، ومنه قول دَغْفَلٍ (٧٠هـ)[١] حين سئل: بِمَ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكْتَ مِنَ الْعِلْمِ؟ قال: (بلسانٍ سؤولٍ، وَقَلْبٍ عَقُولٍ)[٢].

والعقل الحَجْرُ والنُّهى، وهو ضدُّ الحُمْق، قَالَ الأصمعيّ: يُقَال عَقَلَ الرجلُ يَعقِل عَقلاً، إِذا كَانَ عَاقِلا. وَقَالَ غَيره؛ سمِّي عقلُ الْإِنْسَان وَهُوَ تَمْيِيزه الَّذِي بِهِ فَارق جَمِيعَ الْحَيَوَان عقلا لأنّه يعقله، أَي: يمنعهُ من التورُّط فِي الهَلَكة، كَمَا يعقل العقالُ البعيرَ عَن ركُوب رَأسه[٣].

وفي الاصطلاح: التعقُّل: التدبُّر، وتعقَّلْت الشيء تدبَّرته[٤].

وقيل: هو إدراك الشيء مجرَّدًا عن العوارض الغريبة واللواحق المادية[٥].

والتعقّل هو إدراك العقل[٦].

"وعقل الكلام متضمِّن لفهمه، ومن المعلوم أنَّ كلَّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرَّد ألفاظه؛ فالقرآن أولى بذلك"[٧].

---

(١) **دغفل بن حنظلة النسابة العلامة السدوسي الشيباني**= أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً، وفد على معاوية بن أبي سفيان، وكان له علم ورواية للنسب، ومات نحو سنة سبعين للهجرة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠١)، التاريخ الكبير (٣/ ٢٥٥)، الاستيعاب (٢/ ٤٦٢)، الإصابة (٢/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه عنه ابن أبي خيثمة في التاريخ الكبير (١/ ٢٠٦)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١٨٥)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٢٩١)، وروي مثله عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه عنه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٧٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٣/ ١٨٥).

(٣) انظر: العين (١/ ١٥٩)، تهذيب اللغة (١/ ١٦٠)، الصحاح (٥/ ١٧٦٩)، مجمل اللغة لابن فارس (١/ ٦١٧)، مقاييس اللغة (٤/ ٦٩)، المحكم والمحيط الأعظم (١/ ٢٠٥).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (١٠٢).

(٥) الكليات (٣١٣).

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١١٢).

(٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

وتدبُّر القرآن يشتمل على رؤية معانيه، وجمع الفِكر على تدبُّره وتعقُّله، متبوع بالعمل، لأنه الأمر الذي تدعو إليه عاقبته عند من تأمَّله.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق:٨-٩]،"فالتبصرة: التعقُّل، والتذكرة: التذكُّر، والفِكر باب ذلك ومدخله، فإذا فكَّر تبصَّر، وإذا تبصَّر تذكَّر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتَّب على الفكر، فقدَّم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسَّط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته، وأخَّر التذكُّر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل"[١].

والتعقُّل لابدَّ أن يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم، وإلا فليس من التدبُّر في شيء، والتعقُّل فيه معنى يقضي بإدراك المعاني المجملة التي تعقِل الإنسان وتمنعه من مخالفته.

وكلٌّ من التدبُّر والتعقُّل لا يتمُّ إلا بعلم مجمل المعاني ومراميها، وليس شرطاً أن يكون ذلك العلم تفصيلياً لكلِّ كلمة وحرف، بل قد يكون التدبُّر بإدارك المعنى الإجمالي، وعقل الكليات المرادة بالآية، ويكمل التدبُّر كلما كان العلم بالمعاني أكمل، وإن لم يكن شرط المعرفة التفصيلية للمعاني وأوجهها لازم لمطلق التدبُّر. والله أعلم.

- المطلب الثامن: التدبُّر والتأويل.

التأويل في اللغة: الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه، ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، يقول: ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.

---

[١] مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣).

وقال الأعشى[١]:

على أَنَّها كانَتْ تأَوَّلُ حُبّها تأَوُّلُ رِبعِيِّ السِّقابِ فأصحبا[٢]

يريد مرجعَه وعاقبتَه، وذلك مِنْ آل يَؤُولُ[٣].

والتأويل يدلُّ على المآل والمرجع، فالأَوْلُ: الرجوع، من آل الشيءُ يَؤُول أَوْلًا ومآلًا: رَجَع، وأَوَّل إِليه الشيءَ: رَجَعَه... وأَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فَسَّره[٤].

والتأويل في الاصطلاح يأتي لمعان ثلاث[٥]:

---

[١] **الأعشى**= هُوَ مَيْمُون بن قيس بن جندل بن شَرَاحِيل بن عَوْف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثَعْلَبَة، ويكنى أَبَا بَصِير، ولد بقرية باليمامة يقال لها منفوحة، وفيها قبره، وهو من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وكان يغنّي بشعره، وهو أول من سأل بشعره، ووفد إلى مكة يريد النبي ﷺ ومدحه بقصيدة مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهَّدا

ومما يقول فيها:

أجدك لم تسمع وصاة محمد نبي الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

انظر ترجمته: طبقات فحول الشعراء (١/ ٥٢)، معجم الشعراء (٤٠١).

[٢] ديوان الأعشى الكبير (١٤).

[٣] مقاييس اللغة، مادة (أول).

[٤] لسان العرب، مادة (أول).

[٥] انظر: التدمرية لابن تيمية (٩١).

الأول: بمعنى التفسير[1]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] على أحد الأوجه في التفسير، وقوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، فتأويل القرآن بمعنى تفسيره، وهو المراد بقوله ﷺ في دعائه لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[2].

وهكذا تأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسيرها، كما في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف:٣٦]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

الثاني: التأويل: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، مثل: تأويل ما في القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله تعالى به فيه، مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك.

وإذا كان صرف المعنى بغير دليل يقترن به؛ كان مذموماً باطلاً، وبذلك وقع أهل البدع في تأويل نصوص الصفات بغير مقتضاها وما دلَّت عليه.

---

(١) قال أبو هلال العسكري: (التأويل له مزيَّة زائدةٌ على التفسير، ويرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، حيث حصر سبحانه علم التأويل في جنابه تعالى، ومن رَسَخَ في العلم قدمُه، واستضاء في طريق التحقيق علمُه، ووقع على عجائب ما أودع فيه من الأسرار، وأطلع على تفاصيل ما اشتمل عليه من الأحكام والآثار. وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، فلو لم يكن للتأويل مزيدُ فضلٍ لم يكن لتخصيص ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك – مع جلالةِ قدره، وعظيم شأنه– مزيدُ فائدة).انظر: معجم الفروق اللغوية (١٣٤).

(٢) **صحيح**. أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٤٣) في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، دون لفظ: (وعلمه التأويل)، وهذه الزيادة عند أحمد في مسنده (٤/ ٢٢٥) برقم: (٢٣٩٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٨٣) برقم: (٣٢٢٢٣)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥٣١) برقم: (٧٠٥٥)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٣) برقم: (١٠٦١٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٥) برقم: (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد. وصححه أحمد شاكر في المسند (٥/ ١٥)، والألباني في شرح الطحاوية (٢١٤).

الثالث: التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩].

وهكذا يعبر بـ(التأويل) في الرؤيا بمعنى تحقق الوقوع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ [يوسف:١٠٠]، كما ورد بمعنى العاقبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] في موضعين من القرآن.

وهكذا يُعبر بـ(التأويل) عن امتثال المأمور، ومن ذلك حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[(١)][(٢)].

العلاقة بين التأويل والتدبر:

ظهر مما سبق أنَّ التأويل يبحث فيما يؤول إليه الشيء، وإذا تعلَّق ذلك بالكلام كان المراد هو ما يؤولُ إليه ذلك الكلام، أو هو الرجوع به إلى مآل آخر.

وبهذا يشترك التأويل مع التدبُّر؛ في الوصول للغاية والمآل والمقصد، لكن قد يكون في التأويل من الخفاء في الدلالة ما ليس في التدبُّر.

ويمكن القول بأنَّ هناك علاقة بين التأويل والتدبُّر، تجتمع في الغايات والمقاصد، وتفترق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٩٤) في كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، وبرقم: (٨١٧) في باب التسبيح والدعاء في السجود، وبرقم: (٤٢٩٣) في كتاب المغازي، وبرقم: (٤٩٦٧-٤٩٦٨) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٨٤)، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣١٣)، كتاب مفهوم التدبر (١٦٢-١٦٣) من ورقة د/ خالد السبت بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل.

فيما يتعلَّق بالمكلَّفين، فالتدبُّر مطلوب محثوث عليه، متاح لكلِّ الخلق، والتأويل محصور في أهل الرسوخ أمثال حبر الأمة وترجمان القرآن، حتَّى لكأنَّ التأويل يبحث فيما خفيت دلالته، وصعُب على سائر الناس إدراك المراد منه[1].

أما من ناحية المعنى الاصطلاحي فيكون التأويل له تعلُّق بالتدبُّر باعتبار الإطلاقين السابقين ؛ فهو يتعلَّق به من جهة إطلاقه مراداً به التفسير؛ إذ القول فيه كالقول في التفسير.

وأما وجه تعلُّقه بالتأويل إذا أُريد به المعنى الآخر: فإنَّ ذلك يكون بالامتثال والعمل والتطبيق، وذلك من المعاني الداخلة تحت التدبُّر، إضافة إلى التفكُّر في ما يؤول إليه الإنسان، وما يقع في الدنيا والآخرة مما وعد الله به أهل طاعته وأهل معصيته، والله أعلم[2].

- المطلب التاسع: التدبُّر والاستنباط.

الاستنباط **لغة**: هو الاستخراج[3]، استفعال من أنبطتُ كذا[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣]، أي: يستخرجونه[5].

اصطلاحاً: تنوعت عبارات العلماء في تعريف الاستنباط اصطلاحاً، على أقوال منها: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب، فهو له: مستنبط)[6].

---

(١) انظر: مفهوم التدبر (٢٦-٢٨) من ورقة د/ عويض العطوي بعنوان: التدبر عند اللغويين .

(٢) انظر: مفهوم التدبر (١٦٢-١٦٣) من ورقة د/ خالد السبت بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل .

(٣) انظر: معجم ديوان الأدب (٢/ ٤٣٢)، الصحاح (٣/ ١١٦٢)، تفسير غريب ما في الصحيحين (٤٢)، النهاية لابن الأثير (٥/ ٨)، لسان العرب (٧/ ٤١٠) مادة: نبط.

(٤) انظر: جمهرة اللغة (١/ ٣٦٢)، المخصص (٣/ ٢٨)، الأفعال (٣/ ٢٢١)، المصباح المنير (٢/ ٥٩٠).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٨٣)، الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ١٩١)، معاني القرآن للنحاس (٢/ ١٤١)، تهذيب اللغة (١٣/ ٢٥٠).

(٦) جامع البيان (٨/ ٥٧١).

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٠هـ): (والاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من ألفاظ النصوص)[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير المستَنبِط)[٢].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨١٦هـ): (استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن، وقوة القريحة)[٣].

والتعريف المختار المستخلص من هذه الأقوال، هو أنَّ الاستنباط: **استخراج ما خفي من القرآن بطريق صحيح**[٤].

ويقال في الفرق بين التدبُّر والاستنباط ما قيل في الفرق بين التدبُّر والتفسير؛ ذلك أنَّ غرض التفسير والاستنباط واحد؛ وهو فهم المعنى وما يدلُّ عليه، فالتفسير في الفهم، والاستنباط في الدلالات، وكلاهما من لوازم التدبُّر[٥].

ويشترك التدبُّر والاستنباط في أنَّ كليهما يحتاج إلى جهد وقوَّة ذهن، وكليهما مستمر لا ينقطع ولا يتوقَّف.

ويضاف في الفرق بين التدبُّر والاستنباط أمور:

أولاً: بالنَّظر في أصلهما في اللغة يتبيَّن الفرق بينهما؛ فالتدبُّر هو النظر إلى أدبار الشيء ونهاياته، وهذا يدخل فيه الدلالات والنهايات من الانتفاع والاهتداء.

وأما الاستنباط فهو استخراج ما خفي، وهذا مقصور في الدلالات.

---

(١) أدب القاضي (١/ ٥٣٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٧٢)، وانظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم (٣٥).

(٣) التعريفات (٢٢).

(٤) منهج الاستنباط من القرآن - د/ فهد الوهبي (٤٥).

(٥) انظر: مفهوم التدبر (١٨٧) ورقة د/ محمد الربيعة بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل.

ثانياً: أنهما يجتمعان في إعمال الفِكر والنظر والتأمُّل ويختلفان في الغرض، فغرض المستنبط العلم بدقائق المعاني والدلالات والهدايات، وغرض المتدبِّر يتجاوزه إلى قصد الانتفاع والامتثال والعمل، ولذا فقد يكفيه أحياناً المعنى الإجمالي ونحوه.

ثالثاً: أنه يشترط في التدبُّر قصد الانتفاع والامتثال بخلاف الاستنباط، وإنما يشترط فيه وجود ما يدل عليه في النص.

رابعاً: أنَّ الاستنباط نتيجة للتدبُّر فهو فرع منه، وذلك أنَّ التدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمُّل فيها فقد ينتج من ذلك الاستنباط.

خامساً: أنَّ التدبُّر يمكن أن يقوم به كل أحد، بل يطلب من كلِّ قارئ للقرآن أن يقرأه بتدبُّر، أما الاستنباط فهو خاص للعالمين به الذين يحسنونه.

وعليه: فإنَّ الاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام، وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا نتيجة للتدبُّر كما لا يخفى(١)، ومن ذلك يمكن القول: بأنَّ كلَّ استنباط تدبُّر ولا عكس.

وحول هذا المعنى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأنَّ منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرَّد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخصُّ من هذا وألطف ضمُّه إلى نص آخر متعلِّق به، فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبَّه له إلا النادر من أهل العلم، فإنَّ الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا، وتعلُّقه به، وهذا كما فهِم ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] أنَّ المرأة قد تلدُ لستة أشهر)(٢). والله أعلم..

---

(١) انظر: مفهوم التدبر (١٦٤) من ورقة د/ خالد السبت بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٦٧).

المبحث الرابع: أركان تدبُّر القرآن الكريم.

يقوم التدبُّر على أركان أربعة: المتدبِّر، والكلام المتدبَّر، وعملية التدبُّر، وأداة التدبُّر، وتفصيل الكلام فيها في المطالب التالية:

- المطلب الأول: المُتَدَبِّر.

وهو الشخص القائم بفعل التدبُّر، وهذا لابد فيه من تحقق شروط وانتفاء موانع، كما يحسن أن تتوافر فيه جملة من الآداب المعينة على التدبُّر ليكون المحل قابلاً.

ويدخل فيه المسلم وغير المسلم؛ إذ كل منهما مأمور بتدبُّر القرآن ليتذكَّر بما فيه من هدايات ؛ فالمؤمن مخاطب بالتدبُّر لتعميق الإيمان في قلبه، فإنه بالتدبُّر فيه، والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرةٍ ؛ تُدْرَكُ بركته وخيره.

وغير المسلم مخاطب بتدبُّر القرآن ليرشده إلى الله وإلى تحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين.

وإذا تأملنا عامة السياقات القرآنية التي ورد فيها الأمر بتدبُّر القرآن نجد أنها جاءت في سياق توبيخ المشركين والمنافقين الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولم يهتدوا بهديه؛ لأنهم لم يتدبَّروه، وقد أنكر الله تعالى عليهم إعراضهم عن تدبُّر القرآن في عموم الآيات الواردة في هذا الشأن[1].

وقد حصل لمن تدبرَّ هذا القرآن من المشركين كبير الأثر وعظيمه، قال جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحكي قصةَّ إسلامه: (قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر فوافيته يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ﴾ [الطور:١-٢] فلما قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ [الطور:٧-٨]، فَكَأَنَّمَا صَدَعَ قَلْبِي، فَأَسْلَمْتُ

(١) سبق في التمهيد بيان الآيات التي جاءت بالحثِّ على التدبُّر.

خَوْفًا مِنْ نُزُول الْعَذَابِ، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ أَقُومَ مِنْ مَقَامِي حَتَّى يَقَعَ بِيَ الْعَذَابُ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[١].

وهكذا كان يعمل القرآن الكريم عملُه في نفوس المشركين حين يفهمونه ويتدبَّرونه.

أما المسلمون فهم أهل التدبُّر، والذين يحتمل توجه الخطاب لهم في قول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وما هداية المسلمين إلى الإسلام إلا ثمرة من ثمار تدبُّر القرآن، وما التزموه من توجيهات القرآن، وما اعتبروا به من أمثاله، وما اتعظوا به من مواعظه فهو من ثمار تدبُّرهم للقرآن، وهم مطالبون بالاستمرار والثبات على تَطَلُّب هدايات القرآن، وبهذا يعلم أنَّ الأمر بتدبُّر القرآن متَّجه للناس كافة مؤمنهم وكافرهم، علمائهم وعوامهم، كلُّهم مأمورون بتدبُّر القرآن طلباً لهداياته كما جاء الخطاب في الآيات عاماً[٢].

والتدبُّر أمرٌ يشترك فيه المسلم وغيره، وغير المسلم يحتاج لتحقق أمور حتى ينتفع من تدبُّره، فيؤتي ثمرته وقصده، ومن ذلك:

- أن يكون حسَن القصد من تدبُّره وسماعه.

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٠٢٣) في كتاب المغازي، وبرقم: (٤٨٥٤) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] دون قوله: (فَكَأَنَّمَا صَدَعَ قَلْبِي، فَأَسْلَمْتُ خَوْفًا مِنْ نُزُول الْعَذَابِ، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ أَقُومَ مِنْ مَقَامِي حَتَّى يَقَعَ بِيَ الْعَذَابُ) وهذه ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان (٩/ ١٢٦)، والبغوي في معالم التنزيل (٧/ ٣٨٦)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٦٢)، والخازن في لباب التأويل (٤/ ١٩٩)، وابن عادل في اللباب (١٨/ ١١٧).

[٢] انظر: بحث للدكتور حسين الحربي بعنوان: (قواعد التدبر) من أبحاث الملتقى الثاني للتدبُّر.

- أن يكون فاهماً لمعنى ما يتدبَّره.

- أن يتحرَّر من الأهواء والتعصُّب لنحلة أو مذهب معيَّن.

ومن كان هذا حاله من غير المسلمين؛ فيرجى له أن يوفَّق لهدايات القرآن، وينشرح صدره للإسلام والإيمان، فلو أنه تدبَّر القرآن تدبراً صحيحاً مكتمل الشروط، خال من الموانع، قاده ذلك بإذن الله إلى الإيمان بما تضمَّنه، والعمل به.

أما المسلم فهو مناط التوجيه الأول بالأمر بالتدبُّر، وله صفات وأحوال لابدَّ أن تتوفَّر فيه كي يتحقَّق له التدبُّر الصحيح، يمكن بيانها على النحو التالي:

* الجوانب القلبية الواجب تحققها في المتدبِّر:

١) حسن القصد:

فتدبُّر المسلم للقرآن عبادة لله تعالى تفتقر إلى الإخلاص وحُسن التوجُّه لله تعالى كغيرها من العبادات كما أمر الله تعالى عباده بالإخلاص في جميع أعمالهم فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وفي حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١).

فلحسن القصد أثَره الظاهر في الهداية للحق والصواب من الأقوال والأعمال، وحسن القصد عمل قلبي يتعلَّق به الفهم الصحيح للنصِّ، فمن وقع في شِراك الفِرق وفهمها السقيم للنصوص، جعل اعتقاده حاكماً على القرآن، وفهمه وتدبُّره حسب ما اعتقد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١) في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٩٠٧) في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (وينبغي أن لا يقصد به — أي بالقرآن - توصُّلاً إلى غرض من أغراض الدنيا؛ من مال أو رياسة أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك)(١).

فينبغي تصفية العمل من أي حظٍّ من الحظوظ سوى رضا المولى سبحانه وتعالى.

٢) حسن فهم القرآن:

وهو مناط التدبُّر الأمثل للقرآن، وهو هبة من الله تعالى لمن أراد من عباده، وقد سأل أبو جحيفة علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: (هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ)(٢).

وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بالفقه في الدين، وأن يعلمه التأويل، وكلُّ هذا راجع إلى تطلُّب حسن الفهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

وإنما يُرزَق التدبُّر أهل العقول الصحيحة، وتتحصل لهم ثماره؛ من حسن الفهم لكتاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، "وأولوا الألباب هم: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبُّرهم لها كل علم ومطلوب"(٣).

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١١) في كتاب العلم، باب كتابة العلم، وبرقم: (٣٠٤٧) في كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، وبرقم: (٦٩٠٣) في كتاب الديات، باب العاقلة، وبرقم: (٦٩١٥) في كتاب الديات، باب لا يقتل المسلم بالكافر.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧١٢).

و"العادة المطردة التي جبل الله عليها بني آدم توجب اعتناءهم بالقرآن - المنزَّل عليهم - لفظاً ومعنى؛ بل أن يكون اعتناؤهم بالمعنى أوكد؛ فإنه قد علم أنه من قرأ كتاباً في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك؛ فإنه لا بد أن يكون راغباً في فهمه وتصوُّر معانيه، فكيف بمن قرءوا كتاب الله تعالى المنزَّل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عرَّفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي"[(١)].

وإدراك معاني القرآن في مقام الممكن، وليست في مقام المحال، لذا لا يوجد في القرآن كلمة لا يُعرف لها معنى، فالتدبُّر -إذا لم يكن لمعرفة المعاني-؛ يكون أيضاً بعد معرفة المعاني وإدراكها إجمالاً.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (وفي حَثِّ الله عَزَّوَجَلَّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات- بقوله جلَّ ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧- ٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه- ما يدلّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: "اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام"- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به، فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبُّره وهو بمعناه جاهل)[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٧).

(٢) جامع البيان (١/ ٨٢).

٣) حسن اتباع القرآن:

ما أنزل الله القرآن إلا للاتباع والعمل به، وجعل التدبُّر طريق تحقيقه فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وأثنى على المتَّبعين لآياته المستجيبين لتوجيهاته، العاملين به بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]، أي: والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله لم يكونوا صماً لا يسمعون، وعمياً لا يبصرونها، ولكنهم يقَاظُ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذِّكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته[١].

وأثنى عليهم أيضاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١] أي: يتَّبعونه حقَّ اتباعه[٢].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ): (وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَلَا يُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ)[٣].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤٠هـ): (يا حملة العلم اعملوا به؛ فإنما العالم من عمِل بما علِم ووافق علْمه عمَله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون مع الخلق يباهي بعضهم بعضاً؛ حتى أنَّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى)[٤].

---

[١] انظر: جامع البيان (١٩/ ٣١٦).

[٢] انظر: تفسير سفيان الثوري (٤٨)، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام (١٣٠)، وجامع البيان (٢/ ٥٦٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٠٣)، والدر المنثور للسيوطي (١/ ٢٧٣).

[٣] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٧) برقم: (١٨٨٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٢١٨) برقم: (١١٥٩).

[٤] أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٨٢) برقم: (٣٩٤)، ونقله ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٦)، والنووي في التبيان في آداب حملة القرآن (٣٦).

٤) السلامة من الصوارف والحجب المانعة من تدبُّر القرآن:

كلما كان العبد شَرود القلب، متعلِّقاً بالشواغل، بعيداً عن آداب التالي، ضعيف التوكل على ربه، متلبِّساً بالمعاصي أو البدع؛ كان فهم وتدبُّر القرآن عنه أبعد، وهذه أمهات أنواع الصوارف التي يحصل بها انغلاق القلب عن فهم القرآن وتدبره، وبعض هذه الصوارف يعود إلى أخذ القرآن وطريقة تلاوته ووقتها، وبعضها يعود إلى القلب وما أشرب من رأي أو نِحلة، أو ما طُبعت عليه قلوب بعض خلقه من الكفر والنفاق؛ فكان جزاء الله تعالى لهم أنْ طبع على قلوبهم وختم عليها، أو طمس عليها، أو حرمها فهم لذيذ خطابه وفقهه، أو ما تعلَّق بالقلب وما ورد عليه من شهوات النفس وملذاتها المحرمة وهواها، ونزغات الشيطان، وشواغل الدنيا فهي من أعظم الحجب عن فهم القرآن وتدبره والانتفاع به.

والقرآن العظيم نور الله، وفهمه يحتاج إلى نورٍ منه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

قال الزركشيّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٩٤هـ): (واعلم أنه لا يحصل للنَّاظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يَظهر له أسرار العلم من غيبِ المعرفة، وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبْر أو هوى أو حبُّ الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسِّـر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض)[١].

وسيأتي الحديث بتفصيل عن الموانع والصوارف الحائلة دون التدبُّر والمانعة منه[٢].

٥) الاستعداد النفسي والعزيمة الصادقة السلامة:

إنَّ الاستعداد النفسي من أهمِّ ما ينبغي أن يهتمَّ به المتدبِّر، لأنَّ عملية التدبُّر تبدأ من

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٠-١٨١).

(٢) في الفصل الثاني من الباب الثاني.

الشخص نفسه، وينتهي أثرها إليه، ولا يمكن تحصيل التدبُّر إلا بوجود دافعية قوية لتعلُّم التدبُّر وتطبيقه في الواقع العملي، وصدق الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

إنَّ الشعور بعدم القدرة على التدبُّر من العقبات الكبيرة في هذا الطريق، فلابد من تجاوزها وإزالتها، وكما قيل: على حسب الاستعداد يكون الإمداد.

والعزائم منطَلق الأفعال، فكلما قويت العزيمة كان الفعل قويًّا، والعكس بالعكس ولذلك نجد من دعاء رسولنا الكريم ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَأَسْأَلُكَ الْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[1].

وقد قال المتنبي:

عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ وَتَأتي عَلى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ[2]

فلا بدَّ من الاستمرار على العزيمة، والثبات عليها، والاستعاذة بالله من الشيطان وجنوده، الذين يخذِّلون عن تدبُّر القرآن والعَيش معه.

٦) الصبر والتدرُّج:

إنَّ معايشة الآيات لا تحْصل بين عشية وضحاها، فلابد من التدرُّج في التدبَّر شيئاً فشيئاً، وهذا يوجب على المتدبِّر إطالة النظر، والتأني والصبر حتى يحصل له المأمول، فالمؤمن لا يريد شيئاً أعظم من رضوان الله؛ ورضوان الله لا ينال بشيء أعظم من حبِّ كلام رب العالمين جَلَّجَلَالُهُ، والصبر حتى ينال منه مايؤدي إلى رضوانه.

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٥) برقم: (٩٣٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٣٢٢٨).

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي (٣٨٥).

"وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف؛ فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون، ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف، قل: الله أعلم بأسرار كلامه ولا علم لنا إلا بتعليمه، ثمَّ إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار، قائلاً: أين أنا من فلان وفلان؟! كلا.. فربَّ صغير مفضول قد فطِن إلى ما يفطِن له الكبير الفاضل، ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة[1]، فجدَّ في الطلب، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، فعسى الله أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عمي على غيرك، و﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]"[2].

ومما يدلُّ على أهمية الصبر والتدرُّج للمتدبِّر أمور، منها:

---

[1] عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**»، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللهَّ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ، أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ عَبْدُ اللهَّ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا. **والحديث** أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦١) في كتاب العلم، باب المحدِّث حدثنا وأخبرنا وأنبأنا، وبرقم: (٦٢) باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، وبرقم: (٧٢) باب الفهم في العلم، وبرقم: (١٣١) باب الحياء في العلم، وبرقم: (٢٢٠٩) في كتاب البيوع، باب بيع الجمَّار وأكله، وبرقم: (٤٦٩٨) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، وبرقم: (٥٤٤٤) في كتاب الأطعمة، باب أكل الجمَّار، وبرقم: (٥٤٤٨) باب بركة النخل، وبرقم: (٦١٢٢) في كتاب الأدب، باب ما لايستحيا من الحق للتفقه في الدين، وبرقم: (٦١٤٤) باب إكرام الكبير، ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨١١) في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة.

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩٩).

- أنَّ نزول القرآن الكريم كان منجَّماً ولم ينزل جملة واحدة، وأوَّل ما نزل من القرآن خمس آيات من سورة إقرأ[1].

- ثبت عن عمرُ بن الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: (تعلَّموا القرآنَ خمسَ آياتٍ خمسَ آياتٍ، فإنَّ جبريلَ نزلَ به على محمدٍ ﷺ خمسَ آياتٍ خمسَ آياتٍ)[2].

- وورد من وجه آخر عن أبي العالية رَحِمَهُٱللَّهُ مثل ذلك، وذكر أنَّ جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كان ينزل به كذلك[3].

- وثبت عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهنَّ، حتى يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ)[4].

- وكان أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يعلِّم الناس القرآن في مسجد البصرة، وكان

---

(1) ويشهد لذلك حديث عائشة ل الذي أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣) في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٦٠) في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وفيه: (فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ"، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]).

(2) أخرجه عنه أبو طاهر المخلص في المخلصيات (٣/ ١٨٧) برقم: (٢٢٩١)، والاسماعيلي كما في مسند الفاروق لابن كثير (١/ ١٧٠)، وانظر: فضائل القرآن لابن كثير (٢٢٦-٢٢٧).

(3) أخرجه عنه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١١٧) برقم: (٢٩٩٣٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢١٩)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٣٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٦) برقم: (١٨٠٦)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٧).

(4) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١/ ٨٠).

يجلسون إليه حِلَقاً حِلَقاً[1]، وكان يعلِّم القرآن خمس آيات خمس آيات[2].

- وقال أبو نضرة العبدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٨هـ)[3]: (كان أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يعلِّمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمساً بالعشي)[4].

وعلى ذلك جرت عادة السلف الصالحين ﷺ.

فقد جاء أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢هـ) [5] إلى الكوفة مع المصحف الذي أرسله عثمان إلى أهلها، فجلس في المسجد الأعظم فيها لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة [6]، فكان يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي، ويخبرهم بموضع العُشْر والخُمْس، ويقرئ خمسَ آيات خمسَ آيات[7].

---

(١) أخرجه عنه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٣٨٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه عنه السخاوي في جمال القراء (٥٣٠)، وذكره ابن الجزري في غاية النهاية (١/ ٦٠٤).

(٣) **أبو نضرة العبديُّ** = المنذر بن مالك بن قُطَعة العوقي البصريُّ. من ثقات التابعين، روى عن ابن عمر وابن عباس، وأبي هريرة، وأنس بن مالك، وغيرهم، مات سنة ثمان أو تسع ومائة. انظر ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٨/ ٢٤١)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٥١٠)، ميزان الاعتدال (٤/ ١٨١).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٩١).

(٥) **أبو عبد الرحمن السلمي**= عبد الله بن حبيب بن رَبيّعة، الكوفي المقرىء، مشهور بكنيته، ولأبيه صحبة، كان أعمى، وأقرأ الناس أربعين سنة في مسجد الكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج، ومات سنة ٧٢هـ، وهو ابن تسعين سنة. انظر ترجمته: الطبقات الكبرى (٦/ ٢١٢)، التاريخ الكبير (٥/ ٧٢)، الثقات لابن حبان (٥/ ٩)، تهذيب الكمال (١٤/ ٤٠٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٧).

(٦) انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد (٦٨).

(٧) انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٢١٢)، معرفة القراء الكبار (٢٩).

وورد أنَّ عاصم الكوفي[١] قرأ القرآن على زرّ بن حبيش[٢]، وكان يأتي إليه يقرئه خمس آيات، فلا يزيد عليها شيئاً[٣].

وقال أبو بكر الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٩٦هـ)[٤]: (قرأت على أبي القاسم بن داود بن أبي طيبة (٢٧٣هـ)[٥]، بالفسطاط في داره، وفي غير داره. فقرأت عليه من أول القرآن إلى سورة

---

[١] **عاصم الكوفي** = وهو ابن أَبِي النَّجُود، أَبو بَكر الأَسَدِيّ، الكُوفِيُّ، الإمام الكبير، مقرئ العصر، صاحب القراءة المعروفة، قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي وزرِّ بن حبيش، وكان رجلا صالحاً، معدود في صغار التابعين، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، مات سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: التاريخ الكبير(٦/ ٤٨٧)، تهذيب الكمال (١٣/ ٤٧٣)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٦).

[٢] **زرّ بن حبيش**= الأسدي، أحد بني غاضرة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة ويكنى أبا مريم. روى عن عمر وعلي وعبد الله وعبد الرحمن بن عوف وأبي بن كعب وحذيفة، وكان ثقة كثير الحديث، وكان من أعرب الناس، وكان عبد الله بن مسعود يسأله عن العربية، مات سنة اثنتين وثمانين، وهو ابن اثنتين وعشرين ومائة سنة. انظر ترجمته: التاريخ الكبير(٣/ ٤٤٧)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣/ ٦٢٢)، تهذيب الكمال (٩/ ٣٣٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦٦).

[٣] انظر: جامع البيان لأبي عمرو الداني (١/ ٢٥٧).

[٤] **أبو بكر الأصبهاني** = محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن شبيب بن يزيد أبو بكر الأصبهاني، الأسدي شيخ القراء في زمانه، تلقى القراءة عن خيرة علماء عصره وفي مقدمتهم: أبو الربيع سليمان بن أخي الرشديني. قرأ وختم عليه القرآن إحدى وثلاثين ختمة، وقال: دخلت مصر ومعي ثمانون ألفا فأنفقتها على ثمانين ختمة. اشتهر بالقراءة وعظم شأنه مما استوجب الثناء عليه، توفي ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة. انظر: معرفة القراء الكبار (١٣٥)، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ (١/ ٧٢).

[٥] **ابن أبي طيبة** = عبد الرحمن بن داود بن أبي طيبة، أبو القاسم المصري مقرئ ناقل مشهور، أخذ القراءة عرضًا عن أبيه داود بن هارون، روى القراءة عنه عرضًا أبو بكر الأصبهاني، وأبو الحسين الرعيني، وغيرهما، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين. انظر: تاريخ الإسلام(٦/ ٥٦٨)، غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٦٨).

والمرسلات، أو عبس على مذهب نافع، ولم يكن يزيد في اليوم على عشر آيات، وقد قرأت عليه أياماً كثيرة خمس آيات في كل يوم) [1].

ومن هذه النماذج نعرف أنَّ التدرُّج في التلقين كان من هدي السلف الصالح، وكان ما بين خمس آيات إلى عـشر آيات، وأنَّ همَّة الصحابة والسلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت أقوى، وفي الحالتين، يتبيَّن قلة عدد الآيات التي تحفظ وترسخ في الأذهان رسماً وحفظاً وفهماً، ثمَّ تتحوَّل إلى العمل بالجوارح آداباً وأحكاماً، وهذا يبيِّن أهمية التدرُّج في التلقي، ثمَّ التدرُّج في التدبُّر [2].

- المطلب الثاني: الكلام المُتَدَبَّر.

وهو القرآن الكريم، ولا يخفى أنَّ القرآن الكريم بالغ التأثير في النفوس، كما أنه ميسـر للفهم إذا وَجد المحلُّ القابل، والقرآن وإن كان مشتملاً على العقائد والأحكام والقصص والأمثال والكلام على الدنيا والآخرة، وأهوال القيامة، فقد تكون بعض هذه القضايا أكثر تأثيراً في بعض الناس، كما يكون غيرها أعمق تأثيراً لدى آخرين بحسب مقاصدهم، وعمق أفهامهم، ولطافة نظرهم.

وفي جميع المواضع التي ورد فيها الأمر بالتدبُّر اتجه إلى تدبُّر القرآن الكريم أو آياته كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢، محمد:٢٤]، وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨] أي: القرآن [3]، ولم يرد في كتاب الله تعالى الأمر

---

[1] انظر: جامع البيان لأبي عمرو الداني (١/ ٣٠٢)، وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٦٨).

[2] انظر: منهج تدبر القرآن الكريم، أ.د/ حكمت بشير ياسين (٤٧).

[3] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٦١)، تفسير يحيى بن سلام (١/ ٤٠٩)، جامع البيان (١٩/ ٥٦)، بحر العلوم (٢/ ٤٨٦)، الكشف والبيان (٣/ ٢٠٦)، الوجيز للواحدي(٧٥٠)، تفسير القرآن العظيم للسمعاني (٣/ ٤٨٣)، معالم التنزيل (٥/ ٤٢٣)، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٨٣).

بتدبُّر شيء غير القرآن، بينما ورد الأمر بالتفكُّر والتذكُّر والاستبصار والعقل ونحوها من المعاني للقرآن وغيره، فدعا إلى التفكر في آياته المتلوة في مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢١٩].

ودعا للتفكُّر في آياته المنظورة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:٣].

ودعا إلى التذكُّر بآياته المتلوَّة في مثل قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:١].

ودعا إلى التذكُّر بآياته المنظورة في الكون في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧].

ومثل ذلك السماع لآياته المتلوة في مثل قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت:٣-٤].

والسماع لآياته المنظورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل:٦٥].

ومثل ذلك العقل لآياته المتلوة في مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠].

والعقل لآياته المنظورة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٠] ونظائر هذه الآيات كثير في كتاب الله تعالى.

وسرُّ ورود الأمر بالتدبُّر للقرآن فقط -والله أعلم-: أنَّ الأمر بتدبُّر الآيات فيه معنى التفكُّر والتعقُّل والتذكُّر والنظر وزيادة؛ هي زيادة العمل والتطبيق، إذ الأمر بتدبُّر القرآن يتضمَّن الأمر بالعمل به، وهو ما لا يتضمَّنه أي تعبير آخر.

إنَّ الله سبحانه لما أنزل كتابه على عباده وضمَّنه تعاليمه، أراد منهم أن يتخذوه منهجاً يسيرون عليه ويرجعون إليه، ويحتكمون إلى تعاليمه وآياته، ولن يحصل ذلك إلا بتدبُّر آياته وفهم عباراته، والوقوف على مقصود الله منه، ولما كان حصول المقصود من إنزال القرآن لا يتمُّ إلا بالتدبُّر لهذا الكتاب الكريم أمر الله بذلك.

والمقصود: تدبُّر "حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به"[1].

و"تدبُّر الآيات: التفكُّر فيها والتأمُّل، الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة، لأنَّ من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلُ[2]منه بكثير طائل"[3].

و"من أصابته بركة القراءة رُزق التدبُّر في آياته، ومن رزق التدبُّر لم يحرم التذكُّر والاتعاظ به"[4].

- المطلب الثالث: عملية التدبُّر.

وهي مناط البحث؛ من بيان كيفيتها وأسلوبها ووسائلها وموانعها ونحو ذلك.

وعملية التدبُّر إن تمَّت على الوجه الشرعي الصحيح؛ حققت لصاحبها طمأنينة قلبية، وراحة نفسية، والارتقاء إلى درجات عليا من الإيمان، وهذه العملية لابدَّ لها من حضور القلب، وإصغاء السمع.

---

[1] جامع البيان (٢١/ ١٩٠).

[2] أي لم يستفد منه كبير فائدة.

[3] الكشاف (٤/ ٩٠).

[4] حقائق التفسير (٢/ ١٨٥).

ولا زال العلماء يعتنون بالتدبُّر وكيفيته، بقصد الاستجابة لله وحده، والعمل.

قال أبو سعيد الخرَّاز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٩هـ)[1]: (أول الفهم لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ العمل به؛ لأنَّ فيه العلْم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، والقرآن كلُّه حسن، ومعنى اتباع الأحسن: مايكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع وإلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط)[2].

وقال: (أوَّل إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبي ﷺ يقرأه عليك، ثمَّ ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقراءته على النبي ﷺ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، ثمَّ ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحقِّ، وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، فكأنك تسمعه من الله تعالى، وكذلك: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:١-٢]، ومخرج الفهم في استماعك من الله تعالى عند حضور قلبك وغيبتك عن أشغال الدنيا وعن نفسك بقوة المشاهدة، وصفاء الذِّكر، وجمع الهمّ، وحسن الأدب، وطهارة السرِّ، وصدْق التحقيق، وقوة دعائم التصديق، والخروج إلى السعة من الضيق، وحضور المشاهدة لنفاذ الغيب بالغيب، وسرعة

---

[1] **أبو سعيد الخراز**= أحمد بن عيسى الخراز، من أهل بغداد، من مشايخ الصوفية، صحب ذا النون المصري والسري السقطي، وبشر الحافي وغيرهم من المشايخ، ومن المتكلِّمين في علم الإخلاص، توفي سنة ٢٧٩هـ ودفن في الموصل. انظر: طبقات الصوفية (٣٦)، تاريخ دمشق (٥/ ١٢٩)، طبقات الأولياء (٤٠).

[2] انظر: اللمع في التصوف للسراج الطوسي (٧٩).

الوصول إلى المذكور بالغيب بكلام اللطيف الخبير، وشرح هذا كله مفهوم ومستنبط من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٣]) (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (إذا أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧]، وذلك أنَّ تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ أشار إلى ما تقدم من أول السورة الى ههنا، وهذا هو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس:٦٩-٧٠] أي حي القلب، وقوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثُّر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة (٢٧٦هـ): "استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه"(٢)، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير؛ وهو سهو القلب وغيبته عن تعقُّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثِّر وهو القرآن، والمحلُّ القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكُّر)(٣).

---

(١) انظر: المرجع السابق (٨٠-٨١).

(٢) غريب القرآن (٣٦٢).

(٣) الفوائد (٣).

- المطلب الرابع: أداة التدبُّر.

وهي لغة العرب التي نزل بها القرآن، فقد جرت ألفاظ القرآن وسياقاته على سَنَنِ العرب في كلامها، وقد أخبر الله تعالى عن إنزال القرآن بلسان العرب في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

فأخبر الله تعالى في هذه الآيات ونظائرها أنه أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فكون القرآن عربياً من أعظم دواعي وأسباب عقْله وفهمه وفقْهه، ومن دواعي وأسباب إحداث العظة والعبرة، والبشارة والنذارة، وتحقيق التقوى لتاليه ومُتدبِّره، إذ عربة لسانه محققة لذلك كله كما جاء في الآيات الآنفة الذكر، فمن رام تدبره فلا بد له من هذا اللسان؛ إذ لا يتصور من الأعاجم الذين لا يفهمون معانيَ الألفاظ العربية ولا دلالاتها أن يكونوا متدبرين للقرآن؛ إذ ذلك محال، فمعرفة العربية ودلالات ألفاظها وسياقات جملها ركن رئيس من أركان تدبر القرآن، وهي لابد لها من التعلم، وإلا لأصبح التدبر نوعاً من الخرس والهذيان الذي ينزه عنه القرآن، ولا يشترط العلم بكافة تفاصيل علوم العربية، وإنما المقصود أن يكون المتدبر قادراً على فهم مدلول ألفاظ اللسان العربي وجمله فيما يشترك فيه جمهورهم، وكلما اتسع علم المتدبر بالعربية وفنونها كان حظه من فهم القرآن وتدبره أوسع، وذلك لجريان القرآن على لسان العرب وسننها في الكلام.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (ومحالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذات أمثالٍ ومواعظ وحِكم: "اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ"؛ إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثمَّ الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم، فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: "اعتبرْ بها" إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلاً- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَره)[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (فمعرفة العربيّة التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك)[2].

وفهم أسرار اللغة العربية يحتاج إلى الاطلاع على علومها مجتمعة ؛ لأنّها حلقةٌ متّصلةٌ، يأخذ بعضها برقاب بعضٍ.

والثمرة العظمى لهذا الفهم هو التدبُّر الذي نُدِبَ المرءُ إليه ؛ ليؤديَ به ذلك إلى الإيمان بالله مُنْزِلِ هذا الكتاب، وإلىَ تعظيم القرآن وَمَنْ أوحاه، وَمَنْ بَلَّغَهُ، وهذه كلّها لا تتأتّى إلا لمن عَرَفَ لغته، وأدرك أسرارها.

---

(١) جامع البيان (١/ ٨٢-٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٦).

قال ابن النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٩٨هـ): (إنّما يعرف فضل القرآن مَنْ عَرَفَ كلام العرب، فَعَرَفَ علم اللغة، وعلم العربيَّة، وعلم البيان... فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجبَ العجابَ، والقولَ الفصلَ اللبابَ، والبلاغةَ الناصعةَ التي تحيِّر الألبابَ، وتُغلَقُ دونها الأبوابُ، فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجَّة عليهم، ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم، وكلَّت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم، وبرز رونق الجمال والجلال في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال، ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوبَ هيبةً، والنفوسَ خشيةً، وتستلذّه الأسماعُ، وتميل إليه بالحنين الطباعُ، سواءً كانت فاهمةً لمعانيه، أو غير فاهمةٍ، عالمةً بما يحتويه، أو غيرَ عالمة، كافرةً بما جاء به، أو مؤمنةً)[١].

وإذا تأملنا وجدنا أنَّ العرب الأوائل كانوا أسرع ما يكونوا تأثُّراً بالقرآن، لأنهم يعقلون معانيه؛ لعربية لغتهم وفصاحتها، ومما يشهد لذلك ما ذكره الله عنهم بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وكذلك ما سبق معنا من قصة الجبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في سبب إسلامه حين قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[٢].

وسيأتي الكلام على أثر اللغة العربية على التدبُّر؛ بمزيد تفصيل بإذن الله[٣].



(١) الفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن - المنسوب لابن القيم خطئاً - (١٠).

(٢) سبق تخريجه ص(١٢٠).

(٣) في المبحث الثاني، من الفصل الأول، في الباب الثاني: أثر فهم اللغة في تحقيق التدبر الصحيح.

المبحث الخامس: واجبات التدبُّر وسننه

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: واجبات عبادة التدبُّر.

مما سبق يتبيَّن أنَّ التدبُّر يمكن أن يكون طريقاً للهداية والإيمان لغير المسلم، ويكون عبادة محضة تزيد الإيمان وتقويه لدى المسلم.

والمقصود بالواجبات هنا، هي الواجبات التي يستلزم منها تحقيق عبادة التدبُّر للمسلم، وتربطه بالقرآن ربطاً صحيحاً، ومن ذلك:

الأول: الإخلاص.

الْإِخْلَاص لله عَزَّوَجَلَّ: أن يقْصد العَبْد بنيته وَعَمله وجه اللهَّ تعالى، فلا يشرك معه في العبادة أحداً، ولا يصرف العبادة لغيره، وَلَا يَجْعَلها لعرض الدُّنْيَا، وَلَا لتحسين عِنْد مَخْلُوق، فهو: نسيان رؤية الخلق لدوام النَّظر إلى الخالق[١].

وضابط الإخلاص: أنَّ كل ما ثبت أنه عبادة فهو من الدين، وما كان من الدين فيجب أن يكون خالصاً يقصد به وجه اللهَّ وحده، وما عنده من الأجر والثواب، فلا يشرك معه فيه أحد، ولا يصرف جنسه إلى غير الله، ولا يقصد به التوصُّل إلى غرض من أغراض الدنيا؛ من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ثناء عند الناس، أو نحو ذلك، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

---

[١] انظر: غريب القرآن للسجستاني (٤٣٣)، حقائق التفسير للسلمي (١/ ٢٢٧)، شعب الإيمان (٩/ ١٨٧)، المجموع للنووي (١/ ١٧)، مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

فالإخلاص شرط في صحة العبادة، وأساس هام من أسس الإِيمان بدونه لا يدخل العبد في ولاية اللهَّ، ولا يقبل منه عمل، ولا يتحصَّل على ثمرات الإِيمان وكراماته التي وعد اللهَّ بها عباده المؤمنين[١].

عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[٢].

ويدخل في هذا المعنى من يقرأ القرآن أو يتدبَّره رياءً للناس، وابتغاء ما عندهم من الجاه والثناء والمال وغيرها، ويدخل فيه كلُّ من لم يقرأه إخلاصاً لله.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»يَعْنِي: رِيحَهَا[٣].

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كلِّ عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣])[٤].

---

[١] انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان (١/ ٢٦٥).

[٢] سبق تخريجه ص (١٢١).

[٣] **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٨٥)، وأحمد في مسنده (١٤/ ١٦٩)، وابن ماجه في سننه (١/ ٩٢)، وأبو داود (٣/ ٣٢٣)، وابن حبان (١/ ٢٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٠) وقال: هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وجوَّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٦١٥٩).

[٤] إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٢).

ومما يبيِّن خطر الرياء في قراءة القرآن وتدبُّره؛ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[1].

وحديث أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، وَالنَّصْرِ، وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**»[2].

فإذا أدَّى الإنسان عبادة التدبُّر من غير إخلاص، فإنه استحقَّ الوزر والعقاب؛ لأنه لم يخلص لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧].

قال سهل التستري رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٨٣هـ)[3]: (ليس على النفس شيءٌ أشقُّ من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب)[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٩٠٥) في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحقَّ النار.

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢٢٤)، والحاكم في المستدرك (٧٨٩٥) وصححه، والبيهقي في الشعب (٦٤١٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٣٢)، وفي صحيح الجامع (٢٨٢٥).

(٣) **سهل التستري**= سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع، وكنيته: أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال، صحب خاله محمد بن سوار، وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وأسند الحديث. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (١٦٦-١٦٧).

(٤) ذكره عنه القشيري في الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦١)، والغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨١)، وابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٩٢)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٨٤).

ولهذا ينبغي استحضار النيّة الصالحة دائماً في عبادة التدبُّر، وكذلك تحرير النيّة، وتخليصها من الشوائب، قال الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٧هـ)[١]:

والـنِّيَّةَ اجْعَلْ لِوَجْهِ الله خالصَةً ... إنَّ البِناءَ بــدونِ الأصْـلِ لَمْ يَقُمِ

ومَن يَكُنْ لِيَقُولَ الناسُ يَطْـلُبُهُ ... أخْسِـرْ بِصَفْقَتِـهِ في مَوْقِفِ النَّدَمِ

ومَـنْ به يَبْتَغِي الـدُّنْيا فَلَيْسَ بِهِ ... يَومَ القِيامَةِ مِن حَظٍّ ولا قَسَمِ[٢]

الثاني: تفريغ القلب من الشواغل.

وهذا من واجبات الانتفاع، وكمال التدبُّر، وإلا فالأثر يحصل بمجرَّد سماع القرآن.

ويقصد به الوقوف مع الآيات، بإحضار القلب، وإلقاء السمع، وإمعان النَّظر، وإعمال العقل، والتخلِّي عن موانع الفهم، وخاصة الذنوب والمعاصي، والغفلة والكبْر، والعمل على صلاح القلوب وطهارتها بالذكر والتسبيح والاستغفار، والإنابة والتوبة، والتخلُّص من فضول الطعام والمنام والنظر والمخالطة.

ودليل هذا الواجب قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

---

[١] **حافظ الحكمي**= الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، من علماء (جيزان) بين الحجاز واليمن، طلب العلم وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم تفرغ للدراسة على الشيخ عبد الله القرعاوي، ولازمه حتى نضج ورسخ، فظهر فضله، وألف كتبا منها: معارج القبول، وأعلام السنة المنشورة، وتولى النيابة في ادارة مدارس التعليم بصامطة، ثم عين مديراً للمعهد العلمي فيها عام ١٣٧٤هـ، واستمر إلى أن توفي بمكة سنة ١٣٧٧هـ، انظر: الأعلام (٢/ ١٥٩)، موسوعة مواقف السلف في العقيدة (٩/ ٣٧٨).

[٢] شرح المنظومة الميمية للحكمي- د.عبد الرزاق البدر (١٣).

قال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤١هـ): (وتدبُّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الهمِّ وقت تلاوته، ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف، وخلوص النية)[١].

وقد سأل معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دغفل النسابة عن العربية، وسأله عن أنساب الناس، وسأله عن النجوم فإذا رجل عالم فقال: يا دغفل، من أين حفظت هذا؟ قال: (حَفِظْتُ هَذَا بِقَلْبٍ عَقُولٍ وَلِسَانٍ سَئُولٍ)[٢].

فكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد فرَّغ قلبه للعلم، وهذا ضروري لطالب العلم؛ لأنَّ صاحب القلب المشغول لا يتدبَّر القرآن كما ينبغي؛ فلا بدَّ من تفريغ القلب من الشواغل والصوارف، وجعْل فهم القرآن وتدبُّره هو المقصد الأول.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (فالبعد البعد عمَّن همَّته الدنيا، فإنَّ زادهم اليوم إلى أن يحصِّل؛ أقرب منه إلى أن يؤثر، ولا تكاد ترى إلا عدوًّا في الباطن، صديقًا في الظاهر، شامتًا على الضر، حسودًا على النعمة، فاشتر العزلة بما بيعت، فإنَّ من له قلب إذا مشى في الأسواق، وعاد إلى منزله، تغيَّر قلبه، فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدنيا؟! واجتهد في جمع الهم بالبعد عن الخلق، ليخلو القلب بالتفكر في المآب، وتتلمح عين البصيرة خيم الرحيل!)[٣].

وقال أيضاً: (واعلم أنه إذا لم يجتمع الهمُّ، لم يحصل العلم، ولا العمل، ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله)[٤].

ولاعتياد التدبُّر والدربة عليه، واستفادة المعاني العظيمة أثرٌ ظاهرٌ في التمكُّن منه وإتقانه، شأنه في هذا شأن سائر العلوم التي لا يتحقق العالم وترسخ فيها قدمه إلا بإدمان النظر فيها.

---

[١] لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ١٧٤).

[٢] سبق تخريجه ص(١١١).

[٣] صيد الخاطر (٣٦٩).

[٤] صيد الخاطر (٤٠٣).

فلابد من تفريغ القلب من الشواغل الدنيوية، والمادية أيضاً، فإنَّ المرء إذا أراد يتدبَّر كتاب الله؛ فليقبل على القرآن إقبال النَّهم الذي يبحث عن ضالته، ولا يقرأ وهو مشغول البال، أو حوله من الملهيات التي تأخذ بلبِّه وفكره، فلا يتمكَّن معها من العيش مع القرآن الكريم وتدبُّره.

الثالث: التأمل فيما يؤول إليه النص.

بإدراك مغزى الآيات، وتفهُّم المعنى، واستخراج الدلالات والهدايات.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: (إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ) قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. قَالَ عُمَرُ: (مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ)[1].

فعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هنا أراد أن يعرف مغزى هذه السورة، ولم يُرد أنْ يعرف معناها التركيبي من حيث الألفاظ والكلمات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٢٩٤) في كتاب المغازي، وبرقم: (٤٩٧٠) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:٣].

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمتدبِّر أنْ يفطن لمغزى الآيات الكريمة، فإنَّ المعنى الظاهر الذي يفهم من الكلمات والتركيبات قد يكون سهلاً؛ لكنَّ مغزى الآيات على مراد الله تعالى هو الذي يخفى على كثير من الناس، ويحتاج إلى فهم يؤتيه الله تعالى من يشاء[1].

الرابع: التفاعل مع الآيات بـالقلب واللسان والجوارح.

فالتفاعل بالقلب: من خلال الإيمان والتعظيم للقرآن وللمتكلِّم به وهو الله تعالى، واستحضار مقاصد القرآن العامة، والشعور بأنَّ القارئ هو المخاطب بهذه الآيات.

والتفاعل باللسان: بتلاوة القرآن بترتيل وترسُّل على مكْث، وتحزُّن وتباكي، وترديد للآية، والتفاعل معها بالسؤال والتعوذ والاستغفار بما يناسب من ذلك.

والتفاعل بالجوارح: بالقشعريرة، ودمع العين، والسجود عند آيات السجدة، والخشوع عند سماع القرآن ونحوها [2].

عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ، حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ**»[3].

وجاء أيضاً في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا**»[4].

---

[1] انظر: شرح رياض الصالحين، لشيخنا العثيمين (٢/ ١٤٥).

[2] انظر: أخلاق أهل القرآن للآجري (١٦٥-١٦٩).

[3] **صحيح**. أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٥٢٤) برقم: (١٣٣٩)، والآجري في أخلاق أهل القرآن (١٦١) برقم: (٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٢)، وفي صحيح الترغيب (١٤٥٠).

[4] **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٤٢٤) برقم: (١٣٣٧)، والبزار في مسنده (٤/ ٦٩)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٦٧) برقم: (١٩٦٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٢٥)، وضعيف الترغيب (٨٧٧).

وهذا على فرض ثبوته محمولة على أنَّ التباكي مندوب إليه، ومعناه أن يتدبَّر القارئ آيات القرآن، ويستحضر معانيها، مع الحرص على الخشوع، وليس المقصود ما يفعله بعض القراء من تصنُّع البكاء وتكلُّفه، فالبكاء الصادق ما يجلبه التدبُّر لآيات القرآن وهذا الذي كان عليه السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن التفاعل مع الآيات الذي يعين على التدبُّر: أن يقف المتدبِّر عند آية الوعد فيسأل الله من فضله، وعند آية الوعيد فيستجير بالله من عقابه.

عَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ)[١].

فجمع ﷺ بين القراءة، والذكر، والدعاء، والتفكر؛ لأن الذي يسأل عند السؤال، ويتعوّذ عن التعوذ، ويسبِّح عن التسبيح؛ لا شك أنه يتأمَّل قراءته ويتفكَّر فيها، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر؛ قراءة وتسبيحاً ودعاءً وتفكُّراً، والنبي ﷺ في هذا كله لم يركع[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧٦هـ): (ويستحبُّ هذا السؤال والاستعاذة والتسبيح لكلِّ قارئ؛ سواء كان في الصلاة أو خارجاً منها)[٣].

وهذا حال الصحابة والسلف الصالح، ومن شواهد ذلك:

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٧).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٩٤).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (٩٢).

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً أسيفاً رقيق القلب، إذا صلَّى بالناس وقرأ القرآن؛ لا يتمالك نفسه من البكاء[1].

ومرض عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أثَر سماع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧-٨] [2].

وعن عبدالله بن شداد (٨٢هـ)[3]قال: سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف، فسمعت نشيجه[4]، وإني لفي آخر الصفوف، وهو يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي

---

(١) يدلُّ لذلك حديث عَائِشَةَ ل قَالَتْ: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بِلاَلٌ يُوذِنُهُ بِالصَّلاَةِ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَى مَا يَقُمْ مَقَامَكَ لاَ يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ**» فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لاَ يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، قَالَ: «**إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ**». والحديث أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧١٢) في كتاب الأذان، باب من أسمع الناس تكبير الإمام، وفي مواطن أخرى. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤١٨) في كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض أو سفر وغيرهما من يصلي بالناس.

(٢) وذلك في الخبر الذي أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٩٣) برقم: (١٠٠) قال: (سمع عمر بن الخطاب، رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[الطور:٧-٨]، فجعل يبكي حتى اشتدَّ بكاؤه. ثم خرَّ يضطرب. فقيل له في ذلك فقال: دعوني، فإني سمعت قسم حق من ربي) . وبنحوه نقل ابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٦٠٧) قال: (خرج عمر يعسّ المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف فسمع قراءته يقرأ: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[الطور:٧-٨]، فقال: قسم ورب الكعبة حق، ونزل عن حماره واستند إلى الحائط، فلبث ملياً ثم رجع على منزله، فلبث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) .

(٣) **عبد الله بن شداد** = بن الهاد، أبو الوليد الليثي المديني، من كبار التابعين وثقاتهم، نزل الكوفة، وورد المدائن في صحبة عَلِيّ بن أَبِي طالب لما خرج إلى حرب الخوارج بالنهروان، وقتل بدجيل سنة اثنتين وثمانين. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ١٢٦)، تاريخ بغداد (٩/ ٤٨٠)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٨).

(٤) **النشيج**= الصَّوْت مَعَه توجع. وَيُقَال: النشيج فِي الْبكاء مثل بكاء الصَّبِي اذا ردده فِي صَدره ثمَّ يُخرجهُ.

=

﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦][1].

وحين قَرَأَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سُورَةَ مَرْيَمَ فَلَمَّا بَلَغَ آيَةَ السَّجْدَةِ فيها، وهي قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨] سَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا السُّجُودُ فَأَيْنَ البكِيُّ؟، يريد: فأين البكاء)[2].

قال الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ (١٠٣هـ): (إذا قرأتم القرآن فاقرؤوه قراءة تسمعه آذانكم، وتفهمه قلوبكم، فإنَّ الأذنين عدْل بين اللسان والقلب، فإذا مررتم بذكر الله فاذكروا الله، وإذا مررتم بذكر النار فاستعيذوا بالله منها، وإذا مررتم بذكر الجنة فاسألوها الله)[3].

وسيأتي الكلام بتفصيل عن أخبار السلف الصالح مع التدبُّر بمزيد بيان[4].

الخامس: قصد الانتفاع والامتثال.

إنَّ قصد الانتفاع بتدبُّر القرآن يشمل مقاصد ونيات عظيمة، تدفع المرء للمسارعة إلى قراءة القرآن وتدبُّره، وكثرة الاشتغال به وصحبته.

والمراد: أَن يرفع الصَّوْت بالبكاء فِي الصَّلَاة حَتَّى يُسمع فَلَا يقطع ذَلِك الصَّلَاة. انظر: غريب الحديث للقاسم ابن سلام (٣/ ٣٣٧)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٤٧٨).

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١٤) برقم: (٢٧١٦)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٣٧)، وسعيد بن منصور في السنن (٥/ ٤٠٥) برقم: (١١٣٨)، وذكره البخاري تعليقاً في باب إذا بكى الإمام في الصلاة من كتاب الأذان، وذكره المروزي في مختصر قيام الليل (١٤٢)، وابن الجوزي في مناقب عمر (١٥٩).

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١٨/ ٢١٥)، وانظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ١٥٩).

(٣) ذكره عنه ابن بطال في شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٧٣)، ولم أقف عليه عند غيره.

(٤) في المبحث الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول.

فالانتفاع يحصل بتحقُّق العلم والعمل، والشفاء، والإيمان والخشية، وتهذيب السلوك، وتحصيل الثواب، فمتى قرأ المسلم القرآن وتدبَّره مستحضراً الامتثال والانتفاع به؛ كان انتفاعه بالقرآن أعظم، وأجره أكبر، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[(١)].

فمن قرأ القرآن وجد فيه العلم النافع، وأعطي عليه الثواب الجزيل.

قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ هذا القرآن كائن لكم ذخرًا، وكائن لكم أجرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتْبَعنكم القرآن، فإنه من يتْبَع القرآن يهبط به في رياض الجنة، ومن يتْبَعه القرآن يزخُّ في قفاه حتى يقذفه في جهنم).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (القرآن حجيج يوم القيامة فلكُم أو عليكُم)[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

ثمَّ قال سبحانه بعدها: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧].

وفي هذا إشارة إلى أنَّ حياة القلوب تكون بذكر الله تعالى وما نزل من الحق وهو القرآن؛ كما أنَّ حياة الأرض الميتة تكون بالماء.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧١هـ) في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر:٢١]: (حثَّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدِّعة، أي متشققة من خشية الله)[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه ص (١٢١).

(٢) ذكر هذه النصوص المروزي في مختصر قيام الليل (١٧٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٤٤).

وقال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٦هـ)[١]: (إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، وأما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقَّه وتلذَّذوا به واستحلّوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا)[٢].

"فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنيّة صادقة على ما يحبُّ الله أفهمه كما يجب، وجعل في قلبه نوراً"[٣].

ومن انتفاع المتدبِّر بالقرآن: أن يرجع إليه في كل موقف يمرُّ به من مواقف الحياة، ويعرض نفسه على القرآن دائماً، ليعرف مدى التأثر والانتفاع به.

وقد حرص السلف على ذلك، ومن وصاياهم:

قال الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٥٠هـ): (اقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ، فَإِذَا لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤُهُ)[٤].

وجعلوا ذلك هو المعتبَر، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرَؤُهُ)[٥].

---

[١] **أحمد بن أبي الحواري**= أبو الحسن، الزاهد، من قدماء مشايخ الشام، من أهل دمشق تكلم في علوم المحبة والمعاملات، وصحب أبا سليمان الداراني، وأخذ الزهد من أبيه أبي الحواري، ثقة كبير في العبادة والمحل، ولد عام ١٦٤هـ، وتوفي سنة ٢٤٦هـ. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٤٧)، وتاريخ مولد العلماء ووفياتهم (١/ ٣٨١)، حلية الأولياء (١٠/ ٥)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٧١/ ٢٤٥-٢٥٣).

[٢] نقله عنه ابن رجب في لطائف المعارف (١٧٣).

[٣] الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦).

[٤] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٣٤)، وعزاه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٤٠٦) إلى مكحول، وعزاه البقاعي في مصاعد النظر (١/ ٤٠٦) إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وروي مرفوعاً إلى النبي ﷺ وهو ضعيف. انظر: تخريج أحاديث الإحياء (٣٢٥)، السلسلة الضعيفة للألباني (٢٥٢٤).

[٥] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٢١٣)، وانظر: جمال القراء (١٨٩).

والمتدبِّر لكتاب الله يقرأ القرآن بنيَّة الانتفاع به والعمل، فيبحث عن علم ليعمل به، فيقف عند أوامره ليأتمر بها، ونواهيه فينتهي عنها، ويربي النفس على المقاصد والمطالب العالية، مراقباً الله تعالى في قوله وفعله، وذلك يحقق مقصوده.

ومن المقاصد التي يقصدها المتدبِّر في الانتفاع بالقرآن: تحصيل الأجر والثواب، وهذا باب كبير واسع، وقد وردت جملة من النصوص التي تؤكِّد عظيم الأجر لقارئ القرآن[1]، والمتدبِّر فيه[2]، ومن ذلك:

١- عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[3].

٢- وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»[4].

٣- وعن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[5].

---

[1] وقد صنفت مصنفات في فضائل القرآن يحسن الرجوع إليها في ذلك، ومنها: فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ولابن الضريس، وللفريابي، وللنسائي، والمستغفري، وابن كثير، وغيرهم.

[2] وقد سبق في التمهيد بيان حثِّ الشارع على التدبر، والنصوص الواردة فيه.

[3] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه برقم: (٢٩١٠) وقال عنه: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في تخريج الطحاوية (١٣٩)، والمشكاة (٢١٣٧).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨٠٤) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

[5] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨١٧) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[(١)].

٥- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَصْفَرَ مِنْ خَيْرٍ، مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ. وَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ، خَرِبٌ كَخَرَابِ الْبَيْتِ الَّذِي لَا سَاكِنَ لَهُ)[(٢)].

والنصوص في هذا الباب كثيرة، وإيراد بعضها هنا من أجل ترسيخ هذا القصد وتعزيزه في نفس المتدبِّر.

ومن المقاصد التي يقصدها المنتفع بالقرآن المتدبِّر له: الاستشفاء به في علاج القلب من الشبهات والشهوات، والبدن من الأمراض، والهمِّ والحزن والضيق.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فالقرآن شفاء للقلوب من أمراض الشهوات والشبهات والوساوس كلها، وشفاء للأبدان من الأسقام، فمتى استحضر العبد هذا المقصد فإنه يحصل له الشفاءان: الشفاء العلمي المعنوي، والشفاء المادي البدني بإذن الله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٩) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكر.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٨) برقم: (٥٩٩٨)، والدارمي في سننه (٤/ ٢٠٨٣) برقم: (٣٣٥٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣٠).

والاستشفاء بالقرآن يكون بالرقية به، وبالقيام به آناء الليل وآناء النهار، وخاصة في جوف الليل الآخر، وهذا يحقق شفاء القلب النفسي بسبب ما يحصل من عمق في فهم القرآن وفقه آياته، وفهم للنفس والحياة، حيث يمتلئ القلب بنور الله تعالى وآياته فيتّسع وينشرح فلا يبقى فيه مكان للشهوات أو الشبهات أو الوساوس المقلقة[1].

السادس: العمل بالقرآن.

وهذا هو ثمرة التدبُّر وغايته، فالغاية الكبرى من إنزال القرآن، تصديق أخباره، والعمل به، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وليس الغرض من إنزاله التلاوة اللفظية وهي القراءة الصحيحة التي يكون القارئ فيها متحلياً بأجمل الصفات وأشرف الخصال، تعظيماً لله تعالى، وتأدباً مع كلامه؛ فإنَّ هذا وإن كان مطلوباً إلا أنَّ التلاوة الحكمية التي عليها مدار السعادة أو الشقاء؛ هي اتباع القرآن.

فالعمل بالقرآن بعد فهمه وتدبُّره من أوجب الواجبات، وهو الذِي عليه مَدار السعادةِ والشقاوةِ في الدنيا والآخرة التي جاءت في قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣- ١٢٧].

فَبيَّن الله في هذه الآيات ثوابُ المتَّبعين لآياته؛ أنهم لا يَضلّونَ ولا يَشقَونَ، ونَفْيُ الضلالِ والشقاءِ عنهم يتضمَّن كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

---

[1] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٥٥-٥٨)، وسيأتي مزيد بيان لذلك في المبحث الخامس من الفصل الثاني في هذا الباب.

وأما عقاب المعرضين عنه المتكبِّرين عن العمل به، فهو الشقاء والضلال في الدنيا والآخرة: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فهو في دُنياه في هَمٍّ وقَلقِ نَفْس، ليس له عقيدةٌ صحيحةٌ، ولا عمل صالح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. ومنه: أنه بعد موته في ضيْقٍ وضَنكٍ، يضيَّق عليه قبرُه، وفي حشره أعمى لا يبصر: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء:٩٧]، فهمْ لَمَّا عَمُوا في الدُّنيا عن رُؤْيَةِ الحقِّ وصَمُّوا عن سَماعِه وأمْسكُوا عن النطق به، كانت عاقبتهم الخسران: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت:٥][1].

لقد ورد الأمر في القرآن بوجوب العمل به في مواضع عدة من كتاب الله، منها:

الأول: قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ القرآن، يرغِّب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبُّره والعمل به والدعوة إليه، وَوَصْفِهِ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين)[2].

الثاني: قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

---

[1] انظر: مجالس شهر رمضان لشيخنا ابن عثيمين (٦٤).

[2] تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٢) ط. الكتب العلمية، ورجعت هنا لهذه الطبعة؛ لسقط هذا الموضع من طبعة السلامة، المعتمدة في البحث كله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته)[١].

الثالث: وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١]، قال عطاء[٢] ومجاهد[٣] في معنى الآية: (يعملون به حق عمله).

وفي قوله: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ مبالغة في صفة اتباعهم، ولزومهم العمل به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وكذلك لفظ التلاوة فإنها إذا أطلقت في مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١] تناولت العمل به، كما فسَّره بذلك الصحابة والتابعون؛ مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ يتبعونه حقَّ اتباعه، فيحلُّون حلاله، ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه)[٤].

الرابع: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. أي: والذين يعمَلون بما يعلَمُون يهديهم الله لما لا يعلَمون[٥].

قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ): (إنما قَصُرَ بنا عن علم ما جَهلنا تقصِيرُنا في العمل بما علِمنا، ولو عمِلْنا ببعضِ ما علِمْنا لأوْرِثْنا عِلماً لا تقوم به أبداننا، قال الله تعالى:

---

[١] تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠١).

[٢] تفسير مجاهد (٢١٢)، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٨).

[٣] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٩).

[٤] مجموع الفتاوى (٧/ ١٦٧).

[٥] من كلام العباس الهمذاني أبو أحمد، من أهل عكا - ولم أقف على ترجمته -، أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٨٤) برقم: (١٧٤٥١)، ونقله ابن كثير في التفسير (٦/ ٢٩٦).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢])[١].

فما سبق من الآيات وغيرها[٢]، يدلُّ دلالة واضحة على وجوب اتباع القرآن والعمل به، وهي إما آيات صريحة جاءت بفعل الأمر ﴿اتَّبِعُوا﴾ وهو دال على الوجوب بلفظه، وإما بأمر الله لنبيه ﷺ، باتباع ما أوحي إليه وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكما هو معلوم أن الأمر للنبي ﷺ أمر لأمته مالم يأت تخصيص له ﷺ[٣].

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا يغرَّنّكم من قرأ القرآن، إنما هو كلام يَتكلَّم به، ولكن انظروا من يعمل به)[٤].

فتلاوة كتاب الله تعني تلاوته عن تدبُّر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل وسلوك بعد ذلك، وهذا يدخل في العلم الذي يُسأل عنه العبد بعد موته، لما روى أبو برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»[٥].

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦٣هـ)[٦]: (ثمَّ إني موصيك يا طالبَ العلم بإخلاص

---

[١] انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٣٢٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٦٤).

[٢] انظر: فضائل القرآن للقاسم بن سلام (٨١).

[٣] انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (٢١٣-٢١٥).

[٤] أخرجه سعيد بن منصور في سننه، انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٩٣) برقم: (١٢٧)، وأخرجه أيضاً الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (٧١) برقم: (١٠٩).

[٥] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٦١٢) برقم: (٢٤١٧) وقال عنه: حديث حسن صحيح، وأخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤٥٢) برقم: (٤٤٥)، والروياني في مسنده (٢/ ٣٣٧) برقم: (١٣١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠)، وفي السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

[٦] **الخطيب البغدادي**= أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، أبو بكر الخطيب البغدادي، العلامة المفتي، الحافظ الناقد، محدث الوقت، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وطلب العلم ورحل فيه، وتقدم في =

النيَّة في طلبه، وإجهادِ النفس على العمَل بموجبه، فإنَّ العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً)[1].

ولحديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[2].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٠هـ): (إنَّكم اتخذتم قراءة القرآن مراحِل، وجعلتم الليل جَملاً تركبونه، فتقطعون به المراحِل، وإنَّ من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربِّهم، فكانوا يتدبَّرونه بالليل، وينفِّذونه بالنهار)[3].

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (أُنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتّخذوا درسه عملاً، إنَّ أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به)[4].

وعلى العمل بالقرآن درج السلف الصالح من هذه الأمة، فهم يتعلَّمون القرآن ويصدِّقون به، ويطبقونه في شؤون حياتهم، حتى كان أحدهم يتلقَّى القرآن ليعمل به فور سماعه، فيقوم بتنفيذ أحكامه في خاصة شأنه، وشأن المجتمع الذي يعيش فيه.

وكما ورد الترغيب في العمل بالقرآن الكريم، ورد كذلك الوعيد الشديد والتهديد الأكيد في الدنيا والآخرة لمن ترك العمل به، فلم يحِلَّ حلاله، ويحرِّم حرامه، ولم يأتمر بأمره، وينته عن نهيه، فمن ذلك:

عامة فنون الحديث، وكان إمام عصره بلا مدافعة، وحافظ وقته بلا منازعة، وسارت بتصانيفه الركبان، صنف قريباً من مائة مصنف، صارت عمدة لأهل الحديث، توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ٣١)، وفيات الأعيان (١/ ٩٢)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٧٠).

(١) اقتضاء العلم العمل (١٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٢٣) في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء.

(٣) ذكره عنه أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٠٧)، والغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٥)، وابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٣٩).

(٤) المصادر السابقة.

عن سَمُرةَ بن جنْدُب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟**»، قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى**» قَالَ: «**قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟**»... - فذكر الحديث بطوله- وفيه أنهما أخبراه أنَّ هذا الرجل: «..**الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ**...»[1].

قال ابن هبيرة رَحِمَهُٱللَّهُ (٥٦٠هـ): (رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة، لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه فلمَّا رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس).

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ (٨٥٢هـ): (ويحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة، وترك العمل)[2].

فترك العمل بالقرآن والإعراض عنه؛ من أنواع هجره الذي حذَّرنا الله منه، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان:٣٠] ففي الآية أعظم تخويف لمن هجر القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٤٣) في كتاب التهجُّد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصلِّ بالليل. وبرقم: (٧٠٤٧) في كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢/ ٤٤٤)، وكذلك كلام ابن هبيرة نقله عنه ابن حجر، ولم أقف عليه عند غيره.

وقد ذمَّ الله سبحانه اليهود على تركهم العمل بما في التوراة من العقائد والعبادات والآداب والأخلاق، وشبَّههم بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفاراً من كتب العلم النافع، وهو لا يدرك ما على ظهره من الخير، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

"فقاس من حمَّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبَّره ويعمل به ويدعو إليه؛ ثمَّ خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب- فقراءته بغير تدبُّر ولا تفهُّم ولا اتباع ولا تحكيم له وعمل بموجبه - كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظُّه من كتاب الله كحظِّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضُرب لليهود فهو متناوِل من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقَّه، ولم يرعَه حقَّ رعايته"(١).

فالاكتفاءُ بالتلاوة دون عمل - وهو من لوازم التدبّر- مصيبةٌ عظيمةٌ، وكسر لا ينجبر، وقد مثَّل الله سبحانه في القرآن الكريم لمن يحمل العلمَ ولا ينتفع به بأسوأ وأقبح مَثَل، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فيُخشى على من قرأ القرآن ولم يتدبَّره، ويتأثرْ به، ويعملْ به أن يلحقَه شيء من ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (القرآن حجَّة لمن عمل به واتَّبع ما فيه، وحجة على من لم يعمل به ولم يتَّبع ما فيه، فمن أوتي علم القرآن فلم ينتفع به، وزجرته نواهيه فلم يرتدِع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه)(٢).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٢٧).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (٧٠).

وقال مكي بن أبي طالب القيسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٣٧هـ): (أولى الناس بهذا القرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وإنَّ أشقى الناس بهذا القرآن من حفظه ولم يعمل بما فيه... فليتق الله حامل القرآن في نفسه وليخلص الطلب والعمل لله، فإن كان قد تقدم له شيء مما يكره فليبادر إلى التوبة والإنابة من ذلك. وليبدأ بالإخلاص في طلبه وعمله فالذي يلزَمُ حامِلَ القرآن من التحفُّظ أعظمُ مما يلزم غيره، كما أنَّ له من الأجر ما ليس لغيره)[١].

إنَّ هجر العمل بالقرآن الكريم سبب من أسباب الفتنة وعلامة من علامات الساعة، فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيُتَّخَذُ سُنَّةٌ، فَإِنْ غُيِّرَتْ يَوْمًا، قِيلَ: هَذَا مُنْكَرٌ)، قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: (إِذَا قَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَتُفِقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ)[٢].

لقد ربَّى نبينا ﷺ أصحابه على ألا يتجاوزوا الآيات حتى يعملوا بما فيها؛ فنشأ جيل تسابق في الاستجابة لأوامر الله تعالى ونواهيه، قادر على الاستدلال بآيات القرآن واستنباط الأحكام منها، ويدعو من حوله وفق نهج القرآن الكريم.

ومما يبيِّن ضرورة العمل بالقرآن، وأثره على المتلقي، ما ذكره ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ) عن نفسه بقوله: (لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه. ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون

---

(١) الرعاية (٧٣-٧٦).

(٢) أخرجه عنه معمر بن راشد في جامعه (١١/ ٣٥٩) برقم: (٢٠٧٤٢)، والدارمي في سننه (١/ ٢٧٨) برقم: (١٩١)، ونعيم بن حماد في كتاب الفتن (١/ ٤٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٥٢) برقم: (٣٧١٥٦)، والشاشي في مسنده (٢/ ٩٠) برقم: (٦١٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٠) برقم: (٨٥٧٠).

بالجواب، لئلا ينكسر الجاه، وإن وقع خطأ. ولقيت عبد الوهاب الأنماطيَّ، فكان على قانون السلف، لم تسمع في مجلسه غيبةٌ، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق، بكى، واتصل بكاؤه، فكان -وأنا صغير السن حينئذ- يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيت الشيخ أبا منصور الجَوَالِيْقِيَّ، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقنًا، محققًا، وربما سئل المسألة الظاهرة، التي يبادر بجوابها بعض غلمانه، فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثير الصوم والصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما ففهمت من هذه الحالة أنَّ الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم، فقل الانتفاع بهم في حياتهم، ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد يلتفت إلى مصنفاتهم.

فالله الله في العلم بالعمل، فإنه الأصل الأكبر، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدم مفلسًا، على قوة الحجة عليه)[1].

إنَّ من صور هجر العمل بالقرآن: أنَّ بعض أهله اتخذوا تلاوته مهنة يتكسَّبون بها، وبعضهم اتخذه للطرب والترنُّم بأصوات قارئيه عند تلاوته فحسب، وأسوأ من هذا وذاك أن يتخذه البعض لمجرد التبرُّك في بداية أعمالهم، كما تفعل كثير من وسائل الإعلام عند افتتاح برامجها وعند ختامها.

نسأل الله السلامة والعافية، وأن يجعلنا ممن يقيمون حدود القرآن ويعملون بأحكامه ويؤمنون بمتشابهه، وأن يوفقنا للقيام بحقه حق القيام.

---

(١) صيد الخاطر (١٥٨-١٥٩).

- المطلب الثاني: سنن التدبُّر.

أولاً: الالتزام بآداب التلاوة، ومنها:

أ- الطهارة والسواك:

وتشمل طهارة البدن، وطهارة المكان، وطهارة اللباس، وطهارة الفمِّ، بعد طهارة القلب ونقاؤه من الشرك والشك والرياء.

أما طهارة البدن فقد اتفق العلماء ﷺ على أنَّ الجُنُب لا يجوز له مسُّ المصحف أو القراءة للقرآن حتى يغتسل.

وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي: لا يجوز للجنب قراءة القرآن، ويجوز لغير المتوضىء.

وقال أحمد وداود: تجوز قراءة القرآن للجنب، ورخص مالك في قراءة اليسير منه كالآية والآيتين[(١)].

"وقد شاع بين المسلمين من عهد الصحابة العمل بألاَّ يتلوَ القرآن من كان جنباً، ولم يُوثر عنهم إفتاء بذلك"[(٢)].

أما الطهارة من الحدث الأصغر فقد اشترطها بعض العلماء لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩]، ولم يشترطها آخرون، ومما لا شك فيه أنَّ الأفضل والأولى هو الطهارة من الحدث الأصغر أيضًا، ولم يشترط أحد من أهل العلم الوضوء على قارىء القرآن.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (يستحب أن يقرأ وهو على طهارة، فإن قرأ مُحْدِثاً جاز بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة، قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب

---

(١) انظر: المحلى لابن حزم (١/ ٩٤-٩٥)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/ ٥٥)، روضة الطالبين للنووي (١/ ١٢١)، شرح الزركشي على مختصر الخرقي (١/ ٢٠٦)، رد المحتار (١/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٣٧).

مكروها بل هو تارك للأفضل)[١].

وأما طهارة المكان فيستحبُّ أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحبَّ جماعة العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعاً للنظافة وشرَف البقعة؛ أما القراءة في الطريق وعلى الراحلة ونحو ذلك فالصحيح أنها جائزة غير مكروهة إذا لم ينشغل القارئ عن قراءته، فإن انشغل عنها يكره مخافة الخلْط.

ولا يجوز أن يقرأ القرآن في الأماكن النجسة سواء كانت نجاسة حسِّية كالحمامات ونحوها، أو نجاسة معنوية كالملاهي وحانات الخمور والفسق والفجور.

وطهارة اللباس والتطيُّب عند التلاوة من الآداب المحمودة، ومن أخبار السلف في ذلك: ما روي عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤٠هـ) أنه إِذَا قَامَ بِاللَّيْلِ فَتَهَجَّدَ بِاللَّيْلِ اغْتَلَفَ بِالْغَالِيَةِ[٢] - وهي أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر-.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعجبه الثياب الحسنة النظيفة والريح الطيب إذا قام إلى الصلاة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قرأ اعتمَّ، ولبس ثيابه، وارتدى، واستقبل القبلة[٣].

وطهارة الفم مستحبة أيضاً عند تلاوة القرآن الكريم، لما روى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَتَسَمَّعَ لِقِرَاءَتِهِ فَيَدْنُو مِنْهُ؛ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلَكِ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرْآنِ**»[٤].

---

[١] التبيان في آداب حملة القرآن (٧٣)، ولم أقف على كلام إمام الحرمين.

[٢] ذكره عنه المروزي في مختصر قيام الليل (١١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٥٢)، وذكره القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ مرفوعاً إلى النبي ﷺ في كتاب التذكار في أفضل الأذكار (١٣٣)، ولعله وهم منه رَحِمَهُ اللَّهُ لأني لم أقف عليه عند غيره مرفوعاً.

[٣] ذكره عنه المروزي في مختصر قيام الليل (١١٢)، والقرطبي في التذكار في أفضل الأذكار (١٣٢).

[٤] **صحيح**. رواه البزار في مسنده (٢/ ٢١٤) وقال عنه: (وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ =

وكان رسول الله ﷺ إِذَا قَامَ لِيَتَهَجَّدَ يَشُوصُ فَاهُ بِالسِّوَاكِ[1]لأنه كان يريد الصلاة والقرآن، وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[2]، لأنَّ المستنَّ يطهِّر الفم لقصده إلى التلفُّظ بحروف القرآن وهو راجع إلى تعظيم القرآن[3].

وقال يزيد بن أبي مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠هـ)[4]: (إنَّ أفواهكم طرق من طرق الله تعالى، فنظِّفوها ما استطعتم). قال الراوي: (فما أكلت البصل منذ قرأت القرآن) [5].

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨هـ): (مَا أَكَلْتُ الْكُرَّاثَ مُنْذُ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ)[6].

بإسناد أحسن من هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موقوفًا)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٩٩): رجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢١٣).

[1] رواه البخاري في صحيحه في كتاب الوضوء، باب السواك برقم: (٢٤٥)، وفي كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة برقم: (٨٨٩)، وفي كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل برقم: (١١٣٦). وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة، باب الوضوء برقم: (٢٥٥).

[2] **صحيح**. رواه البخاري في كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم، معلقاً بصيغة الجزم عن عائشة، وأخرجه الشافعي في المسند (١/ ١٤)، وإسحاق بن راهويه (٢/ ٣٨٥)، وأحمد في مسنده (٤٠/ ٣٩٠) برقم: (٢٤٣٣٢)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٧٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/٣٤٨). وقال الحافظ في الفتح (٤/١٥٨): (وصله أحمد والنسائي وابن خزيمة وابن حبان). وصححه الألباني في الإرواء (٦٦).

[3] انظر: التذكار في أفضل الأذكار (١٣٢).

[4] **يزيد بن أبي مالك**= يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، هانئ الهمداني،الفقيه،قاضي دمشق، كان من فقهاء الشام ثقة، قضى لهشام بن عبد الملك، ومات سنة ثلاثين ومائة وهو ابن اثنين وسبعين سنة، وتوفي بدمشق في خلافة مروان بن محمد آخر سلطان بني أمية. انظر: تاريخ دمشق (٦٥/ ٢٨٠)، تهذيب الكمال (٣٢/ ١٨٩).

[5] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١١٨)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ١٩٦).

[6] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١١٧)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ١٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٥٢).

وقال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢٠هـ): (من حرمة القرآن أن لا تمسَّه إلا طاهراً، وأن تقرأه وأنت على طهارة، وأن تستاك، وأن تتخلَّل وتطيب فإنَّ هذا طريقه، وأن تستوي قاعداً إن كنت في غير صلاة ولا تكون متكئاً، وأن تتلبس له كما تتلبَّس للدخول على الأمير لأنك مناج،... وأن تتمضْمضَ كلما تنخَّع)[(١)].

ب- استقبال القبلة والتهيؤ للتلاوة:

يستحبُّ للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة ويجلس متخشِّعاً بسكينة ووقار، وهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً أو مضطجعاً أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر ولكنه دون الأول.

كما يستحبُّ أن يستوي قاعداً في غير الصلاة تأدباً مع القرآن، وإذا شرع في القراءة فينبغي أن لا يشتغل عنها ولا يقطعها ولا يخللها بكلام الآدميين إلا لضرورة، وإذا استمع القرآن أن يصغي وينصت للتلاوة، ويترك الكلام والضحك، ولا يعبث ولا يكثر من الحركة لغير حاجة.

وكذلك يستحبُّ أن يرفع المصحف بيده أو على شيء مرتفع أمامه ولا يضعه على الأرض لما في ذلك من الامتهان.

وإذا تثاءب استحبَّ أن يمسك عن القراءة لأنه مخاطب ربه ومناج له [(٢)].

ج- الاستعاذة والبسملة:

فإن أراد الشروع في القراءة استعاذ بأي صيغة من صيغ التعوُّذ بالله الواردة، عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨].

وهي دواء نافع لكل نزغات الشيطان، وتمنع بإذن الله من الوسواس أثناء القراءة.

---

(١) نوادر الأصول (٣/ ٢٥٣).

(٢) انظر: التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (١٣٢-١٣٤)، والتبيان للنووي (٧٩-٨١).

فلما كان الشيطان ساعياً في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم؛ كانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك، فلهذا السبب أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة، حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان، والكريم سبحانه لا يردُّ من يلجأ إليه ويستعيذ به، ثمَّ يقرأ البسملة بعد الاستعاذة بأن يقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد أجمع العلماء على مشروعية البسملة عند تلاوة كل سورة من سورة القرآن الكريم سوى براءة.

قال شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢١هـ): (وفائدةُ الاستعاذة: ليكون الشيطانُ بعيداً عن قلب المرءِ، وهو يتلو كتابَ الله حتى يحصُل له بذلك تدبّرُ القرآن وتفهّمُ معانيه، والانتفاعُ به؛ لأنَّ هناك فَرْقاً بين أن تقرأ القرآنَ وقلبُك حاضرٌ وبين أن تقرأ وقلبُك لاهٍ.إذا قرأته وقلبُك حاضرٌ حصل لك من معرفة المعاني والانتفاعِ بالقرآن ما لم يحصُلْ لك إذا قرأته وأنت غافل، وجرّبْ تجدْ)[(١)].

د- تحسين الصوت بالقراءة الصحيحة:

يستحب لقارئ القرآن أن يحسِّن صوته بالقراءة، لأنَّ تحسين الصوت بالقراءة والتغنِّي به معين على حضور القلب وخشوعه وباعث على حسن الاستماع والإصغاء إلى القرآن.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»[(٢)].

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»[(٣)].

---

(١) الشرح الممتع (٣/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٥٢٧) في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٣-٥٠٢٤) في كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغنَّ بالقرآن، وبرقم: (٧٤٨٢) في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾

=

وتحسين الصوت بالقراءة هو التحبير الذي جاء في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ لِأَبِي مُوسَى: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[1]، قُلْتُ: (لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِي لَحَبَّرْتُهَا لَكَ تَحْبِيرًا)[2].

"وهذا الوصف هو الذي يتأتّى منه الغرض من التلاوة، وهو التدبُّر والتأمل، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، كما أنه هو الوصف الذي يتأتّى معه الغرض من تخشع القلب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣] ولا تتأثَّر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلاً، فإذا كان هذًّا كالشعر أو الكلام العادي لما فهم، وإذا كان مطرباً كالأغاني لما أثَّر، فوجب الترتيل كما بيَّن ﷺ"[3].

وقد استحبَّ تحسين الصوت بالقراءة وتزيينه ما لم يخرج عن حدِّ القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفًا او أخفاه فهو حرام[4].

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣] ولم يقل: ماذا خلق ربكم؟، وبرقم: (٧٥٤٤) في باب قول النبي ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع الكرام البررة**». وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩٣) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٤٨) في كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩٣) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن.

[2] قول أبي موسى أخرجه أبو يوسف في الآثار (٤٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٥)، والبزار في المسند (٨/ ١٤٢)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٢٩) برقم: (٥٩٦٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٨٣) برقم: (٢٣٦٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤١).

[3] انظر: أضواء البيان (٨/ ٣٥٨).

[4] انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (١٠٩-١١٠)، والإتقان للسيوطي (١/ ٣٧٢).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (إنَّ للمدِّ حدودًا معلومة في التجويد حسب تلقِّي القرَّاء ﷺ، فما زاد عنها فهو تلاعب، وما قلَّ عنها فهو تقصير في حقِّ التلاوة.

ومن هذا يعلم أنَّ المتَّخذين القرآن كغيره في طريقة الأداء من تمطيط وتزيُّد لم يراعوا معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، ولا يمنع ذلك تحسين الصوت بالقراءة، كما في قوله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[(١)])[(٢)].

والتغني: هو التطريب والتلحين وتزيين الصوت بالقراءة، كما جاء عن النبي ﷺ والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

والتغني بالقرآن يحصل بالتلحين، وشدِّ الصوت بإعمال جميع مخارج الحروف، وكلما كانت القراءة بتغنٍّ كانت أقوى تأثيراً، وأقوى توصيلاً للمعاني إلى القلب، وأكبر أثراً في خشوع القلب.

وحسن الصوت له ارتباط قوي بخشوع القلب؛ فكل واحد منهما يؤثر في الآخر من حيث أنَّ خشوع القلب يؤدي إلى قوة التغني، وقوة التغني تؤدي إلى خشوع القلب، وهكذا يتعاضدان في الترقي والصعود.

والتغني الصحيح هو المرتبط بخشوع القلب وفهم الآيات، أما المنفك عن التدبُّر والفقه والتأمل في الآيات؛ فهو مذموم لا خير فيه[(٣)].

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٤٥١) برقم: (١٨٤٩٤)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٦٨)، وابن ماجه في سننه (١/ ٤٢٦) برقم: (١٣٤٢)، وأبو داود في سننه (٢/ ٧٤) برقم: (١٤٦٨)، والنسائي في سننه (٢/ ١٧٩) برقم: (١٠١٦)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥) برقم: (٧٤٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٦١) برقم: (٢٠٩٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٨٠).

(٢) أضواء البيان (٨/ ٣٥٨).

(٣) انظر: مفاتح تدبر القرآن (٧٨) بتصرُّف.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٣هـ): (وقد سمعت تاج القراء ابن لفتة[١] بجامع عمرو يقرأ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، فكأني ما سمعت الآية قط، وسمعت ابن الرفاء[٢]-وكان من القرَّاء العظام- يقرأ، وأنا حاضر بالقرافة[٣]: فكأني ما سمعتها قط، وسمعت بمدينة السلام[٤]؛ شيخ القرَّاء البصريين، يقرأ في دار بها المِلك: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج:١] فكأني ما سمعتها قط، حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] فكأنَّ الإيوان قد سقط علينا.

والقلوب تخشع بالصوت الحسن، كما تخضع للوجه الحسن، وما تتأثر به القلوب في التقوى فهو أعظم في الأجر، وأقرب إلى لين القلوب، وذهاب القسوة منها.

وكان ابن الكازروني[٥]يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) **القَرَافَةُ**= بالفسطاط من مصر، وقرافة: بطن من المعافر نزلوها فسمّيت بهم، وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين، مثل: ابن طولون والماذرائي، وبها قبر الإمام الشافعي. انظر: معجم البلدان (٤/ ٣١٧)، الروض المعطار (٤٦٠). والمقصود في كلام ابن العربي جامع القرافة، وهو معروف حتى اليوم في مصر، وسمي أيضاً بجامع الأولياء. انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٢٥).

(٤) **مدينة السلام**= هي بغداد عاصمة جمهورية العراق اليوم، وسمّيت مدينة السّلام لأنّ دجلة كان يقال لها وادي السّلام، فلمّا بنيت عليه سمّيت به، وقد بناها المنصور، وفرغ من بنائها سنة ستّ وأربعين ومائة. انظر: المسالك والممالك (١/ ٤٣٦)، معجم البلدان (١/ ٤٥٦).

(٥) لم أقف على ترجمته.

يقرأ في مهد عيسى[1]، فيسمع من الطُّور[2]، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً طول قراءته إلا الاستماع إليه.

وكان صاحب مصر الملقَّب بالأفضل[3] قد دخلها في المحرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وحوَّلها عن أيدي العباسية، وهو حنِقٌ عليها وعلى أهلها بحصاره لهم وقتالهم له، فلما صار فيها، وتدانى بالمسجد الأقصى منها، وصلى ركعتين، تصدَّى له ابن الكازروني، وقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦] فما ملك نفسه حين سمعه أن قال للناس على عظم ذنبهم عنده، وكثرة حقده عليهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

---

[1] **مهد عيسى**: موضع مشهور، والأقرب أنه ببيت لحم في فلسطين، وهي بلدة في القدس، قرب البيت المقدس عامر حفل، فيه سوق وبازارات، ومكان مهد عيسى بن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. انظر: معجم البلدان (١/ ٥٢١).

[2] **الطّور**: جبل بيت المقدس، ممتدّ ما بين مصر وأيلة، سمّى بطور بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهو الذي نودى منه موسى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: ٤٦]، وهو طور سيناء، الذي قال سبحانه: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. انظر: معجم ما استعجم (٣/ ٨٩٧)، معجم البلدان (٤/ ٤٧).

[3] **الملك الأفضل**= أمير الجيوش الأفضل، شاهنشاه، ابن الملك بدر الجمالي، الأرمني، كان أبوه نائبا بعكا، فسار في البحر في ترميم دولة المستنصر العبيدي، فاستولى على الإقليم، وأباد عدة أمراء، ودانت له الممالك إلى أن مات، فقام بعده ابنه هذا، وعظم شأنه، وأهلك نزاراً ولد المستنصر صاحب دعوة الباطنية، وكان شجاعاً، وافر الهيبة، عظيم الرتبة، حسن الاعتقاد، سنياً، حميد السيرة، كريم الأخلاق، قتل: في رمضان، سنة خمس عشرة وخمس مائة، وله ثمان وخمسون سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٠٧).

والأصوات الحسنة نعمة من الله تعالى، وزيادة في الخلق ومنة، وأحق ما لبست هذه الحلة النفيسة والموهبة الكريمة كتاب الله؛ فنعم الله إذا صرفت في الطاعة فقد قضي بها حقّ النعمة)[1].

كما ينبغي لتالي القرآن وقاصد التدبُّر أن يحرص على القراءة الصحيحة، ويُقصَد بها أمران:

الأول: (من حيث المقروء) وهي القراءة التي وافقت القراءات المعروفة، وهي: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحَّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردُّها ولا يحلُّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها "[2].

الثاني: (من حيث القارئ) بأن يقرأ القرآن الكريم قراءة سليمة النطق، بإخراج الحروف من مخارجها، والمد في موضعه، والغنّ في موضعه، والوصل حيث يقتضيه المعنى، والوقف حيث يوجبه المعنى.

ثانياً: ترتيل القرآن أثناء تلاوته:

وعدم العجلة؛ إذ المقصود هوالفهم وليس الكمُّ ؛ فيقرأ القرآن على تؤدة، ويرتله ترتيلاً ولا يهذُّه هذًّا؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، أي بتمهّل وترسُّل؛ فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبُّره[3].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٢هـ) عند قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]: (وظاهر هذه الآية يعطي أنَّ التدبُّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذاً أفضل من الهذِّ، إذ التدبُّر لا يكون إلا مع الترتيل)[4].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٤-٥).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (١/ ٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٠)، فتح القدير (٥/ ٣٧٩).

(٤) المحرر الجيز (٤/ ٥٠٣).

ومما يدلُّ على ضرورة الترتيل؛ قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١]، فالاستعجال في التلاوة يفوِّت على القارئ خيراً عظيماً، والتمهُّل في قراءة القرآن أدعى للفهم والتدبُّر، وهذه صفة قراءة النبي ﷺ والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

ولما راجع عبد الله بن عمرو بن العاص النبي ﷺ في قراءة القرآن لم يأذن له في أقل من ثلاث ليالٍ وقال: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[١].

فدلَّ على أنَّ فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته لا مجرَّد التلاوة.

وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ...)[٢].

وعن حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: (كَانَ ﷺ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا)[٣]. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: (لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً أُرَتِّلُهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِغَيْرِ تَرْتِيلٍ)[٤].

---

[١] سبق تخريجه في التمهيد ص (٥٤).

[٢] رواه الطيالسي في مسنده (٣/ ٩٧) برقم: (١٦٠٠)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٩٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧١١) برقم: (١٣١٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٢٤)، وأبو عوانة في المستخرج (٢/ ٥٦).

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً، وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً برقم: (٧٣٣).

[٤] لم أقف عليه مسنداً، ذكره النووي في التبيان (٨٩)، والسفيري في المجالس الوعظية (١/ ٢٤٣)، والقاري في مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٠٣)، والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ١٩٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)[1].

وقَرَأَ عَلْقَمَةُ عَلَى عَبْدِ اللهِ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: (رَتِّلْ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، فإنه زَيْنُ القرآن)[2].

وقد نهي عن الإفراط في الإسراع ويسمى (الهذرمة) فثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا قال له: اقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود: (هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ)[3].

وسُئِلَ مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٦هـ) عن رجلَين: قرأ أحدهما البقرة وآل عمران، والآخر قرأ البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما سواء، قال: (الذي قرأ البقرة وحدها أفضل، وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦])[4].

وأكثر العلماء يستحبُّون الترتيل في القراءة ليتدبَّره القارئ ويفهم معانيه.

---

[1] أخرجه أبو يوسف في الآثار (٤٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٣٢)، والآجري في أخلاق أهل القرآن (٣٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠)، وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٠٧)، وذكره البغوي في تفسيره (٨/ ٢٥١)، وابن كثير (٨/ ٢٥٠).

[2] أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢٢٥) برقم: (٥٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥٥) برقم: (٨٧٢٤)، والمروزي في قيام الليل (٢٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٧٥) برقم: (١٩٧٣).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٧٥) في كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في ركعة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨٢٢) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذّ، وهو الإفراط في السرعة، وإباحة سورتين فأكثر في ركعة.

[4] انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٧٣)، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي (٨٩).

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (واعلم أنَّ الترتيل مستحب لا لمجرد التدبُّر، فإنَّ العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحبُّ له أيضًا في القراءة الترتيل والتؤدة ; لأنَّ ذلك أَقْرَبُ إِلَى التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ وأشدُّ تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال)[١].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (وقراءة جزء بترتيل؛ أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل)[٢].

ثالثاً: ترديد الآيات وتكرارها:

إنَّ هدف التكرار هو التوقُّف لاستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار زادت المعاني التي تفهم من النص؛ إذ هو وسيلة للفهم والتدبُّر.

وحين نتأمَّل حال نبينا ﷺ وحال صحابته الكرام، وتابعيهم بإحسان، وأهل الصلاح والتقى؛ نجد أنهم بلغوا غاية التدبُّر بتكرار الآيات وترديدها، وسأذكر جملة من أخبارهم في ذلك:

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً[٣].

وعن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى أَصْبَحَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨][٤].

وعَن أَبِي ذَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضاً قَالَ: جعل رَسُول الله ﷺ يَتْلُو هَذِه الْآيَة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، فَجَعَلَ يُرَدِّدُهَا عَلَيَّ حَتَّى

---

[١] إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٧).

[٢] المجموع شرح المهذَّب (٢/ ١٦٥).

[٣] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (١/ ٥٧٠) برقم: (٤٤٨)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٤٤٨).

[٤] سبق تخريجه ص(٥٦).

نَعَسْتُ، ثمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُمْ»[1].

وقَامَ رَجُلٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ مِنَ السَّحَرِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] يُرَدِّدُهَا لاَ يَزِيدُ عَلَيْهَا[2].

وعن الْفُرَافِصَةَ الْحَنَفِيَّ[3] قَالَ: (مَا أَخَذْتُ سُورَةَ يُوسُفَ إِلَّا مِنْ قِرَاءَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ إِيَّاهَا فِي الصُّبْحِ)، مِنْ كَثْرَةِ مَا كَانَ يُرَدِّدُهَا لَنَا[4].

وعن عَبَّادُ بن حَمْزَة قال: دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ تَقْرَأُ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧]، قَالَ: فَوَقَفتْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو، قَالَ عَبَّادٌ: فَذَهَبْتُ إِلَى السُّوقِ، فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو[5].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٣هـ) أنه ردد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، حتى أصبح[6].

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٣٦) برقم: (٢١٥٥١)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥٣) برقم: (٦٦٦٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٥٩) برقم: (٢٤٧٤)، والحاكم في المستدرك وصححه (٢/ ٥٣٤) برقم: (٣٨١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٠٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، برقم: (٥٠١٤).

(٣) **الفرافصة بن عمير بن شيبان الحنفي**= مدني تابعي ثقة، وذكره البغوي في الصحابة، وهو ختن عثمان بن عفان، وله قصة في تزويج عثمان ابنته نائلة، ووثقه ابن حبان. انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ١٧٦)، الإصابة (٥/ ٢٧٧)، الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٧/ ٤٩٩).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٨٢) برقم: (٣٥)، والشافعي في المسند (١/ ٢١٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٨٢) برقم: (١٠٩٠).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٥) برقم: (٦٠٣٧).

(٦) ذكره عنه أبو شامة في المرشد الوجيز (١٩٦)، والنووي في التبيان في آداب حملة القرآن (٨٦).

وعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤٠هـ) أنه كرَّرَ هَذه الآية حَتى أصْبَح: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:٢١][1].

وورد نحو ذلك عن الربيع بن خثيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٣هـ)[2].

ولما توفي عمرو بن عتبة بن فرقد رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٠هـ)[3]دخل بعض أصحابه على أخته، فقال: أخبرينا عنه. فقالت: (قام ذات ليلة فاستفتح سورة ﴿حم﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، فما جاوزها حتى أصبح)[4].

وقرأ عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٠هـ)[5] ليلة من سورة المؤمن فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، لم يزل يرددها حتى أصبح[6].

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٣٣)، وأبو داود في الزهد (٣٢٧).

(٢) انظر: سير السلف الصالحين للأصبهاني (٧٦٣).

(٣) **عَمْرو بن عتبَة بن فرقد السلمي** = تابعي جليل من أهل الكوفة، من الْعباد، ثقة قليل الحديث، يروي عَن جمَاعَة من الصَّحَابَة، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود، روى عَنْهُ أهل الْعرَاق، قتل بتستر فِي خلَافَة عُثْمَان. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٢٠٦)، الثقات للعجلي (٢/ ١٨٠)، الثقات لابن حبان (٥/ ١٧٣)، تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٨٦٧).

(٤) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٠٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ١٤٣)، وذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٨٦٧).

(٥) **عامر بن عبد الله**= المعروف بعامر بن عبد قيس التميمي العنبري البصري، تابعي ثقة، من سادات التابعين وعبَّادهم، كان يقرئ الناس، وروي عن عطاء الخراساني أن قبره ببيت المقدس، وقيل: توفي زمن معاوية في حدود السبعين للهجرة. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥)، الوافي بالوفيات (١٦/ ٣٣٥)، الإصابة (٥/ ٦٠).

(٦) أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٤٧)، وانظر: المرشد الوجيز لأبي شامة (١٩٦).

وكان سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٤هـ) يَؤُمُّ الناس في رمضان ويُرَدِّدُ هذه الآية: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ [غافر:٧١]، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] يردِّدُها مرَّتين أو ثلاثاً[١].

وورد عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ردد قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا ﴾ [البقرة:٢٨١]، في الصلاة بضعاً وعشرين مرَّة[٢].

وقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة يردد قول الله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩][٣].

وعن صالح بن سعيد المؤذن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]، قال: (بينما أنا مع عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) بالسُّوَيْدَاء[٥]، فأذَّنت للعشاء الآخرة، فصلى، ثم دخل القصر، فقلَّما لبث أن

---

[١] أخرجه عنه عبدالرزاق في المصنف (٢/ ٤٩١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢٤) برقم: (٨٣٦٩)، وانظر: مختصر قيام الليل للمروزي (١٤٨)، فضائل القرآن للمستغفري (١/ ١٦٢)، التبيان في آداب حملة القرآن (٨٦).

[٢] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٤٧)، وانظر: حلية الأولياء (٤/ ٢٧٢)، سير السلف الصالحين (١/ ٧٨١)، تهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٤).

[٣] ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٢).

[٤] **صالح بن سعيد = أبو طالب المؤذِّن**، سمع من عمر بن عبد العزيز وحكى عنه، روى عنه سعيد بن السائب، وعلي بن يونس البلخي. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٣٣٢) برقم: (٢٨٠٨).

[٥] **السُّوَيْدَاء**= تصغير سوداء: وهي قرية بحوران من نواحي دمشق، مدينة بقرب دمشق بينهما ستة فراسخ، وهي على رأس جبل، حصينة، وحواليها مزارع وأشجار الزيتون والكروم، وماؤها من عين تجتمع في بركة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٨٦)، والروض المعطار في خبر الأقطار (٣٣٠).

وهي اليوم مدينة في سوريا، وتعتبر مركز محافظة السويداء، وتقع على بعد ١٠٠ كم جنوب مدينة دمشق. انظر: موسوعة ويكيبيديا على شبكة الانترنت.

خرج، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى، فافتتح الأنفال، فما زال يردِّدها ويقرأ، كلما مرَّ بآية تخويف تضرَّع، وكلما مرَّ بآية رحمة دعا ؛ حتى أذَّنت للفجر)[1].

وقال مقاتل بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ): (صلَّيت خلف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]، فجعل يكرِّرها لا يستطيع أن يجاوزها - يعني من البكاء-)[2].

وروي عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ)، أنه كان يصلي ذات ليلة فقرأ: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر:٧١-٧٢]، وجعل يرددها ويبكي حتى أصبح[3].

وكان الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٥هـ)[4]، إذا تلا قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر:١٦]، ردَّدها إلى السَّحر[5].

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٥) برقم: (٣٥٠٩٥).

[2] أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٩٠) برقم: (٩٤)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٤٠٢) برقم: (٢٢٦٧).

[3] ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين (٥٦٤).

[4] **الضحاك بن مزاحم الهلالي**= أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني، ولد ببلخ، هو أحد أئمة التفسير العظام، لقي جماعة من التابعين ولم يشافه أحداً من الصحابة، ومن زعم أنه لقي ابن عباس فقد وهم إنما لقي سعيد بن جبير بالري فأخذ عنه التفسير، وثَّقه أحمد بن حنبل وأبو زرعة ويحيى بن معين، كان معلماً مؤدباً للصبيان، توفي سنة ١٠٢هـ، وقيل ١٠٥هـ، وقيل ١٠٦هـ. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٠٠)، الثقات لابن حبان (٦/ ٤٨١)، الكامل في ضعفاء الرجال (٥/ ١٤٩)، تهذيب الكمال (١٣/ ٢٩١).

[5] ذكره عنه النووي في التبيان في آداب حملة القرآن (٨٦).

وعن مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٨هـ) أنَّه قَال: (لَأَنْ أَقْرَأَ فِي لَيْلَتِي حَتَّى أُصْبِحَ بـ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿الْقَارِعَةُ﴾ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِمَا، وَأَتَرَدَّدُ فِيهِمَا وَأَتَفَكَّرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهُذَّ الْقُرْآنَ لَيْلَتِي هَذًّا) أَوْ قَالَ: (أَنْثُرُهُ نَثْرًا).

وردد الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٠هـ) ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: (إنَّ فيها معتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر)[١].

وكان محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ (١٢٣هـ)[٢]، يجعل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:١] وِرْداً، يردِّدها ويبكي[٣].

وصلى سليمان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٤٣هـ)[٤] بعد العشاء الآخرة مرة فقرأ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١] حتى أتى على قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك:٢٧] جعل يرددها إلى الفجر[٥].

---

[١] مختصر قيام الليل للمروزي (١٤٨).

[٢] **محمد بن واسع**= بن جابر بن الأخنس بن عابد بن خارجة بن زياد، يكنى أبا عبد الله. عابد، ثقة، صالح، وَكَانَ من الْعباد المتقشفة، والزهاد المتجردة لِلْعِبَادَةِ، خرج إِلَى خُرَاسَان غازياً، وَكَانَ فِي فتح مَا وَرَاء النَّهر مَعَ قُتَيْبَة بن مُسلم، مات سنة ثلاث وعشرين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٤١)، التاريخ الكبير (١/ ٢٥٥)، رجال صحيح مسلم (٢/ ٢١٥)، تهذيب الكمال (٢٦/ ٥٧٦)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١١٩).

[٣] أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٢٨٠) برقم: (٤٢٨)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٤٨)، وانظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ١٨٨).

[٤] **سليمان التيمي**= ابن طرخان، أبو المعتمر التيمي البصري، كان ينزل في بني تيم فقيل: التيمي، من حفاظ البصرة، وكان مقدما في العلم والعمل، ومن العباد المجتهدين، كثير الحديث، ثقة، توفي بالبصرة، في ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعين ومائة، وهو ابن سبع وتسعين سنة. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤)، سير السلف الصالحين (٧٩٠)، تهذيب الكمال (١٢/ ٥)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٩٥).

[٥] أخرجه عنه المروزي في مختصر قيام الليل (٦٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٩).

وقام الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ) ليلة بهذه الآية: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]، ويبكي ويتضرَّع إلى الفجر(١).

وعن رجل من أهل مكة قال: (صلَّيت العشاء الآخرة في المسجد الحرام وجلست فيه طويلاً، ثم انقلبت فأمرُّ مما يلي الظلال التي تلي دار الندوة، فإذا أنا برجل قائم يصلي وهو يردد هذه الآية: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم ﴾ [الزخرف:٨٠]، يرددها ويبكي، فمكثت ليلاً طويلاً أسمعه ثم انصرفت إلى منزلي فنمت، حتى إذا كان آخر الليل أتيت المسجد فإذا أنا بالرجل قائماً وهو يردِّد الآية: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ ﴾ [الزخرف:٨٠] ويبكي، حتى إذا قلت: قد طلع الفجر أو قرب طلوعه، قال: ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠]، فجلست إلى جنبه حتى صليت معه الصبح، فالتفتُّ فإذا أنا بسفيان الثوري)(٢).

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٥هـ)(٣): (ما رأيت أحداً الخوف والخشوع أظهرُ على وجْهه من الحسَن بن حي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦٧هـ)(٤)، قام ليلة حتى أصبح بـ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ:١]،

---

(١) أخرجه عنه الصُّميري في أخبار أبي حنيفة وأصحابه (٥٦)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٦)، والنووي في تهذيب الأسماء والصفات (٢/ ٢٢١)، وذكره الذهبي في السير (٦/ ٤٠١).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٦٣).

(٣) **أبو سليمان الداراني**= عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، الإمام، الكبير، زاهد العصر، واسطياً سكن دمشق، ولد في حدود الأربعين ومائة، توفي سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل: مات سنة خمس ومائتين. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٥/ ٢١٤)، وفيات الأعيان (٣/ ١٣١)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢).

(٤) **الحسن بن صالح بن حيّ الهمداني**= واسم حي: حيان بن شفي بن هني بن رافع، الإمام الكبير، أحد الأعلام، أبو عبد الله الهمداني، الثوري، الكوفي، الفقيه، العابد، ولد سنة مائة، وثقه أحمد وابن معين، وأبو حاتم، وأبو زرعة الرازي وقال: اجتمع فيه حسن إتقان، وفقه، وعبادة، وزهد، مات سنة سبع وستين ومائة، وهو ابن سبع وستين سنة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٣٧٥)، الكامل في ضعفاء الرجال (٣/ ١٤٦)، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم (١/ ٣٨٥)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦١).

يردد آية فغشي عليه، ثم عاد إليها، فغشي عليه، فلم يختمها حتى طلع الفجر)[1].

وقال محمد بن عوف الحمصي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٢هـ)[2]: (رأيت أحمد بن أبي الحواري عندنا بأنطرسوس[3]، فلما أن صلى العتَمة قام يصلي على الحائط، فاستفتح بـــ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:١-٥]، فطفت الحائط كله، ثم رجعت إليه، فإذا هو لا يجاوز: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ثم رجعت فنمت ليلتي جمعاء، فلما كان السَّحر قبل انشقاق الفجر مررت به وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فلم يزل يرددها من العتمة إلى الصبح)[4].

وقال أحمد بن سهل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]: (كنت ألازم غريماً لي إلى بعد عشاء الآخرة أو نحو هذا، وكنت ساكناً في جوار بكار بن قتيبة (٢٧٠هـ)[6]، فانصرفت إلى منزلي، فإذا هو

---

(١) أخرجه عنه ابن الجعد في مسنده (٣٠٥) برقم: (٢٠٥٩)، والمروزي في قيام الليل (١٤٨)، وذكر القصة الذهبي في السير (٧/ ٣٦٩).

(٢) **محمد بن عوف الحمصي**= الحافظ أبو جعفر الطائي، روى عنه أبو داود والنسائي، وأثنى عليه غير واحد، توفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين، قال أحمد بن حنبل: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثله، حدث عن هشام بن عمار وطبقته، واتفقوا على فضله وصدقه وثقته. انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٢٠٦).

(٣) **أَنْطَرطُوس**= بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص، بها قبر المأمون بن الرشيد، وبها أسواق عامرة وتجارات دائرة. انظر: معجم البلدان (١/ ٢٧٠).

وسميت في العهد البيزنطي: طرطوس، وهو اسمها حتى اليوم، وهي مركز محافظة طرطوس في سوريا، ومدينة ساحلية مشهورة، تقع على ساحل البحر الأبيض ناحية الغرب، وتبعد ٣٠كم عن الحدود اللبنانية، و٢٦٠كم عن دمشق، وفيها الكثير من المعالم التاريخية، منها القلعة. انظر: موسوعة ويكيبيديا على الانـترنت.

(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٧١/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٨٧).

(٥) **أحمد بن سهل بن بويه الهروي**= جاء ذكره في القصة، في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٧٠)، ولم أقف على ترجمته.

(٦) **بكار بن قتيبة**= بن أسد بن عبيد الله بن بشير الثقفي، ابن صاحب رسول ﷺ أبي بكرة نفيع بن الحارث =

يقرأ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى: ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:٢٦]، فوقفت أسمع عليه طويلاً، ثم انصرفت، فقمت في السَّحر على أن أصير إلى منزل الغريم، فإذا هو يقرأ هذه الآية يردِّدها ويبكي، فعلمت أنه كان يقرؤها من أول الليل)[١].

ومما سبق يتَّضح أثر تكرار الآيات وتردادها؛ في تدبُّر القرآن والعيش معه.

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (وَإِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّدَبُّرِ إِلَّا بِتَرْدِيدٍ فَلْيُرَدِّدْ إِلَّا أَنْ يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبُّر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً، مثل من يشتغل بالتعجُّب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكِّر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس)[٢].

وقال ابن عجيبة الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٢٤هـ): (فإنَّ القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وقد كان من السلف من يبقى في السورة يكررها أياماً، وفي الآية يرددها ليلة وأكثر، كلَّما رددها ظهر له معان أُخر)[٣].

رابعاً: معرفة أحكام الوقف والابتداء والعمل بها:

وهو فن جليل، وبه يَعرف كيفية أداء القرآن، وتترتَّب عليه فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة، وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات.

الثقفي، البكراوي، البصري، القاضي الكبير، العلامة، المحدث، أبو بكرة الفقيه، الحنفي، ولد عام اثنين وثمانين ومائة، بالبصرة، وعني بالحديث، وكتب الكثير، وبرع في الفروع، وصنف، واشتغل، وكان من قضاة العدل، توفي سنة سبعين ومائتين، عاش تسعاً وثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٩٩).

[١] أخرجه عنه ابن المقرئ في المعجم (١٣٢) برقم: (٣٦٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٧٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٠٠).

[٢] إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٢).

[٣] تفسير البحر المديد (٤/ ٣٠٦).

وهو من الموضوعات التي لابد لقارئ القرآن الكريم أن يعرفها ويتدبَّر قواعدها؛ إذ بها يعرف المراد من الكلام، ويتبين المغزى من فصيح اللسان، ويتيسر على السامع فَهْمُ ما يتلى عليه من آيات وأحكام، وبه تعرف المنازل التي يصح أن يقف عليها القارئ، وتتضح المعاني التي تعين على التدبُّر.

وهو العلم الذي تعرف به المواضع التي يجب على قارئ القرآن أن يقف عليها وقفاً جائزاً أو واجباً أو قبيحاً، وقد اهتمَّ به العلماء، ونصَّ على تعلّمه أئمة الأداء.

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢٨هـ): (ومن تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه؛ معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التام، والوقف الكافي، الذي ليس بتام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف)[١].

وقد تواتر عند العلماء تعلُّمه، والاعتناء به، وكلامهم في ذلك معروف ونصوصهم عليه مشهورة في الكتب.

قال الصفاقسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١١٨هـ) مبيناً أهميته: (ومعرفة الوقف والابتداء متأكِّد غاية التأكيد، إذ لا يتبين معنى كلام الله ويتمُّ على أكمل وجه إلا بذلك، فربما قارئ يقرأ ويقف قبل تمام المعنى فلا يفهم هو ما يقرأ، ومن يسمعه كذلك، ويفوت بسبب ذلك ما لأجله يقرأ كتاب الله تعالى، ولا يظهر مع ذلك وجه الإعجاز، بل ربما يُفهم من ذلك غير المعنى المراد، وهذا فساد عَظيم، ولهذا اعتنى بعلمه وتعليمه والعمل به المتقدِّمون والمتأخرون، وألَّفوا فيه من الدواوين المطولة والمتوسطة والمختصرة ما لا يعدُّ كثرة، ومن لم يلتفت لهذا ويقف أين شاء فقد خرق الإجماع، وحاد عن إتقان القراءة وتمام التجويد)[٢].

---

[١] إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله (١٠٨).

[٢] تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين (١٢٨).

ولا شكَّ أن من فوائد هذا العلم: إفادة معنىً جديد مبتكر غير المعنى المتبادر من الوقف المعتاد، وفي معرفته؛ "تبيين معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده، وبه يتهيَّأ الغوص على درره وفوائده"[١]، مما يعين على تدبُّر كلام الله تعالى.

الآثار الدالة على وجوب معرفة الوقف والابتداء:

وردت نصوص صريحة تبين عناية النبي ﷺ بالوقوف، واختياره لمواضع يحسن الوقوف عليها والابتداء بما بعدها، وقد أخذ القرآن مشافهة عن جبريل المعلِّم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقد وصفت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عناية النبي ﷺ بالوصل والوقف علمياً وعملياً، حين سئلت عن قراءة النبي ﷺ فَإِذَا هِيَ تَنْعَتْ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا، قالت: (كان يقطِّع قِرَاءته يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، وكان يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾)[٢].

وقد اعتبرت هذه الكيفية في تلاوة القرآن لدى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدثنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزِل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقِف عنده منها، كما تعلمون أنتم اليوم القرآن)[٣].

فهذا "يدلُّ على أنهم كانوا يتعلَّمون التمام كما يتعلَّمون القرآن، وقول ابن عمر: (لقد عشنا برهة من الدهر) يدلُّ على أنّ ذلك إجماع من الصحابة"[٤].

---

[١] انظر: التمهيد في علم التجويد لابن الجزري (١٦٦).

[٢] سبق تخريجه ص (٥٨).

[٣] ذكره عنه المروزي في مختصر قيام الليل (١٧٩)، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٨٤)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٢٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٠).

[٤] القطع والائتناف للنحاس (١/ ١٢).

وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤] قال: (الترتيل: معرفة الوقوف، وتجويد الحروف)[١].

قال ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٣٣هـ): (ففي كلام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دليل على وجوب تعلُّمه ومعرفته، وفي كلام ابن عمر برهان على أنَّ تعلُّمه إجماع من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وصحَّ بل تواتر عندنا تعلُّمه والاعتناء به من السلف الصالح... ومن ثَمَّ اشترط كثير من أئمة الخلف على المجيز أن لا يجيز أحداً إلا بعد معرفته الوقف والابتداء)[٢].

وذكر ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧ هـ)[٣]عن الصحابة أنهم كانوا يراعون في الوصل والوقف تمام المعنى فقال: (إني لأقشعر من قراءة أقوام يرى أحدهم حتماً عليه ألا يقصر عن العشر، إنما كانت القراءة تقرأ القصص إن طالت أو قصرت) [٤].

وقال عبد الله بن أبي الهذيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: (إذا قرأ أحدكم الآية فلا يقطعها حتى يتمَّها)[٦].

وفي حديث أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ**

---

[١] ذكره عنه ابن جبارة اليشكري في الكامل في القراءات (٩٣)، وابن الجزري في النشر (١/ ٢٢٥).

[٢] النشر في القراءات العشر (١/ ٢٢٥).

[٣] **ميمون بن مهران**= ويكنى أبا أيوب، ثقة، كثير الحديث، ولد سنة أربعين، وكان الغالب على أهل الجزيرة في الفتوى والفقه، مات سنة سبع عشرة ومائة، في خلافة هشام بن عبد الملك. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٤٧٧)، تاريخ دمشق (٦١/ ٣٣٦)، تهذيب الكمال (٢٠/ ٢١٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٧١).

[٤] أخرجه عنه أبو عمرو الداني في المكتفى في الوقف والابتداء (٥).

[٥] **عبد الله بن أبي الهذيل**= القدوة العابد الإمام، أبو المغيرة العنزي الكوفي، تابعي ثقة، روى عن أبي بكر، وعمر مرسلاً، وعن علي، وعمار، وأُبيّ، وابن مسعود، وخبَّاب، وأبي هريرة، ووثقه النسائي، توفي في ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ١١٥)، الثقات للعجلي (٢٨٢)، تهذيب الكمال (١٦/ ٢٤٤)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٧٠).

[٦] أخرجه عنه ابن الجزري في النشر (١/ ٢٣٩).

قُلْتَ: سَمِيعًا عَلِيمًا، عَزِيزًا حَكِيمًا، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ»[1].

قال أبو عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٤٤هـ): (فهذا تعليم التمام من رسول الله ﷺ عن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إذ ظاهره دالٌّ على أنه ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذكر النار والعقاب، ويفصل مما بعدها إن كان بعدها ذكر الجنة والثواب، وكذلك يلزم أن يقطع على الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب، ويفصل مما بعدها أيضاً إن كان بعدها ذكر النار والعقاب)[2].

وقال السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٤٣هـ) معقباً: (وإنما أراد أن القارئ إذا وصل ذلك غير المعنى، وقلَبَه، لأنه إذا قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الرعد:٣٥] غير المعنى، وصيَّر الجنة عقبى الكافرين!)[3].

أمثلة تطبيقية على الوقف والابتداء:

- في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ ۞ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

- وفي سورة المائدة: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ۞ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣١-٣٢].

- وفي الأنفال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤].

---

[1] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢١١٥٠)، وأبو داود في سننه برقم: (١٤٧٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٢٧).

[2] المكتفى في الوقف والابتداء (٣).

[3] جمال القراء وكمال الإقراء (٦٧٠).

- وفي الصافات: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:١٢٥-١٢٦].

- وفي سورة غافر: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٧٠-٧٤].

- وفي الجاثية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧].

- وفي الذاريات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٦-١٧]. والمعنى: أنَّ المحسنين قليل في الناس، وهم من الليل لا ينامون، وبعبادة ربهم يقومون.

- وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

- وفي سورة البروج: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦].

- وفي البينة: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة:١-٢]

والذي يلزم القراء أن يتجنَّبوا الوقف عليه ألا يفصلوا بين العامل وما عمل فيه، كالفعل وما عمل فيه من فاعل ومفعول، وحال وظرف ومصدر، ولا يفصلوا بين الشرط وجزائه، ولا بين الأمر وجوابه، ولا بين الابتداء وخبره، ولا بين الصلة والموصول، ولا بين الصفة والموصوف، ولا بين البدل والمبدل منه، ولا بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا يقطع على

المؤكّد دون التوكيد، ولا على المضاف دون المضاف إليه، ولا على شيء من حروف المعاني دون ما بعدها.

فبإحسان الوقف تتبدَّى للسامع فوائده الوافرة، ومعانيه الفائقة، وتتجلّى للمتدبِّر مقاصده الباهرة ومناحيه الرائقة، التي لم تستَعِن العرب على فهمها بمادة خارجة عنها، بل فهمته بفضل طباعها التي بها نُزّل القرآن وعليها فُصّل[1].

خامساً: القراءة والقيام بالقرآن في صلاة:

وردت جملة من النصوص التي تؤكِّد أهمية القراءة في الصلاة وخاصة في قيام الليل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:١-٦].

وقول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

وقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

---

[1] من المراجع التي يحسن الرجوع إليها في الموضوع: كتب الوقف والابتداء لابن الأنباري وابن النحاس والداني، ومنار الهدى في الوقف والابتداء للأشموني، وغيرها كثير مما صنِّف في ذلك.

فالفضل يزيد، والأجر يتضاعف إن جعل القارئ المتدبِّر قراءته في الصلاة، وخاصة صلاة الليل والقيام به.

ومما جاء في السنة قول المصطفى ﷺ من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[١].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»[٢].

وفي هذا نصٌّ صريح على أنَّ من وسائل حفظ القرآن وتدبُّر معانيه وتثبيتها في القلب؛ القيام به، وقراءته في الصلاة، وأنَّ عدم القيام به سبب لنسيانه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٩٣هـ): (لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، وييسِّر فهمه؛ إلا القيام به في جوف الليل)[٣].

وروت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله ﷺ قام ليلة يتعبَّد لله، فلم يزل يبكي ليلته تلك حتى سألته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن بكائه فقال ﷺ: «**لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ**

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٥) في كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، وبرقم: (٧٥٢٩) في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨١٥) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلِّمه، وفضل من تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٨٩) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهُّد القرآن، وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيتها.

[٣] حكاه عنه تلميذه الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر: أضواء البيان (٨/ ٣٥٩).

فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١] »[١]. فدلَّ هذا على علاقة التدبُّر في الآيات بقيام الليل.

إنَّ قيام الليل بالقرآن من السنن التي تعين على تدبُّره وفهمه واستشعار الخطاب فيه، ثمَّ العمل به ؛ فمن كان يقوم به آناء الليل وآناء النهار غالباً ما يكون وقافاً عند كتاب الله تعالى، آمنا مطمئناً في جميع المواقف، متماسكاً ثابتاً حتى في أصعب الظروف.

وفي سيرة المصطفى ﷺ تربية على هذا المعنى العظيم، فنجد أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٢]، ويطيل قراءة القرآن، كما في صلاة الكسوف[٣].

---

[١] سبق تخريجه ص (٥٧).

[٢] كما جاء من حديث حُذَيْفَةُ بن اليمان قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى. أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢٩٩)، والمروزي في قيام الليل (١/ ٢٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩١٣)، وأبو داود في سننه (١٣١٩)، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٧٢)، والألباني في صحيح أبي داوود (١٣١٩).

[٣] يدلُّ له ما أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٠٤٦) في كتاب الجمعة، باب خطبة الإمام في الكسوف، عن عَائِشَةَ ل قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَخَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، فَصَفَّ النَّاسُ وَرَاءَهُ، فَكَبَّرَ فَاقْتَرَأَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ قِرَاءَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهَّ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقَامَ وَلَمْ يَسْجُدْ، وَقَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً هِيَ أَدْنَى مِنَ القِرَاءَةِ الأُولَى، ثُمَّ كَبَّرَ وَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ أَدْنَى مِنَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهَّ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَاسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي أَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، وَانْجَلَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ، ثُمَّ قَامَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «هُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهَّ، لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاَةِ». وأخرجه أيضاً برقم: (١٠٤٧) في كتاب الجمعة، باب هل يقول كسفت الشمس أو خسفت؟، وبرقم: (١٠٥٨) في كتاب الجمعة، باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته. وبرقم: (٣٢٠٣) في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»[١]، وفي هذا دلالة واضحة على أنَّ الأصل في القيام بالحزب من القرآن هو الليل، وفي حالة العذر فإنه يعطى الثواب نفسه إذا قضاه في النهار.

ولو لم يكن في القراءة داخل الصلاة إلا الانقطاع عن الشواغل والملهيات لكفى، فإنَّ المصلي إذا دخل في الصلاة حرم عليه الكلام والالتفات والحركة من غير حاجة، ولا يقاطعه أحد ولا يشغله ما دام في صلاته، فهذا أعون على التدبُّر وأجمع للقلب.

وهنا **مسألة: أيهما أفضل: تدبُّر القرآن في الصلاة أم في غيرها؟**.

الذي يظهر -والله أعلم- أنَّ ذلك يختلف بحسب حال القارئ؛ فمن الناس من يكون التدبُّر في الصلاة أنفع له، ومنهم من يكون خارج الصلاة أنفع له، فالأمر يختلف باختلاف الحال.

فقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء من حيث الجملة؛ لكن قد يكون المفضول أفضل من الفاضل في بعض الأحوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٢٨هـ): (وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالمفضول أكثر بحسب حاله إما لاجتماع قلبه عليه، وانشراح صدره له، ووجود قوته له، مثل من يجد ذلك في الذكر أحياناً دون القراءة فيكون العمل الذي أتى به على الوجه الكامل أفضل في حقه من العمل الذي يأتي به على الوجه الناقص، وإن كان جنس هذا أفضل، وقد يكون الرجل عاجزاً عن الأفضل فيكون ما يقدر عليه في حقه أفضل له والله أعلم)[٢].

وإنَّ أفضل القراءة في الصلاة، القراءة في صلاة الليل، لأنَّ الليل — خاصة وقت السحر— من أفضل الأوقات للتذكُّر، فالذهن يكون في أعلى مستوياته بسبب الهدوء

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٤٧) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

[٢] مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٩).

والصفاء، وبسبب بركة الوقت، حيث النزول الإلهي وفتح أبواب السماء[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (ينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة الليل أكثر... وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرُّف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل فإنَّ الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً، وحديث: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»[2] الحديث)[3].

فأفضل القراءة في الصلاة قراءة صلاة الليل؛ لأنه وقت الصفاء والتركيز؛ حيث لا أصوات تشغل الآذان، ولا صور تشغل العين، فيحصل التركيز التام الذي يؤدي إلى قوة التدبُّر والتفكير، وقوة الحفظ والرسوخ لألفاظ القرآن ومعانيه قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨]. والله أعلم.

سادساً: المداومة على قراءة القرآن حفظاً، والنَّظر فيه:

إنَّ طول النَّظر والتأمُّل في القرآن، وتكرار ذلك؛ يؤتي صاحبه دُّربة وملكة على التدبُّر، وهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

---

[1] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٧١).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٤٥)، في كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، وبرقم: (٦٣٢١) في كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، وبرقم: (٧٤٩٤) في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٥٨) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه.

[3] التبيان في آداب حملة القرآن (٦٣-٦٤).

وعَنِ الْبَرَاءِ بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[2].

فالسكينة والرحمة والذكر مقابل التلاوة المقرونة بالدراسة والتدبُّر.

وفي يوم القيامة يُدخل القرآن قارئه الجنة.

فعن أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»[3].

وعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[4].

فالإكثار من تلاوته، بمثابة طرْق الباب، وتنتج عنها الألفة والعشرة والمعايشة، فمن تقرَّب من القرآن تقرَّب منه، ومن عاش معه عايشه، ومن أعطاه من وقته وجهده؛ وهبه الله من التدبُّر ما يستقيم به حاله، وبصَّره بأسراره وكوامنه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠١١) في كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩٥) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضائل القرآن.

(٢) سبق تخريجه ص (٥٤).

(٣) سبق تخريجه (١٥١).

(٤) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٦٧٩٩)، وأبو داود في سننه (١٤٦٤)، والترمذي في سننه (٢٩١٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في سننه (٨٠٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٤٣) برقم: (٧٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٣٩) برقم: (٢٠٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨١) برقم: (١٨٤٤). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٧)، وفي صحيح الجامع (٨١٢٢).

والمداومة على قراءة القرآن والنَّظر فيه؛ تعوِّد القارئ على الخطاب القرآني، مما ينمِّي لديه ملكة التدبُّر الصحيح.

وكما يحسُن بالمتدبِّر التلاوة نظراً؛ يجدر به الحفظ غيباً، فقد كان من شأن الرسول ﷺ حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان النبي ﷺ يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن، بل كان يوم أحد يقدِّم في لحد شهدائه من كان أكثرهم أخذاً للقرآن؛ تنبيهاً على فضل حفظ القرآن، زيادة على فضل الشهادة في سبيل الله[1].

ولذا أقبل السلف على حفظ القرآن، فكان مجالاً للتنافس فيما بينهم، جعلت لهم عناية فائقة بالقرآن حفظاً وفهماً وتدبُّراً، فلم يقصِّروا في فهم ما حفظوا من القرآن، ولم يمتنع أحدهم عن إعمال عقله في فهم القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧] الحثُّ على حفظ القرآن وتدبُّر معناه؛ لأنه ميسَّر سهل، ومن جرَّب التدبُّر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ ليفهم معناها، وجد كيف ييسِّر الله له فهمها حتى يفهم منها ما لا يفهمه كثير من الناس[2].

قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٢هـ): (لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران:٧٩])[3].

فالقراءة من الحفظ يحصل بها التركيز التام وانطباع الآيات في الذهن.

وقد وقع الخلاف في أيهما أفضل: النظر في المصحف أم التلاوة حفظاً عن ظهر قلب؟.

ومما احتجَّ به القائلون بالنظر في المصحف؛ ما ورد عن جماعة من السلف ومنه:

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣١).

(٢) انظر: تفسير الحجرات والحديد لشيخنا العثيمين (٢٨٨).

(٣) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن (١٦٨)، ومكي في الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ١٠٥٨)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٢).

- أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان إذا دخل بيته، نشر المصحف فقرأ فيه[1].

- وقال عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (ما أحبُّ أن يمضي علي يوم ولا ليلة لا أنظر في كلام الله عَزَّوَجَلَّ يعني القرآن في المصحف)[2].

- وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (أديموا النظر في المصحف)[3].

- وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: (إذا رجع أحدكم من سُوقِه، فلينشُر المصحف فليقرأ)[4].

وخلاصة الأمر أنْ يقال: أنَّ الأفضل في الصلاة أن يقرأ من حفظه، وأما خارج الصلاة؛ فالأفضل أن يفعل ما يزداد به خشوعه، ويستعين به على التدبُّر، فإن حصل ذلك بالقراءة حفظاً، فهو أفضل، وإن حصل بالقراءة من المصحف فهو أفضل، فإن استوى الخشوع والتدبُّر في الحالين فالقراءة من المصحف أفضل، لأنه يجمع بين القراءة والنظر، ويحفظ بصره من الالتفات إلى ما يشغله عن القراءة والتدبُّر.

فالتفضيل بين القراءة من المصحف والقراءة عن ظهر قلب منوط بالتدبُّر.

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٧١هـ): (فائدة القراءة من الحفظ قوة الحفظ، وثبات الذكر، وهي أمكن للتفكُّر فيه، وفائدة القراءة في المصحف الاستثبات؛ لا يخلط بزيادة حرف ولا إسقاط حرف، أو تقديم آية أو تأخيرها، وأيضاً فإنه يعطي عينيه حظها منه فإنَّ العين تؤدي للنفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن في الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلبه فإنه يسمع أذنه فيؤدي إلى النفس، وإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء وذلك

---

[1] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٠٥)، وابن كثير في الفضائل (٢١٠).

[2] أخرجه عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة (١/ ١٤٧).

[3] أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦١)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٠٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤٠)، والفريابي في فضائل القرآن (٢٢٧)، وابن كثير في فضائل القرآن (٢١٠).

[4] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٠٥)، وابن كثير في الفضائل (٢١١).

أوفى للأداء، وكانت العين قد أخذت حظَّها كالأذن ويقضي حقَّ المصحف؛ لأنَّ المصحف لم يُتَّخذ ليهمَل، وله على الإنفراد حق، فلا يُقرأ إلا على طهارة ألا ترى أنَّ المحدث منهي عن مسِّه، وكانت القراءة في المصحف أولى وأفضل)[١].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبُّره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبُّره لو قرأ من المصحف؛ لكان هذا قولاً حسناً، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل)[٢]. والله أعلم.

سابعاً: ربط الآيات بالواقع والألفاظ بالمعاني.

والمقصود به: ربط المعنى باللفظ؛ أي: حفظ المعاني. وربط العلم بالعمل؛ أي تنزيل الآية على الأحوال التي تمر بالمسلم، وهو التمثُّل بالقرآن في كلِّ أحداث اليوم والليلة، بحيث يظلُّ القرآن حيَّاً في القلب، تؤخذ منه الإجابات والتفسيرات للحياة، وتؤخذ منه التوجيهات والأنظمة في كل الأمور[٣].

وهو إلهامات وفتوحات يفتحها الله تعالى على من يشاء من عباده.

إنَّ إدراك ووعي الناس لآيات القرآن يتفاوت تفاوتاً كبيراً؛ مع أنَّ الآية هي الآية يقرؤها هذا ويقرؤها هذا؛ وبينهما في عمق فهم الآية أو الجملة كما بين المشرقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): بعد الكلام على قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (١٤٠).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (١٠٠)، وبنحوه في الأذكار (١٠٧).

(٣) انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (١٠٠).

لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٣-٧٤]: (والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبَّر هذه الآيات حقَّ تدبُّرها، ويتأمَّلها حقَّ تأمُّلها، وينزِّلها على الواقع: فيرى العجب، ولا يظنها اختصَّت بقوم كانوا فبانوا، فالحديث لك، واسمعي يا جارة، والله المستعان)[1].

ومن فوائد ربط الآيات بالواقع أمور منها:

١- الإعانة على التدبُّر بزيادة توضيح معاني الآيات وتقريبها للأفهام والعقول، فانطباق معنى الآية على واقع يراه الناس عيانًا يزيد في إدراكهم لها وفهم معناها ورسوخه في أذهانهم.

٢- تنمية علاقة المسلم بنصوص الوحي المنزَّل، ويربطه بكتاب الله في جميع أحواله وتقلباته، فما من نازلة تنزل إلا ويجد المسلم في كتاب الله هداية له فيها.

٣- الإسهام في إعادة صبغ الحياة العامة بالصبغة القرآنية ليكون منهج حياة الأمة، ولفت النظر إلى ضرورة الاحتكام إلى كتاب الله تعالى والحذر من مخالفة أمره.

٤- تربية الأجيال على العيش في جو القرآن والعناية بتوجيهاته وهداياته.

٥- إحياء منهج السلف بدءًا بالنبي ﷺ وأصحابه الكرام في الرجوع إلى القرآن الكريم، والتخلُّق بأخلاقه والوقوف عند آياته.

٦- تأكيد شمول كتاب الله تعالى لجميع أحداث الحياة، وأنه ما من نازلة تنزل إلا ويجد المسلم في القرآن هداية له فيها[2].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٨).

(٢) انظر: مجلة البحوث والدراسات القرآنية-العدد الرابع (٢٥-٢٦) من بحث بعنوان: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم.

*** نماذج من ربط العلماء والمفسِّرين الآيات بالواقع[1]:**

- المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي (٥٤٢هـ):

عند قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا اللّيّ باللسان إلى خلاف ما في القلب؛ موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب)[2].

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٧١هـ):

عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والآية نزلت خبراً عمَّن تقدم من الأمم، ووعظاً من الله عزَّ وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمَّهم به وأنكره عليهم. وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق)[3].

- زاد المعاد من هدي خير العباد، لابن القيم (٧٥١هـ):

عند قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونزِّل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدُث الآفات والعلل كلَّ وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدُث من تلك الآفات آفاتٌ أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم)[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣١-٣٧).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٦٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٢٤).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٣٢).

- **البحر المحيط، لأبي حيان (٧٥٤هـ):**

عند قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح:٢٠]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه، وتكون إلى يوم القيامة، قاله ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسِّرين.

ولقد اتَّسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى، وغنموا مغانم لا تعدُّ، وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في بلاد الهند، وفي بلاد السودان[1] في عصرنا هذا، وقدم علينا حاجاً أحد ملوك غانة من بلاد التكرور[2]، وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة

---

(١) **بلاد السودان**= وهي كبيرة واسعة، آخذة في الطول من بحر المغرب إلى بحر القلزم، وهي عظيمة جليلة، وأقرب بلاد السودان صنغانة، ويلي صنغانة ما بين الغرب والقبلة مدينة تكرور. انظر: آكام المرجان (١٠٣)، المسالك والممالك للبكري (٢/ ٨٦٨)، الاستبصار في عجائب الأمصار (٢١٧).

واسم بلاد السودان: كان يطلق في السابق على أكثر بلاد إفريقية، مثل السودان ومالي وتشاد والسنغال، وبوركينا فاسو، وأثيوبيا وغيرها من دول أفريقيا السوداء اليوم.

(٢) **غانَةُ**= مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب، متصلة ببلاد السودان، وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلْقاً وأوسعها متجراً، انظر: معجم البلدان (٤/ ١٨٤)، خريدة العجائب (١٣٦)، الروض المعطار (٤٢٥). وقد كان يطلق عليها: إمبراطورية غانة، وليست هي دولة غانا المعروفة اليوم، وقد ظهرت إمبراطورية غانة في منطقة بينية بين الصحراء الكبرى والغلبات بجنوب شرق موريتانيا، وكانت قد تحولت على أيدي المرابطين بمراكش للإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي، ومما سهل دخوله إنشاء شبكة الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى، وقد كونت غانة إمبراطوريتها منذ عام ١٠٠٠م، عاصمتها كومبي صالح، وتمتد من وادي نهر السنغال بالغرب إلى المنحنى الكبير لنهر النيجر بالشرق، وقد انهارت المملكة بحلول القرن الثالث عشر الميلادي بسبب العوامل البيئية. انظر: موسوعة ويكيبيديا على شبكة الانترنت.

وبلاد التكرور= مدينة في بلاد السودان بقرب مدينة صنغانة على النيل، وهي أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة، وإليها كان يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس، وتكرور أهلها سودان، وكانوا على ما =

وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا، وقدم علينا ببعض ملوكهم يحجُّ معه)[1].

- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي (١٣٩٣هـ):

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد تفسيره لقوله تعالى في سورة محمد: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ الآيات.. [محمد:٢٥].

(مسألة: اعلم أنَّ كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمُّل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبُّرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأنَّ كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأنَّ عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن وما يبيِّنه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد:٢٦]، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإنَّ هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط

كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتّى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقّق بصائرهم فيها، فأهل تكرور اليوم مسلمون. انظر: الروض المعطار (١٣٤). ولا يعرف بلد الآن باسم التكرور، ويعرف بعض القبائل التي ترجع إلى الفلانيين بأنها: (تكرولي) بمعنى: تكروني عندهم. والتكرور كان علماً على الإقليم الغربي من جنوب بلاد السودان آنذاك. انظر: سطور من المنظور والمنثور عن بلاد التكرور للعبودي (٩).

[1] البحر المحيط (٩/ ٤٩٣).

أعمالهم. فاحذر كلَّ الحذر من الدخول في الذين قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد:٢٦])[1].

فعلم من هذا أنَّ ربط الآيات بالواقع من سنن التدبُّر المعينة عليه، فإنَّ الله أنزل القرآن صالحاً للناس في كل زمان ومكان، لذا ينبغي أن ينطلق منه الناس، ويرجعون إليه في أحوالهم كلها.

ثامناً: الجهر بالقراءة.

أي رفع الصوت بها، ليقوى التركيز ويكون التوصيل بالصوت والصورة بدلاً من الصورة فقط، مع مراعاة الاعتدال في رفع الصوت والتوسُّط فيه، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠].

إنَّ الجهر بما يدور في القلب أعون على التركيز والانتباه، ولذلك تجد الإنسان يلجأ إليه قسراً عندما تتعقَّد الأمور ويصعب التفكير.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧٦هـ): (وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة، وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تُحصَر وأشهر من أن تُذْكَر)[2].

ومما ورد في السنة حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»[3].

وعن أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**كُنْتُ أَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا عَلَى عَرِيشِي**»[4].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (١٠٧).

(٣) سبق تخريجه ص (١٦٧).

(٤) **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٢١) برقم: (٣٦٧٢)، وإسحاق بن راهوية في مسنده (٥/ ٢١) برقم: (٢١١٩)، وأحمد (٢٧٣٨٢)، وابن ماجه في سننه (١٣٤٩)، والنسائي (١٠١٣)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٧٢).

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ لَيْلَةً، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ، قَالَ: وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ، قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ**»، قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَقَالَ لِعُمَرَ: «**مَرَرْتُ بِكَ، وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ**»، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُوقِظُ الْوَسْنَانَ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا**»، وَقَالَ لِعُمَرَ: «**اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا**»[١].

وسُئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن جهر النبي ﷺ بالقراءة بالليل فقال: (كان يقرأ في حجرته قراءة لو أراد حافظٌ أن يحفظها فعل)[٢].

وقال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً وَاحِدَةً أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ مِثْلَ الَّذِي تَفْعَلُ، فإن كنت لابدَّ فَاعِلًا، فَاقْرَأْ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أُذُنَيْكَ، وتُوعِيه قلبك)[٣].

قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٣هـ): (إذا قرأت القرآن فاقرأه قراءة تسمع أذنيك، ويفقه قلبك، فإنَّ الأذن عدْل بين اللسان والقلب)[٤].

---

[١] **صحيح**. أخرجه أبو داود في سننه (١٣٢٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٩) برقم: (١١٦١)، وابن حبان (٣/ ٧) برقم: (٧٣٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٤) برقم: (١١٨٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٠) برقم: (٥٧٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٠٠).

[٢] ذكره المروزي في مختصر قيام الليل (١٣٣)، ولم أقف عليه مسنداً.

[٣] أخرجه عنه سعيد بن منصور في سننه انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٤٨٠) برقم: (١٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٧٥) برقم: (١٩٧٢)، وفي السنن الكبرى (٢/ ٥٥٥) برقم: (٤٠٦١). وانظر: زاد المعاد من هدي خير العباد (١/ ٣٢٨).

[٤] أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (٤٢٢) برقم: (١١٩٨).

إنَّ من الناس من يسرُّ بقراءته طلباً للسرعة، وقراءة أكبر قدر ممكن، وهذا يتسبَّب في غياب قصد التدبُّر في تلاوة القرآن.

وإنَّ الجهر درجات أدناها أن يُسمع المرء نفسه، فيحرِّك أدوات النطق من لسان وشفتين، وأعلاها أن يسمع من قرب منه، فما دونه ليس بجهر وما فوقه يعيق التدبُّر ويرهق القارئ، ومما يضبط مقدار الجهر أن يكون كقراءة الإمام بالصلاة.

وللجهر بالقراءة فوائد من أهمها: استماع الملائكة الموكلة بسماع الذِّكر لقراءة القارئ، وهرب وفرار الشياطين عن القارئ والمكان الذي يقرأ فيه، وتطهير البيت وتعطير له وجعله بيئة صالحة للتربية والتعليم.

وكلما كان الصوت مشدوداً حياً؛ كان أعون على التدبُّر، وطرد الوساوس والأفكار المتطفِّلة على القلب أثناء القراءة[١].

وفي ذلك قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الْبَيْتُ إِذَا تُلِيَ فِيهِ كِتَابُ اللهِ اتَّسَعَ بِأَهْلِهِ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَدَخَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ الشَّيَاطِينُ، وَالْبَيْتُ إِذَا لَمْ يُتْلَ فِيهِ كِتَابُ اللهِ ضَاقَ بِأَهْلِهِ، وَقَلَّ خَيْرُهُ، وَحَضَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ)[٢].

قال أبو طالب المكي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٨٦هـ): (**وفي الجهر بالقراءة** سبع نيات: منها: الترتيل الذي أمر به، ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذي ندب إليه في قوله ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»، **وفي قوله**: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»[٣] أي يحسِّن به صوته، وهو أحد الوجهين وأحبُّهما إلى أهل العربية[٤]، والوجه الآخر أي من لم يستغن به من الغنية والاكتفاء، وقد يقال: من هذا الوجه

---

[١] انظر: مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (٧٦-٧٧).

[٢] أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (٢٧٣) برقم: (٧٩٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٧) برقم: (٣٠٠٢٧)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٩٠) برقم: (١٨٥).

[٣] سبق تخريجه ص (١٦٧).

[٤] انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٥٨)، المخصص (٤/ ٩)، غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ١٦٥)، النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٢٥)، المصباح المنير (٢/ ٤٥٥).

يتغانى به، ومنها: **أن يُسمع أذنيه ويُوقظ قلبه ليتدبَّر الكلام ويتفهَّم المعاني، ولا يكون ذلك كله إلا في الجهر؛** ومنها: أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته، ومنها: أن يرجو بجهره يقظة نائم فيذكر الله عزّ وجلّ فيكون هو سبب إحيائه؛ ومنها: أن يراه بطَّال غافل فينشط للقيام ويشتاق إلى الخدمة فيكون معاوناً له على البرّ والتقوى؛ ومنها: أن يكثر بجهره تلاوته ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففي ذلك كثرة عمله، فإذا كان العبد معتقداً لهذه النيات طالباً لها ومتقرِّباً إلى الله سبحانه وتعالى عالماً بنفسه، مصحِّحاً لقصده، ناظراً إلى مولاه الذي استعمله فيما يرضاه؛ فجهره أفضل، لأنَّ له فيه أعمالاً وإنما يفضل العمل بكثرة النيات فيه، وارتفع العلماء وفضِّلت أعمالهم بحسن معرفتهم بنيات العمل واعتقادهم لها، فقد يكون في العمل الواحد عشر نيّات يعلم ذلك العلماء فيعملون بها فيعطون عشرة أجور، وأفضل الناس في العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قصداً وأدباً)[1].

وبعض العلماء يرى أنَّ الإسرار في القراءة أفضل، وبعضهم يرى الجهر أفضل، ولعلَّ القصد فيه هو التوازن بين هذا وذاك.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإِسرار.. قال العلماء: والجمع بينهما أن الإِسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حقّ مَن يخاف ذلك، فإن لم يَخَفِ الرياءَ، فالجهر أفضل، بشرط أن لا يؤذي غيره من مصلٍّ، أو نائم أو غيرهما. ودليل فضيلة الجَهْر، أن العمل فيه أكبر، لأنه يتعدى نفعه إلى غيره، ولأنه يُوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ولأنه يطردُ النومَ ويزيد في النشاط، ويُوقظ غيره من نائم وغافل، ويُنشِّطه، فمتى حضره شيءٌ من هذه النيّات فالجهرُ أفضل)[2].

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (يستحب الجهر بالقراءة صحَّ ذلك عن النبي ﷺ، واستحب بعضهم الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها؛ لأنَّ المسرَّ قد يملُّ فيأنس بالجهر،

---

[1] قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (١/ ١١١).

[2] الأذكار (١٠٧-١٠٨).

والجاهر قد يكلُّ فيستريح بالإسرار، إلا أنَّ من قرأ بالليل جهر بالأكثر، وإن قرأ بالنهار أسر بالأكثر، إلا أن يكون بالنهار في موضع لا لغو فيه ولا صخب، ولم يكن في صلاة، فيرفع صوته بالقرآن)[1]. والله أعلم..

تاسعاً: تحزيب القرآن.

فكلَّما تقاربت أوقات القراءة، وكثر التَّكرار؛ كان أقوى في رسوخ معاني القرآن.

وقد وردت نصوص كثيرة عن رسول الله ﷺ وعن السلف الصالح تؤكِّد ضرورة تحزيب القرآن، والمحافظة على ما يتمُّ تحزيبه.

روى أَوْسِ بْنِ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فِي وَفْدٍ فَنَزَّلُوا الْأَحْلَافَ عَلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنْزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي مَالِكٍ فِي قُبَّةٍ لَهُ، فَكَانَ يَأْتِينَا كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ... فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَبْطَأَ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَأْتِينَا فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أَبْطَأْتَ عَنَّا اللَّيْلَةَ، قَالَ: «إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَخْرُجَ حَتَّى أُتِمَّهُ».

قَالَ أَوْسٌ: فَسَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كَمْ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثَةً، وَخَمْسًا، وَسَبْعًا، وَتِسْعًا، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبَ الْمُفَصَّلِ[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في أنَّ المسنون كان عندهم قراءته في سبع[3]؛ ولهذا جعلوه سبعة

---

[1] البرهان (١/ ٤٦٣).

[2] **ضعيف**. أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (٢/ ٢٩) برقم: (٥٣٩)، وابن ماجه في سننه (٢/ ٣٧٠) برقم: (١٣٤٦)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٥٢).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٥٤)، في كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن؟. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١١٥٩) في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم، ولفظ الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَإِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ» قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً حَتَّى قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ».

أحزاب ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة، وفيه أنهم حزَّبوه بالسور وهذا معلوم بالتواتر)[1].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»[2].

وقال عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما تركت حزب سورة من القرآن من ليلتها منذ قرأت القرآن)[3].

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: كنا نأتي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل صلاة الفجر، فأتيناها ذات يوم، فإذا هي تصلي، فقالت: (نمت عن حزبي في هذه الليلة، فلم أكن لأدعه)[4].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (إِنِّي لَأَقْرَأُ جُزْئِي - أَوْ قَالَتْ حِزْبِي-، وَإِنِّي لَمُضْطَجِعَةٌ عَلَى السَّرِيرِ)[5].

واستأذن رجل على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالهاجرة فحجبه طويلاً، ثمَّ أذن له فقال: (إني كنت نمت عن حزبي فكنت أقضيه)[6].

وقد عدَّ بعض الصالحين ترك الحزب أثراً من آثار الذنوب، ومن ذلك:

قال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤٦هـ): (شكوت إلى أبي سليمان (الداراني) قساوة قلبي، وإني قد نمت عن جزئي، فقال: بما كسبت يداك، وما الله بظلام للعبيد؛ شهوة أصبتها)[7].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٩).

(٢) سبق تخريجه ص(١٩١).

(٣) أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٨٦)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٤٢١) برقم: (٥٢٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٤١٦) برقم: (٤٧٨٤).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١/ ٣٤٠) برقم: (١٣٢٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤١) برقم: (٨٥٧١).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٤١٦) برقم: (٤٧٨٢).

(٧) انظر: سير السلف الصالحين (١٠٧٠).

والمستحبُّ في تحزيب القرآن أن يكون محزَّباً على سبعة أيام.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٩٠هـ): (كان أبي يقرأ في كل يوم سبعاً، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليال، سوى صلاة النهار، وكان ساعة يصلي عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو)[١].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ) -عن الختم في سبع-: (وكان السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه... وعن الأكثرين في كلِّ سبع ليال)[٢].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩١١هـ): (وهذا أوسط الأمور، وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم)[٣].

وتحزيب القراءة بسبعة أيام هو المجموع في حروف قولهم: (فمي بشوق):

١- فالفاء= الفاتحة، ويكون السُّبع الأول من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة النساء.

٢- والميم= المائدة، ويكون السُّبع الثاني من سورة المائدة إلى نهاية سورة التوبة.

٣- والياء= يونس، ويكون السُّبع الثالث من سورة يونس إلى نهاية سورة النحل.

٤- والباء= بنو إسرائيل، ويكون السُّبع الرابع من سورة الإسراء (بنو إسرائيل) إلى نهاية سورة الفرقان.

٥- والشين= الشعراء، ويكون السُّبع الخامس من سورة الشعراء إلى نهاية سورة يس.

٦- والواو= والصافات، ويكون السُّبع السادس من سورة الصافات إلى نهاية سورة الحجرات.

---

[١] حلية الأولياء (٩/ ١٨١)، تاريخ دمشق (٥/ ٣٠٠).

[٢] التبيان في آداب حملة القرآن (٥٩).

[٣] الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٦١).

٧- والقاف= ق، ويكون السُّبع السابع من سورة ق إلى نهاية سورة الناس خاتمة القرآن.

وهذه جعلت لمن يختم في أسبوع، ويحسن أن يجعل المرء لنفسه ختمة خاصة للتدبُّر[١].

إنَّ الغرض من التحزيب هو تقارب وقت القراءة، وحتى تتحقق قوة حفظ اللفظ وحفظ المعنى، ونتيجة لذلك يتحقق حفظ العمل والتطبيق، ومن المعلوم أنه كلما تقاربت أوقات القراءة كلما قوي الحفظ، وقد وجد بالتجربة أن ما يكرر كل سبعة أيام فإنه يرسخ ويثبت، وكلما زادت الأيام كلما ضعف الحفظ، علاقة مطَّردة[٢].

إنَّ حفظ المعاني لا بد له من التقارب الشديد ليحصل الضبط والتماسك والعمق.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ) في عدد الأيام التي يختم فيها القرآن: (والاختيار أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمَّات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدِّ الملل والهذرمة)[٣].

والأولى أن يكون تحزيب القرآن وتقسيمه على السور- قدر الإمكان - بمعنى أن تقرأ السورة في الليلة الواحدة كاملة، وأن يكون التقسيم متوافقاً مع نهايات السور، وهذا هو السنة، وعليه عمل الصحابة والتابعين، أما الأحزاب والأجزاء والأثمان المعروفة اليوم فلم تأت إلا متأخرة، مع ما فيها من بتر للمعاني وتقطيع للسور[٤].

---

[١] انظر: إتحاف القاري بوسائل التدبُّر لكلام الباري (٨٨).

[٢] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٩٢-٩٣).

[٣] التبيان في آداب حملة القرآن (٦١).

[٤] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٩٠-٩٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (والمقصود... أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر - وإن كان قد روي ما بين ثلاث إلى أربعين - فالصحابة إنما كانوا يحزِّبونه سوراً تامة، لا يحزِّبون السورة الواحدة)[١].

والقيام بالقرآن كاملاً في كلِّ أسبوع حفظاً، وفي ليل وجهر وترتيل وتوقف؛ يحتاج الوصول إليه إلى التدرُّج والتدريب شيئاً فشيئاً.

إنَّ المسلم مطالب أن يعطي القرآن من وقته يومياً، وبقدر ما يعطيه من الوقت بقدر ما يفتح له في تدبُّره وفهمه.

وبتأمُّل قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:٢]، يعني كثيراً من الليل، وحدُّ هذا الكثير: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل:٣-٤].

ثم قال الله في نهاية السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل:٢٠]، ومتوسط وقت الليل اثنتا عشرة ساعة، فنصفه ستُّ ساعات، وثلثه: أربع ساعات.

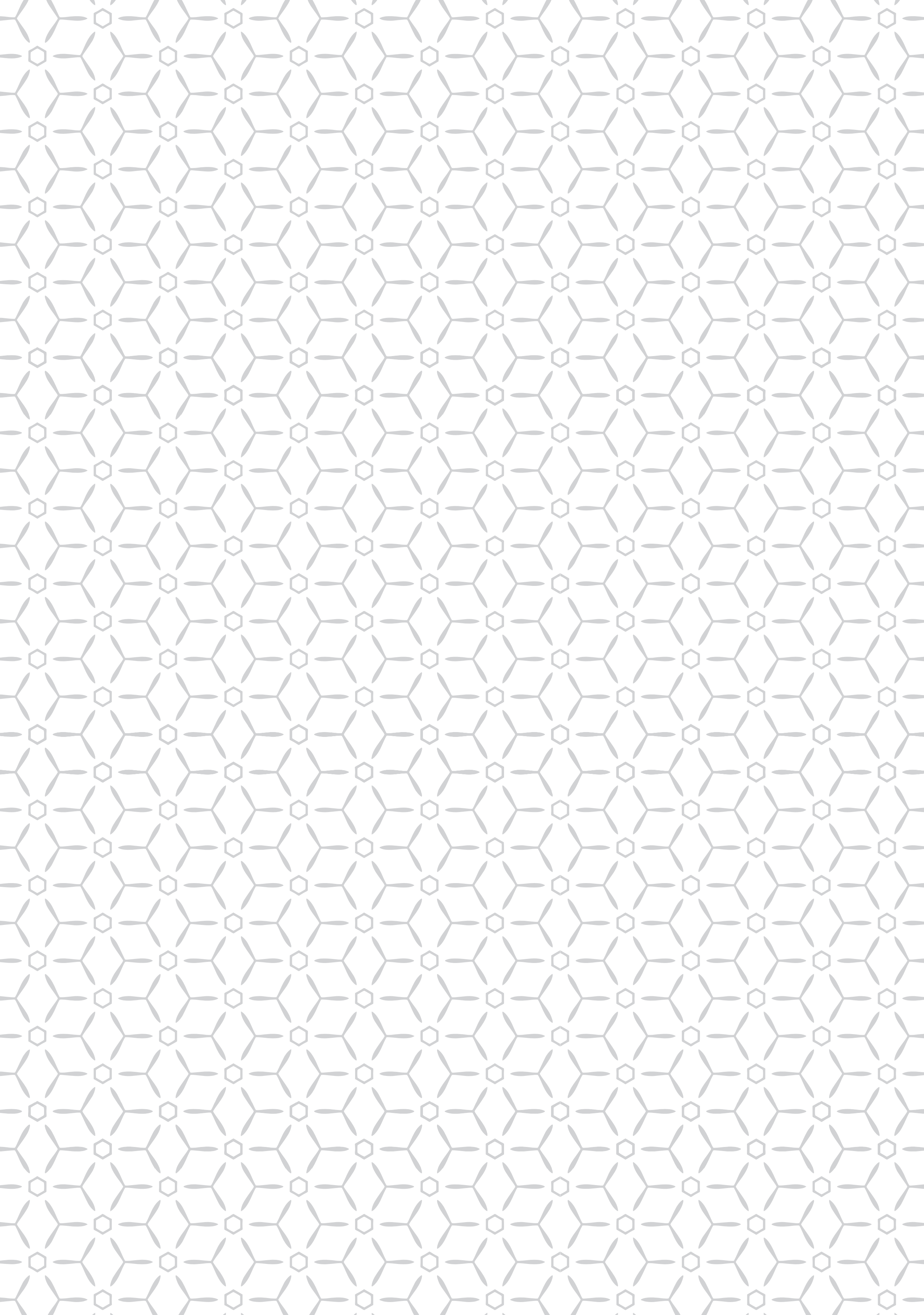
فبقدر ما يعطي المسلم القرآن من وقته، بقدر ما يُفتح عليه في التدبُّر والفهم.

نسأل الله التوفيق والسداد، وأن يعيننا على فهم القرآن وتدبُّره، واستغلال أعمارنا في ذلك.



---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٨).



الفصل الثاني

أهمية تدبُّر القرآن الكريم

وفيه ثمانية مباحث:

- ❖ **المبحث الأول:** أهداف قراءة القرآن الكريم.
- ❖ **المبحث الثاني:** عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم.
- ❖ **المبحث الثالث:** علامات التدبُّر.
- ❖ **المبحث الرابع:** مقاصد التدبُّر وغاياته.
- ❖ **المبحث الخامس:** علاقة التدبر بالقلوب، وأثره على الأبدان.
- ❖ **المبحث السادس:** أمور متوقفة على تدبُّر القرآن وفهم معانيه.
- ❖ **المبحث السابع:** الآثار الإيجابية المترتِّبة على التدبُّر في حياة الفرد والأمة.
- ❖ **المبحث الثامن:** الآثار السلبية المترتِّبة على هجْر التدبُّر في حياة الفرد والأمة.

المبحث الأول: أهداف قراءة القرآن الكريم

إنَّ تحديد الهدف بدقة ووضوح في كلِّ أمر؛ يعين على اتخاذ الوسائل المناسبة لتحقيق ذلك الهدف، والمسلم حين يقرأ القرآن الكريم لا يخلو من أهداف يريد تحقيقها، وأمور ينشدها من قراءته للقرآن الكريم.

إنَّ الهدف من قراءة أي كتاب يتوقَّف على موضوعه، فإن كان كتاباً في علم من العلوم فإنَّ الهدف من قراءته اكتساب المعرفة، وإنَّ موضوع القرآن الأساسي هو هداية البشرية إلى منهج الله تعالى الذي اختاره لها، وكانت قراءته من أهم ما حرص المسلمون على تعلُّمه وتعليمه والمداومة عليه.

قال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٠٨هـ): (اعلم أنَّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدِّين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم؛ لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التّعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أنَّ التعليم في الصّغر أشدّ رسوخاً، وهو أصل لما بعده، لأنَّ السَّابق الأوَّل للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من يبنى عليه)[١].

إن تتبُّع ما جاء في القرآن والسنة عن قراءة القرآن، وما تضمنته سير السلف من تعلُّقٍ بالقراءة وحرصٍ عليها؛ يوضِّح جوانب من الأهداف والغايات التي تتحقق من قراءة القرآن، والتي تتمثَّل في كون القراءة عبادة تزكو بها النفوس، وهي أساس الفقه والعمل، ووسيلة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى.

---

[١] مقدمة تاريخ ابن خلدون (٧٤٠).

ويمكن تقسيم الكلام عن أهداف قراءة القرآن إلى مطلبين:

المطلب الأول: أهداف إنزال القرآن وقراءته على الناس.

المطلب الثاني: أهداف المسلم عند قراءة القرآن الكريم.

وتفصيل ذلك وبيانه فيما يلي:

- المطلب الأول: أهداف إنزال القرآن الكريم، وقراءته على الناس:

"إنَّ القرآن لم ينزل لمجرَّد التلاوة وانعقاد الصلاة عليه، بل أنزل ليتدبَّر ويعقل ويهدى به علماً وعملاً، ويبصِّر من العمى، ويرشد من الغي، ويعلِّم من الجهل، ويشفي من الغي، ويهدي إلى صراط مستقيم"[1].

ومن المقاصد التي نزل بها القرآن:

- **تحقيق التوحيد والهداية للناس جميعاً**، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

- **الهداية والبشارة للمؤمنين، وإقامة الحجة على المعاندين**، قال تعالى: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١-٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:٨٩]،

[1] الصواعق المرسلة (١/ ٣١٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم:٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

- **تحقيق خشية الله والخوف منه في نفوس العباد**، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

- **أنه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام**: فقد قرأ رسول الله ﷺ القرآن على الجن[١]، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، كما قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق:٢٠-٢١][٢].

---

[١] أخرج مسلم في صحيحه برقم: (٤٥٠) في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن. من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه أنَّ النبي ﷺ قال: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ»، ويشهد له من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٨١-٤٨٢).

ومن تأمَّل حوارات النبي ﷺ مع المدعوِّين؛ وجد أنه في كثير من المواقف يكتفي بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ويحدث هذا أثراً عظيماً في النفوس، وكانت قراءته ﷺ لآية من القرآن تشدُّ الكافر والمنافق والمشرك، وتبيِّن له الحق في أحيان كثيرة، والله سبحانه يقول: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

ولقد كان تأثير القرآن في نفوس سامعيه عظيماً، على نحو ما كان من موقف النَّفر من الخزرج، الذين لقيهم رسول الله ﷺ في العقبة، فدعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وصدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[(١)]، فكان إسلامهم فتحاً عظيماً في تاريخ الإسلام.

وحين وجد المشركون قوَّة تأثير القرآن واجتذابه النفوس؛ تنادوا بينهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦]، فقالوا للذين يطيعونهم من أوليائهم من المشركين: لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به، ولكن الله تعالى خيَّب آمالهم، وأخذ القرآن طريقه إلى القلوب[(٢)].

وظلَّت قراءة القرآن تقوم بذلك الدور في نشر الدعوة بعد أن مكَّن الله تعالى لدينه، فكانت وفود العرب تأتي إلى المدينة، لا سيما بعد فتح مكة، فكان رسول الله ﷺ يقرأ عليهم القرآن ويعلِّمهم شرائع الإسلام[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢٣٦١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٧٦) برقم: (٨٠٥)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٨) برقم: (٤٨٣١)، وذكر القصة الطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٨١).

(٢) انظر: جامع البيان (٢١/ ٤٦٠)، تفسير المنار (١/ ٣٤٠).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢٢)، إمتاع الأسماع للمقريزي (٢/ ٤٢).

وحرِص النبي ﷺ على تعليم القرآن، فكان يرسل القراء من الصحابة إلى المواطن التي يفتح الناس فيها صدورهم للدعوة، كما أرسل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد بيعة العقبة الأولى إلى المدينة: (وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمْ الْقُرْآنَ، وَيُعَلِّمَهُمْ الْإِسْلَامَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَانَ يُسَمَّى الْمُقْرِئَ بِالْمَدِينَةِ: مُصْعَبٌ)[1].

وبيَّن الله تعالى في كتابه الكريم أنه إنما بعث محمداً ﷺ ليتلو القرآن على الناس، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢].

- **تذكير الجاهل وتنبيه الغافل**، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء:٤١]، وقوله سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه:٢-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

- **تسلية النبي ﷺ والمؤمنين بذكر قصص السابقين وضرب الأمثلة وتنوع الخطاب للعبرة والاتعاظ**، كما قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

- **تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين**، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٢].

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٤).

- المطلب الثاني: أهداف القارئ من قراءة القرآن الكريم:

من الأهداف والمقاصد التي ينبغي أن يحتسبها القارئ عند قراءته للقرآن مايلي:

- **تحكيم القرآن في شؤون الحياة**، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٨].

- **تحري الحق وطلب الهداية والتوفيق فيما ضلَّ الناس فيه، وتحصيل كبير الأجر**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ومن تدبَّر القرآن طالباً للهدى منه؛ تبيَّن له طريق الحق)[١].

---

[١] العقيدة الواسطية (٧٤).

- **الحفظ من شياطين الإنس والجن**، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

- **التماس الشفاء والتداوي للروح والجسد بالقرآن من أمراض القلوب والأبدان**، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَامْرَأَةٌ تُعَالِجُهَا أَوْ تَرْقِيهَا، فَقَالَ: «عَالِجِيهَا بِكِتَابِ اللَّهِ»[١].

ففي القرآن شفاء للقلوب من أمراض الشهوات والشبهات والوساوس كلها، وشفاء للأبدان من الأسقام، وشفاء للصدر من الهم والحزن والقلق، وشفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، وشفاء من الهوى والطمع والحسد ونزغات الشيطان، وفيه شفاء من شطط التفكير والشعور، وبذلك كان القرآن ذكراً من أفضل الأذكار، وعبادة من أجلّ العبادات[٢].

والاستشفاء بالقرآن يكون بأمرين:

---

[١] **صحيح**. أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٦٤) برقم: (٦٠٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٩).

[٢] انظر: محاضرات في علوم القرآن - د/ غانم قدوري (٩٤).

الأول: الرقية به، فالريق الناتج من تلاوة آيات القرآن الكريم له أثر عظيم في القوة والنشاط، والصحة والعافية، ولا ينكر مسلم أثر النفث بالآيات في الشفاء والعلاج، إذا اتخذت الأسباب الصحيحة لذلك.

الثاني: القيام به آناء الليل وآناء النهار: وخاصة في جوف الليل الآخر، وهذا يحقق شفاء القلب العلمي المعنوي النفسي بسبب ما يحصل من عمق في فهم القرآن وفقه لآياته، وفهم للنفس والحياة، حيث يمتلئ القلب بنور الله تعالى وآياته فيتسع وينشرح فلا يبقى فيه مكان للشهوات أو الشبهات أو الوساوس المزعجة المقلقة[1].

- **طلب زيادة الإيمان** الذي أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٢].

- **طلب البركة، والتماس الرحمة**، كماقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٥].

- **طلب الصبر والثبات على الدين**، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤].

- **الأمان من الضلال والشقاء**؛ قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣].

- **السلامة من عقوبات هجر القرآن**؛ وهي: الحياة الضنك في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٤- ١٢٥].

---

[1] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٥٦).

- **السلامة من شكوى النبي ﷺ لربه عن هاجري القرآن من أمته**، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

- **السلامة من عتاب الله لتاركي التدبُّر**؛ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

- **التفكُّر والتذكُّر بالقرآن الكريم وبأخباره**، قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

فحثَّنا على التفكُّر فيه، وحرَّضنا على الاستنباط والتدبُّر، وأمرنا بالاعتبار لنتسابق إلى إدراك أحكامه وننال درجة المستنبطين والعلماء الناظرين[١].

- **تحصيل الأجر والحصول على الفضل بقراءة القرآن**؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ** ﴿الٓمٓ﴾ **حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[٢].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ**»[٣].

---

[١] انظر: أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٤).

[٢] سبق تخريجه ص (١٥١).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٣٧) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨] واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩٨) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن والذي يتتعتع فيه.

والسَّفرة: "هم الملائكة الذين يَسْفِرون بين الله ورسله بالوحي"[1].

والبررة: "أي: خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارَّة طاهرة كاملة، ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد"[2].

- **إصلاح الظاهر والباطن**؛ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»**[3].

- **تنزل السكينة**؛ فعن الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ وَفَرَسٌ لَهُ مَرْبُوطٌ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **«تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ»**[4].

- **التخلق بآداب القرآن وأخلاقه**؛ واقتداءً بالنبي ﷺ في ذلك، فقد سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَتْ: (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)[5].

- **طلب شفاعة القرآن**؛ فعن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

[1] جامع البيان (٢٤/ ٢٢١).

[2] تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٤٢٧) في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩٧) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن.

[4] سبق تخريجه ص(١٩٣).

[5] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٤٦) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، عن حكيم بن أفلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»[1].

- **تحصيل الرفعة والخيرية التي أخبر عنها النبي ﷺ.**

فَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[2].

وعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[3]، والرفعة المقصودة في الدارين.

وعن الترقي في منازل الآخرة؛ روى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ -: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[4].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لو أنَّ حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي له لأحبَّهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس)[5].

- **تعاهده حتى لا يتعرَّض للنسيان؛** فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**تَعَاهَدُوا هَذَا**

---

(1) سبق تخريجه ص (١٥١).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٧) في كتاب فضائل القرآن، باب "خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه". من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(3) **صحيح**. سبق تخريجه ص (١٥١).

(4) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٦٧٩٩)، والترمذي في سننه برقم: (٢٩١٤)وقال: "حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨١) برقم: (١٨٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٤٣) برقم: (٧٦٦). وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩١٤)، وصحيح الجامع (٣٢٠١).

(5) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٥٥).

الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٥٢هـ): (لأنَّ من شأن الإبل تطلب التفلت ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلَّت بل هو أشدَّ في ذلك.

وقال ابن بطال: هذا الحديث يوافق الآيتين؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧](٢)، فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يُسِّرَ له، ومن أعرض عنه تفلَّتَ منه)(٣).

- **تحصيل العلم النافع**: فهذا مقصد مهمّ، وهو من مقاصد إنزال القرآن، والأمر بقراءته، بل ومن ترتيب الثواب على القراءة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن؛ فإنَّ فيه خبر الأولين والآخرين)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٣٣) في كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهُّد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها.

(٢) نقل ابن حجر كلام ابن بطال بالمعنى، ونص كلامه كما في شرح البخاري (١٠/ ٢٦٨): (إنما شبه ﷺ صاحب القرآن بصاحب الإبل المعلَّقة إن عاهد عليها أمسكها وأنه يتفصى من صدور الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، فوصفه تعالى بالثقل، ولولا ما أعان على حفظه ما حفظوه، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]، فبتيسير الله وعونه لهم عليه بقي في صدورهم، فهذان الحديثان يفسِّران آيات التنزيل؛ فكأنه قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]، إذا تعوهد وقرئ أبدًا وتذكر).

(٣) فتح الباري (٩/ ٨١).

(٤) أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (٢٨٠)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (٩٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٧٣)، والفريابي في فضائل القرآن (١٨١).

وقال مسروق بن الأجدع رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣هـ)[١]: (ما نسأل أصحاب محمد ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن عِلْمنا قصُر عنه)[٢].

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٨هـ): (إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دخلتَ خزانةً فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها)[٣].

إنَّ العلم الذي تحتاجه الأمة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ هو العلم الذي يحقق السعادة والحياة الطيبة والنجاح في الحياة، العلم الذي يجعل النفوس مطمئنة، ويحقق الأمن في الدنيا والآخرة، إنه: العلم بالله تعالى والعلم باليوم الآخر، العلم بالله تعالى أوله العلم المقتضي للاستغفار كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩] فالعلم الذي يورث الاستغفار، ويدفع إليه هو العلم النافع المؤدي للعمل الصالح، وهذا العلم هو: علم لا إله الا الله، على وجه يحقق المقصود لفظاً ومعنى.

- **قراءة القرآن للفقه والعمل**؛ إنَّ الهدف الأساس من قراءة القرآن؛ التفهُّم للمعاني التي تضمَّنتها الآيات الكريمة، وتطبيق ما فيها من أحكام.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا أسلم الرجل أمره بقراءة القرآن قبل كل شيء[٤]، وقال

---

[١] **مسروق بن الأجدع**= هو ابن عبد الرحمن بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مر بن سليمان، من همدان، كان اسم أبي مسروق الأجدع فسماه عمر بن الخطاب عبد الرحمن. ورأى أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله ابن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وكان ممن حضر مع علي حرب الخوارج بالنهروان. يكنى أبا عائشة، وكان من خيار التابعين، عمل في القضاء، ولم يأخذ عليه رَزقاً، مات مسروق سنة ثلاث وستين. وكان ثقة وله أحاديث صالحة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٧٦)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٣).

[٢] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٩٦).

[٣] ذكره عنه ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٧٠).

[٤] انظر: الوسيلة إلى كشف العقيلة للسخاوي (٣٢)، ولم أقف عليه عند غيره.

للصحابة: «فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ»[(١)]. لأنَّ القرآن الكريم هو الأصل الأول للعقيدة والأحكام والآداب، والسنّة مبيِّنة ومفصِّلة لما تضمَّنه القرآن.

وكانت طريقة تلقي الصحابة للقرآن عن رسول الله ﷺ تؤكِّد على التفهُّم للمعاني، فقد قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (كنا إذا تعلَّمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها)، يعني من العمل[(٢)].

وأبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٤هـ)، وهو مقرئ أهل الكوفة في عصر التابعين، يحدِّث عن الصحابة الذين علَّموه القرآن فيقول: (حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلَموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل)[(٣)].

وقال الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ (٢٠٤هـ): (فإنَّ من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة... فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) حسن. أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٦٦٢)، والطبري في تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٧٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٥٨)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٤٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٦): (رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد).

(٢) سبق تخريجه ص(١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٦٦) برقم: (٢٣٤٨٢) وابن وضاح في البدع (٢/ ١٧٠)، والفريابي في فضائل القرآن (٢٤١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٨٤)، والرازي في فضائل القرآن (١٢٧).

ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:٥٢])[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (فالرسل تبين للنَّاس مَا أنزل إِلَيْهِم من رَبهم، وَعَلَيْهِم أَن يبلغُوا النَّاس الْبَلَاغ الْمُبين، وَالْمَطْلُوب من النَّاس أَن يعقلوا مَا بلغه الرُّسُل؛ وَالْعقل يتَضَمَّن الْعلم وَالْعَمَل، فَمن عرف الْخَيْر وَالشَّر فَلم يتبع الْخَيْر ويحذر الشَّرّ لم يكن عَاقِلاً، وَلِهَذَا لَا يعدُّ عَاقِلا إِلَّا من فعل مَا يَنْفَعهُ واجتنب مَا يضرّهُ، فالمجنون الَّذِي لَا يفرق بَين هَذَا وَهَذَا قد يلقِي نَفسه فِي المهالك وَقد يفر مِمَّا يَنْفَعهُ)[٢].

إنَّ الواجب على المسلم أن يقرأ القرآن بنية البحث عن علم ليعمل به، فيقف عند آياته فينظر ماذا تطلب منه، هل أمر يؤمر به، أو شيء ينهى عنه، أو فضيلة يدعى للتحلي بها، أو خطر يحيق به يحذر منه، فإنَّ القرآن هو الدليل العملي لصيانة النفس، فينبغي أن يكون قريباً من كل مسلم يربي به نفسه ويهذبها[٣].



(١) الرسالة (١٩-٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٨).

(٣) انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٤٨).

المبحث الثاني: عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم

كانت استجابة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ومن تبعهم من سلف الأمة الصالح للأمر بتدبُّر القرآن استجابة عظيمة، ملأت عليهم أوقاتهم في الهواجر والأسحار، وقد سوِّدت الصحف والدوواوين بأقوالهم وأفعالهم في ذلك.

ويجدر بمن أراد تدبُّر القرآن الكريم، وفهم معانيه، ومعرفة أحكامه، أن ينظر في سِير السلف الصالح، وأن يعرف أحوالهم مع القرآن الكريم؛ فإنَّ فيها شحذاً للهمم، وتقوية للعزائم، ودافعاً للتشبه بهم، فإنَّ التشبه بالصالحين فلاح.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (إِن صدقت فِي طلابهم فانهض وبادر، وَلَا تستصعب طريقهم فالْمُعين قَادر، تعرَّض لمن أَعْطَاهُم وسل فمولاك مَوْلَاهُم؛ ربَّ كنز وَقع بِهِ فَقير، وَربَّ فضل فَازَ بِهِ صَغِير، علَّم الْخضر مَا خَفِي على مُوسَى، وكشف لِسُلَيْمَان مَا غطَّى عَن دَاوُد)[١].

وقد جعلت الكلام عن عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم في مطلبين:

الأول: من أقوال السلف الصالح عن التدبُّر.

الثاني: من مواقف السلف الصالح وأحوالهم مع التدبُّر.

- المطلب الأول: من أقوال السلف الصالح عن التدبر:

ورد عن أئمة السلف والعلماء الصالحين أقوال كثيرة، في تدبُّر القرآن الكريم، تكتب بماء الذّهب، تدلُّ على معرفتهم بأهمية القرآن العظيم، وتذوقهم لحلاوة تدبره وفهمه.

ومن تأمَّل أقوالهم عن القرآن الكريم وتدبُّره؛ وجد أنَّ لهم منهجاً في التوجيه لهذه العبادة العظيمة، يمكن تحديد معالمه فيما يلي:

---

(١) المدهش لابن الجوزي (٤٢٨).

أولاً: تعظيم القرآن في نفوسهم، وإدراكهم لمقصده الأعظم:

إنَّ تلقي الأمر بالمحبة والتعظيم والإيمان، يؤدي إلى استجابة فورية، ومن عرف قيمة الشيء اعتنى واهتمَّ به، وقد ظهر ذلك في الجيل الأول من خلال أقوالهم وأفعالهم، ومن أقوالهم المأثورة في بيان عظمة القرآن وأثره، التي ترجموها إلى الاستجابة العملية:

١) قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٥هـ): (لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله)[١].

٢) وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ): (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهَّ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ شَيْئًا فَلْيَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهَّ عَزَّوَجَلَّ، وَالنُّورُ المُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وَلَا يَعْوَجُّ فيُقَوَّم، وَلَا يَزِيغُ فيُستَعتَبُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ)[٢].

٣) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (من أحبَّ أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر؛ فإن كان يحبُّ القرآن، فهو يحبُّ الله ورسوله)[٣].

٤) وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: (إنك في زمان كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ قرَّاؤه، تُحفظ فيه

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٩) برقم: (٧٧٥)، وعبد الله ابنه في فضائل عثمان بن عفان (١١٥) برقم: (٦٥)، وذكره أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (٨٣)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٥٥)، وفي الجواب الكافي (٢٣٦)، وفي مدارج السالكين (٣/ ٢٩١).

[٢] أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٥) برقم: (٦٠١٧)، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ٤٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٩) برقم: (٨٦٤٢).

[٣] أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) برقم: (٨٦٥٧)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٩٤) برقم: (١٨٦١).

حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليلٌ من يسأل، كثيرٌ من يعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قرَّاؤه، يُحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يُبدُّون فيه أهواءهم قبل أعمالهم)[1].

قال الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٧٤هـ) معلِّقاً: (وقوله: "وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه" يعني أنَّ من يفقهه ممن يقرأ القرآن قليل، وأنَّ أكثر من في ذلك الزمان يقرأ القرآن ولا يفقه فيه، وهذا إخبار منه بأنَّ تلاوة القرآن لا تقلُّ في آخر الزمان، لأنَّ الله تعالى قد وعد بحفظه، وأمَّن من نسيانه فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ولم يرد أنَّ كثرة القراء عيب في ذلك الزمان وإنما عابه بقلَّة الفقهاء فيه، وأنَّ قرَّاءه لا يفقهون ولا يعلمون به، وإنما غايتهم منه تحفُّظه وهذا نقصٌ وعيبٌ فيهم)[2].

٥) وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(٦٨هـ): (ضَمِنَ اللهُ لِمَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣])[3]، والمراد بالقراءة الاتباع بدليل نص الآية.

٦) وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (تفقَّدوا الحلاوة في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أنَّ الباب مغلق)[4].

---

[1] أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٢٤٢) برقم: (٥٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)برقم: (٧٨٩)، وابن بطة في الإبانة(٢/ ٥٩٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١١٤).

[2] المنتقى شرح الموطأ (١/ ٣٠٩).

[3] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٣٦) برقم: (٣٤٨٧١).

[4] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٧١)، (١٠/ ١٤٦).

٧) وقرأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، فقال: (إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جمع لكم الخير كله، والشرَّ كله في آية واحدة؛ فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي، من معصية الله شيئاً إلا جمَعه)[١].

٨) وعن يحيى بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٣هـ)[٢]، قال: (كنت أنا ومحمد بن يحيى بن حبان(١٢١هـ)[٣]جالسين، فدعا محمد رجلاً، فقال: أخبرني بالذي سمعت من أبيك، فقال الرجل: أخبرني أبي، أنه سأل زيد بن ثابت، فقال: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال زيد: حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر، أو عشرين ليلة، أحبّ إليَّ، وسلني لم ذاك؟ قال: فإني أسألك، قال زيد: لكي أتدبَّره، وأقف عليه)[٤].

---

(١) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٩٥) برقم: (١٣٨).

(٢) **يحيى بن سعيد**= بن قيس بن عمرو الأنصاري، الإمام، العلامة، المجود، عالم المدينة في زمانه، وشيخ عالم المدينة، وتلميذ الفقهاء السبعة، أبو سعيد الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، القاضي، ولد قبل السبعين، وتوفي بالهاشمية، قرب الكوفة، وله بضع وسبعون سنة، سنة ثلاث وأربعين ومائة. انظر: أخبار القضاة (١/ ١٧٨)، مشاهير علماء الأمصار (١٣٠)، سير السلف الصالحين (٩٥٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٨).

(٣) **محمد بن يحيى بن حبان** = بن منقذ بن عمرو، الأنصاري، الإمام، الفقيه، الحجة، أبو عبد الله الأنصاري، النجاري، المازني، المدني، مولده: في سنة سبع وأربعين، وهو إمام مجمع على ثقته، كثير الحديث، ومن أعيان مشيخة مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عاش أربعاً وسبعين سنة، أرخ جماعة موته في سنة إحدى وعشرين ومائة. انظر: الثقات لابن حبان (٥/ ٣٧٦)، رجال صحيح البخاري للكلاباذي (٢/ ٦٨٦)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٨٦).

(٤) أخرجه عنه مالك في الموطأ (٢٠٠) برقم: (٤)، وابن المبارك في الزهد (٤٢٠)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٥٨)، والفريابي في فضائل القرآن (٢١٧).

٩) وقال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧هـ)[١]: (كابدْت القرآن عشرين سنة، وتنعَّمت به عشرين سنة)[٢].

١٠) وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٥هـ): (إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال - وذكر خمس ليال- ولولا أني أقطع الفكر فيها لما جاوزتها إلى غيرها)[٣].

١١) وقال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٦هـ): (إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، وأما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقَّه وتلذَّذوا به واستحلُّوا المناجاة به؛ لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رُزقوا)[٤].

١٢) وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٥٦هـ): (لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقِّه إلا الموقن)[٥].

---

[١] **ثابت البناني**= ثابت بن أسلم أبو محمد البناني البصري، من أئمة العلم والعمل، محدثاً، من الثقات المأمونين، صحيح الحديث، ومن أثبت أصحاب أنس بن مالك، مات سنة سبع وعشرين ومائة، وهو ابن ست وثمانين سنة. انظر: حلية الأولياء (٢/٣١٨)، تهذيب الكمال (٤/٣٤٢)، سير أعلام النبلاء (٥/٢٢٠).

[٢] ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٩٢)، والغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٨).

[٣] ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٩٢)، والغزالي في الإحياء (١/ ٢٨٢)، وابن الجوزي في التبصرة (٣٨١).

[٤] نقله عنه ابن رجب في لطائف المعارف (١٧٣).

[٥] صحيح البخاري (٩/ ١٥٥)، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ [آل عمران:٩٣].

١٣) وقيل لعيسى بن وردان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٦٨هـ)[١]- وكان يتنفَّس تنفُّساً منكراً -: ما غاية شهوتك من الدنيا؟ فبكى، ثم قال: (أشتهي أن ينفرج لي عن صدري، فأنظر إلى قلبي، ماذا صنع القرآن فيه وما نكأ)، وكان عيسى إذا قرأ شهق حتى يقال: الآن تخرج نفسه[٢].

ثانياً: حثُّهم على تدبُّر القرآن الكريم.

١٤) قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ[٣]، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ)[٤].

١٥) وعنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلا قال له: (إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ)، فَقَالَ عَبْدُ الله: (هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟!- ينكر عليه الإسراع في القراءة - إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ)[٥].

١٦) قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(٦٨هـ): (لأن أقرأ في ليلة سورة أتدبَّرها وأفكِّر فيها أحبَّ إليَّ من أن أقرأ القرآن)[٦].

---

[١] **عيسى بن وردان**= عيسى بن أحمد بن عيسى بن وردان، الإمام، المحدث الثقة، أبو يحيى، البغدادي، ثم البلخي العسقلاني، نسبة إلى عسقلان بلخ، مات سنة ثمان وستين ومائتين. انظر: تهذيب الكمال (٢٢/ ٥٨٤)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٨١).

[٢] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المتمنين (٤٩).

[٣] **الدقل**= من أردأ التمر. انظر: العين للخليل بن أحمد (٥/ ١١٦) باب القاف والدال واللام، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٤١).

[٤] مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦) برقم: (٨٧٣٣)، قيام الليل للمروزي (١٥٢)، شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦)، المتفق والمفترق (٣/ ٢٠٨٩).

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه في باب الجمع بين السورتين في ركعة برقم: (٧٧٥)، ومسلم في صحيحه برقم: (٨٢٢) واللفظ له.

[٦] أخرجه المستغفري في فضائل القرآن (١/ ١٦١).

١٧) وقال مطرف بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٥هـ)[١]: (إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبَّر القرآن، وأعرِض عملي على عمل أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٤]، ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر:٩]، فلا أراني فيهم فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢] فأرى القوم مكذِّبين، وأمرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم)[٢].

١٨) وقال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٦٠هـ): (ومن تدبَّر كلامه عرف الربَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق)[٣].

---

[١] **مطرف بن عبد الله** = بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، يكنى أبا عبد الله العامري، روى عن عثمان، وعلي، وعن أبيه، ثقة له فضل وورع ورواية وعقل وأدب، روى له الجماعة، مات سنة خمس وتسعين، في أول ولاية الحجاج بن يوسف العراق، بعد الطاعون الجارف. انظر: التاريخ الكبير (٧/ ٣٩٦-٣٩٧)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

[٢] أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/ ٢٩٨).

[٣] أخلاق أهل القرآن (٣٦-٣٧).

١٩) وقال أبو عثمان المغربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٧٣هـ)[١]: (ليكن تدبُّرك في الخلق تدبُّر عبرة، وتدبُّرك في نفسك تدبُّر موعظة، وتدبُّرك في القرآن تدبُّر حقيقة ومكاشفة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]؛ جرَّأك به على تلاوة خطابه، ولولا ذاك لكلَّت الألسن عن تلاوته)[٢].

٢٠) وقال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤١٢هـ): (قال بعضهم: لا سبيل إلى فهم كتاب الله إلا بقراءته بالتدبُّر والتفكُّر والتيقُّظ والتذكُّر وحضور القلب فيه... قال بعضهم: من أصابته بركة القراءة رزق التدبُّر في آياته، ومن رزق التدبر لم يحرم التذكر والاتعاظ به)[٣].

٢١) وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (وكثر الحثُّ في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار؛ ولا يخفى أنَّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته)[٤].

٢٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (القرآن مَن تدبَّره تدبُّراً تامًّا تبينَ له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنَّ فيه من العلم مالا يُدرِكه أكثرُ الناس، وأنَّه يُبيِّن المشكلاتِ ويَفصِل النزاع بكمالِ دلالتِه وبيانِه إذا أُعطِيَ حقَّه، ولم تُحرَّفْ كَلِمُهُ عن مواضعه)[٥].

---

[١] **أبو عثمان المغربي**= سعيد بن سلام، الصوفي العارف، نزيل نيسابور، ولد بالقيروان، ولقي الشيوخ بمصر والشام، وجاور بمكة مدَّة، كان من كبار المشايخ، له أحوال مذكورة وكرامات مشهورة، توفي سنة ٣٧٣هـ. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (٣٥٨)، تاريخ بغداد (٩/ ١١٤)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٢٠).

[٢] طبقات الصوفية للسلمي (٣٦٠)، وانظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٢١) .

[٣] حقائق التفسير (٢/ ١٨٥).

[٤] إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٣).

[٥] جامع المسائل (١/ ٢٥٦).

٢٣) وقال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٣٣هـ): (وينبغي له إذا تُلِيَ القرآن أن يتفكَّر في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده)[١].

٢٤) وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (من لم يكن له علمٌ وفهمٌ وتقوى وتدبُّر، لم يُدْرك من لذة القرآن شيئاً)[٢].

٢٥) وقال أحد السلف: (لي في كلِّ جمعة ختمة؛ وفي كلِّ شهر ختمة؛ وفي كلِّ سنة ختمة؛ ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرَغت منها بعد، -يعني ختمة التفهُّم والمشاهدة)[٣].

٢٦) وقال بعضهم: (إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وما قضيت منها وطري)[٤].

٢٧) وكان بعضهم يقول: (كلُّ آية لا أتفهَّمها ولا يكون قلبي فيها لم أعدُّ لها ثواباً)[٥].

وحين يضعف تعظيم القرآن في النفوس يضعف الاتصال به وتدبُّره، وتنشأ أجيال مقطوعة الصلة بالحياة الهانئة مع القرآن، فتشقى وتُشقي.

ثالثاً: تعلُّمهم وتعليمهم الإيمان قبل القرآن.

فقد غُرِس تعظيم الله في قلوبهم، وتعظيم أمره ونهيه، فسهل تلقيهم للأحكام الشرعية، وهذا أساس إحياء التربية القرآنية في النفوس، وهو منهج القرآن في تربية الصحابة أول

---

[١] تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (٩٣).

[٢] البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٥).

[٣] ذكره المكي في قوت القلوب(١/ ٩٢)، والغزالي في الإحياء (١/ ٢٨٢)، وابن الجوزي في التبصرة (٣٨١).

[٤] ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٨٦)، والغزالي في الإحياء (١/ ٢٨٢)، دون نسبة لقائل.

[٥] ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٨٧)، والغزالي في الإحياء (١/ ٢٨٢).

الإسلام، حيث كان أول نزول القرآن تربية على الإيمان بالله في السور المكية —وخاصة المفصل منها-، وترسيخاً للإيمان باليوم الآخر، فأورث في نفوسهم الإيمان والتعظيم للقرآن، وهيأ نفوسهم لتلقي توجيهاته.

يوضح هذا المنهج -الذي ربى النبي ﷺ عليه أصحابه- جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع النبي ﷺ ونحن غلمان حزاورة فتعلَّمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن فازددنا إيماناً)[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَان الرَّجُل مِنَّا إِذَا تَعَلَّم عَشْر آيَاتٍ لَم يُجَاوِزْهُن حَتَّى يَعْرِف مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ) [2].

وهذا منهج النبي ﷺ في تعليم الصحابة القرآن؛ تلازم العلم والمعنى والعمل؛ وهو حال السلف الصالح من بعده ﷺ.

رابعاً: تلقيهم القرآن بأنه رسائل من ربهم للعمل والامتثال، يتدبرونها بالليل ويتمثلونها بالنهار.

وقد تواترت أخبارهم في ذلك، ومنها:

٢٨) قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ): (إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به)[3].

٢٩) وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٧٣هـ) قال: (كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإنَّ آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به)[4].

---

[1] أخرجه عنه ابن منده في الإيمان (١/ ٣٧٠)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٢٧٥).

[2] أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٠)، ونقله ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٢/ ٣٠٠).

[3] أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠)، ولم أقف عليه عند غيره.

[4] المرجع السابق.

فكان هذا منهجهم في تربية أبنائهم وطلابهم، وتعظيم القرآن في نفوسهم، والوصية به، ومن تأكيدهم على التدبُّر وحقيقته:

٣٠) قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠ هـ): (إنَّ هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لم يأخذوه من أوله، ولا علم لهم بتأويله، إنَّ أحق الناس بهذا القرآن من رئي في عمله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وإنما تدبُّر آياته إتباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك، والله ما كانت القرَّاء تفعل هذا، والله ما هم بالقرَّاء ولا الوَرعة؛ لا كثَّر الله في الناس أمثالهم لا كثَّر الله في الناس أمثالهم)[1].

كما يؤكد ذلك أيضاً وصاياهم لحملة القرآن والتأكيد على ظهور الأثر فيهم.

٣١) قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ (٣٢هـ): (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً، محزوناً، حليماً، سكيتاً، ليناً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً، ولا سخاباً، ولا صياحاً، ولا حديداً)[2].

٣٢) وقال الحارث بن أسد المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٣هـ)[3]: (ثمَّ أوصيك يَا أخي بعد

---

[1] أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٤٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٩).

[2] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٣١) برقم: (٣٥٥٨٤)، وأبو داود في الزهد (١٧٠) برقم: (١٧٣)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٤٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٢٩).

[3] **الحارث بن أسد المحاسبي**= البغدادي، أبو عبد الله، الزاهد، العارف، شيخ الصوفية، له كتب في الزهد، وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة، تفقه، وكتب الحديث، وكان من العلم بموضع، مات: سنة ثلاث وأربعين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (٥٨)، تاريخ بغداد (٥/ ٣٦٦)، السير (١٢/ ١١٠).

مراقبة الله عِنْد همتك إِذا هَمَمْت وَعند كل حَرَكَة تكون مِنْك وكل سُكُون أَن تستمع من الله وتعقل عَنهُ فَإِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآن الَّذِي انْزِلْ علينا تبيان كل شَيْء وَعلم كل شَيْء فَعَلَيْك بتدبره وتأمله فِي اللَّيْل وَالنَّهَار وأعمل نَفسك فِي فهمه وَالْعَمَل بِهِ أَولا تسمع إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١]، فَلَا تغفل عَن مراقبة من لَا يغرب عَنهُ أَصْغَر من مِثْقَال ذرة وَلَا تشبع وَلَا تمل مِنْهَا فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يغْفل عَنْهَا ينظر اليك ويطلع على ضميرك ويحصي عَلَيْك مَثَاقِيل الذَّر وموازين الْخَرْدَل حَتَّى يجْزِيك بذلك أَولا تسمع الى قَول الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠])[١].

"وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي، سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية، تنبض وتتحرك، وتشير إلى معالم الطريق... وسنجد عندئذ في القرآن متاعاً وحياة، وسندرك معنى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]؛ فهي دعوة للحياة الدائمة المتجددة، لا لحياة تاريخية محدودة، في صفحة عابرة من صفحات التاريخ!"[٢].

---

[١] آداب النفوس للمحاسبي (١٦٦).

[٢] في ظلال القرآن (١/ ٢٦١) بتصرف.

ـ المطلب الثاني: من مواقف السلف الصالح وأحوالهم مع التدبر:

كان للسلف الصالح أحوال ومواقف مشرقة، تدلُّ على قوة تأثير القرآن في نفوسهم، وعلى عنايتهم بجانب التدبُّر عناية فائقة، وليس هذا بغريب عنهم، إذ هم ينهلون من المورد العذب، من هدي القدوة الأكرم ﷺ ودلِّه.

وقد ذكَر الله لنا في كتابه الكريم أحوال الصحابة الكرام مع تدبُّر القرآن وآياته، من وجلِ القلوب، ودمع العين، واقشعرار الجلود، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

وسأذكر شيئاً من أفعالهم، وجملة من أخبارهم وتدبُّرهم فيما يلي:

الأول: نماذج من تدبُّر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتأثُّرهم واتعاظهم بالقرآن.

١) عن عبد الله بن عروة بن الزبير، قال: قلت لجدتي أسماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا (٧٣هـ): (كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟)، قالت: (تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله)[١].

---

[١] أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٩) برقم: (١٠١٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤١٦) برقم: (١٩٠٠).

٢) نزل النبي ﷺ بشِعْب فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا اللَّيْلَةَ؟»، فَقَامَ رَجُلَانِ: عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، فَقَالَا: (نَحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ نَكْلَؤُكَ)، وَجَعَلَتِ الرِّيحُ لَا تَسْكُنُ، وَجَلَسَ الرَّجُلَانِ عَلَى فَمِ الشِّعْبِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: (أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟) قَالَ: (اكْفِنِي أَوَّلَهُ)، فَنَامَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَقَامَ عَبَّادٌ يُصَلِّي، وَأَقْبَلَ عَدُوُّ اللهِ يَطْلُبُ غِرَّةً، وَقَدْ سَكَنَتِ الرِّيحُ، فَلَمَّا رَأَى سَوَادَهُ مِنْ قَرِيبٍ قَالَ: (يَعْلَمُ اللهُ أَنَّ هَذَا لَرَبِيئَةُ الْقَوْمِ)، فَعَرَّقَ لَهُ سَهْمًا فَوَضَعَهُ فِيهِ فَانْتَزَعَهُ، ثُمَّ رَمَاهُ آخَرَ فَانْتَزَعَهُ، ثُمَّ رَمَاهُ الثَّالِثَةَ فَوَضَعَهُ بِهِ، فَلَمَّا غَلَبَهُ الدَّمُ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ: (اجْلِسْ فَقَدْ أُتِيتُ)، فَجَلَسَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَلَمَّا رَأَى الْأَعْرَابِيُّ أَنَّ عَمَّارًا قَدْ قَامَ عَلِمَ أَنَّهُمْ قَدْ نَذِرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَقَالَ عَمَّارٌ: (يَا أَخِي مَا مَنَعَكَ أَنْ تُوقِظَنِي بِهِ فِي أَوَّلِ سَهْمٍ رَمَاكَ بِهِ؟) قَالَ: (كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا، وَهِيَ الْكَهْفُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أَفْرُغَ مِنْهَا، فَلَوْلَا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، مَا انْصَرَفْتُ وَلَوْ أُتِيَ عَلَى نَفْسِي)[١].

٣) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ)[٢].

٤) وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] بَكَى أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيُغْفَرُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللهُ أُمَّةً مِنْ بَعْدِكُمْ يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»**[٣].

---

[١] أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٧٨)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٢٨١).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٧٦) في كتاب الصلاة، باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، وبرقم: (٣٩٠٥) في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[٣] **صحيح**. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب البكاء (٨١) برقم: (٧٥)، والدولابي في الكنى والأسماء (١/ ١٧) برقم: (٤٧)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٨) برقم: (٨٧)، والبيهقي في الشعب (٩/ ٣١٢) برقم: (٦٧٠١)، والحديث صحيح، له شاهد عند مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٤٨) في كتاب التوبة، باب =

٥) وقدِم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فجعلوا يقرؤون القرآن ويبْكون، فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (هكذا كنَّا)[١].

٦) روى مالك عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: (تَعَلَّمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الْبَقَرَةَ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا خَتَمَهَا نَحَرَ جَزُورًا)[٢].

٧) وقَرَأَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الْبَقَرَةَ فِي ثَمَانِ سِنِينَ[٣].

وطول المدة ليس عجْزاً من عمر ولا ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ولا انشغالاً عن القرآن؛ وإنما هو التدبُّر، وهو يدلُّ أيضًا على طول وقفوهم وتأمُّلهم فيها بتعلُّم مافيها والعمل به.

قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٦٣هـ) معلِّقاً على خبر ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (وأما حديث مالك أنه بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثماني سنين يتَعَلَّمُها؛ فهو من قول ابن مَسْعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ قَلِيلٌ قُرَّاؤُهُ"[٤] إنه كان يتعلَّمها بأحكامها ومعانيها وأخبارها فكذلك طالَ مُكْثه فيها، ومعلوم أنَّ من الناس من يتعذَّر عليه حفظ القرآن ويفتح له في غيره)[٥].

سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، من حديث أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ».

[١] ذكره النووي في التبيان (٨٧)، ولم أقف عليه عند غيره.

[٢] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٦)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (الراشدون – ٨١).

[٣] أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٢٨٧) برقم: (٦٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٥)، وانظر: جامع الأصول (٨/ ١٧).

[٤] سبق قريباً .

[٥] الاستذكار (٢/ ٥٠٢)، وبنحوه قال الزرقاني في شرحه لموطأ مالك (٢/ ٢١).

٨) مرَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ براهب، فوقف فنودي الراهب، فقيل له: هذا أمير المؤمنين، قال: فاطَّلع، فإذا إنسان به من الضرِّ والاجتهاد وترْك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني، فقال: (قد علمت، ولكني رحمته، ذكرت قول الله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٣-٤]، فرحمت نصبه واجتهاده، وهو في النار، فذاك الذي أبكاني)[١].

٩) وعن عبدالله بن شداد بن الهاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٢هـ)[٢] قال: (سمعت عمر يقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف، فسمعت نشيجه[٣]، وإني لفي آخر الصفوف، وهو يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦])[٤].

١٠) وكان عبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٨هـ) واضعاً رأسه في حِجْر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: (إني ذكرت قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فلا أدري أننجو منها أم لا؟)[٥].

---

[١] أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٤٢٠) برقم: (٣٥٨٤)، وذكره المروزي في مختصر قيام الليل (١٤٥)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٧) برقم: (٣٩٢٥)، وابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٦٢١).

[٢] **عبد الله بن شداد** = بن الهاد، أبو الوليد الليثي المديني، من كبار التابعين وثقاتهم، نزل الكوفة، وورد المدائن في صحبة عَلِيّ بْن أَبِي طالب لما خرج إلى حرب الخوارج بالنهروان، وقتل بدجيل سنة اثنتين وثمانين. انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١١٥)، تاريخ بغداد (٩/ ٤٨٠)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٨).

[٣] **النشيج** = الصَّوْت مَعَه توجع. وَيُقَال: النشيج فِي الْبكاء مثل بكاء الصَّبِي اذا ردده فِي صَدره ثمَّ يُخرجهُ. والمراد: أَن يرفع الصَّوْت بالبكاء فِي الصَّلَاة حَتَّى يُسمع فَلَا يقطع ذَلِك الصَّلَاة. انظر: غريب الحديث للقاسم ابن سلام (٣/ ٣٣٧)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٤٧٨).

[٤] أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١٤) برقم: (٢٧١٦)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٣٧)، وسعيد بن منصور في السنن (٥/ ٤٠٥) برقم: (١١٣٨)، وذكره البخاري تعليقاً في باب إذا بكى الإمام في الصلاة من كتاب الأذان، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٤٢)، وابن الجوزي في مناقب عمر (١٥٩).

[٥] أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣١) برقم: (٨٧٤٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

١١) وعن نافع مولى ابن عمر قال: ما قرأ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٧٣هـ) هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، ثم يقول: (إنَّ هذا الإحصاء شديد)[١].

١٢) وعن نافع أيضاً قال: كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قرأ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]، بكى حتى يغلبه البكاء[٢]، وقال: (بلى يا ربّ، بلى يا ربّ)[٣].

١٣) وشرب عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ماءً بارداً فبكى فاشتدَّ بكاؤه، فقيل: ما يبكيك؟ قال: (ذكرت آية في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤]، فعرفت أنَّ أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠])[٤].

١٤) وَقَرَأَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١]، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥)، وفي معرفة الصحابة (٣/ ١٧١٠)، وذكره الأصفهاني في سير السلف الصالحين (٤٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٨) برقم: (٣٤٦٤٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٢٢٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨٢) برقم: (٧٧)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٤٣).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٣٨) برقم: (٤٢٩٤).

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦] بَكَى حَتَّى خُنَّ، وَحَتَّى انْقَطَعَ عَنْ قِرَاءَةِ مَا بَعْدَهَا[(١)].

ثالثاً: سرعة استجابة الصحابة للقرآن بعد تدبُّرهم له، ومن أخبارهم في ذلك:

١٥) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ[(٢)]: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟)، قَالَ: «**نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ**»، قَالَ: (أَرِنِي يَدَكَ)، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، قَالَ: (فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي) - وَفِي حَائِطِهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ -، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْحَائِطِ، فَقَالَ: (يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ - وَهِيَ فِي الْحَائِطِ -، فَقَالَتْ: لَبَّيْك. فَقَالَ: اخْرُجِي، فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ)[(٣)].

١٦) وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ)، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي**

---

(١) أخرجه المروزي في مختصر قيام الليل (١٤٣)، وابن أبي الدنيا في الأهوال (٣٢).

(٢) **أبو الدحداح** = ثَابِتُ بْنُ الدَّحْدَاحِ وَقِيلَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ الْأَنْصَارِيُّ، توفي في حياة النبي ﷺ، وصلى عليه رسول الله ﷺ، يشبه أن يكون كنيته أبا الدحداح، فكناه بعضهم، ونسبه بعضهم، روى عَنهُ: ابن مَسْعُود، وَجَابِر بن سَمُرَة. انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٤٧٣)، والاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٢٠٣).

(٣) **صحيح**. أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٣/ ٩٣٥)، والبزار في مسنده (٥/ ٤٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٣٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٢٥) برقم: (٣١٧٨)، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٢٠).

الأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: (أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ)، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[1].

١٧) حين أنزل الله براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة الإفك، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان ينفق على مِسطَح بن أثاثة لقرابته منه وفقره-: (والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال)، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)، فرجَّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: (والله لا أنزعها منه أبداً)[2].

١٨) ودخل عيينة بن حصن (٣٥هـ)[3] على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: (يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل)، فغضب عمر، حتى همَّ بأن يقعَ به، فقال الحرُّ بن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٤٦١) في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، وبرقم: (٢٣١٨) في كتاب الوكالة، باب إذا قال الرجل لوكيله: ضعه حيث أراك الله، وقال الوكيل: قد سمعت ما قلت، وبرقم: (٢٧٥٨) في كتاب الوصايا، باب من تصدَّق إلى وكيله ثمَّ ردَّ الوكيل إليه، وبرقم: (٢٧٦٩) في كتاب الوصايا، باب إذا أوقف أرضاً ولم يبين الحدود فهو جائز وكذلك الصدقة، وبرقم: (٤٥٥٤) في كتاب تفسير القرآن، باب، وبرقم: (٥٦١١) في كتاب الأشربة، باب استعذاب الماء. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٩٩٨) في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤١٤١) في كتاب المغازي، باب حديث، وبرقم: (٤٧٥٠) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:١٢]، وبرقم: (٦٦٧٩) في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب.

(٣) **عيينة بن حصن**= بْن حذيفة الفزاري، من صناديد العرب، استألفه النبي ﷺ على الإسلام، وكان من المؤلفة، شهد الفتح مسلمًا، وشهد حنينًا أَوْ الطائف أيضًا. وكان من الأعراب الجفاة، وهو عم الحر بْن قيس. انظر: معرفة الصحابة (٤/ ٢٢٤٧)، أسد الغابة (٤/ ٣١)، تاريخ الإسلام (٢/ ١٩٠).

قيس[1]: (يا أمير المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وإنَّ هذا من الجاهلين)، قال ابن عباس: (فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله)[2].

١٩) وجاء صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ[3] إلى النَّبِيَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: «﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]»، قَالَ: (حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا)[4].

٢٠) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (يَرْحَمُ اللهُّ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُّ: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور:٣١]، شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)، وفي لفظ: (أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)[5].

---

[1] **الحرَّ بن قيس** = الحر بن قيس بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ابن أخي عيينة بن حصن، كان أحد الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من فزارة، مرجعه من تبوك. انظر: معرفة الصحابة لابن منده (٤٤٣)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٨٩٦)، الاستيعاب (١/ ٤٠٣).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٦٤٢) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وبرقم: (٧٢٨٦) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

[3] **صعصعة بن معاوية**= بْن حصن، أو حصين، عم الأحنف بْن قيس، وقد اختلف في صحبته، وَإنما روايته عَنْ عائشة وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووهم من قال: أنه عم الفرزدق.انظر: أسد الغابة (٢/ ٤٠٤)، الإصابة (٣/ ٣٤٦).

[4] **صحيح**. أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٧) برقم: (٨٠)، وأحمد في مسنده (٣٤/ ٢٠١) برقم: (٢٠٥٩٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٤٣) برقم: (١١٦٣٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ٧٦) برقم: (٧٤١١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧١١) برقم: (٧٤١١)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤١): (ورجال الجميع رجال الصحيح).

[5] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٧٥٨) وبرقم: (٤٧٥٩) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور:٣١].

٢١) وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (خطَرت على قلبي هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ففكَّرت فيما أعطاني الله، فلم يكن شيء أحبَّ إليَّ من رُمَيثة، فهي حرة لوجه الله تعالى، فلولا أن أكره أن أعود في شيء جعلته لله لنكحتها)، ثمَّ أنكحها نافعاً مولاه[1].

رابعاً: تدبُّر التابعين ومن تبعهم من سلف الأمة وتأثُّرهم واتعاظهم بالقرآن.

ومن أمثلة تدبُّرهم وتأثُّرهم بالقرآن:

٢٢) قرأ الحارث بن سويد رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٢هـ)[2] قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] حتى بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] فبكى، ثمَّ قال: إنَّ هذا الإحصاء شديد[3]، إنَّ عذاب الآخرة لشديد[4].

٢٣) وكان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا شتمه الرجل يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] كلُّ ذلك يحصى[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٧٠) برقم: (٣٠٥)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٤٧) برقم: (٦٣٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٩٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/ ١٣٨).

(٢) **الحارث بن سويد** = التيمي، أبو عائشة الكوفي، من أئمة التابعين، ثقة رفيع المحل، يقال: أدرك الجاهلية ونزل الكوفة، وكان من علية أصحاب ابن مسعود، وثقة أحمد وابن معين، توفي في آخر خلافة عبد الله بن الزبير سنة اثنتين وسبعين، وذكره بن حبان في الثقات، وروى له الجماعة. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٦)، الإصابة في تمييز الصحابة (٢٠/ ١٣٥)، تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٣).

(٣) أخرجه عنه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٢٦) برقم: (٣٥٥٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢٧).

(٤) اللفظ الثاني أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٢٧).

٢٤) قال عبد الله بن رباح (١٠٠هـ)[١]: كان صفوان بن محرز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤هـ)[٢]إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، بكى حتى أقول: اندق قصيص زَوْره[٣].

٢٥) وجعلت جارية لعلي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٤هـ)[٤] تسكب عليه الماء، فتهيَّأ للصلاة فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجَّه، فرفع علي بن الحسين رأسه إليها، فقالت الجارية: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، فقال لها: (قد كظمت غيظي)، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، فقال لها: (قد عفا الله عنك)، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، قال: (اذهبي فأنت حرة)[٥].

---

(١) **عبد الله بن رباح** = أبو خالد الأنصاري المدني، نزيل البصرة، روى عن أبي بن كعب، وعمار بن ياسر، وكعب الأحبار، وتوفي في حدود المائة للهجرة. الوافي بالوفيات (١٧/ ٨٦)، تهذيب التهذيب (٥/ ٢٠٦).

(٢) **صفوان بن محرز** = المازني البصري، أبو عبد الله، العابد، أحد الأعلام، ثقة، له فضل وورع، كان واعظاً، قانتاً لله، قد اتخذ لنفسه سرباً يبكي فيه، ومات سنة أربع وسبعين في ولاية عبد الملك. انظر: الثقات لابن حبان (٤/ ٣٨٠)، سير السلف الصالحين (٤/ ٢٨٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٢٥) برقم: (٣٥٥٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٤)، وانظر: مصاعد النظر (٢/ ٣٣١).

(٤) **علي بن الحسين** = بن علي بن أبي طالب، يقال: أبو الحسين، وأبو محمد، وأبو عبد الله زين العابدين، روى عن عدد من الصحابة، وقدم دمشق بعد قتل أبيه الحسين بن علي، ومسجده المنسوب إليه فيها معروف، واستقدمه عبد الملك بن مروان في خلافته يستشيره، مات سنة أربع وتسعين، وقيل غير ذلك، ودفن بالبقيع. انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٢١١)، تاريخ دمشق (٤١/ ٣٦٠).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥٤٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١/ ٣٨٧).

٢٦) وكان إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٦هـ)[١]، إذا سمع قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق:١]، اضطرب حتى تضطَّرِب أوصاله[٢].

٢٧) وقرأ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) بالناس ذات ليلة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١] فلما بلغ: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١ – ١٤] خنقته الْعبْرَة فَلم يسْتَطع أَن ينفذها، فَرجع حَتَّى إِذا بلغهَا خنقته الْعبْرَة فَلم يسْتَطع أَن ينفذها فَتَركهَا وقرأسورة غَيرهَا[٣].

٢٨) وقرأ رجل عند عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ، قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان:١٣]، فبكى حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، فدخل بيته، وتفرق الناس [٤].

٢٩) وقَرَأَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ [يونس:٦١]، فبكى بكاء شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة، فجعلت تبكي لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهم، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون، فقال: (يا أبه ما يبكيك؟) قال: (خير يا

---

[١] **إبراهيم النخعي** = إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي الفقيه، كان للعلوم جامعاً، ومن نخوة النفوس واضعاً، وعن المتواضعين رافعاً، وكان عجباً في الورع والخير، متوقياً للشهرة، رأساً في العلم، مات سنة ست وتسعين، وهو ابن خمسين أو نحوها. انظر: حلية الأولياء (٤/ ٢١٩)، تهذيب الكمال (٢/ ٢٣٣)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٠).

[٢] ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ١٦٨).

[٣] سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لابن عبد الحكم (٤٧)، والتخويف من النار لابن رجب (١٠٤).

[٤] أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨٥) برقم: (٨٣).

بني، ودَّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار)[١].

٣٠) وقدِّم للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ) عَشاؤه، فلمَّا بدأ يأكل منه، سمع قارئاً يتلو: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣]، فقال: (ياجارية! ارفعي عشاءك)، وما زال يردد الآية ويبكي بقية ليلته[٢].

٣١) وحين قرأ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، اضطَّربت رُكبَتاه، وجرَت دموعه، ثمَّ قال: (روي أنَّ النار تأكل لحومهم كلَّ يوم سبعين مرَّة، ثمَّ يقال لهم: عودوا، فيعودون، اللهم إنا نعوذ بك من النار، ومن عمل نستوجب به النار)[٣].

٣٢) وقرأ مرَّة قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] ثمَّ قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، ألهى والله عن نار الخلود، وشغَل عن نعيم لا يبيد، ثمَّ قرأ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] ثمَّ قال: أيها الناس! لو توعَّدكم مخلوقٌ يموت، ما استقرَّ بكم القرار، فكيفَ بوعيد ملِكِ الملوك، والحي الذي لا يموت؟!).

وكان إذا قرأ القرآن وانتهى إلى هذه السورة لم يتجاوزها، ولا يزال يردِّدها ويبكي إلى أن ينقطع نحيبه[٤].

---

[١] أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨٩) برقم: (٩١).

[٢] آداب الحسن البصري، لابن الجوزي (٩٦).

[٣] المرجع السابق (٩٧).

[٤] المرجع السابق (١٠٢).

٣٣) وقال محمد بن جُحَادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣١هـ)[١]: قلت لأمِّ ولد الحسن البصري: (ما رأيتِ منه؟) - أي الحسن البصري- فقالت: (رأيته فتح المصحف، فرأيت عينيه تسيلان وشفتيه لا تتحرَّكان)[٢].

٣٤) وقرأ يوماً ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧هـ)[٣]قول الله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩] فرقَّ حتى بكى، ثمَّ قال: (ما سمع الخلائق بعتب أشدَّ منه قط)[٤].

٣٥) وقال عمرو بن ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٥هـ)[٥]: (خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له فمرَّ على ظهري، ثم قمت فأخذت بيده، ثم دفعنا إلى منزل الحسن، فطرقت الباب فخرجت إلينا

---

[١] **محمد بن جُحَادة** = الكوفي، مولى لبني أود، الأودي ويقال: الإيامي الكوفي، أحد الأئمة الثقات، حدث عن أنس بن مالك بأحاديث، وثقه أحمد بن حنبل، وأبو حاتم الرازي، روى له الجماعة، وكان من الفضلاء الصلحاء. توفي بطريق مكة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائة، في خلافة عُمَر بن عبد العزيز. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٣٥)، تهذيب الكمال (٢٤/ ٥٧٥)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٧٤).

[٢] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥١٥) برقم: (٢٠٤٣)، وذكره أبو شامة في المرشد الوجيز (٢٠٧).

[٣] **ميمون بن مهران** = أبو أيوب مولى بني أسد الجزري، كان عالماً صالحاً ثقة مأموناً، ولد سنة أربعين، فقيه أهل الجزيرة، وفد على عمر بن عبد العزيز، وأعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة، فنشأ بها، ثم سكن الرقة، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٦١/ ٣٣٦)، تهذيب الكمال (٢٩/ ٢١٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٧١).

[٤] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٩٢).

[٥] **عمرو بن ميمون بن مهران**= أبو عبد الله الجزري، الإمام، الحافظ، الفقيه، نزل الرقة، وسمع أباه، وكان ثقة صالحاً عالماً ديناً، مات بالرقة، وكان يؤدب بحصن مسلمة، مات في سنة خمس وأربعين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٤٦/ ٤٢٤)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٤٦).

جارية سداسية فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن، فقالت: كاتب عمر بن عبد العزيز؟ قلت لها: نعم. قالت: يا شقي، ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء؟ قال: فبكى الشيخ، فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا، ثمَّ دخلا، فقال ميمون: يا أبا سعيد قد آنست من قلبي غلظة فاستلِن لي منه. فقرأ الحسن: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]، قال: فسقط الشيخ، فرأيته يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة، فأقام طويلاً ثمَّ أفاق، فجاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ، قوموا تفرَّقوا، فأخذت بيد أبي فخرجت به، ثم قلت: يا أبتاه، هذا الحسن؟ قد كنت أحسب أنه أكبر من هذا، قال: فوكزني في صدري وكزة ثم قال: يا بني، لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيك كلوم)[1].

٣٦) وعن عمرو بن مرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٦هـ)[2] قال: (ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣])[3].

---

[1] أخرج القصة أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٨٢)، وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ٣٥٣).

[2] **عمرو بن مرة** = بن عبد الله بن طارق بن الحارث بن سلمة بن كعب بن وائل، الإمام، القدوة، الحافظ، أبو عبد الله المرادي، ثم الجملي، الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، حدث عن: عبد الله بن أبي أوفى، وثقه أحمد وابن معين، وهو من حفاظ الكوفة، وقيل: كان مرجئاً، مات سنة ست عشرة ومائة، وقيل: سنة ثماني عشرة. انظر: الثقات لابن حبان (٥/ ١٨٣)، تهذيب الكمال (٢٢/ ٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٦).

[3] أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٦٤) برقم: (١٧٣٢٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٠)، وأورده بالمعنى ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٥١).

٣٧) وقال عامر بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢١هـ)(١): (قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ استعنت بهنّ على ما أنا فيه فاستعنت قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]، فقلت: إن أراد أن يضرّني لم يقدر أحد أن ينفعني، وإن أعطاني لم يقدر أحد أن يمنعني، وقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فوالله ما اهتممت برزقي منذ قرأتها فاسترحت)(٢).

٣٨) وكان محمد بن المنكدِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠هـ)(٣) قائماً يصلي ذات ليلة إذ استبكى وكثُر بكاؤه حتى فزِع أهله، وسألوه ما الذي أبكاه فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه، فإذا هو يبكي، قال: (يا أخي، ما الذي أبكاك؟ قد رعتَ أهلك، أفمن علة؟ أم ما بك؟) فقال: (إنه مرَّت بي آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ)، قال: (وما هي؟) قال: قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، قال: فبكى أبو حازم أيضاً معه واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: (جئنا بك لتفرِّج عنه فزدته)، قال فأخبرهم ما الذي أبكاهما(٤).

---

(١) **عامر بن عبد الله** = بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو الحارث، المدني، أحد العباد، مجمع على ثقته، توفي: سنة نيف وعشرين ومائة. انظر: الهداية والإرشاد= رجال صحيح البخاري (٢/ ٥٥٨)، تهذيب الكمال (١٤/ ٥٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٠).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٨).

(٣) **محمد بن المنكدر** = ابن عبد الله ابن الهدير ابن محرز أبو عبد الله، كان من سادات القراء، لا يتمالك البكاء إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ، وكان من معادن الصدق، ويجتمع إليه الصالحون، وكان غاية في الإتقان والحفظ والزهد، وهو حجةٌ، توفي في خلافة مروان بن محمد، سنة ثلاثين ومئة. انظر: سير السلف الصالحين (٩٢٦)، تاريخ دمشق (٥٦/ ٣٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٤٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٦٧)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٣٧٩).

٣٩) وحين أتى الموت محمد بن المنكدِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠هـ) جزع، فقيل له: لِمَ تجزَع؟ فقال: (أخشى آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب)[١].

٤٠) وعن رجل من ولد ابن أبي ليلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٨هـ)[٢]قال: (دخلت عليَّ امرأة وأنا أقرأ سورة هود، فقالت لي: يا أبا عبد الرحمن، هكذا تقرأ سورة هود، والله إني فيها منذ ستة أشهر، وما فرغت من قراءتها)[٣].

٤١) وكان صالح المري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٦هـ)[٤]يوماً يتكلّم ويعظ، فقال لرجل حدث بين يديه: اقرأ يا بني، فقرأ الرجل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، فقطع عليه صالح القراءة فقال: (وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب له رب العالمين، إنك والله لو رأيت

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٤٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٦٧)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٥).

(٢) **ابن أبي ليلى**= محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، أبو عبد الرحمن الكوفي، قاضي الكوفة، كان نظيراً للإمام أبي حنيفة في الفقه، صاحب سنة، صدوق، جائز الحديث، وكان قارئاً للقرآن، عالماً به، توفي سنة ١٤٨هـ. انظر: تهذيب الكمال (٢٥/ ٦٢٢)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٣١٠).

(٣) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (١/ ٨٦)، شعب الإيمان (٣/ ٤٠٨) برقم: (١٨٨٧)، إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٢)، صفة الصفوة (٢/ ١١٢)، ونسبه ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٣٢٩) لعبدالرحمن بن أبي ليلى.

(٤) **صالح المرِّي** = صالح بن بشير المري، أبو بشر الزاهد، واعظ أهل البصرة، كان مملوكاً لامرأة من بني مرة بن الحارث من بني عبد القيس فأعتقته، وكان تقياً، شديد الخوف من الله، كأنه ثكلى إذا قص، حسن الصوت، صاحب قراءة وشجن ومخافة وحزن، يحرك الأخيار، ويفرك الأشرار، ويقال: هو أول من قرأ بالبصرة بالتحزين، مات جماعة سمعوا قراءته، توفي سنة ست وسبعين ومائة. انظر: حلية الأولياء (٦/ ١٦٥)، صفة الصفوة (٢/ ٢٠٧)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٦).

الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم حفاة عراة مسودة وجوههم مزرقة عيونهم ذائبة أجسامهم ينادون يا ويلاه يا ثبوراه ماذا نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ أين يُذهب بنا؟ ماذا يراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرَّة يجرُّون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين، ومرَّة يُقادون إليها عنتاً مقرَّنين، من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخٍ طائر القلب مبهوت، إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقرُّ لفظاعة هوله على قرار قدمك. ثم نحَب وصاح: يا سوء منظراه ويا سوء منقلباه)، وبكى، وبكى الناس[(١)].

٤٢) وكان صالح المري أيضاً إذا قصَّ قال: (هات جونة المسك، والترياق المجرَّب) - يعني القرآن - فلا يزال يقرأ ويدعو ويبكي حتى ينصرف[(٢)].

٤٣) وكان الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٧هـ)[(٣)] في أول أمره شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]، فلمَّا سمعها قال: (بلى يا ربِّ قد آن)، وتاب توبة صادقة، وجعل توبته مجاورة البيت الحرام[(٤)].

٤٤) قال إسحاق بن إبراهيم الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: (ما رأيت أحدًا كان أخْوَف على نفسه،

---

(١) ذكر القصة أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٦٥-١٦٦).

(٢) ذكر القصة أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٦٧).

(٣) **الفضيل بن عياض** = بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي ثم اليربوعي الخراساني المروزي الزاهد، كان من أورع الناس وأفضلهم، ولد بخراسان بأبيورد سكن مكة وتوفي بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة. انظر ترجمته: حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٣٧٥)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢١).

(٤) ذكر القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٨٣)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٣).

(٥) **إسحاق بن إبراهيم الطبري**= كان بصنعاء، وحديثه منكر، يروي عن ابن عيينة، والفضيل بن عياض. انظر ترجمته: المجروحين لابن حبان (١/ ١٣٨)، ميزان الاعتدال (١/ ١٧٧).

ولا أرجى للناس من الفضيل، كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذِكْر الجنة تردَّد فيها وسأل)[1].

٤٥) قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٧هـ) في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، قال: (أتوا بأعمال ظنوها حسنات، فإذا هي سيئات)، فبكى يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

٤٦) ودعي الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٥٦هـ) إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضرت صلاة الظهر صلى بالقوم ثم قام للتطوع، فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه: (انظر هل ترى تحت قميصي شيئاً؟) فإذا زنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً، وقد تورَّم من ذلك جسده، وكانت آثار الزنبور في جسده ظاهرة فقال له بعضهم: (كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبرك؟) فقال: (كنت في سورة فأحببت أن أتمَّها)[3].

٤٧) وروي أنَّ مِلِكاً كثير المال كانت له ابنة لم يكن له ولد غيرها، وكان يحبُّها حباً شديداً، وكان يلهيها بصنوف اللهو، فمكث كذلك زماناً، وكان إلى جانب المِلِك عابد، فبينا هو ليلة يقرأ إذ رفع صوته وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، فسمعت الجارية قراءته فقالت لجواريها: كفُّوا. فلم يكفُّوا، وجعل العابد يردد الآية، والجارية تقول لهم: كفوا. فلم يكفوا. فوضعت يدها في جيبها فشقَّت ثيابها، فانطلقوا إلى أبيها فأخبروه بالقصة، فأقبل إليها فقال: (يا حبيبتي ما حالك منذ الليلة؟

---

[1] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٨٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٩٦)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٨).

[2] أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٥/ ٣٥٢).

[3] أخرج هذه القصة عنه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ١٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ٨٠)، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٢).

ما يبكيك؟) وضمَّها إليه. فقالت: (أسألك بالله يا أبه، لله عَزَّوَجَلَّ دار فيها نار وقودها الناس والحجارة؟)، قال: نعم. قالت: (وما يمنعك يا أبه أن تخبرني؟ والله لا أكَلت طيِّباً ولا نمت على ليِّن حتى أعلم أين منزلي في الجنة أو النار؟)[(١)].

٤٨) وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (ضاق بي أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكلِّ وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق:٢]، فعلمت أنَّ التقوى سبب للمخرج من كل غمّ، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى، فوجدت المخرج)[(٢)].

خامساً: ترديد الآيات وتكرارها رجاء تدبرها وفهم معانيها.

وهدف التكرار هو التوقُّف لاستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار كلما اتضحت المعاني المفهومة من النص؛ فالتكرار نتيجة وثمرة الفهم والتدبُّر، وهو أيضاً وسيلة للتدبُّر.

ولقد بلغ الصحابة والسلف الكرام، وأهل الصلاح والتقى والإحسان؛ غاية التدبُّر بتكرار الآيات وترديدها، ومن أخبارهم في ذلك:

٤٩) عن عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٣٣هـ) أنه ردد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤]، حتى أصبح[(٣)].

٥٠) وكرر تميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٤٠هـ) هَذه الآية حَتى أصْبَح: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١][(٤)].

---

(١) ذكر القصة ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٥٣١) عن أبي عياش القطان.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (٢٠٤-٢٠٥).

(٣) انظر: المرشد الوجيز لأبي شامة (١٩٦)، التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (٨٦).

(٤) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٣٣)، وأبو داود في الزهد (٣٢٧).

٥١) وعن عَبَّادُ بن حَمْزَة[(١)] قال: دَخلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ (٧٣هـ) وَهِيَ تَقْرَأُ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور:٢٧]، قَالَ: (فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو، فَذَهَبْتُ إِلَى السُّوقِ، فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو)[(٢)].

٥٢) وقرأ عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠هـ)[(٣)] ليلة من سورة المؤمن فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر:١٨]، لم يزل يرددها حتى أصبح[(٤)].

٥٣) وكان سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٤هـ) يَؤُمُّ الناس في رمضان ويُرَدِّدُ قول الله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ [غافر:٧١] و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] يردِّدُها مرَّتين أو ثلاثاً[(٥)].

---

(١) **عباد بن حمزة** = ابْن عَبد اللهِ بْن الزبير بن العوام، الْقُرَشِي الأسدي، أَخُو عَبْد الْوَاحِد بْن حمزة، رَوَى عَن جدة أبيه أسماء بنت أبي بَكْر الصديق، وأختها عَائِشَة أم الْمُؤْمِنِينَ، وكَانَ عباد بْن حمزة سخيا سريا حلوا أَحْسَن النَّاس وجها، يضرب المثل بحسنه، وثقه النسائي، وابن حبان، ولم أقف على تاريخ وفاته، وانظر ترجمته: تهذيب الكمال (١٤/ ١١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٥) برقم: (٦٠٣٧)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٤٨).

(٣) **عامر بن عبد الله** = المعروف بعامر بن عبد قيس التميمي العنبري البصري، تابعي ثقة، من سادات التابعين وعبَّادهم، رآه كعب الأحبار، فقال: هذا راهب هذه الأمة، كان يقرئ الناس، سيَّره عثمان من البصرة إلى الشام بسبب وشاية، وروي عن عطاء الخراساني أن قبر عامر بن عبد قيس ببيت المقدس، وقيل: توفي في زمن معاوية في حدود السبعين للهجرة. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥)، الوافي بالوفيات (١٦/ ٣٣٥)، الإصابة في معرفة الصحابة (٥/ ٦٠).

(٤) أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٤٧)، وانظر: المرشد الوجيز لأبي شامة (١٩٦).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٩١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢٤) برقم: (٨٣٦٩)، وانظر: مختصر قيام الليل للمروزي (١٤٨)، فضائل القرآن للمستغفري (١/ ١٦٢)، التبيان للنووي (٨٦).

٥٤) وورد عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ردد قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]، في الصلاة بضعاً وعشرين مرَّة[١].

٥٥) وقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة يردد قوله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس:٥٩][٢].

٥٦) وقال مقاتل بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ): (صلَّيت خلف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، فجعل يكرِّرها لا يستطيع أن يجاوزها - يعني من البكاء-)[٣].

٥٧) وروي عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ)، أنه كان يصلي ذات ليلة فقرأ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر:٧١-٧٢]، وجعل يرددها ويبكي حتى أصبح[٤].

٥٨) وكان الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٥هـ)[٥]، إذا تلا قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ

---

[١] أخرجه عنه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٤٧)، وانظر: حلية الأولياء (٤/ ٢٧٢)، سير السلف الصالحين (١/ ٧٨١)، تهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٤).

[٢] ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٢).

[٣] أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٩٠) برقم: (٩٤)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٤٠٢) برقم: (٢٢٦٧).

[٤] ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين (٥٦٤).

[٥] **الضحاك بن مزاحم الهلالي** = أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني، ولد ببلخ، هو أحد أئمة التفسير العظام، لقي جماعة من التابعين ولم يشافه أحداً من الصحابة، ومن زعم أنه لقي ابن عباس فقد وهم إنما لقي سعيد بن جبير بالري فأخذ عنه التفسير، وثَّقه أحمد بن حنبل وأبو زرعة ويحيى بن معين، كان معلماً مؤدباً للصبيان، توفي سنة ١٠٢هـ، وقيل ١٠٥هـ، وقيل ١٠٦هـ. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٠٠)، الثقات لابن حبان (٦/ ٤٨١)، الكامل في ضعفاء الرجال (٥/ ١٤٩)، تهذيب الكمال (١٣/ ٢٩١).

﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، ردَّدها إلى السَّحر[١].

٥٩) وعن مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ (١٠٨هـ) أنَّه قَال: (لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكَّر، أحبُّ إلي من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذًّا) أو قال: (أنثره نثراً)[٢].

٦٠) وردَّد الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ) ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: (إنَّ فيها معتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر)[٣].

٦١) وروي عن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ منها[٤].

٦٢) وكان محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٣هـ)[٥]، يجعل: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١] وِرْداً، يردِّدها ويبكي[٦].

---

[١] ذكره عنه النووي في التبيان في آداب حملة القرآن (٨٦).

[٢] أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٤١)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٢٥٨) برقم: (٣٥)، وانظر: صفة الصفوة (١/ ٣٧٥).

[٣] مختصر قيام الليل للمروزي (١٤٨).

[٤] ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٩٢)، والغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٨).

[٥] **محمد بن واسع** = بن جابر بن الأخنس بن عابد بن خارجة بن زياد، يكنى أبا عبد الله. عابد، ثقة، صالح، وَكَانَ من الْعباد المتقشفة، والزهاد المتجردة لِلْعِبَادَةِ، خرج إِلَى خُرَاسَان غازياً، وَكَانَ فِي فتح مَا وَرَاء النَّهر مَعَ قُتَيْبَة بن مُسلم، مات سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقيل سبع وعشرين ومائة. انظر: التاريخ الكبير للبخاري (١/ ٢٥٥)، رجال صحيح مسلم (٢/ ٢١٥)، تهذيب الكمال (٢٦/ ٥٧٦)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١١٩).

[٦] أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٢٨٠) برقم: (٤٢٨)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٤٨)، وانظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ١٨٨).

٦٣) وقرأ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٧هـ) ذات ليلة سورة محمد وكان يبكي ويردِّد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣١]، وجعل يقول: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، ويردد: (وتبلو أخبارنا، إن بلوت أخبارنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذَّبتنا، ويبكي)[١].

٦٤) وقال أحمد بن سهل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: (كنت ألازم غريماً لي إلى بعد عشاء الآخرة أو نحو هذا، وكنت ساكناً في جوار بكار بن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٠هـ)[٣]، فانصرفت إلى منزلي، فإذا هو يقرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، فوقفت أسمع عليه طويلاً، ثم انصرفت، فقمت في السَّحر على أن أصير إلى منزل الغريم، فإذا هو يقرأ هذه الآية يرددها ويبكي، فعلمت أنه كان يقرؤها من أول الليل)[٤].

ومما سبق يتَّضح أثر تكرار الآيات وتردادها على المتدبِّر للقرآن.

قال ابن عجيبة الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٢٤هـ): (فإنَّ القارئ المتأمِّل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وقد كان من السلف من يبقى في السورة يكررها أياماً، وفي الآية يرددها ليلة وأكثر، كلما رددها ظهر له معان أُخر)[٥].

---

[١] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١١١).

[٢] **أحمد بن سهل بن بويه الهروي** = جاء ذكره في هذه القصة، ولم أقف على ترجمته.

[٣] **بكار بن قتيبة** = بن أسد بن عبيد الله بن بشير الثقفي، ابن صاحب رسول ﷺ أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي، البكراوي، البصري، القاضي الكبير، العلامة، المحدث، أبو بكرة الفقيه، الحنفي، ولد عام اثنين وثمانين ومائة، بالبصرة، وعني بالحديث، وكتب الكثير، وبرع في الفروع، وصنف، واشتغل، وكان من قضاة العدل، توفي في ذي الحجة، سنة سبعين ومائتين، عاش تسعاً وثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٩٩).

[٤] أخرجه عنه ابن المقرئ في المعجم (١٣٢) برقم: (٣٦٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٧٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٠٠).

[٥] تفسير البحر المديد (٤/ ٣٠٦).

سادساً: تلاوة القرآن وتدبُّره وقيام الليل به.

وهذا المنهج قرره القرآن وأثنى على أهله في نحو قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٧].

فأمر الله تعالى نبيه أن يقرأ القرآن على مكث، وهو التمهل والترتيل وعدم الإسراع فيه، ثم أشاد بأهل هذا الوصف بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقراءة القرآن بالليل أقوى وسيلة للتدبر، وأجدر أن يفقه بها القرآن، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:١-٦]، قال ابن زيد: (إن مصلي الليل القائم بالليل أشدُّ وطئاً: طمأنينة أفرغ له قلباً، وذلك أنه لا يَعْرِضُ له حوائج ولا شيء)[1].

"ولا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه وييسر فهمه، إلا القيام به في جوف الليل"[2].

ومن أخبار السلف الصالح في تدبُّرهم للقرآن في قيامهم الليل:

٦٥) قَامَ رَجُلٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ مِنَ السَّحَرِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] يُرَدِّدُهَا لاَ يَزِيدُ عَلَيْهَا[3].

٦٦) وسمع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجلاً يتهجَّد في الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧-٨]، قال عمر: (قسم

---

[1] انظر: جامع البيان (٢٣/ ٦٨٤).

[2] انظر: أضواء البيان (٨/ ٣٥٩).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ برقم: (٥٠١٤).

ورب الكعبة حق)، ثم رجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه[1].

٦٧) وقال ابن مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧هـ)[2]: صحبت ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من مكة إلى المدينة، فكنا إذا نزلنا منزلاً قام شطر الليل والناس نيام، ولقد رأيته ذات ليلة يقرأ قول الله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[ق:١٩]. فظلَّ يكرِّرها وينشج حتى طلع عليه الفجر[3].

٦٨) ولما توفي عمرو بن عتبة بن فرقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠هـ)[4]دخل بعض أصحابه على أخته، فقال: أخبرينا عنه. فقالت: (قام ذات ليلة فاستفتح سورة ﴿حمٓ ﴾، فلما أتى على هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[غافر:١٨]، فما جاوزها حتى أصبح)[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٩٣) برقم: (١٠٠)، وابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٦٠٧).

(٢) **عبد الله ابن أبي مليكه** = هو عبد اللهَّ بن عبيد اللهَّ بن عبد اللهَّ بن أبي مليكة، تابعي، ثقة فقيه، أمه ميمونة بنت الوليد بن أبي حسين بن الحارث بن عامر بن نوفل، ليس له عقب، وكان يقوم بالناس في شهر رمضان بمكة بعد عبداللهَّ بن السائب. وتوفي بمكة سنة سبع عشرة ومائة، روى عن ابن عباس، وعائشة، وابن الزبير، ثقة كثير الحديث. انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٤٧٢)، تهذيب الكمال (١٥/ ٢٥٦)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٤٤) برقم: (٣٥٧٢٠)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٥٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤١٦) برقم: (١٨٩٩).

(٤) **عَمْرو بن عتبَة بن فرقد السلمي** = تابعي جليل من أهل الكوفة، من الْعباد، كان ثقة قليل الحديث، يروي عَن جمَاعَة من الصَّحَابَة، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود، روى عَنْهُ أهل الْعرَاق، قتل بتستر فِي خلَافَة عُثْمَان، وَكَانَ يرْعَى ركائب الصَّحَابَة وسحابة تظله، وَرُبمَا بَات وَإِلَى جنبه سبع يحميه. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٢٠٦)، الثقات للعجلي (٢/ ١٨٠)، الثقات لابن حبان (٥/ ١٧٣)، تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٨٦٧).

(٥) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٠٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ١٤٣)، وذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٨٦٧).

٦٩) وقام الربيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣هـ) يصلي ذات ليلة، فمرَّ بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١]، فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد[١].

٧٠) وعن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٣هـ)[٢]قال: (وفدت إلى سليمان بن عبدالملك ومعنا عمر بن عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك بن عمر (١٠٠هـ)[٣]وهو عزَب، فكنت معه في بيت، فصلينا العشاء، وأوى كلُّ رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفاه وأنا أنظر إليه، ثم قام يصلي حتى ذهب بي النوم، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]، فيبكي ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك حتى قلت: سيقتله البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم، لأقطع ذلك عنه، فلما سمعني سكت، فلما أسمع له حساً)[٤].

---

[١] أخرجه عنه الإمام أحمد في الزهد (٢٦٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١١٢)، وذكره الأصفهاني في سير السلف الصالحين (٧٦٣)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٣٦).

[٢] **عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان**= بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي المصري، قتل بقلنسوة سنة ثلاث وثلاثين ومائة في آخرين من بني أمية حملوا من مصر. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥/ ٢١٩).

[٣] **عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز**= بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الأموي أمه أم ولد، وكان رجلاً صالحاً يعين أباه على ردِّ المظالم، ويحثه على ذلك، مات في حياة أبيه، وكان ابن تسع عشرة سنة. انظر: تاريخ دمشق (٣٧/ ٣٨).

[٤] أخرج القصة القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٣٨٠)، وذكرها عنه ابن رجب في مجموع رسائله (٢/ ٤٧٩)، وانظر: مصاعد النظر (٢/ ٣٣٠).

٧١) وعن صالح بن سعيد المؤذن[١]، قال: (بينما أنا مع عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) بالسُّوَيْدَاء[٢]، فأذَّنت للعشاء الآخرة، فصلى، ثم دخل القصر، فقلَّما لبث أن خرج، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى، فافتتح الأنفال، فما زال يردِّدها ويقرأ، كلما مرَّ بآية تخويف تضرَّع، وكلما مرَّ بآية رحمة دعا؛ حتى أذَّنت للفجر)[٣].

٧٢) وكان هارون بن رئاب الأسدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢١هـ)[٤]يقوم من الليل للتهجد فربما ردد هذه الآية حتى يصبح: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، ويبكي حتى يصبح[٥].

٧٣) وصلى سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٣هـ)[٦]بعد العشاء الآخرة مرة فقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ

---

[١] **صالح بن سعيد** = **أبو طالب المؤذِّن**، قعد على عمر بن عبد العزيز وحكى عنه، وسمع منه، روى عنه سعيد بن السائب، وعلي بن يونس البلخي. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٣٣٢) برقم: (٢٨٠٨).

[٢] **السُّوَيْدَاء** = تصغير سوداء: وهي قرية بحوران من نواحي دمشق، مدينة بقرب دمشق بينهما ستة فراسخ، وهي على رأس جبل، حصينة، وحواليها مزارع وأشجار الزيتون والكروم، وماؤها من عين تجتمع في بركة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٨٦)، والروض المعطار في خبر الأقطار (٣٣٠).

[٣] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٥) برقم: (٣٥٠٩٥).

[٤] **هارون بن رئاب** = التميمي ثم الأسيدي، أَبُو بَكْر، ويُقال: أَبُو الحسن، البَصْرِيّ، من بني كاهل بن نمير ابن أسيد بن عَمْرو بن تميم. كان عابداً متقشفاً، اختلف في سماعه من أنس بن مالك، ورَوَى عَنه: أيوب السختياني وهو من أقرانه، ثقة زاهد، قيل: عاش ثلاثا وثمانين سنة، ولم أقف على تاريخ وفاته. انظر: حلية الأولياء (٣/ ٥٥)، تهذيب الكمال (٣٠/ ٨٢)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٣).

[٥] مختصر قيام الليل للمروزي (١٤٨).

[٦] **سليمان التيمي** = ابن طرخان، أبو المعتمر البصري، كان ينزل في بني تيم فقيل: التيمي، مولى بني مرة، من حفاظ البصرة، روى عن أنس بن مالك، مقدماً في العلم والعمل، ومن العباد المجتهدين، ثقة كثير =

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] حتى أتى على قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ﴾ [الملك:٢٧] جعل يرددها إلى الفجر(١).

٧٤) وقام الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ) ليلة بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦]، ويبكي ويتضرَّع إلى الفجر(٢).

٧٥) وعن رجل من أهل مكة قال: (صلَّيت العشاء الآخرة في المسجد الحرام وجلست فيه طويلاً، ثم انقلبت فأمرُّ مما يلي الظلال التي تلي دار الندوة، فإذا أنا برجل قائم يصلي وهو يردد هذه الآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠]، يرددها ويبكي، فمكثت ليلاً طويلاً أسمعه ثم انصرفت إلى منزلي فنمت، حتى إذا كان آخر الليل أتيت المسجد فإذا أنا بالرجل قائماً وهو يردِّد الآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠] ويبكي، حتى إذا قلت: قد طلع الفجر أو قرب طلوعه، قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فجلست إلى جنبه حتى صليت معه الصبح، فالتفتُّ فإذا أنا بسفيان الثوري)(٣).

٧٦) وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦٢هـ): (لقيت عابداً من العبَّاد قيل إنه لا ينام

الحديث، توفي بالبصرة، في ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعين ومائة، وهو ابن سبع وتسعين. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤)، سير السلف الصالحين (٧٩٠)، تهذيب الكمال (١٢/ ٥)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٩٥).

(١) أخرجه عنه المروزي في مختصر قيام الليل (٦٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٩).

(٢) أخرجه عنه الصُّميري في أخبار أبي حنيفة وأصحابه (٥٦)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٦)، والنووي في تهذيب الأسماء والصفات (٢/ ٢٢١)، وذكره الذهبي في السير (٦/ ٤٠١).

(٣) أخرجه عنه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٦٣).

الليل، فقلت له: لم لا تنام؟ فقال لي: منعتني عجائب القرآن أن أنام)[1].

٧٧) قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٥هـ)[2]: (ما رأيت أحداً الخوف والخشوع أظهرُ على وجْهه من الحسَن بن حي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦٧هـ)[3]، قام ليلة حتى أصبح بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]، يردد آية فغشي عليه، ثم عاد إليها، فغشي عليه، فلم يختمها حتى طلع الفجر)[4].

٧٨) قال المغيرة: (خرجْت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة فمررت بمالك بن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (١٧٩هـ)، فإذا أنا به قائم يصلي، فلما فرغ من: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ابتدأ بـ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، حتى بلغ قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، فبكى بكاءاً طويلاً وجعل يرددها ويبكي، وشغلني ما سمعت

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٠)، وانظر: سير السلف الصالحين (٩٧٣)، والتبصرة لابن الجوزي (٣٨٠-٣٨١)، ولطائف المعارف لابن رجب (١/ ١٧٣).

(٢) **أبو سليمان الداراني**= عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، الإمام، الكبير، زاهد العصر، كان واسطياً سكن دمشق، ولد في حدود الأربعين ومائة، توفي سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل: مات سنة خمس ومائتين. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٥/ ٢١٤)، وتاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٧)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢).

(٣) **الحسن بن صالح بن حيّ الهمداني**= واسم حي: حيان بن شفي بن هني بن رافع، الإمام الكبير، أحد الأعلام، أبو عبد الله الهمداني، الثوري، الكوفي، الفقيه، العابد، قال عنه الذهبي: هو من أئمة الإسلام، لولا تلبسه ببدعة.ولد سنة مائة، وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو حاتم، وأبو زرعة الرازي وقال: اجتمع في حسن إتقان، وفقه، وعبادة، وزهد. مات الحسن بن حي في سنة سبع وستين ومائة وهو ابن سبع وستين سنة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٣٧٥)، الكامل في ضعفاء الرجال (٣/ ١٤٦)، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم (١/ ٣٨٥)، تهذيب الكمال (٦/ ١٧٧)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦١).

(٤) أخرجه عنه ابن الجعد في مسنده (٣٠٥) برقم: (٢٠٥٩)، والمروزي في قيام الليل (١٤٨)، وذكر القصة الذهبي في السير (٧/ ٣٦٩).

ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها، فلم أزل قائماً وهو يرددها ويبكي حتى طلع الفجر)[١].

٧٩) وقال محمد بن عوف الحمصي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٢هـ)[٢]: (رأيت أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٦هـ)، عندنا بأنطرسوس[٣]، فلما أن صلى العتَمة قام يصلي على الحائط، فاستفتح بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١-٥]، فطفت الحائط كله، ثم رجعت إليه، فإذا هو لا يجاوز: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم رجعت فنمت ليلتي جمعاء، فلما كان السَّحر قبل انشقاق الفجر مررت به وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فلم يزل يرددها من العتمة إلى الصبح)[٤].

سابعاً: تدبُّر القرآن عند الاحتضار.

ومن عيش السلف مع القرآن، وتدبُّرهم له، أنَّ منهم من مات وهو يردد آيات منه ويتدبَّرها، فمنهم:

٨٠) الصحابي الجليل أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ) لما احتضر أغمي عليه فأفاق فإذا

---

[١] ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢/ ٥٠).

[٢] **محمد بن عوف الحمصي** = الحافظ أبو جعفر الطائي، روى عنه أبو داود والنسائي، وأثنى عليه غير واحد، توفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين، قال أحمد بن حنبل: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثله، حدث عن هشام بن عمار وطبقته، واتفقوا على فضله وصدقه وثقته. انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٢٠٦).

[٣] **أَنْطَرطُوس**= بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص، وقال أبو القاسم الدمشقي: من أعمال طرابلس مطلة على البحر في شرقي عرقة بينهما ثمانية فراسخ ولها برجان حصينان كالقلعتين ا..هـ، بها قبر المأمون بن الرشيد، وبها أسواق عامرة وتجارات دائرة. انظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (٢/ ٦٤٤)، معجم البلدان (١/ ٢٧٠).

[٤] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٧١/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٨٧).

بلال ابنه عنده، فقال: قم فاخرج عني، ثم قال: (من يعمل لمثل مضطجعي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ وجعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، أتيتم)، ثمَّ أغمي عليه، فلبث لبثاً ثم يفيق فيقول مثل ذلك، فلم يزل يرددها حتى قبض[١].

٨١) وحين حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) كان يردِّد قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، حتى قُبِض[٢].

٨٢) أبو حصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨هـ)[٣]، في مرضه الذي مات فيه، أغمي عليه، ثم أفاق، فجعل يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، ثمَّ أغمي عليه، ثمَّ أفاق، فجعل يرددها، فلم يزل على ذلك[٤].

---

[١] أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١) برقم: (٣٢)، وأبو داود في الزهد (١٩٤) برقم: (٢٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٤) برقم: (١٨٤٩)، وانظر: وصايا العلماء عند حضور الموت لابن زبر الربعي (٥٦)، وحلية الأولياء (١/ ٢٠٧)، وسير السلف الصالحين (٥٥٩)، وصفة الصفوة (١/ ٢٤٦).

[٢] انظر: أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز للآجري (٨٣)، وسير السلف الصالحين للأصبهاني (٨٥٩).

[٣] **أبو حصين**= عثمان بن عاصم بن حصين الأسدي، الإمام، الحافظ، الأسدي، الكوفي، من ولد عبيد بن الأبرص، قليل الحديث صحيحه، كان شيخاً عالياً صاحب سنة، مات سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٢١)، رجال صحيح مسلم (٢/ ٤٧)، تهذيب الكمال (١٩/ ٤٠١)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٤١٢).

[٤] أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين (١٥٤) برقم: (٢١٠)، والجعد في مسنده (٩٩) برقم: (٥٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٩٦) برقم: (٩١٨)، وانظر: تاريخ دمشق (٣٨/ ٤١٥)، تهذيب الكمال (١٩/ ٤٠٧).

٨٣) وحين احتضر عاصم بن أبي النجود رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨هـ)، جعل يردد هذه الآية، يحققها كأنه في المحراب: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ﴾ [الأنعام:٦٢][1].

ومما سبق يتَّضح أثر تكرار الآيات وتردادها؛ على تدبُّر القرآن والعيش معه، بل وحتى الموت عليه.

ثامناً: من أخبار من صعق أو غشي عليه عند سماع القرآن أو قراءته:

تواترت الأخبار عن جماعة من السلف بات يتلو الواحد منهم آيةً واحدةً يتدبَّرها، ويردِّدُها إلى الصباح، وصعق قوم عند القراءة، ومات آخرون حال القراءة[2].

٨٤) سمع الربيعُ بن خيثم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣هـ) عبدَ الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقرأ قوله تعالى:

---

(١) أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين (١٥٤) برقم: (٢١٠)، وانظر: تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٤٠)، تهذيب الكمال (١٣/ ٤٧٩)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٠)، معرفة القراء الكبار (٥٤).

(٢) فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١١/ ٧-١٥) في حال من مات أو صعق عند سماع القرآن إلى أن قال: (**والصواب للمسلم**: أن يعلم أن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم، وأنَّ أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**». وإنَّ كثيراً من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده) ا..هـ.

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآداب الشرعية (٢/ ٣١٩): (ولعمري إنَّ الصادق منهم عظيم القدر؛ لأنه لولا حضور قلب حي وعلم معنى المسموع وقدره، واستشعار معنى مطلوب يتلمح منه، لم يحصل ذلك لكن الحال الأول أكمل فإنه يحصل لصاحبه ما يحصل لهؤلاء وأعظم مع ثباته وقوة جنانه رضي الله عن الجميع. لكنَّ كثيراً من المتأخرين لا يصدُق في هذا الحال، فسبحان علام الغيوب، ونعوذ بالله من كل رياء وسمعة) ا..هـ.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]، فصَعق، وكان قبل الظهر فلم يفق إلى الليل[١].

٨٥) وعن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] قال: سمعت عبدالله بن حنظلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣هـ)[٣] يوماً وهو على فراشه وعدْته من علَّة، فتلا رجل هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، فبكى حتى ظننت أنَّ نفسه ستخرج، ثمَّ قال: (صاروا بين أطباق النار)، ثمَّ قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبدالرحمن اقعد، قال: (منع مني ذكر جهنم القعود، ولا أدري لعلي أحدهم)[٤].

٨٦) قال يزيد الرقاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٩هـ)[٥]: (إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أيتها النار المطيعة سمي أهلك، فيخرج عنق من النار، فتنكت في وجوه أهل النار نكتاً سوداً، ثمَّ ينادي

---

[١] أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٣٨)، والإمام أحمد في الزهد (٢٦٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١١٠)، وذكره الأصفهاني في سير السلف الصالحين (٧٦٢).

[٢] **عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** = بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأمه سارة بنت هشام بن الوليد، من أهل المدينة، أدرك عصر النبي ﷺ، خرج مع أبيه الحارث بن هشام إلى الشام مجاهداً وهو صغير، وأقام بالشام مدة ثم رجع المدينة، ثقة له أحاديث، مات في أول خلافة هشام بن عبد الملك. انظر: الطبقات الكبرى - متمم التابعين(٢٠٦)، تاريخ دمشق (٣٤/ ٢٦٥)، تهذيب الكمال (١٨/ ٢٨٩).

[٣] **عبد الله بن حنظلة** = ابن أبي عامر المعروف بالراهب، أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو بكر الأنصاري من أهل المدينة أدرك النبي ﷺ وروى عنه، توفي النَّبِيُّ ﷺ وهو ابن سبع سنين، وأبوه حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة الذي قتل مع رسول الله ﷺ يوم أحد شهيداً، قتل عبد الله يوم الحرة سنة ثلاث وستين. انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٦٥)، تاريخ دمشق (٢٧/ ٤١٧)، تهذيب الكمال (١٤/ ٤٣٦).

[٤] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٤٢٦).

[٥] **يزيد الرقاشي** = يزيد بن أبان الرقاشي، أَبُو عَمْرو البَصْرِيّ القاص من زهاد أهل البصرة، وهو عمُّ الفضل ابن عيسى ابن أبان الرقاشي، ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من أهل البصرة، قيل أنه كان ضعيفاً قدرياً، وليس بالقوي فِي الحديث. انظر: تهذيب الكمال (٣٢/ ٦٤).

مناد: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس:٥٩]، فينكر بعضهم إلى بعض، فيقول: هذا ما كنتم تكسبون، ثم ينادي مناد: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٦]، فينكسون في النار على رءوسهم، ويصهر الحميم في أجوافهم، ثمَّ سقط يزيد مغشياً عليه)[١].

٨٧) وقرأ قارئ عند مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠هـ)[٢]قول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]، فجعل مالك ينتفض، وأهل المجلس يبكون ويصرخون، حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧]، فجعل مالك يبكي ويشهق حتى غشي عليه، فحمل من بين القوم صريعاً[٣].

٨٨) وقرأ مضرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]على عبدالواحد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٠هـ)[٥] قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، قال: (فقرأت عليه فجعل يشهق حتى ظننت أنَّ نفسه ستخرج، ثمَّ أفاق إفاقة فقال: كيف بالقلوب إذ ذاك وقد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة النار (١٥٠).

(٢) **مالك بن دينار**= ويكنى أبو يحيى البصري الزاهد، كان أبوه من سبي سجستان، وكان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤي، وكان ثقة، قليل الحديث، وكان يكتب المصاحف، وكان من المتعبدة الصبر والمتقشفة الخشن، ومات قبل الطاعون بيسير، وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة، والأقرب أنه مات سنة ثلاثين ومائة. انظر: حلية الأولياء (٢/ ٣٥٧)، تاريخ دمشق (٥٦/ ٣٩٣)، تهذيب الكمال (٢٧/ ١٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨٨).

(٤) **مضر**= لم أقف على ترجمته، غير أني وجدت كنيته: أبو سعيد القارئ البصري. انظر: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف لابن ماكولا (٧/ ١٩٩)، تهذيب الكمال (١٦/ ٤٧) في ترجمة ابن أبي الأسود.

(٥) **عبد الواحد بن زيد**= أبو عبيدة البصري الزاهد، كان يسرح في الشام وقدم دمشق، روى عن الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح، كان عابداً زاهداً وواعظاً، مات سنة سبع وسبعين ومائة. انظر: حلية الأولياء (٦/ ١٥٥)، تاريخ دمشق (٣٧/ ٢١٥)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٨).

كظمت له الحناجر، ثمَّ غشي عليه فحمل إلى أهله).

٨٩) وقرأ عليه مضر أيضاً: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩]، فبكا حتى غشي ثمَّ أفاق فقال: (وعزَّتك لا عصيتك جهدي أبداً فأيدني بتوفيقك على طاعتك)[١].

٩٠) وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٣هـ)[٢]: صليت خلف فضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٧هـ) صلاة المغرب، وعلي ابنه إِلَى جانبي، فقرأ الفضيل: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، فلما بلغ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴾ [التكاثر:٦] سقط عَلِيّ بْن فضيل (١٨٠هـ)[٣]عَلَى وجهه مغشيا عَلَيْهِ، وبقى فضيل عند الآية، فقلت فِي نفسي: (ويحَك ما عندك من الخوف ما عند فضيل وعلي؟)، فلم أزل أَنْتَظر علياً فما أفاق إِلَى ثلث من الليل بقي[٤].

---

[١] أخرجها ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٢٣٠).

[٢] **أبو بكر بن عياش** = أبو بكر بن عياش مولى واصل بن حيان الأحدب الأسدي، كان من العباد، وكان ثقة صدوقاً عارفاً بالحديث والعلم، أثنى عليه ابن المبارك، وقال عنه الإمام أحمد: صدوق صاحب قرآن وخير، وقرأ القرآن وجوده ثلاث مرات على: عاصم بن أبي النجود. وتوفي أبو بكر بالكوفة في جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة في الشهر الذي توفي فيه هارون أمير المؤمنين، وعاش ستا وتسعين سنة. انظر: الطبقات الكبرى: صادر (٦/ ٣٨٦)، تهذيب الكمال (٣٣/ ١٢٩)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩٥).

[٣] **علي بن الفضيل بن عياض**= التميمي ثم اليربوعي الخراساني المروزي، من كبار الأولياء، ومات قبل والده، وكان قانتاً لله، خاشعاً، وجلاً، ربانياً، كبير الشأن، من سادات المسلمين علماً وزهداً وعبادة وخوفاً وورعاً، وكان يفضل عَلَى أبيه فِي العبادة والخوف، وسبب موته أنه سمع آية تقرأ فغشي عَلَيْهِ، وتوفي فِي الحال، في حدود سنة مائة وثمانين. انظر: حلية الأولياء (٨/ ٢٩٧)، تهذيب الكمال (٢١/ ٩٦)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٢)، تاريخ الإسلام (٤/ ٦٩٤).

[٤] أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٥٦١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٩٨)، وذكره ابن رجب في التخويف من النار (٣٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٣).

٩١) وقال محمد بن ناجية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: صليت خلف الفضيل بن عياض فقرأ (الحاقة) فِي صلاة الغداة فلما بلغ إِلَى قوله: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢] غلبَه البكاء، وكان ابْنه علي فِي الصفِّ معنا فسقط مغشياً عَلَيْهِ، وركع فضيل ثمَّ قام، فقرأ بقية السورة فِي الركعة الثانية، ثُمَّ حملنا علياً وأدخلناه منزله، فلم يزل مغمى عَلَيْهِ إلى بعد العصر، فقيل للفضيل: هَذَا الذي يصيب علياً من أي شيء يكون يا أبا علي؟ قال: (لا أعلمه إلا من نقاء القلب)[٢].

٩٢) وقال إسماعيل الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: بينا نحن ذات يوم عند الفضيل، فقرأ رجل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]، فسقط علي بن الفضيل مغشياً عَلَيْهِ، فَقَالَ الفضيل: (شكر اللهَّ لك ما قدْ علمه منك)[٤].

٩٣) وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٥هـ): (كَانَ علي بْن فضيل لا يستطيع أن يقرأ (القارعة) ولا تقرأ عَلَيْهِ)[٥].

٩٤) وكان أحمد بن الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٦هـ)، وهو ريحانة الشام - كما قال أبو القاسم بن الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ - إذا قُرئَ عنده القرآن يصيح ويصعق[٦].

---

(١) **محمد بن ناجية** = لم أقف على ترجمته.

(٢) أخرجه المزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٩٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٤).

(٣) **إسماعيل الطوسي** = لم أقف على ترجمته.

(٤) أخرجه المزي في تهذيب الكمال (٢١/ ١٠٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٢٩٩)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ١٠٣)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٥).

(٦) ذكر ذلك النووي في التبيان في آداب حملة القرآن (٨٣)، ولم أقف عليه عند غيره.

تاسعاً: من أخبار الذين ماتوا بالقرآن.

٩٥) عن بهز بن حكيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] قال: صلى بنا زرارة بن أوفى (٧٣هـ)[٢]- التابعي الجليل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - الغداة في مسجد بني قشير الأعظم، وكان إمامهم، فأتى على هذه الآية: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨] خرَّ ميتاً، قال بهز: فكنت فيمن حمله إلى أهله[٣].

٩٦) وقرأ صالح المرّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٦هـ) على أبي جُهير؛ مسعود الضرير، قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] فصاح صيحة، ثمَّ انكبَّ لوجهه وانكشف بعض جسده، فإذا هو قد خرجت نفسه[٤].

٩٧) وقال إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٢٧هـ)[٥]: إنَّ الآية التي مات منها علي بن الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٠هـ)، هي في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾

---

[١] **بهز بن حكيم** = بن معاوية بْن حيدة القشيري، أَبُو عبد الملك البَصْرِيّ، أخو سَعِيد بْن حكيم، وثقه ابن معين وغيره. انظر: تهذيب الكمال (٤/ ٢٥٩).

[٢] **زرارة بن أوفى** = الحرشي من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ويكنى أبا حاجب، الإمام الكبير، قاضي البصرة، ثقة، له أحاديث، ومات سنة ثلاث وسبعين في خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٥٠)، حلية الأولياء (٢/ ٢٥٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥١٥).

[٣] أخرجه الترمذي في سننه (٢/ ٣٦٠)، المروزي في مختصر قيام الليل (١٤٥)، والدولابي في الكنى والأسماء (١/ ٤٣١) برقم: (٧٧٣)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١/ ٤٤٨) برقم: (١٣٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) برقم: (٣٨٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٩٢) برقم: (٩١١).

[٤] ذكر القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ١٤٦)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ١٩٦).

[٥] **إبراهيم بن بشَّار** = الرمادي، ويكنى أبا إسحاق الخراساني، صاحب سفيان بن عيينة، مولى معقل بن يسار صاحب إبراهيم بن أدهم، توفي في البصرة، سنة سبع وعشرين ومائتين. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٠٨)، تاريخ دمشق (٦/ ٣٦٤)، تهذيب الكمال (٢/ ٥٦)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥١٠).

[الأنعام:٢٧] ففي هذا الموضع مات، وكنت فيمن صلّى عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

٩٨) ومرَّ منصور بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٠هـ) [٢]بالكوفة ليلاً فسمع رجلاً يصلي ويناجي ربه، فتلا منصور هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، قال: فسمعت دكدكة لم أسمع بعدها حساً، فمضيت فلما كان من الغد رجعت في مدرجتي فإذا أنا بجنازة قد أخرجت، وإذا أنا بعجوز قد ذهب متنها -يعني قوتها- فسألتها عن أمر الميت- ولم تكن عرفتني- فقالت: هذا رجل لا جزاه إلا جزاءه؛ مرَّ بابني البارحة وهو قائم يصلي، فتلا آية من كتاب الله تعالى فتفطَّرت مرارته فوقع ميتاً [٣].

٩٩) ومن حديث عبدالرحمن بن مصعب (٢١١هـ)[٤] أنَّ رجلاً كان يوماً على شطِّ الفرات فسمع قارئاً يتلو: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧٤] فتمايل، فلما قال التالي: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، سقط في الماء فمات[٥].

---

[١] أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٣٤) برقم: (١٦٢٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٣١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ١٠٥)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٦).

[٢] **منصور بن عمار** = ابن كثير، أبو السري السلمي، الواعظ، البليغ، الصالح، الخراساني - وقيل: البصري، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، وكانت وفاته في حدود المائتين للهجرة. انظر: حلية الأولياء (٩/ ٣٢٥)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٩٣).

[٣] أخرج القصة أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٣٢٨)، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٩/ ٩٧).

[٤] **عبد الرحمن بن مصعب** = ابن يَزِيد الأزدي ثم المعنيّ، ويُقال: الشيباني، أَبُو يَزِيد القطان الكوفي نزيل الري، كان عابدًا ناسكًا، تُوُفِّي سنة إحدى عشرة ومائتين.انظر: تهذيب الكمال (١٧/ ٤٠٦)، تاريخ الإسلام (٥/ ٣٧٢).

[٥] ذكره ابن رجب في التخويف من النار (٣٢).

١٠٠) وذُكر أنَّ أحد الصالحين في بغداد رأى صبياً على باب مكتب يبكي، فسأله عن ذلك فقال: كتب لي المعلِّم في اللوح سطراً أبكاني، فقلت: ما هو؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:١-٥]، تهديد بعد تهديد، وتخويف بعد تخويف يخوِّف الله به عباده، فقال له: أخِّر بكاءك إلى غد فإنه يكتب لك أبلغ من هذا، قال: وما يكتب؟ قال: قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٦-٨]، فاضطرب الصبي فسقط ميتاً، فوثب إليه المعلم وقال: أنت قتلته، فأخبر أهله فرفعوه إلى الخليفة، فقصَّ عليه القصة فقال: دعوه فقد أسرع الصبي الصالح إلى منازل السعداء[1].

ومما سبق يتضح جلياً حال السلف الصالح مع تدبُّر القرآن، وسرعة تأثرهم وعملهم بما يتدبروه من كتاب الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، نسأل الله من فضله وكرمه.



[1] ذكر القصة الصفوري في نزهة المجالس ومنتخب النفائس (٢/ ٣٥).

المبحث الثالث: علامات التدبُّر

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم علامات للمتدبِّرين، وبيَّن أحوالهم مع تدبُّرهم القرآن، ويمكن تقسيم علامات التدبُّر وتصنيفها إلى ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: علامات التدبر الحسية:

والمقصود بذلك: العلامات والمظاهر التي تظهر على جوارح المتدبِّر لكتاب الله، وتأتي هذه المظاهر تبعاً لتأثر القلب والنفس، وقد بيَّن الله تعالى حال المؤمنين الكُمَّل الخُلَّص عند سماعهم لمواعظ القرآن، أنَّهم ما أن ترد عليهم مواعظه حتى تقشعر جلودهم، وتنهمل دموعهم، وتخشع أبصارهم، وتستقرّ جوارحهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لهذه المواعظ.

أ) اقشعرار الجسد:

وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وقد سئلت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن فعل أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: (كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم)[١].

فينتفض الجسد، ثمَّ تنزل عليه غلبة الرجاء والسكينة، وكأن هذه القشعريرة نفض من القلب لشيء سيء فيه حتى يخرج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن وهي: وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود)[٢].

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٨).

واقشعرار الجلد عند سماع القرآن بتدبُّر؛ مردُّه قد يكون بسبب تقصير العبد في جنب الله، وتعدّيه لحدوده، فحين ترد الموعظة عليه تُحدث في الجوارح والجلد اضطراباً.

وقد يكون اقشعرار الجلد تابعاً لخوف القلب ووجله؛ مما يسمع من المواعظ المخوّفة، والزواجر الرادعة، وهذا شأن الجلد مع كلّ المخوِّفات، وهي طبيعة خلقها الله فيه، لفرط حساسيته، وشدّة انفعاله مع اضطرابات النفس.

"فالقرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود؛ وهي المعاني الموسومة بالجَزالة التي تثير في النفوس روعة، وجلالة، ورهبة تبعث على امتثال السامعين له، وعملهم بما يتلقَّونه من قوارع القرآن وزواجره، وكنّي عن ذلك بحالةٍ تقارِنُ انفعال الخشية والرهبة في النفس؛ لأنَّ الإِنسان إذا ارتاع وخشي اقشعرَّ جِلده من أثر الانفعال الرهبني، فمعنى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ تقشعر من سماعه وفهمه"[1].

وقد ذكر الله تعالى في الآية أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله.

"فذِكْره -تعالى- بالذات يوجب الطمأنينة، وإنّما الاقشعرار والوجل عارضٌ بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقّه، والتعدِّي لحدِّه؛ فهو كالزبد مع ما ينفع النّاس: الزبد يذهب جفاء، وما ينفع النّاس يمكث في الأرض"[2].

والوجل تأثُّر ولين يحصل في القلب بسبب الموعظة، فترى الجلد من أجل ذلك يقشعر، واللين إذا حلَّ بالقلب - وهو باطن الإنسان -، وحلَّ بالجلد - وهو ظاهر الإنسان-، فقد حلَّ الانفعال بمجموع الإنسان[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٨).

(٢) النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٣٨٠).

(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٥٧).

وهذا الأثر قد لا يكاد يشاهده إلاّ صاحبه، أو من يكون قريباً من المتدبِّر للقرآن، ولذلك لم يجر ذكره فيما نُقِل من آثار عن السلف في تأثرهم بالقرآن.

وجُمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، ولم يُكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتُفي في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣]..: لأنَّ اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعتها فكنّي به عن تلك الروعة، وأما لين الجُلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد يحصل عن تناسٍ أو تشاغل بعد تلك الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وليس مجرَّد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة، ولم يُكتف بذكر لين القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود[١].

ب) البكاء عند سماع القرآن بتدبُّر:

وقد جرى ذكره في مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى واصفاً بكاء أهل الصدق عند سماع القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**»[٢].

---

[١] التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٠).

[٢] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ١٧١) برقم: (١٦٣٣) وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأخرجه النسائي في سننه (٦/ ١٢) برقم: (٣١٠٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢٠٨) برقم: (١٩٣٦٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٧٨).

قال عبد الأعلى التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣١هـ)[١]: (من أوتي من العلم ما لا يبكيه فليس بخليق أن يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نعت العلماء فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩])[٢].

والبكاء دليل على حياة القلب، وخضوعه وخشوعه، وإنابته، ولذا جرى مدحه في نصوص كثيرة، وحسبك أنَّ البكاء من خشية الله يوجب لصاحبه الأمان تحت ظل عرش الرحمن، ويوجب له دخول الجنان، والنجاة من النيران، ولو كمل علم العبد لسحّت دموعه في كلّ وقت، ولكن قلّة العلم بالله، وغفلة القلب عن الله توجبان قحط العين.

وللسلف ﷺ شأن عظيم مع البكاء من خشية الله عند سماع القرآن بتدبُّر، وقد مرَّت معنا جملة من أخبارهم في المبحث السابق.

ج) **سكون الجوارح واستقرارها عند سماع القرآن بتدبُّر**، ولين الجلود بعد سماع مواعظه، ويكون هذا تبعاً لاطمئنان القلب وسكونه.

فأما سكون القلب واطمئنانه: فهي مرحلة تلي الخشوع والوجل، فإنَّ القلب يستقرّ ويسكن ويطمئن بعد اضطرابه ووجله، وهذا من أعظم آثار الموعظة على القلوب.

---

(١) **عبد الأعلى التيمي**= الخاشع التقي الزاهد، أسند عن إبراهيم التيمي، وغيره، روى عنه مسعر بن كدام الكوفي. انظر: التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (٦/ ٧٢)، حلية الأولياء (٥/ ٨٧) ولم أقف على أكثر من ذلك في ترجمته.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤١)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٤٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٠٤) برقم: (٣٥٣٦٠)، والإمام أحمد في الزهد (١٣٧).

وقد أشار إلى هذا الأثر العظيم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام؛ من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير)[(١)].

ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

"وطمأنينة القلب: سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز، قضى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قضاء لا مرد له أنَّ من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائناً من كان"[(٢)].

- المطلب الثاني: علامات التدبر الوجدانية:

والمقصود بها: ما يحدث للقلب والوجدان عند تدبُّر القرآن، ومن هذه العلامات:

أ) خشوع القلب ووجله:

إنّ مواعظ القرآن تردُ على القلوب فتحدث فيها آثاراً زكيّة، وأحوالاً إيمانية، وخشوعاً، وإنابة، وإخباتاً.

فأما خشوع القلب ووجله: فمردّه إلى ما يطرأ عليه من المخوِّفات والزواجر، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٦٦).

(٢) الروح لابن القيم (٢٢٠).

"فهذه الآية تتضمَّن توبيخًا وعتابًا لمن سمع هذا السماع، ولم يُحدث له في قلبه صلاحًا ورقة وخشوعًا، فإنَّ هذا الكتاب المسموع يشتمل على نهاية المطلوب، وغاية ما تصلح به القلوب، وتنجذب به الأرواح المغلقة بالمحل الأعلى، إلى حضرة المحبوب، فيحيى بذلك القلب بعد مماته، ويجتمع بعد شتاته، وتزول قسوته بتدبُّر خطابه وسماع آياته، فإنَّ القلوب إذا أيقنت بعظمة ما سمعت، واستشعرت شرف نسبة هذا القول إِلَى قائله، أذعنت وخضعت، فَإِذَا تدبَّرت ما احتوى عليه من المراد ووعت، اندكَّت من مهابة الله وإجلاله وخشعت"[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢].

ومعنى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته، فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه[2].

ومن معاني الوجل: الفزع من عذاب الله[3].

"و الخشوع يتضمَّن معنيين: أحدهما: التواضع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمَّن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمَّن هذا وهذا؛ التواضع والسكون"[4].

ب) زيادة الإيمان عند سماع مواعظ القرآن والفرح والاستبشار:

فهي حال المؤمنين التي امتدحهم الله تعالى عليها فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]..

---

[1] نزهة الأسماع في مسألة السماع - من مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٤٦٩).

[2] انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٥٩).

[3] انظر: المرجع السابق (٧/ ٣٦٦).

[4] انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي تصديقاً، فإنَّ إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أمس، فمن صدَّق ثانياً وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم، وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة)[1].

ومن ذلك: الفرح والاستبشار بزيادة الإيمان بعد التدبُّر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]

ج) محبة القرآن الكريم:

ومن أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره، وإذا أحبَّ العبد القرآن دفعه ذلك لدعوة الآخرين لتدبُّره وحثِّهم عليه وخاصة الأقربين، عملاً بالحديث الذي رواه أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[2]، فحماسه ونشاطه في دعوة الآخرين للقرآن علامة على حصول التدبُّر أولاً.

ومن علامات محبة العبد للقرآن الفرح بلقائه، والجلوس معه أوقاتاً طويلة دون ملل، والشوق له ولقراءته وتدبره دائماً، والتزام أوامره واجتناب نواهيه، والرجوع إلى توجيهاته وأخلاقه في كلِّ أمور الحياة صغيرها وكبيرها.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٦٧).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣) في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٥) في كتاب الإيمان، باب الدليل على أنَّ من خصال الإيمان أن يحبَّ لأخيه المسلم ما يحبُّ لنفسه من الخير.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَا يَضُرُّ الرَّجُلَ أَنْ لَا يُسْأَلَ عَنْ نَفْسِهِ، إِلَّا الْقُرْآنَ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَّ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولَهُ ﷺ)[1].

ولتحصيل محبة القرآن الكريم أمورٌ منها:

أ- التوكل على الله تعالى والاستعانة به، ودعاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يحببه في القرآن، ويجعله أنسه وعمله وسعادته، وبه يفرَّج همه وينشرح صدره.

روى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ، إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟، قَالَ: «**أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»[2].

ب- القراءة عن عظمة القرآن وفضله مما ورد في الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة في تعظيمهم للقرآن وحبهم له، ومما يؤسف له، أنَّ الكثير من المسلمين لا يعلم عن القرآن سوى أنه كتاب منزَّل من عند الله، تعبَّدنا بتلاوته في الصلاة، ونقرؤه على المرضى للشفاء، أما العلم التفصيلي بعظمة القرآن ومكانته وما يحققه من نجاح للإنسان في الحياة فهو محل جهل عند الكثيرين[3].

---

[1] أخرجه عنه سعيد بن منصور في التفسير (١/ ١٠)، وابن الجعد في مسنده (٢٩٠)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩٤).

[2] **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٠) برقم: (٢٩٣١٨)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٤٧) برقم: (٣٧١٢) والبزار في مسنده (٥/ ٣٦٣)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣) برقم: (٩٧٢)، والطبراني في المعجم (١٠/ ١٦٩) برقم: (١٠٣٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩)، وصحيح الترغيب (١٨٢٢).

[3] انظر: مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (٢٩-٣٣).

د) الإعجاب بما في القرآن من الفصاحة والبلاغة والحكمة والكمال:

ومن ذلك ما جاء على لسان الجن حين سمعوا القرآن، قال الله عنهم: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ [الجن:١].

ولما أعجبوا بما سمعوا قاموا بدعوة قومهم إليه: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠].

- المطلب الثالث: علامات التدبر السلوكية:

وهذه بركة من بركات التدبُّر، وغاية من غاياته المرجوة، فالمنتفع حقيقة بالقرآن هو من تولَّد في داخله العزم على التوبة، والتشمير للجدّ والاجتهاد، والمضيّ في ذلك، والخلق يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في التأثر السلوكي بالقرآن، والناس على ثلاثة مذاهب في التأثر به: فمنهم من يتأثَّر بالقرآن، فيعزم بلا تردد على المضي إلى الأمام والسعي في الجدِّ والاجتهاد، ومنهم من يتأثر به أحياناً، فطبيعة نفوسهم في الأصل أنها تميل إلى الغفلة، ومنهم من لا يتأثر بالقرآن إلا بمقدار سماعه له فقط.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر، عادت القسوة والغفلة، فتدبَّرت السبب في ذلك، فعرفته.

ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أنَّ القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها؛ لسببين:

أحدهما: أنَّ المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها، وإيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة[1]، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه؛ فإذا عاد إلى الشواغل، اجتذبته بآفاتها، فكيف يصح أن يكون كما كان؟!.

وهذه حالة تعمُّ الخلق؛ إلا أنَّ أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر، فمنهم من يعزم بلا تردد، ويمضي من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع، لضجُّوا، كما قال حنظلة عن نفسه: نَافَقَ حَنْظَلَةُ[2].

ومنهم أقوامٌ يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظ إلى العمل أحيانا، فهم كالسنبلة تميلها الرياح.

وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه، كماء دحْرَجْته على صفوان[3])[4].

---

[1] **مزاح العلة**= أي: خال من الشواغل التي تمنعه من الإنصات والإقبال بقلبه وعقله على ما يسمعه.

[2] يعني بذلك الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٥٠) في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، عَنْ حَنْظَلَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فَوَعَظَنَا، فَذَكَّرَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَلَقِينَا رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَافَقَ حَنْظَلَةُ فَقَالَ: «مَهْ» فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: «يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ».

[3] **الصفوان**= الحجر الأملس، وهو الصفوان، الواحدة صفوانة. قال الأصمعي: الصفوان والصفواء والصفا كله واحد. انظر: مجمل اللغة لابن فارس (١/ ٥٣٥)، ومقاييس اللغة (٣/ ٢٩٢).

والمقصود به هنا: الحجر الأملس الذي لا يتشرب الماء، وإنما يبتل به سطحه فحسب، فكذلك هؤلاء القوم يتأثرون بالموعظة ظاهرياً وآنياً دون أن تصل إلى قلوبهم.

[4] صيد الخاطر (٢٣-٢٤).

وأما العلامات السلوكية للتدبُّر فأهمها:

أ) **الاستجابة للتذكير**، والاستسلام للأمر والنهي، والتعجُّب مما حوى، والتعظيم لمضمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣] وقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٣-٥٤].

فلابد أن ينزِّلَ المتدبِّر آيات القرآن على نفسه وواقعه الذي يعيشه، ويعالج نفسه وما به من الصفات السيئة من خلال الآيات.

ب) **السجود تعظيماً لله**، كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]

فتضمَّنت الآية بيان أنَّ الذين آتاهم الله العلم النافع يتأثرون بالقرآن غاية التأثُّر، ويخضعون له، ويسبحون الله وينزِّهونه عند سماعه عما لا يليق بجلاله، وتنطلق دموعهم معبِّرة عن ذلك التأثر، ويزيدهم القرآن خشوعاً فوق ما استقبلوه به من خشوع وتذلل له سبحانه[1].

ج) **التنافس في حفظ القرآن وقراءته**، في الصلاة وفي غيرها، حتى طاب للمتنافسين أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجدهم به في الأسحار، ومناجاتهم العزيز الغفار.

---

[1] انظر: تيسير الكريم الرحمن (٤٦٨)، في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٥٤).

وهذا كان حال السلف الصالحين ﷺ، ولم يكن ذلك نادراً فيهم، بل إنَّ من مرَّ على بيوت الصحابة بالليل؛ يسمع لها دوياً كدوي النحل بالقرآن.

فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ**»[(١)].

وعن أبي الأحوص الجشمي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)] قال: (إنَّ الرجل ليطرق الفسطاط - أي يأتيه ليلاً - فيسمع فيه كدويِّ النحل، فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون؟)[(٣)].

وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن.

فهذا رسول الله ﷺ يقدِّم الشاب الصغير عمرو بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مشيخة قومه وكبارهم؛ حيث أمرهم فقال: «...**فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا**»، فنظروا، فلم يكن أحد أكثر منه قرآناً من الركبان فقدَّموه بين أيديهم، وهو ابن ست أو سبع سنين[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٢٣٢) في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٤٩٩) في كتاب الفضائل، باب من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم.

(٢) **أبو الأحوص الجشمي**= عوف بن مالك بن نضلة بن جريج الكوفي، من بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، قتلته الخوارج في أيام الحجاج بن يوسف، روى عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١٤)، رجال صحيح مسلم (٢/ ٩٨)، تهذيب الكمال (٣٣/ ١٦).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٥٥) برقم: (٣٤٩٣٠)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٣٠٢) في كتاب المغازي، باب.

وعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهو خليفة المسلمين- جعل شُوَّاره من القراء، وأدخل معهم ابن عباس- على صغره - لتميُّزه بحفظ القرآن والعلم به؛ فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: (كان القراء أصحابَ مجلس عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً)[1].

وكانت المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إياها زوجها من القرآن، وفي الحديث الصحيح أنَّ امرأةً أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيهَا، قَالَ: «**أَعْطِهَا ثَوْبًا**»، قَالَ: لاَ أَجِدُ، قَالَ: «**أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**»، فَاعْتَلَّ لَهُ، فَقَالَ: «**مَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟**» قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ**»[2].

ومن ذلك أيضاً: المحافظة على تحزيب القرآن، وألا يقدم عليه أي عمل مهما كان، والمداومة على النظر فيه والقراءة في تفسيره، والترقي والصعود في تحزيب القرآن حتى يختم القرآن كلَّ أسبوع، في صلاة، أو ليل، بترتيل، وتكرار وتوقف، وجهر وتغن[3].

د) العمل بالقرآن وتنفيذ تعاليمه في شؤون الحياة، وترك ما يخالف تعاليمه ويجافي هداياته.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٦٤٢) في كتاب تفسير القرآن، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وبرقم: (٧٢٨٦) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٩) في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه. وبرقم: (٥٠٣٠) في كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر قلب، وبرقم: (٥٠٨٧) في كتاب النكاح، باب تزويج المعسر. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٤٢٥) في كتاب النكاح، باب الصداق، وجواز كونه تعليم قرآن، وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير، واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به.

(3) انظر: مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (١١٤).

وقد سبق أثر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإنَّ آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به)[1].

وبلغ الأمر في نفوس الرعيل الأول؛ إلى استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته، فأخلصوا له، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه الله اليقين، وهو مجاهد في سبيله، مُضحٍ بنفسه ونفيسه.

حتى إنَّ منهم من ردَّه الرسول ﷺ عن الجهاد في بدر لصغره وحداثة سنِّه، مثل: عبد الله بن عمر، والبراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

وكان كثيرٌ من ذوي الأعذار يؤلمهم التخلُّف عن الغزو، وقد حكى الله سبحانه حال أولئك الصحب الكرام الذين لم يجدوا المال الذي يجاهدون به، فقال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

ومن العمل بالقرآن التخلُّق بأخلاقه في كل شؤون الحياة، وأخلاق القرآن كثيرة وعظيمة، وهي مطالب وأمنيات وأهداف، تحقيق أي واحدة منها يعتبر إنجازاً عظيماً وفتحاً مبيناً.

إنَّ التدريب على مفاتح تدبر القرآن والسير في طريقها يحقق للعبد كل ما يريد من المكاسب العظيمة من أخلاق القرآن إلى أن يصل به إلى الهدف المنشود والغاية المقصودة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٣٦).

(٢) لحديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: (اسْتُصْغِرْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ). أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٩٥٥)، في كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر.

هـ) استحضار الآيات، وكسب ملكة التفسير الموضوعي. بأن يستطيع المتدبِّر أن يجمع ذهنياً آيات كل موضوع يريده ويستشهد بها دون عناء، وأن يوجد لديه الانتباه الدقيق لمفردات القرآن الكريم بحيث يربط بينها بعفوية وتلقائية تامة مهما تعددت أو تباعدت مواضعها من القرآن الكريم.

ولا يشترط لتحصيل هذه الملكة تحصيل علوم الآلة، بل يمكن لأي مكثر لقراءة القرآن والسنة متدبر لهما امتلاكها[1].

قال مطرف بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٥هـ): (إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبَّر القرآن، وأعرض عملي على عمل أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٤]، ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر:٩]، فلا أراني فيهم فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢] فأرى القوم مكذبين، وأمرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، فأرجو أن أكون أنا وأنتم -يا إخوتاه- منهم)[2].

وماذاك إلا لتكوُّن الملكة عنده، وتوارد آيات القرآن على قلبه.



(١) انظر: مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (١١٤).

(٢) تقدَّم تخريجه.

المبحث الرابع: مقاصد التدبُّر وغاياته

إنَّ المقصود بالمقاصد والغايات: الهدف من التدبُّر؛ أي: لماذا نتدبَّر القرآن؟.

وتتجلى أهمية معرفة مقاصد التدبُّر في عدة أمور، منها:

- التصوُّر الكامل للقرآن، وتوضيح الصورة الشاملة للتعاليم والأحكام منه.

- إبراز علل التشريع وحكمه وأغراضه ومراميه الجزئية والكلية العامة والخاصة في شتى مجالات الحياة، وفي مختلف أبواب الشريعة.

- إبراز أهداف القرآن الكريم التي ترمي إلى تحقيق مصالح الناس، ودفع المفاسد عنهم.

- فهم النصوص وتفسيرها بشكل صحيح عند تطبيقها على الوقائع واستنباط الأحكام منها.

- التوفيق بين خاصيتي الأخذ بظاهر النص، والالتفات إلى روحه ومدلوله على وجه لا يخل فيه المعنى بالنص، ولا العكس، لتجري الشريعة على نظام واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض.

- تأكيد خصائص صلاحية القرآن ودوامه وواقعيته، وتحكيمه وتنزيله على مختلف البيئات والظروف والأحوال.

- إدراك أنَّ نصوص القرآن ومعانيها معقولة المعنى، ومبنية على النظر والاستدلال.

ويمكن أن تجمل المقاصد في مقصدين عظيمين يدخل تحتهما كل مقصد، وهما:

أولاً: العلم بالله وآياته.

ثانياً: العمل بالقرآن.

وتفصيل هذا في المطلبين التاليين:

- المطلب الأول: العلم بالله وآياته:

إنَّ تدبُّر القرآن سبيل إلى العلم بالله سبحانه، وهو العلم النافع، الذي يقود إلى العمل الصالح، وطريق إلى حياة القلوب.

فالتدبر الصحيح يعرِّف المسلم بربه عَزَّوَجَلَّ، وبأسمائه وصفاته وعظمته وسلطانه، ويعرِّفه كذلك بآياته الكونية والشرعية، وهذه غاية عظيمة وهدف نبيل، بل هو الهدف الأسمى للمسلم أن يتعرَّف على ربه حقَّ المعرفة؛ فيعبده حقَّ عبادته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) في نونيته:

فتدبَّر القرآن إن رُمْت الهدى ... فالعلم تحت تدبُّر القرآن[١]

"والتدبُّر لمن له نظر سديد يستدلُّ به على قدرته، وحكمته"[٢].

و"أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله؟، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة؟، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله، والعمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وما له بعد الوصول إليه"[٣].

إنَّ الاستغراق في الحياة المادية، وعدم تذكير القلوب بهذا المعنى المهم (معرفة الله) سبب لجلب الهموم والغموم، والابتعاد عن التوفيق، وأي لذة في حياة من لم يتعرف على الله، أو غفل عن سبل معرفته.

وروح المؤمن يدفعها للعمل؛ حادي الشوق إلى لقاء الله، والتعرُّف عليه عَزَّوَجَلَّ، بمعرفة أسمائه وصفاته، وتدبُّر كتابه.

---

[١] متن القصيدة النونية - فصل في التفريق بين الخلق والأمر (٤٩).

[٢] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٥/ ٣١٥).

[٣] هداية الحيارى لابن القيم (٢/ ٥٩١).



"ولا ريب أنَّ أجلَّ معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كلِّه، المنزَّه عن كل عيب ونقص، وعن كلِّ تمثيل وتشبيه في كماله".

"والعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته"[1].

"وكما أنَّ عبادته مطلوبة مرادة لذاتها؛ فكذلك العلم به ومعرفته، وأيضاً: فإنَّ العلم من أفضل أنواع العبادات"[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما العلم فيراد به في الأصل نوعان: أحدهما: العلم به نفسه؛ وبما هو متَّصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلَّت عليه أسماؤه الحسنى. وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة فإنه لا بد أن يعلم أنَّ الله يثيب على طاعته؛ ويعاقب على معصيته؛ كما شهد به القرآن والعيان...

والنوع الثاني يراد بالعلم بالله: العلم بالأحكام الشرعية، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه ترخص في شيء؛ فبلغه أنَّ أقواما تنزهوا عنه فقال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[3])[4].

---

[1] مفتاح دار السعادة (١/ ٨٦).

[2] مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٨).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦١٠١) في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب. وبرقم: (٧٣٠١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمُّق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٣٥٦) في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله وشدة خشيته.

[4] مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٣). ونصّ الحديث من البخاري، إذ نقله شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مختلفاً عنه.

وكلا النوعين من العلم التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحققه التدبُّر في كتابه عَزَّوَجَلَّ.

ذلك أنه يجد في خطاب القرآن: "ملِكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمَّة الأمور كلُّها بيده، ومصدرها منه، ومرادها إليه، مستوياً على سرير مُلْكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطَّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور، نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك في ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجِّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلهُّم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغِّبهم فيه، ويحذِّرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكِّرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدَّ لهم ما العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم، وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيء أعمالهم، وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدِّق الصادق، ويكذِّب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكِّر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم،

والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملِكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه فكيف لا تحبُّه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه، وكيف لا تَلْهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذائها وقوتها ودواؤها؛ بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنفع بحياتها"[١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك: تدبُّر صفاته وأسمائه من القرآن)[٢].

"إنَّ التأمل في الآيات التي تذكر أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودقة تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الرزق والرعاية، تجعل المؤمن يعرف عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الآيات الكونية في خلق السماوات والأرض وما فيها تبهر العقول مهما كان مستواها الثقافي، فحينما يذكر الله تعالى خلق السماوات وما فيها من زينة الكواكب، فإنَّ المتأمل حتى لو كان من العوام أو من البادية فإنه يدرك عظمة هذه المخلوقات التي يهتدي بكواكبها، يتطلَّع إلى سحبها منتظراً الرزق من الخالق، فهو يتابع حركة السحب، واتجاه الريح التي تسوق السحب بأمر الله تعالى، فيعلم أنَّ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يسخِّر هذه النعم. وهكذا المؤمن المثقف، كلما زادت ثقافته في هذه المخلوقات فإنه يزداد يقيناً وإيماناً بعظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ"[٣].

---

(١) من كلام ابن القيم في كتاب الفوائد (٢٨-٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٥).

(٣) انظر: منهج تدبر القرآن الكريم- أ.د/ حكمت بشير ياسين (٨٥).

إنَّ معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مطلب كلِّ موحِّد آمن به ربّاً، فقد قال الله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ بلفظ خاص، والمراد به العام: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فلا صلاح للقلوب إلاَّ إذا استقرَّت فيها معرفة الله وعظمته ومحبَّته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وهنا يكمن التَّوحيد الخالص.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت:٣٠]، قال أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: (هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً)[١].

إنَّ معرفة الله سبحانه حقَّ المعرفة مطلب المؤمنين الصَّادقين، "فمتى استقامَ القلب على معرفةِ الله، وعلى خشيتهِ، وإجلالهِ، ومهابتهِ، ومحبتهِ، وإرادتهِ، ورجائهِ، ودعائهِ، والتوكُّلِ عليه، والإعراضِ عما سِواه، استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعتهِ"[٢].

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨١هـ)[٣]: (مساكين أهل الدنيا خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ)[٤].

---

[١] أخرجه عنه أبو داود في الزهد (٦٠)، والطبري في تفسيره (٢١/ ٤٦٤)، وانظر: تفسير سفيان الثوري (٢٦٦)، تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٦).

[٢] تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٢٦٤).

[٣] **عبد الله بن المبارك**= ابن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم المروزي، الحافظ، الغازي، أحد الأعلام، من أئمة المسلمين، ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مولده: في سنة ثمان عشرة ومائة، وقدم دمشق فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ومات سنة إحدى وثمانين ومائة، وله ثلاث وستون سنة. انظر: تاريخ دمشق (٣٢/ ٣٩٦)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٩).

[٤] ذكره ابن رجب الحنبلي في التفسير (٢/ ١٣٤)، ولم أقف عليه عند غيره.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٣٩هـ)[١]: (من كان بالله أعرف كان من الله أخوف)[٢].

وقال أيضاً: (أحبُّ أن لا أموت حتَّى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه)[٣].

وتدبُّر آيات الله سبحانه في كتابه الكريم يعرِّف العبد ربَّه، ويبصِّره بأسمائه وصفاته.

ومن أمثلة ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧]، فهذه الشمس الجارية، وهذا القمر السيَّار، والليل والنهار المتعاقبان، كلها دالة على ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه، وقد نهى عن صرف العبادة لغيره؛ لأنَّ السجود عبادة، والعبادة لا يجوز صرفها لغيره من المخلوقات، ولو كانت من المخلوقات العظيمة الباهرة، وأمر بالسجود لله الذي خلق هذه الآيات العظيمة وحده، فهو المستحق للسجود والعبادة، وذِكْرُ السجود هنا لا لحصره فيه، بل يشمل جميع ما يتقرب به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليس المنهي عنه السجود فقط، ولا المأمور به في حق الله السجود فقط، بل المنهي عنه صرف كل نوع من أنواع العبادة من السجود وغيره، والمقصود من سياق هذه الآية بيان أنَّ الشمس والقمر والليل والنهار من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدالة على عِظَمِ الرب، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربُّ كلِّ شيء.

---

[١] **أحمد بن عاصم الأنطاكي** = أبو عبد الله، الإمام، القدوة، واعظ دمشق الزاهد، وروى عن جماعة من كبار المشايخ وزهادهم، ومن أقران بشر الحافي، ليس له كثير حديث، توفي سنة مائتين وتسعة وثلاثين تقريباً. انظر: الثقات لابن حبان (٨/ ٢٠)، حلية الأولياء (٩/ ٢٨٠)، تاريخ دمشق (٧١/ ٢٢٠)، السير (١١/ ٤٠٩).

[٢] أخرجه عنه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٨).

[٣] جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧٣).

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

والآيات في ذلك كثيرة في كتاب الله لمن تأمَّلها وتدبَّرها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فإنَّ معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزَّه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحَّة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقرّ في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبِّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهِّل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره تقدَّم الركب

وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل. وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد)[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (فإنَّ تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كلُّ خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسَخ شجرته، فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال; وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤])[2].

فإذا عرف المسلم أنه غاية التدبُّر العظمى معرفة الله سبحانه وتوحيده وتعظيمه في القلب، عرف قيمة التدبُّر ومعناه، ووجد لذَّته وحلاوته.

---

[1] مدارج السالكين (١/ ٤٥٠-٤٥١).

[2] تيسير الكريم الرحمن (١٨٩).

والعجب ممن يطلب العلم، ولا يطلبه من كنوز القرآن والسنة، أو يبذُل نفيس وقته في تحصيل علوم قليلة الفائدة، في حين يُعرِض عن كنوز القرآن ونفائسه، وينبغي للموفق أن يسأل الله الهداية، ويستعيذه من الحرمان.

ومن تأمَّل هذه المعاني تجلَّى له عظيم حرمان من أعرض عن تدبُّر القرآن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (القرآن كلام الله، وقد تجلَّى الله فيه لعباده وصفاته فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب المِلح في الماء، وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوة الحبِّ كلها بحبِّ ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلِّق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيانُكُمْ ... وتأبى الطِّباعُ على النَّاقِلِ[1]

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً، وإذا تجلَّى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره...

وجماع ذلك أنَّه سبحانه يتعرَّف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق

---

(١) البيت للمتنبي، وانظر: ديوانه (٢٦٩).

إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية؛ التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له...

وأنت إذا تدبَّرت القرآن، وأجَرتَهُ من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلِّمين، وأفكار المتكلِّفين؛ أشهَدك مَلِكاً قيُّوماً فوق سماواته، على عرشه، يدبِّر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعزُّ ويذلُّ، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكلِّ كمال، منزه عن كلِّ عيب، لا تتحرَّك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع)[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]. أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً)[٢]. والله أعلم..

ـ المطلب الثاني: العمل بالقرآن:

من مقاصد التدبُّر العظيمة لكتاب الله الكريم العمل به والهداية والاعتبار.

والغاية الأساس من نزول القرآن وتدبُّره العمل بما جاء فيه من الأوامر والنواهي، فهو ليس كتاباً للقراءة فحسب، بل جعله الله نوراً وهدى للناس ليعملوا بما فيه وليلتزموا حدوده، قال

---

[١] الفوائد (٦٩-٧١) بتصرف.

[٢] تيسير الكريم الرحمن (١٨٩).

تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ [الأعراف:٣]، فمن ابتغى من القرآن غير ما أنزل لأجله فقد تنكَّب سواء السبيل، وضلَّ عن هدي رب العالمين: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

ولأهمية العمل بالقرآن؛ اقترن كثيراً بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [يونس:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٧].

والقرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على أنَّ الغرض الأساس من نزوله إنما هو العمل بما جاء فيه، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٥]، قال أهل التفسير: أي فاجعلوه إماماً لكم تتبعونه، وتعملون بما فيه.

وقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَٱتَّقُواْ ﴾ أي: احذروا الله في أنفسكم أن تضيِّعوا العمل بما فيه، وتتعدوا حدوده وتستحلوا محارمه[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، ومعنى الآية، أي: (اتبعوا يا أيها الناس ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، واعملوا بما أمركم به ربكم، ولا تتبعوا شيئاً من غير ما أنزل الله إليكم)[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٩٨).

وقوله تعالى في ذمِّ اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، أي تركوا العمل به[١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]. قال عطاء[٢] ومجاهد[٣] في معنى الآية: (يعملون به حقَّ عمله)، وفي قوله تعالى: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ مبالغة في صفة اتباعهم، ولزومهم العمل به[٤].

قال الآجرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٦٠هـ): (اعلموا -رحمنا الله وإياكم- يا أهل القرآن، ويا أهل العلم، ويا أهل السنن والآثار، ويا معشر من فقههم الله تعالى في الدين، بعلم الحلال والحرام أنكم إن تدبَّرتم القرآن، كما أمركم الله تعالى علمتم أنَّ الله تعالى أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله: العمل، وأنه تعالى لم يثنِ على المؤمنين بأنه قد رضي عنهم وأنهم قد رضوا عنه وأثابهم على ذلك الدخول إلى الجنة، والنجاة من النار، إلا الإيمان والعمل الصالح، وقرن مع الإيمان العمل الصالح، لم يدخلهم الجنة بالإيمان وحده، حتى ضمَّ إليه العمل الصالح، الذي قد وفقهم له، فصار الإيمان لا يتمُّ لأحد حتى يكون مصدِّقاً بقلبه، وناطقاً بلسانه، وعاملاً بجوارحه، لا يخفى على من تدبَّر القرآن وتصفَّحه، وجده كما ذكرت)[٥].

- إنَّ من مقاصد التدبُّر العظيمة الهداية والاعتبار.

---

(١) انظر: الوجيز للواحدي (١٢١).

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٩) برقم: (١٩٠٠).

(٣) تفسير مجاهد (٢١٢)، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٨) برقم: (١٨٩٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٧٠).

(٥) الشريعة (٢/ ٦١٨).

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٢هـ): (وتدبُّر القرآن: زعيم بالتبيين والهدى) [(١)].

وهي هدايتان:

هداية عامة: وهي الإيمان بكون هذا القرآن حق من عند الله تعالى، وأن مَن جاء به رسول صدق، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وهداية خاصة: وهي الوصول إلى مقاصده التفصيلية التي تدلُّ عليها آياته الكريمة.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أَنْ يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبُّر تفاصيله؛ وثانيهما: أَنْ يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق)[(٢)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (أي: فهلا يتدبَّر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل)[(٣)].

فالمقصد الحقيقي من التدبُّر؛ تحصيل مصالح الدين والدنيا، والفوز برضوان الله عَزَّوَجَلَّ، والجنة يوم لقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنجاة من عقابه والنار.

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٨).

لقد أدرك السلف معنى التدبُّر الذي يقود للعمل الصالح، لذلك قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (وما تدبُّر آياته إلا اتباعه)[١].

لقد فهموا لازم التدبر وأثره، وهو الاتعاظ والعمل بالقرآن الكريم.

"إنَّ تدبُّر آيات القرآن العظيم تصفحها وتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها"[٢].

فالعمل شرط التدبُّر الأساس، وهو لازم حصول التدبر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ): (يتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به)[٣].

من هنا نعلم أنَّ عمل القلب والجوارح بما يتدبره الإنسان من أهمِّ لوازم التدبُّر، وإلا لم يكن تدبراً سليماً؛ ولذا وبخ الله الكافرين والمنافقين لأنهم لم يتعظوا، ولم يعملوا بالقرآن فيؤمنوا، قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

والعمل بالقرآن يتطلَّب التدرُّج فيه، والسير بخطى واثقة حثيثة آية آية وسورة سورة، وهذا هو منهج الأسلاف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

وقد سبق أثر أبي عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤هـ)، يحدِّث عن الصحابة الذين علَّموه القرآن فيقول: (حدثني الذين كانوا يقرؤوننا: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود،

---

[١] أخرجه عنه ابن سلام في فضائل القرآن (٢١٣)، والمحاسبي في فهم القرآن (٢٧٦)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٣) برقم: (٥٩٨٤).

[٢] أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).

[٣] جامع البيان (٢١/ ١٩٠).

وأبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلَّموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً)[1].

لقد أيقن المتدبرون عظيم وعد الله في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وأيقنوا بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، فانتهجوا تدبر القرآن والعيش معه.

لقد نزل القرآن مفرَّقاً ولم ينزل جملة واحدة ليقرر هذا المعنى العظيم، معنى العمل به تدريجياً وعلى مراحل وفترات، حتى يحقق الغاية منه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

إنَّ العمل بالقرآن مقصد عظيم من مقاصد التدبر، وحين فهم ذلك سلف هذه الأمة؛ انتهجوا التدبُّر منهج حياة، وأقاموا العدل ونشروه في الأرض، وكانوا أنموذجاً صالحاً للإسلام وأهله وعظمته ورحمته، وبقدر تخلُّف الأمة من بعدهم عن ذلك أصابهم الضعف والخور والهوان.. والله المستعان.



(١) سبق تخريجه ص(٢٢٥).

المبحث الخامس: علاقة التدبُّر بالقلوب وأثره على الأبدان

القرآن هادي البشرية ومرشدها ونور الحياة ودستورها، ما من شيء يحتاجه البشـر وفيه علاج لقلوبهم وأبدانهم إلا وبيَّنه الله فيه نصاً أو إشارة أو إيماءاً، عَلِمه مَنْ عَلِمه، وجهله من جهله.

ولذا اعتنى الرعيل الأول بالقرآن؛ تلاوة وحفظاً وفهماً وتدبُّراً وعملاً، وعلى ذلك سار السلف من بعدهم، فسلمَت قلوبهم، وصحَّت أبدانهم.

ومع ضعف الأمة وتأخُّرها؛ تراجع الاهتمام بالقرآن وانحسر، حتى اقتصر الأمر عند غالب المسلمين على حفظه وتجويده وتلاوته فقط دون تدبُّر ولا فهم لمعانيه ومراداته، وترتَّب على ذلك ترك العمل به أو التقصير في ذلك، فمرضَت القلوب واعتلَّت، وظهرت الأمراض النفسية والجسدية التي لم تُعرَف من قبل.

والعاقل يجعل التدبُّر علاجاً لضعف إيمانه، وقسوة قلبه، ففي القرآن علاج عظيم، ودواء فعال، لمن تدبَّره، وتفكَّر فيه، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وهذه الآية تشمل: علاج الأبدان من الأمراض النفسية والجسدية وغيرها.

إنَّ الكلام عن علاقة التدبُّر بالقلب والبدن يمكن حصره في مطلبين:

المطلب الأول: أثر القرآن وتدبُّره في صلاح القلوب وسلامتها من الأمراض.

المطلب الثاني: أثر القرآن وتدبُّره على سلامة الأبدان وعلاجها من الأمراض.

- المطلب الأول: أثَر القرآن الكريم وتدبُّره في صلاح القلوب وسلامتها من الأمراض:

القلوب أمْرها عجيب، فهي سريعة التقلُّب والتأثر بماجريات الحياة، وما تتلقاه من الخير والشر، وتدبُّر كتاب الله تعالى سبب رئيس في علاجها من الشبهات والشهوات، ووقايتها

من التخبُّط والشتات، ومن طول الأمل، ومن الوهن والخوف والضعف، ومن الجهل والعجْب، وغير ذلك من أمراض القلوب وأدوائها، إضافة للعديد من الأمراض النفسية والجسدية.

قال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٩١هـ)[١]: (دواءُ القلوب في خمسةٍ – وذكر أولها: قراءة القرآن بالتدبُّر)[٢].

وتدبُّر القرآن من أعظم وسائل الثبات، فبه تقرُّ الأعين، وتطمئن القلوب وتسكن.

وقد بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) علاقة تدبُّر القرآن بالقلب وصلاحه، فقال: (فَلَا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر والتفكر؛ فَإِنَّهُ جَامع لجَمِيع منَازِل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشوق وَالْخَوْف والرجاء والإنابة والتوكل وَالرِّضَا والتفويض وَالشُّكْر وَالصَّبْر، وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله، وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والأفعال المذمومة وَالَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه، فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبُّر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّى مر بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاج إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة، وَلَو لَيْلَة، فقراءة آيَة بتفكر وتفهُّم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى الى حُصُول الإيمان، وذوق حلاوة الْقُرْآن... فقراءة الْقُرْآن بالتفكُّر هِيَ أصل صَلَاح الْقلب)[٣].

فالقرآن الكريم علاج لأمراض القلوب وأدوائها كلها، والتي منها:

---

[١] **إبراهيم بن أحمد الخواص**= أبو إسحاق، شيخ الصوفية بالري، صحب أبا عبد الله المغربي، وكان من أقران الجنيد، مات بالري، سنة إحدى وتسعين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (٢٢٠)، تاريخ بغداد (٦/ ٧)، الوافي بالوفيات (٥/ ٢٠١)، طبقات الأولياء لابن الملقن (١٦).

[٢] حلية الأولياء (١٠/ ٣٢٧).

[٣] شفاء العليل (٩٨).

١) أمراض الشبهات والشكوك.

وأما المرض، فقد قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١].

"ومرض القلب خروج عن صحَّته واعتداله، فإنَّ صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له، مؤْثراً له على غيره، فمرضه إما بالشكِّ فيه، وإما بإيثار غيره عليه"[١].

ففي تدبُّر القرآن الكريم جواب على التساؤلات الوجودية، والإشكالات والشكوك التي تعتَري الإنسان، فإنَّ أعظم هادٍ للإنسان إلى طريق الله والإيمان بآياته ورسله وباليوم الآخر؛ هو القرآن الكريم، لما فيه من الإعجاز والبلاغة والسمو والتأثير الروحاني، والإيمان بالله ليس قناعة ذهنية مجرَّدة يمكن الوصول إليها بالجدل المنطقي أو الإقناع العقلي فحسب، بل هذه واحدة من الطرق، والقرآن استعمل هذا الأسلوب، وأساليب متعددة لتقرير ذلك، ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٥].

ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

---

[١] مدارج السالكين (١/ ١٨٧).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر:٨٢].

وكقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق:٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

فكلُّ هذه الآيات وغيرها تقرِّر أنَّ قضية الإيمان بالله وترسيخها في النفس البشرية أعمق من أن يخاطب بها العقل وحده، أو أن تكون قضية يختصم فيها الناس بين إثبات ونفي، ولقد عالج القرآن الكريم هذه القضية في قالب من الحسم والقطع والتأثير، ومن تدبَّر القرآن الكريم بتجرُّد حصل على الهداية واليقين، واتَّضح له ذلك وثبت.

٢) أمراض الشهوات.

وقد سمى الله تعالى الشهوات مرضاً في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وتدبُّر القرآن الكريم حاجز للإنسان عن مقارفة الشهوات والذنوب والكبائر والموبقات والفواحش، وخير حادٍ للإنسان أن يفطِم نفسه عنها، ولو وقع فيها ألا يستمرئها؛ بل يسرع النهوض والانفكاك إلى الله؛ لأنَّ الله تعالى وعده على ذلك بأن يعقبه لذَّة دائمة في الدنيا والآخرة: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف:١٦].

ويكون شفاء القرآن لأمراض الشهوات؛ بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محباً للرشَد، مبغضاً للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجِّهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذَّى البدن بما ينميه ويقويه[1].

٣) النفاق، والاتصاف بصفات المنافقين.

والنِّفاق: إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب[2].

أو هو الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، وهو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير وإبطان خلافه[3].

ولا يُتصوَّر أن يتخلَّق المتدبِّر بأخلاق المنافقين، وهو يقرأ ويتدبَّر مآلهم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

ويصعب لمن تدبَّر كلام الله سبحانه في وصفهم أن يكون مثلهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤٢-١٤٣].

---

[1] انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٥-٤٦) بتصرف.

[2] انظر: العين (٥/ ٣٥٦)، تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، التعريفات (٢٤٥).

[3] انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٨١).

ومن تدبَّر عقوبة المنافقين في القرآن؛ وجد أنَّ الله سبحانه بدأ في العذاب بذكر المنافقين قبل المشركين، ليؤكِّد خطر النفاق وأهله، كما في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٤-٦].

والمتدبِّر لكتاب الله أيضاً يعرِض عن المنافقين لأنه تدبَّر قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة:٩٥]، وهذا الإعراض يستلزم عدم التّعامل أو التّعاون معهم لنجاسة معتقداتهم وسوء مقاصدهم، وقد أمر الله نبيه ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، [التحريم:٩][1].

٤) الحسد والحقد والغلّ والكراهية.

فالمتدبِّر لكتاب الله العاملُ به؛ يسلم قلبه من الحسد الذي هو: كراهة النعمة وحبُّ زوالها عن المنعَم عليه، إذ هو يقرأ حال الحاسدين ويتدبَّر ما قاله الله عنهم ووصفهم في كتابه الكريم،

---

[1] انظر: نضرة النعيم (١١/ ٥٦٠٦).

فيعرف أنَّ الحسَد من صفات أعداء الأمة، الذين قال الله عنهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال عنهم سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٥٤].

ويرى أيضاً ما آل له الحسد في قصة ابني آدم التي قصَّها الله تعالى في سورة المائدة، وما حلَّ بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من إخوته بسبب الحسَد.

ويجد المتدبِّر أيضاً أنَّ الحقَّ أ أمر بالاستعاذة من الحاسدين في سورة الفلق بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق:١-٥].

وكذلك فالمتدبِّر لا يحمل الحقد في قلبه على أحد، لأنه يريد الجنة التي وصف الله أهلها بنزع مافي صدورهم من غلّ، قال الله عنهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣].

ومن دعاء المؤمنين الذي يقف عليه المتدبِّر لكتاب ربه عَزَّوَجَلَّ قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠].

إنَّ تدبُّر القرآن الكريم سبب للشفاء من الأحقاد والكراهية والبغضاء؛ التي كثيراً ما تفسد حياة الناس وتفسد قلوبهم، والله تعالى قال على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فدلَّ هذا على أنَّ طهارة القلوب من الضغائن والأحقاد من أعظم القربات، ومن أعظم مقاصد الشريعة، ومقاصد القرآن الكريم.

عَنْ أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ**»[(١)]، يعني في الصفاء والسلامة والتجرُّد.

٥) العجب والكبر.

تدبُّرالقرآن علاج من مرض العُجْب والكبْر، وما يُحدِثه هذا المرض في نفس الإنسان مِن تعاظم واحتقار للآخرين.

والعجْب هو: "استعظام النّعمة والرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم"[(٢)].

أو: "هو تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقًا لها"[(٣)].

والعجْب: يورث الكبْر الباطن، والكبر يثمر التكبُّر الظّاهر في الأعمال والأقوال والأحوال[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٤٠) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٧١).

(٣) التعريفات (١٤٧).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥٣).

وإذا اجتمع (الكبْر والعجْب) فإنَّهما "يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب؛ لأنَّ الكبر يكون بالمنزلة، والعجْب يكون بالفضيلة؛ فالمتكبِّر يجلُّ نفسه عن رتبة المتعلِّمين، والمعجَب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين"[1].

ومن تدبَّر مثلاً قصة قارون الذي أعجب بنفسه وثروته فتكبَّر؛ ما كان له أن يغترَّ بنعم الله عليه، وهو يعلم عاقبتهم ومآلهم، عندما يتدبَّر قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨٠-٨١].

٦) التعلُّق بغير الله.

والمقصود به تعلُّق القلب بكل ما هو دون الله ورسوله ﷺ من شهوات الدنيا، وصحبة الناس والمبالغة في التعلُّق بهم.

إنَّ من أمراض القلب: التعلُّق بغير الله؛ حباً أو عشقاً أو رجاءً أو خوفاً، ومن تدبَّر القرآن انصرف قلبه عن التعلُّق بالناس، إلى التعلُّق بربِّ الناس، الذي قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].

---

[1] انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٣٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضرَّ من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلَّق بغير الله وكَله الله إلى ما تعلَّق به، وخذَله من جهة ما تعلَّق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عَزَّوَجَلَّ بتعلُّقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلَّق به، وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثَل المتعلِّق بغير الله كمثَل المستظلِّ من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وأوهن البيوت)[1].

إنَّ التعلُّق بغير الله مردُّه ضعف الإيمان، مصداق ذلك قول النبي ﷺ من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[2].

ويحصل بسبب عدم امتلاء القلب بحبِّ الله ورسوله ﷺ، مصداق ذلك قوله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[3].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٥) في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٤) في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٦) في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، وبرقم: (٢١) في باب =

وبسبب الجهل بتوحيد الله وتعظيمه، وبسبب الغفلة عن ذكر الله بالقلب والجوارح، ومن تدبَّر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]؛ عرف ذلك.

فغذاء القلب وحياته في التعلُّق بالله وحبه والأنس به، الأمر الذي يجعل العبد يجد للطاعة لذة، وللإيمان حلاوة.

وإذا علم العبد أنَّ الله وحده هو المالك القادر الذي بيده الحياة والإماتة والرزق، وبيده الإعزاز والإذلال، والإغناء والإملاق، وتدبَّر في قول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، وما امتنَّ سبحانه به على عباده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

وما وعدهم به من كشف الضرِّ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

فمتى علم المتدبِّر لهذه الآيات العظيمة أنَّ الأمور كلها بيد الله لم يتعلَّق بالمخلوقين، ولم يجعل في قلبه من المحبة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة لغير رب العالمين.

إنَّ المتدبِّر للقرآن الكريم والمستقرئ له يوقن ويؤمن بأنَّ من تعلَّق قلبه بغير الله، وكَله الله إلى ما تعلَّق به، ومن تعلَّق بالله وحده كفاه الله كل شيء.

من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان، وبرقم: (٦٩٤١) في كتاب الإكراه، باب من اختار القتل والضرب والهوان على الكفر. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٣) في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان.

والمتدبِّر لكتاب الله يقرأ قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وتعلُّقه بماله، واعتقاد أنَّ ذلك خالد لا يزول، فكان عاقبته: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٢].

ولما تعلَّق فرعون بملكه وسلطانه، وبلغ به الأمر أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، فكانت العاقبة: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥].

وقارون الذي ركَن إلى ماله وكنوزه، حين ذكَّره قومه بالله، وحذَّروه من الفرح والغرور، اتَّكَل على ما تعلَّق به فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]، فوكله الله إليه وكانت العاقبة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وفي مقابل ذلك: قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون حين تراءى الجمعان، وخشي القوم من فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، فقال موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بلغة الواثق المتعلِّق بربِّه: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢].

وفي قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين ألقاه قومه في النار: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، ولتعلُّقه بربه عَزَّوَجَلَّ، كانت النتيجة: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وفي قصة نبينا ﷺ في الهجرة حين كان المشركون على مقرُبة منه هو ورفيقه وصاحبه أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وظنَّ أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ المشركين أدركوهما، فقال له النبي ﷺ قول الواثق بربه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فكانت العاقبة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠][1].

والأمثلة في كتاب الله كثيرة، وكلُّها تدلُّ على أنَّ من تعلَّق بالله، أعزَّه الله ونصره ورفع شأنه، ومن تعلَّق بغيره أذلَّه، وجعل متعلَّقه سبب عذابه وشقائه، نعوذ بالله من الخذلان.

وتدبُّر القرآن الكريم من أهمِّ أسباب علاج التعلُّق بغير الله: بحسن الظن بالله تعالى وأنه مسبب الأسباب، الذي بيده كل شيء: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة:١٢٠].

والقوانين المادية يخضع لها البشر أما الله تعالى فهو واضع النواميس وخالق الكون، ولذلك يصبح عند المؤمن إحساس بأن الله تعالى قادر على أن يخرق النواميس الكونية.

والتعلُّق بالله والتوكل عليه أيضاً سبب للشفاء من المشكلات الإنسانية الاجتماعية والسياسية والأسرية والبيئية؛ التي يتوجع العالم منها ويتخوّف من مخاطرها المحدقة، وفيه دعوة إلى معالجة الأسباب، وإزالة الأمراض، وإلى الصبر على تلك الحالات والمشكلات؛ التي لا يجد الإنسان لها شفاءً، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

فكلُّ هذا يدعو إلى التوكُّل على الله سبحانه، نسأله حسن التوكل عليه، وحسن المآل.

٧) الجهل.

لا يكون القلب جاهلاً لا علم له بالله ولا بالحق، وهو يتدبَّر الأمر بالعلم والسؤال لأهل العلم، في مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٦٥٢) في كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين وفضلهم. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، ويقال له: حديث الرَّحل.

ويرى الأمر بالإعراض عن الجاهلين في مثل قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ويتدبَّر وصف عباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

والجهل يقود صاحبه لفساد الاعتقاد، وقد يوقعه في الشرك، نجد هذا عند تدبُّر حوار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه حين طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

وفي قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فيما يستنكره على قومه من عبادة غير الله وأمره ﷺ به: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤] فنعتهم لذلك بالجهل.

والجهل قد يكون من أسباب الأمراض الروحية والنفسية، فكم من مريض ابتلي بمرض بإذن الله أو زاد عليه المرض؛ بسبب جهله وقلَّة علمه، أو معتقداته الفاسدة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة..، وجهل عمل وغيٍّ؛ وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، وكما أنَّ العلم يوجب نوراً وأنساً؛ فضدُّه يوجب ظلمة ويوقع وحشة، وقد سمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلم الذي بعث به رسوله ﷺ نوراً وهدى وحياة، وسمَّى ضده: ظلمة وموتاً وضلالاً، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ

ﭐلنُّورِ إِلَى ﭐلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ﭐلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ﭐلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢])[1].

ومن مضار الجهل: أنه يورد المهالِك، ويجلِب المصائب، ويفسِد ولا يصلِح، ويخرِّب ولا يعمّر، ويضع رفيع النّسب، ويذلّ عزيز القوم[2].

والتدبُّر في كتاب الله الكريم يقاوم الجهل ببناء المعرفة الصحيحة، والعلم اليقيني بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويؤصِّل في النفس عظمة الله وتوحيده وعبوديته، ويعالج الجهل بأنواعه البسيط والمركب.

والمتدبِّر لكلام الله تعالى يجد عاقبة الجاهلين الذين أوصلهم الجهل لتكذيب رسلهم، وحكى الله حالهم على لسان أنبيائهم، في مثل قول نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ﭐللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ﭐلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [هود:٢٩].

وقول لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ﭐلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ﭐلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [النمل:٥٥].

وفي قصة هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أنذر قومه ودعاهم إلى عبادة الله وحده، في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ﭐلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ﭐلۡعِلۡمُ عِندَ ﭐللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٢-٢٣].

---

[1] مدارج السالكين (٣/ ١٥٤).

[2] انظر: نضرة النعيم (٩/ ٤٣٨٩).

لقد عالج القرآن الجهل؛ بتوجيه منهجيٍّ للبحث والوصول إلى الأسباب والحلول، فالقرآن ليس كتاباً يُشخّص الأمراض الجسدية التي يعانيها البشر والعلاجات المناسبة، إنما يرسم منهج البحث ويحفز إلى المحاولة والكشف والتعلُّم، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه عن النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، يوحي بأن فيما خلق الله تعالى من النباتات والمشروبات وغيرها ألواناً من الشفاء، وعلى البشر أن يكتشفوا هذه الأدوية، ويسعوا في تحصيلها بحسب ما تمكنهم المعرفة المتاحة لهم، وفي القرآن الكريم دعوة للعقل أن يبتكر ويكتشف، وللتجربة أن تأخذ حقها ومداها.

٨) ضعف الهمة والإرادة.

الهمَّة عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه، وكما أنَّ الطائر يطير بجناحيه، كذلك يطير المرء بهمَّته، فتحلّق به إلى أعلى الآفاق، طليقةً من القيود التي تكبِّل الأجساد.

وقد تواردت نصوص القرآن والسنة على حثِّ المؤمنين على علو الهمَّة وقوة الإرادة، والتسابق في الخيرات، وتحذيرهم من سقوط الهمة، وتنوعت أساليب القرآن في ذلك.

فمنها: الأمر بأخذ الدين بقوة وعزيمة، كما في قول الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١]، وقوله سبحانه ليحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢].

ومنها: ذمُّ ساقطي الهمَّة وتصويرهم في أبشع صورة، كما قال الله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ

تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

ومنها: ثناؤه سبحانه على أصحاب الهمم العالية وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم خاتمهم نبينا محمد ﷺ الذي قال الله تعالى له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ومنها: أنه أثنى سبحانه على أوليائه الذين كبرت همَّتهم بوصف الرجال في مواطن البأس والجلد والعزيمة والثبات على الطاعة، والقوة في دين الله، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

وفي قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

وفي قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٢٣].

ومنها: أنه سبحانه أمر المؤمنين بالهمَّة العالية، والتنافس في الخيرات، في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالمسابقة والمنافسة محمودة في الآخرة، مذمومة في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

إنَّ التدبُّر الدائم للقرآن، له تأثير عجيب على استثارة المشاعر، والسيطرة عليها، وتوجيهها لله عَزَّوَجَلَّ، ويورث المتدبِّر حالة دائمة من الهمَّة والنشاط، والتوقُّد والإيجابية، من خلال توليده المستمرِّ للطاقة والحيوية والتجديد داخل نفس صاحبه كلما تدبَّره وتجاوب معه، وتأثرت به مشاعره، هذه الطاقة ستدفعه ليصرفها في أعمال البر المختلفة.

والمتدبِّر عالي الهمة، قويَّ الإرادة في الخير، لأنه تدبَّر آيات عظيمة تحثه على ذلك، وتصبر نفسه وتحبسها لو أرادت التفلُّت، مثل قول الله للنبي ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وقد عرف المتدبِّر للقرآن طبيعة النفس، وبأنها أمَّارة بالسوء، ولديها قابليه للفجور والطغيان، وتحبُّ الاستئثار بكل خير، ولا تنظر للعواقب، فإذا عرف ذلك صبَّرها، وصار الصبر سجية له، أما إذا أعطى نفسه العنان فالنفس أمارة بالسوء، والشيطان يحثُّه على الكسل والركون إلى الدنيا والدعة، وأنَّ ذلك سبب خسارته في الدارين.

- المطلب الثاني: أثر القرآن الكريم وتدبُّره على سلامة الأبدان وعلاجها من الأمراض الجسدية والنفسية:

تدبُّر القرآن الكريم سبب بإذن الله لعلاج الأسقام الظاهرة العضوية، كما هو سبب لعلاج الأمراض الباطنة الروحية والنفسية، ويدخل هذا في قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

فقراءة القرآن الكريم وتدبُّره تُطمِئن القلب، لأنها من أعظم الذكر الذي يُذكر به الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

أولاً: أثر القرآن وتدبُّره في علاج الأمراض الجسدية.

إنَّ المتدبِّر لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ يجد أنَّ القرآن الكريم علاج للأمراض كلها، بالوقاية من حصولها قبل وقوعها، وبعلاجها إذا وقعت وقدِّرت.

ومن ذلك أنَّ المتدبِّر يقف على آيات عظيمة جمعت أصول الطبِّ الوقائي، الذي يكون حرزاً للإنسان بإذن الله من الأمراض، فمنها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، تضمَّنت النهي العام عن كلِّ ما فيه ضرر على صحَّة الإنسان وعافيته.

وكذلك النهي عن أمور تتسبب في أمراض خطيرة للإنسان، مثل أكل الميتة، وشرب الخمر، وأكل الخنزير، وارتكب الفواحش، فالمتدبِّر سيقف أثناء نظره في القرآن على قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة:٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فمن تجنَّب هذه المحرمات كانت وقاية له بإذن الله من الكثير من الأمراض العضوية، وكل هذه المحرمات تتضمن آثاراً نفسية واجتماعية سلبية كثيرة، وتحريمها ليس مقصوراً على هذا فقط؛ وإن كان أحد الأسباب والمقاصد.

لقد رسم القرآن الكريم أصول الطب، مثل الأمر بالاعتدال في المطعم والمشرب، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١]، وذلك يجنب الإنسان فرص زيادة المرض.

كما أنَّ الله تعالى الرحيم بعباده شرع للصائمين الفطر في السفر والمرض: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وخفف باستعمال التيمم بالتراب بدل الماء للمريض، كأصل من أصول الطب التي تساهم في حماية الإنسان وحفظه من الأضرار، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦].

وأما بعد وقوع المرض؛ فإنَّ "التبرُّك بقراءة القرآن ينفع كثيراً من الأمراض، وإذا اعتبر الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسَمات[١] بأنَّ لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يُفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، أفلا تكون قراءة القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله تعالى وكبريائه، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا"[٢].

---

(١) **طَلْسَمَات**= الطِّلَسْمُ، اسمٌ للسِّرِّ المَكْتُومِ، يقال: سِرٌّ مُطَلْسَمٌ، وحِجَابٌ مُطَلْسَمٌ، وذَاتٌ مُطَلْسَمٌ، والجَمْعُ: طَلاسِمُ. انظر: تاج العروس (٣٣/ ٢٤) مادة: طلسم.

(٢) المواهب اللدنية (٣/ ٢٠) بتصرف يسير.

وتأمَّل قوله ﷺ في بعض أدعيته: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»[1]، فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله[2].

وقد كان من هديه ﷺ أن يرشد المرضى للقرآن الكريم والعلاج به.

من ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا، وَامْرَأَةٌ تُعَالِجُهَا أَوْ تَرْقِيهَا، فَقَالَ: «عَالِجِيهَا بِكِتَابِ اللهِ»[3].

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ رَجُلًا شَكَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعَ حَلْقِهِ فقَالَ: «عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»[4].

وتأمَّل رقية اللديغ بسورة الفاتحة، وما فيها من السرِّ البديع، والبرهان الرفيع.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٤٣١٨)، والبزار في مسنده (٥/ ٣٦٣)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) برقم: (٩٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٦٩) برقم: (١٠٣٥٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

(٢) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٩٠).

(٣) **صحيح**. أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٦٤) برقم: (٦٠٩٨). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٣١)، وفي صحيح الجامع (٣٩٦٩).

(٤) **لم أقف على صحته**. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٧١)، برقم: (٢٣٤٤)، ولم أقف عليه عند غيره، وفي إسناده إبراهيم بن ظبية، وهو مجهول.

عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**»، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**»[1].

"فتضمَّن هذا الحديث حصول شفاء اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء، وربما بلَغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحلِّ غير قابل؛ إما لكون هؤلاء الحيِّ غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً"[2].

وكانت هذه أيضاً هي طريقة العلماء والصالحين السائرين على هديه ﷺ.

وقد أثبتت تجاربهم علاج أمراض الأبدان بالقرآن الكريم.

فمن ذلك أنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤١هـ) كان يعالج الحمى بكتابة قوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٧٧٦) في كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، وبرقم: (٥٧٤٩) في كتاب الطب، باب النفث في الرقية.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٧٩) بتصرُّف يسير.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتب للمرأة إذا عسَر عليها الولد في شيء نظيف: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ثمَّ تسقى منه وينضح ما بقي على صدرها)[١].

وروي أنَّ أبا قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٤هـ)[٢] كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجع[٣].

ونُقل عن أبي القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٦٥هـ)[٤] أنَّ ولده مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الموت، فاشتدَّ عليه الأمر، قال: فرأيت النبي ﷺ في المنام فشكوت إليه ما بولدي فقال:

---

[١] انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٤٥٦)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٢٨)، وذكروا أنَّ الإمام أحمد روى هذا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولم أقف عليه، ورفعه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٧٦) برقم: (٦١٩) وفي سنده كلام لا يرقى به للصحة مرفوعاً.

[٢] **أبو قلابة الجرمي**= عبد الله بن زيد بنِ عَمْرِو بنِ نَاتِلِ بنِ مَالِكٍ، ثقة، كثير الحديث، من أئمة الهدى، وهو عربي من جرم، أدرك خلافة عُمَر بْن عبد العزيز، وقدم مصر فِي زمن عَبْدالْعَزِيز بْن مَرْوَان، وتوفي بالشام سنة أربع ومئة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٣٦)، تهذيب الكمال (١٤/ ٥٤٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٨).

[٣] أخرجه عبد الرزاق في المصنف - جامع معمر بن راشد (١١/ ١٥٢) برقم: (٢٠١٧٠)، وذكره ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١٧٥).

[٤] **أبو القاسم القشيري**= عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الفقيه الشافعي؛ كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، أصله من ناحية أستوا من العرب الذين قدموا خراسان، توفي صبيحة يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، ودفن بالمدرسة تحت شيخه أبي علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦/ ١٤٨)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٠٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧).

أين أنت من آيات الشفاء؟ فانتبهت فأفكرت فيها فإذا هي في ستة مواضع من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤]، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]. قال: فكتبتها ثمَّ حلَّلتها بالماء وسقيته إياها؛ فكأنما نشَط من عقال[1].

ومن ذلك أيضاً: أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) كان يكتب على جبهته للرعاف: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود:٤٤]، وقال: كتبتها لغير واحد فبَرَأ[2].

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) حين قال عن استشفائه بالفاتحة: (وقد جرَّبت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة ولا سيما مدَّة المقام بمكة؛ فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محلِّ الألم فكأنه حصاة تسقط، جرَّبت ذلك مراراً عديدة، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين والله المستعان)[3].

---

[1] ذكر القصة عنه الصفوري في نزهة المجالس ومنتخب النفائس (١/ ٧٧)، وشهاب الدين القسطلاني في المواهب اللدنية (٣/ ١٩).

[2] ذكره عنه ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ٣٢٨).

[3] مدارج السالكين (١/ ٨٠).

ونُقل عن أبي النور التونسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٢٦هـ)[١]أنه لما ركب البحر من تونس إلى إسكندرية حصل لملاح السفينة حمّى، وعجز ركّابها عن علاج ينفعه، وطلب من الشيخ أبي النور ما يكتب للحمّى، فكتب له ورقة فيها قول الله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، ولفَّ الورقة، ودفعها له، فوضعها في رأسه، فما مضت تلك الليلة حتى ذهبت عنه الحمى[٢].

والشواهد على ذلك كثيرة عبر العصور والدهور[٣]، وذُكر عن أناس معاصرين؛ أصابتهم أمراض مستعصية على الطبِّ؛ كالسرطان وغيره، ثم تعالجوا منها تماماً بالقرآن بفضل الله ومنته، نسأل الله أن يحيي قلوبنا وأجسادنا بالقرآن.

---

[١] **أبو النور التونسي**= الحافظ لكتاب الله تعالى المقري التونسي المالكي، نزيل المدرسة المقدمية بحلب، كان يؤدب الأطفال بها، وكان يقرأ ثلث القرآن بعد المغرب، وثلثه بعد العشاء، توفي بحلب سنة ست وعشرين وتسعمائة. انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (١/ ١٢٣)، وشذرات الذهب (١٠/ ١٩٤).

[٢] انظر: الكواكب السائرة (١/ ١٢٣)، شذرات الذهب (١٠/ ١٩٤).

[٣] **مسألة: كتابة آيات من القرآن على ورق أو لوح أو طبق أو إناء**، وغسله بالماء وشرب المريض لتلك الغسلة يستشفي بها هذا مما اختلف أهل العلم في جوازه، فالبعض رأى أنها بدعة، قال ابن العربي في عارضة الأحوذي (٨/ ٢٢٢): (وهي بدعة من الشيطان).

وأجازها بعض السلف، وروي فيها الحديث الموقوف عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والذي سبق ذكره عن الإمام أحمد، قال ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١٧٥): (ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن، ثم يشربها. قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن، ويغسله، ويسقيه المريض، ومثله عن أبي قلابة).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجموع (٢/ ١٧١): (لو كتب القرآن في إناء ثم غسله وسقاه المريض، فقال الحسن البصري، ومجاهد، وأبو قلابه، والأوزاعي: لا بأس به، وكرهه النخعي، ومقتضى مذهبنا أنه لا بأس به، فقد قدمنا في مسائل مس المصحف أنه لو كتب القرآن على حلوى أو غيرها من الطعام فلا بأس بأكله).

=

ثانياً: أثر القرآن وتدبُّره في علاج الأمراض النفسية والعصبية:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١٩/ ٦٤): (ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح، ويغسل ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره).

وقد تعرضت اللجنة الدائمة للإفتاء في المملكة العربية السعودية لهذه المسألة في عدة فتاوى، واختارت الجواز في الفتوى رقم: (١٤٣)، والفتوى رقم: (١٥١٥).

فخلاصة القول هو الجواز، وأنه لا بأس في فعل ذلك، بشرط أن يكتب القرآن بمداد طاهر، وعلى شيء طاهر، ويحذر مما يقع فيه بعض الجهال من كتابة القرآن بالدم، لأنه نجس، ولا يجوز تعريض كتاب الله وآياته لمثل هذا.

وأيضا الأولى لمن يفعل ذلك أن يشربه ولا يغتسل به، فقد روي عن الإمام أحمد كراهة الاغتسال به، قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآداب الشرعية (٢/ ٤٥٦): (قال الخلال: إنما كره الغسل به لأنَّ العادة أن ماء الغسل يجري في البلاليع والحشوش، فوجب أن ينزه ماء القرآن من ذلك، ولا يكره شربه لما فيه من الاستشفاء).

وأيضا يشترط أن يكون المكتوب آيات من القرآن، أو من ذكر الله، أو دعائه بكلام مفهوم.

أما الطلاسم وما لا يفهم معناه وما احتوى على تعاويذ شركية، فلا يجوز كتابته، لما أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٢٧) برقم: (٢٢٠٠) في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ».

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نيل الأوطار (٨/ ٢٤٥): (فيه دليل على جواز الرقى والتطبيب بما لا ضرر فيه، ولا منع من جهة الشرع، وإن كان بغير أسماء الله وكلامه، لكن إذا كان مفهوماً، لأنَّ ما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شيء من الشرك).

ولم يأت - فيما أعلم - دليل صحيح في تحديد السور، أو الآيات أو الأذكار التي تكتب، إلا ما ورد عن بعض السلف، ومجربات بعض الصالحين في ذلك. والله أعلم.

بيَّن الله سبحانه لنا في كتابه الكريم أنَّ المؤمنين هم أهل الطمأنينة والأمن والسعادة، وقد تضافرت الأدلة على ذلك، فمنها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

فبالإيمان تتحقق سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها للمؤمن، لأنَّ إيمانه يمدُّه بالأمل والرجاء في عون الله تعالى ورعايته وحمايته، ويقوده إلى الأمان والطمأنينة والسعادة.

والإيمان إشاعة الأمان، والأمان يبعث الأمل، والأمل يبعث السكينة، والسكينة نبع السعادة، وحصادها هدوء نفسي؛ فلا سعادة بلا سكينة نفس، ولا سكينة نفس بغير إيمان، وطريق الإيمان الحقَّ هو تدبُّر القرآن الكريم.

والجسد والنفس متلازمان، إذ الحفاظ على راحة النفس وهدوئها؛ سبب رئيس -بإذن الله- للحفظ من الأمراض والأوجاع العضوية الجسدية.

ومما لا شك فيه أنَّ للقرآن الكريم أثر عظيم في تحقيق الأمن النفسي والطمأنينة القلبية والسكينة؛ التي هي نور يسكن إليه الخائف ويطمئن عند القلق.

والقرآن الكريم يخاطب ملكات النفس الخفية، التي تتفاعل عندما يقرأ القارئ القرآن بقلبه ويتدبَّر معانيه، ولذلك حرص المشركون ألا يسمعه أحد من النبي ﷺ، كما وصف الله حالهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]، وذلك لأنَّ من سمعه بقلبه، وجد له حلاوة وتأثيراً يجذبه إلى الإيمان جذباً.

إنَّ في القرآن الكريم طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ في نفس الإنسان، فهو يهزُّ وجدانه، ويصقل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره، ويجلِّي بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن تعرَّض لتأثير القرآن يصبح إنساناً مختلفاً.

وللتدبُّر تأثير فعَّال في علاج الإنسان من الهمِّ والقلق، والمداومة على قراءة القرآن بتركيز تام، وفهم عميق؛ تبعث في نفس الإنسان الهدوء والسكينة والاطمئنان، وتقضي على القلق وتوتر الأعصاب الذي تحدثه ضغوط الحياة ومشكلاتها، وتبعث في النفس الأمل، وتقوي فيها العزم والهمة، وتزودها بالحيوية والنشاط.

ومن قرأ تاريخ الإسلام، منذ أيامه الأولى؛ عرف كيف غيَّر القرآن قناعات الناس وسلوكهم؛ وأدرك مدى التأثير العظيم الذي أحدثه القرآن في نفوسهم وأحوالهم.

وقد ورد عن بعض السلف الصالح، وجماعة من أهل العلم ﷺ انتفاعهم بالقرآن والاستشفاء به في أحوال نفسية مختلفة، ومن أخبار ذلك:

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤٠هـ) قال: (عجبت ممن يحفظ القرآن كيف لا يقرأ ثلاث آيات بالغداة كل يوم ليحفظه الله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر:٤٤]، وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢])[1].

وعن جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ (١٤٨هـ)[2]، قال: (عجبت ممن يبتلى بأربع، كيف يغفل عن أربع، عجبت لمن يبتلى بالهمِّ كيف لا يقول: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

---

(١) أخرجه عنه ابن الجزري في مناقب الأسد الغالب علي بن أبي طالب (٥٧).

(٢) **جعفر بن محمد** = بن علي القرشي الهاشمي، الإمام، الصادق، شيخ بني هاشم، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، العلوي، النبوي، المدني، أحد الأعلام، كان عالماً زاهداً عابداً، ابن ريحانة النبي ﷺ وسبطه ومحبوبه الحسين بن علي، وأمه: هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، ولد: سنة ثمانين، ورأى بعض الصحابة، مات سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٧١)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٥).

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨]، وعجبت لمن خاف شيئاً من السوء كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٤]، وعجبت لمن يخاف مكر الناس كيف لا يقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤]، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥]، وعجبت لمن يرغب في الجنة كيف لا يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩]، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف:٤٠])[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة، وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها - من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة - قال: فلما اشتدَّ عليَّ الأمر، قلت لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة، قال: ثمَّ أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قَلَبَة[٢].

وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه؛ فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته)[٣].

---

[١] ذكره عنه السمرقندي في تنبيه الغافلين (٥٤٨).

[٢] **القَلَبَة**= أي: ما به وَجَعٌ أو داء يخاف عليه منه. انظر: الزاهر في كلام الناس (١/ ٢٣٢)، تهذيب اللغة (٩/ ١٤٤).

[٣] مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠)، وذكر آيات السكينة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في ستة مواضع من القرآن هي:

=

وكذلك من المجربات النافعة في ذلك: قراءة آيات تتناسب مع حال المريض أو المهموم وتدبُّرها، كقراءة من لديه حالة من القلق والتوتر والاضطراب قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وقراءة من يشكو الخوف أو يخشى الفقر، سورة قريش بتدبُّر؛ ففيها معنى العبودية، والإطعام من الجوع، والأمن من الخوف في قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش:٣-٤].

وفعل ذلك لا على سبيل أنه سنة يُعمل بها؛ ولكن على سبيل أنه يجد لهذه الآيات نوعاً من الاستجابة للوضع الخاص الذي يعيشه.

وفي العصر الحاضر: أثبتت الدراسات أنَّ القرآن يمنح الطمأنينة والسكينة والوعد الطيب والأمل، والقوة في الله تعالى، وهو شفاء من الأمراض النفسية التي تفشَّت في الأزمنة المتأخرة، كالقلق والاكتئاب والتوتر والخوف وغيرها.

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [البقرة:٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة:٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [الفتح:٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ [الفتح:١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦].

فالقرآن الكريم شفاء من الضغوط النفسية والحياتية؛ والتي هي سبب كثير من الأمراض الجسدية المعاصرة، مثل: أمراض القلب، وضغط الدم، ومرض السكر، والمرتبطة بالضغوط النفسية والمشكلات بكافة أشكالها.

قال د. رامز طه[1]: (لقد تأكَّد أنَّ أكثر العلاجات النفسية فائدة وتأثيراً، هي ما ارتبط منها بالدين والثقافة والبيئة.. ولقد لاحظت من خلال ممارستي الأكلينيكية الطويلة أنَّ بعض المرضى يعالجون أنفسهم ذاتياً بقراءة القرآن بعمق وخشوع وتأمُّل لمعانيه، وأنهم ينجحون غالباً في خفض درجة توترهم، والتغلُّب على مشاعر الخوف والقلق والوساوس التي تسيطر على أذهانهم بدرجة كبيرة تساند العلاج الدوائي وأساليب العلاج الأخرى)[2].

وقد أثبتت ذلك التجارب الحديثة المعملية المعاصرة، مثل الدراسة التي قام بها الدكتور أحمد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٣٠هـ)[3] على مجموعات متنوعة من المتطوعين؛ -بعضهم مسلم عربي، وبعضهم مسلم غير عربي يجيد العربية، وبعضهم مسلم غير عربي، ولا يعرف العربية، وبعضهم غير مسلم-، وكان الهدف من هذه الدراسة معرفة ما إذا كان للقرآن أيَّ أثر على وظائف أعضاء الجسد، وقياس الأثر إن وجد، واستُعْملت في الدراسة أجهزة مراقبة اليكترونية، مزودة بالحاسب الآلي لقياس أي تغيرات فسيولوجية، وكانت النتيجة: تأثير الألفاظ القرآنية في علاج التوتر العصبي حيث أثبتت هذه التجارب أنَّ للقرآن أثراً مهدئاً في (٩٧٪) من التجارب في شكل تغيرات فسيولوجية، حيث تدلُّ على تخفيف درجة توتر الجهاز العصبي التلقائي.

---

[1] **الدكتور رامز طه محمد**= (معاصر) مصري، حاصل على الدكتوراة في الطب النفسي من جامعة الأزهر، ويعمل استشاري الطب النفسي بدولة الكويت، له العديد من الأبحاث العلمية المنشورة، وعدد من المؤلفات في علم النفس والسلوك. انظر سيرته العلمية بموقعه على الانترنت: (www. rameztaha. net).

[2] من مقال د/ رامز طه، بعنوان: العلاج النفسي الذاتي بالقرآن، موقع: (www. rameztaha. net).

[3] **د.أحمد القاضي**= هو رئيس المركز الإعلامي بمؤسسة العلوم الطبية الإسلامية بمدينة (بنما سيتي) بأمريكا، له العديد من الأبحاث العلمية المنشورة، توفي في أمريكا عام ١٤٣٠هـ.

وقد أجريت دراسة أخرى لمعرفة ما إذا كانت مجرد سماع كلمات القرآن دون فهم معانيه، لها تأثير فسيولوجي لدى السامع؟، واستعمل في قياس ذلك أجهزة حاسوبية متقدمة لقياس التوتر، ومراقبة وقياس التغيرات الفيسيولوجية التي تحدث على الإنسان، وأجريت الدراسة من خلال مائتين وعشرة تجارب على خمسة متطوعين صمّ، ثلاثة ذكور، وأنثيان، من غير المسلمين، ومن غير الناطقين بالعربية، وقرئ عليهم القرآن مجوداً خلال خمس وثمانين تجربة، وقرئ عليهم كلام عربي آخر بنفس طريقة التلاوة القرآنية في خمس وثمانين تجربة أخرى، وكانت النتائج إيجابية في (٦٥٪) من تجارب القراءات القرآنية، وهذا يعني أنَّ الجهد الكهربائي للعضلات كان أكثر انخفاضاً في هذه التجارب مما يدلُّ على أثر مهدىء للتوتر، بينما ظهر هذا الأثر في (٣٣٪) فقط من تجارب القراءات غير القرآنية.

وفي عدد من المتطوعين أمكن تكرار هذه النتائج الإيجابية للقراءات القرآنية، بالرغم من إعادة تغيير ترتيبها بالنسبة للقراءات الأخرى مما أكد الثقة في هذه النتائج.

لقد أثبتت النتائج المبدئية أنَّ للقرآن أثراً إيجابياً مؤكَّداً لتهدئة التوتر، وأمكن تسجيل هذا الأثر نوعاً وكماً، وظهر هذا الأثر على شكل تغيرات في التيار الكهربائي في العضلات، وتغيرات في قابلية الجلد للتوصيل الكهربائي، وتغيُّرات في الدورة الدموية وما يصحب ذلك من تغيُّر في عدد ضربات القلب، وكمية الدم الجاري في الجلد ودرجة حرارة الجلد، وكلُّ هذه التغيُّرات تدلُّ على تغيُّر في وظائف الجهاز العصبي التلقائي والذي بدوره يؤثر على أعضاء الجسد الأخرى ووظائفها، ولذلك فإنه توجد احتمالات لا نهاية لها للتأثيرات الفسيولوجية التي يمكن أن يحدثها القرآن.

وكذلك فإنَّ من المعروف أنَّ التوتر يؤدي إلى نقص المناعة في الجسم واحتمال أن يكون ذلك عن طريق إفراز الكورتيزول أو غير ذلك من ردود الفعل بين الجهاز العصبي وجهاز الغدد الصماء، ولذلك فإنه ومن المنطق افتراض أنَّ الأثر القرآني المهدىء للتوتر يمكن أن يؤدي إلى

تنشيط وظائف المناعة في الجسم، والتي بدورها ستحسن من قابلية الجسم على مقاومة الأمراض أو الشفاء منها وهذا ينطبق على الأمراض المعدية والأورام السرطانية وغيرها.

كما أن نتائج هذه التجارب المقارنة تشير إلى أنَّ كلمات القرآن بذاتها وبغض النظر عن مفهوم معناها، لها أثر فسيولوجي مهدىء للتوتر في الجسم البشري.

وهذه النتائج المذكورة هي نتائج مبدئية، لعدد محدود من التجارب التي أجريت على عدد قليل من المتطوعين[1].

وإذا كانت هذه الدراسات التطبيقية قامت على مجرد استماع القرآن وأثره على النفس والجسد، وعلى أناس بعضهم من غير المسلمين الذين لم يعقلوه ولم يعرفوا معناه، بل ربما خلطوا بينه وبين غيره من الكلام العربي؛ فكيف بالمؤمنين المتدبِّرين لكتاب ربهم، الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، فكيف سيكون الأثر العظيم على نفوسهم وأجسادهم، حين يقرؤونه ويتدبَّرونه ويعملون به؟!.

فالحاصل: أنَّ قراءة القرآن الكريم وتدبُّره تدبُّراً صحيحاً؛ يحقق الإيمان في النفس البشرية، وإذا تحقق الإيمان واليقين؛ أضفى ذلك على النفس سكينة وطمأنينة تكون سبباً لعلاج أمراضها وأسقامها بإذن الله.

---

[1] سجَّل الدكتور هذه التجارب ونتائجها في كتابه: تأثير القرآن على الوظائف الفسيولوجية للجسم البشري، والذي نشرته دار الرسالة ببيروت، وعرضت تفاصيل هذه النتائج في المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الإسلامية في أمريكا الشمالية، الذي عقد في مدينة سانت لويس بولاية ميزوري في أغسطس (آب)، عام ١٩٨٤م، وانظر: موقع المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (إسلام ست): (www.islamset. com /arabic).

ثالثاً: شرط الانتفاع بالقرآن الكريم وتدبُّره للشفاء من جميع الأمراض.

فالقرآن الكريم شفاء لمن آمن به، وعمل بتعاليمه، وعاش في رحابه، واتخذه منهج حياة، لا لمن تنكَّب عنه، ونبذه وراء ظهره، وسلك منهجاً أرضياً منحرفاً، وهو شفاء للمؤمنين به، التالين له آناء الليل وأطراف النهار، المتدبِّرين له، العاملين به.

والقرآن "دواء للقلوب والأبدان والأرواح، وإذا كان لبعض الكلام خواص ومنافع؛ فما بالك بكلام رب العالمين الذي فضْله كفضْل الله على خلقه، وفيه آيات مخصوصة يعرفها الخواص لإزالة الأمراض والأعراض"[١].

وحتى ينتفع المريض بالقرآن في جسده أو نفسه، فثمَّة أمور يتحقق بها كمال الانتفاع والعلاج، منها ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) بقوله: (فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلَّف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بدَّ بإذن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومن عرف هذا كما ينبغي تبيَّن له أسرار الرقى، وميَّز بين النافع منها وغيره، ورقَى الداء بما يناسبه من الرقى، وتبيَّن له أنَّ الرقية براقيها وقبول المحلِّ، كما أنَّ السيف بضاربه مع قبول المحلِّ للقطع، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دقَّ نظره، وحسُن تأمله، والله أعلم)[٢].

وتفصيل ذلك فيما يلي:

الأول: قبول المحلِّ: والمقصود به قلب المريض الذي يطلب العلاج بالقرآن وجسده، فتتوفَّر فيه أمور منها:

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣/ ٤٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٠).

١) حسن الاعتقاد، وذلك بالتوكل على الله تعالى، وحسن الظن به، والإيمان بأنَّ القرآن سبب للشفاء بإذن الله، واليقين بأنَّ الشافي هو الله وحده، والإيمان يقيناً بأنَّ القرآن شفاء ورحمة وعلاج نافع، فلا يرقى به على سبيل التجربة إن نفعت وإلا عمد إلى غيرها، وألا يطرق أبواب السحرة والمشعوذين والدجالين.

ومن حسن الاعتقاد الواجب أيضاً: الصبر على أقدار الله، والرضا بها، وأن يحتسب أجر ذلك عند الله، ويجعل تعلقه بالله وحده، وينتظر الفرج منه سبحانه، ويسأل الله العافية، فإنَّ ذلك من أفضل العبادات.

ومن حسن الاعتقاد: الإيمان بأنَّ كلَّ ما قدَّره الله على عبده هو الخير له، وأن يؤمن بالقدر خيره وشره، وقد أخبر النبي ﷺ في قوله: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»[١].

ويعلم أنَّ ما أصابه إنما هو من علامات محبة الله له، لأنَّ البلاء مظنَّة للتطهر من الخطايا، كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[٢].

ومن ذلك: أن يعلم أنَّ الذي يعترض على قدر الله بالبلاء والشفاء لا يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ له حكمته في ذلك البلاء؛ فهو إما تمحيص لذنوبه، أواختبار لصبره، أو رفعاً لدرجاته لمنزلة أعدها الله له، فمن أيقن ذلك لم يعترض على أقدار الله عليه أبداً.

---

[١] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (١١/ ٥٦٦) برقم: (٦٩٨٥)، وأخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٤٥١) برقم: (٢١٤٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٨٥)، وفي صحيح الترمذي (٢١٤٤).

[٢] **صحيح**. أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٨) برقم: (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٢٣٤) برقم: (٩٣٢٥)، والترمذي في سننه (٤/ ٦٠١) بعد الحديث رقم: (٢٣٩٦)، وقال عنه: حديث حسن غريب. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢٢٩٨)، والألباني في صحيح الترمذي (٢٣٩٦).

ومن ذلك أيضاً: عدم التعلُّق بتميمة أو حجاب أو تعويذة، والتعلُّق بالله وحده.

٢) تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك بترك النواهي، واتباع الأوامر، وأداء الفرائض والواجبات، والحرص على النوافل والمستحبات، فإنَّ ذلك يورث الخوف والخشية من الله، وإنَّ العبد لا زال يتقرَّب إلى الله بالنوافل حتى يحبه، وتقتضي هذه المحبة أن يحفظه في قلبه وجوارحه، ويشفيه ويعافيه من الأسقام والأمراض، لما روى أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «إِنَّ اللهَّ قَالَ: ... **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[١].

والقرآن الكريم يؤثِّر تمام التأثير في المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٩].

جاء في تعليق السندي رَحِمَهُٱللَّهُ (١١٣٨هـ) على حديث: «خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ»[٢] قال: (إما لأنه دواء القلب فهو خيرٌ من دواء الجسد، وإما لأنه دواء للجسد،... وشرط التداوي به حسن الاعتقاد ومراعاة التقوى)[٣].

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٥٠٢)، في كتاب الرقاق، باب التواضع.

[٢] **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١١٦٩) برقم: (٣٥٣٣)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٣١٦)، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٤٠٠٧)، والألباني في ضعيف ابن ماجه (٧٠٤)، وفي إسناده الحارث الأعور وهو ضعيف، كما قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٦٩).

[٣] كفاية الحاجة على سنن ابن ماجه- حاشية السندي (٢/ ٣٥٥).

فالكتاب هو ذات الكتاب، لكن العبرة باستقبال القلوب له، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت:٤٤].

فحتى يتحقق المقصود من تدبُّر القرآن لابد من وجود قلب حيٍّ يستقبله، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٦٩-٧٠]، فالقران أفضل موعظة وأعظم تذكرة، ولكن لمن يخشى، كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، فالخائفون من الله هم المنتفعون بالقرآن فيزدادوا به خشية، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١].

فإذا فارق الخوف القلب قلَّ انتفاعه بالقرآن، تأمل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

فالآيات تكون بمثابة البيان الذي تستقبله العقول عندما تخاطب عموم الناس، وتكون هدى وموعظة تستقبلها القلوب عندما تخاطب المتقين.

٣) التخلُّص من الموانع، وتخلية المحلِّ من العوارض، وهي الذنوب صغيرها كبيرها، ممتثلاً في ذلك أمر النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[1]، وخاصة ما يتعلَّق منها بحقوق العباد ومظالمهم، فإنَّ حقوق العباد بنيت على المشاحة، فتجب المبادرة إلى التوبة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٣٣٧)، في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلَّق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك.

والاستغفار من ذلك، فهي سبب علاج وسلامة وصحة في النفوس والأبدان، ومن تدبَّر القرين عرف ذلك: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

وقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على لسان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

٤) المداومة على الصلاة في أوقاتها، والمداومة على الأوراد الشرعية، والرقية والقراءة دون انقطاع، وأن تكون لديه العزيمة والإرادة والجدية في العلاج، ومن صدق الله صدقه الله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

الثاني: قوة الفاعل: والمقصود به أهلية قارئ القرآن المتدبِّر له، أو الراقي الذي يرقي به، وسواء رقى نفسه أو غيره، ويتحقق ذلك بأمور:

١) العلم: ويتضمَّن: العلم بالله وبأسمائه وصفاته، والعلم بالقرآن وآياته وسوره، وحسن قراءته وتلاوته وفهمه له، ومعرفة معاني الآيات كي يضع كلَّ آية في موضعها، ومعرفة الرقى المناسبة من الآيات القرآنية، فيقرأ للعلاج ما يتناسب مع المرض، ويكون ممن أوتي علماً بذلك.

٢) إخلاص النية، وسلامة القصد، فلا يقدح في عقيدته أن يغترَّ بأنه قوي الإيمان؛ لما يرى من أثر قراءته على الناس وانتفاعهم بالقرآن.

٣) سلامته من حظوظ النفس وشهواتها: فهو يرمي إلى نفع الناس بالقرآن، والتفريج عنهم، دون المتاجرة بالمرضى، ولا استغلال حاجاتهم وضعفهم وجهلهم.

٤) سلامة السلوك: فيكون من أهل الخير والصلاح والاستقامة على دين الله، ممن أتبع العلم العمل، ويقيم الحدود والفرائض في حياته وواقعه.

الثالث: موافقة الداء للدواء: ويقصد به أن يقرأ على كلِّ مرض ما يتناسب معه من آيات، سواء كانت مما ورد به النصّ كقصَّة اللديغ، أو من المجرَّبات النافعة التي يستشفى بها بإذن الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً؛ وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه... وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله)[(١)].

وقد ذكر العلماء شروطاً لجواز الرقية والانتفاع بها، ومنها:

أ- أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد ذلك فإنها محرمة لما فيها من الشرك، فالواجب اعتقاد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود؛ حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحد من هذه الثلاثة تخلَّف التأثير،

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢).

فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمَّ مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر)[1].

ب- ألا تتضمَّن الرقية بالقرآن معها ما يخالف الشرع، كأن تتضمَّن دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك، فإنه محرم لما فيه من الشرك.

ج- أن تكون بكلام عربي، مفهومة معلومة، فإن كانت بالقرآن، وضمَّ إليها كلاماً من جنس الطلاسم والشعوذة فإنها لا تجوز، ولا تكون بالحروف المقطعة، والكلمات المبهمة؛ وإن كانت باللغة العربية، ولا تكون على هيئة محرمة، كأن يتعمد الرقية في الحمام، أو يكتب حروف أبا جاد، أو بالنظر في النجوم وما شابه ذلك.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٥٢هـ): (وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه، وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى، واختلفوا في كونها شرطاً، والراجح أنه لا بد من اعتبار الشروط المذكورة)[2].

فمتى تمَّت هذه الشروط حصل الانتفاع بالقرآن تماماً، ومتى تخلَّف الشفاء، فلوجود علَّة غالباً منعت من ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (هاهنا أمر ينبغي التفطُّن له، وهو أنَّ الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإنَّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون

---

(١) الجواب الكافي (١٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٩٥).

لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإنَّ الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة، وهمَّة مؤثرة في إزالة الداء)[1]. والله أعلم..

المبحث السادس: أمور متوقِّفة على تدبُّر القرآن وفَهم معانيه

ثمَّة أمور في الدين والحياة متوقِّفة على تدبُّر القرآن وفهم معانيه، في المطالب التالية:

- المطلب الأول: صحَّة التدبر مرهونة بسلامة القلب، وسلامة القلب تحصل بالتدبُّر:

إنَّ سلامة القلب متوقِّفة على فهم القرآن وتدبُّره، وتدبُّر القرآن تدبراً سليماً نافعاً متوقِّف على سلامة القلب من الحظوظ والأهواء والمعتقدات الفاسدة، لذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]؛ فالمشركون الذين أصابهم الرَّين لم ينتفعوا بهذا القرآن، بل وصل بهم إلى القول بأنه شعر أو سحر[2].

وإنَّ القرآن ينادي للإيمان، كمال قال سبحانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣].

قال محمد بن كعب الْقُرَظِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٨هـ): (ليس كلُّ الناس سمع النبيّ ﷺ، ولكن المنادي القرآن)[3].

---

[1] الجواب الكافي (٩).

[2] انظر: مفهوم التدبر (١١٦) ورقة د/ فهد الوهبي، بعنوان: تحرير معنى التدبر عند المفسِّرين.

[3] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٨٠)، وابن المنذر (٢/ ٥٣٦).

ومن هنا كان تدبُّر القرآن سبب في سلامة القلوب لا يناظره فيها مصدر آخر، فهو كلام الله الذي تتصدَّع له الجبال الرواسي من شدَّة تأثيره عليها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

ولما كان الإيمان للقلب كالروح للبدن، فالقرآن روح الإيمان، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]؛ لأنَّ أهمية وجوده في القلب وتأثيره عليه، كأهمية الروح للجسد؛ بل تزيد عنها بأنَّ القلب هو محلُّ نظر الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى قدر سلامته وصحته تكون الاستقامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وسلامة القلب تحصل بالتدبُّر.. ذلك أنَّ القرآن الكريم أعظم معجزة نزلت من السماء، وإذا كانت المعجزات السابقة حِسِّية تشاهد بالأبصار، فإنَّ معجزة القرآن تشاهد بالبصائر، ويشعر بها كلُّ من تعرَّض لها.

ومع تعدد أوجه إعجاز القرآن إلا أن سرَّ إعجازه الأعظم هو "صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتَغَشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يَحُول بين النفس وبين مُضمَراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوَّلوا عن رأْيهم الأَول، وأَن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا"(١).

(١) إعجاز القرآن للخطابي (٧٠).

إنَّ ذلك كله حصل حين وجد القلب غذاءه في القرآن، لأنَّ كلاً "من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى؛ فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح فكما أنَّ البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل به تمام المقصود"[1].

إنَّ القرآن الكريم ليس مجرَّد كتاب أو دواء فحسب؛ بل هو شيء متفرِّد لا يمكن إدراك كنهه وقدرته الفذَّة على العمل والتأثير في ذات الإنسان.

إنَّ "تدبُّر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير"[2].

ولقد أثَّر القرآن تأثيراً عظيماً في نفوس مستمعيه، وأخذ بنواصي المتدبِّرين إلى النور والهداية وسلوك الطريق القويم، ومن ذلك:

- حين سمعَته الجن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢].

- ولمَّا خرج عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يريد قتل رسول الله ﷺ، سار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلمَّا وقع في سمعه القرآن لم يلبث أَن آمن، قال رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: (فلما سمعْتُ القرآن رقَّ له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام)[3].

- وبعث الملأُ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأَ عليه رسول الله ﷺ آيات من حم السجدة، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض:

---

[1] إغاثة اللهفان (١/ ٤٦).

[2] ظلال القرآن (٦/ ٣٢٧٩).

[3] انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤٧)، فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٨٣).

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[1].

- وحين قدم جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدينة ليسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر فجاء والنبي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا سمع قول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] قَالَ: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[2].

- وقدِم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعلوا يقرؤون القرآن ويبْكون، فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ)[3].

- وجاء الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ فقال: اقرأْ عليَّ، فقرأَ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]؛ فقال: أعِدْ، فأعاد النبي ﷺ، فقال: (والله إن له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لُمثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وما يقول هذا بَشَرٌ)[4].

وكلُّ من طالع القرآن الكريم قد أحس بشيء من هذا التأثير والسلطان الآسر لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سرٌّ من أسرار القرآن باقٍ ما بقيت السماوات والأرض.

"ولم يُعْرَف في تاريخ البشر أنَّ كلامًا قَارَبَ القرآن في قُوَّة تأثيره في العقول والقلوب؛ فهو الذي قلب طباع الأمة العربية، وحوَّلها عن عقائدها وتقاليدها، وصرفها عن عاداتها وعداواتها، وصدف بها عن أثرتها وثاراتها، وبدَّلها بأمِّيَّتِهَا حكمةً وعلمًا، وبجاهليتها أدباً

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٥)، السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٥٠٤).

[2] سبق تخريجه ص(١٢٠).

[3] سبق تخريجه ص(٢٤١).

[4] أخرجه الحاكم في المستدرك، (٢/ ٥٥٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٩).

رائعاً وحلماً، وألَّف من قبائلها المتفرِّقة أمَّة واحدة؛ سادت العالم بعقائدها وفضائلها، وعدلها وحضارتها، وعلومها وفنونها"(١).

- المطلب الثاني: تحصيل بركة القرآن وانتفاع القلب به:

كلام الله مبارك عظيم البركة، شرَّف الله به وجه الدهر والأيام؛ فصارت ليلة نزوله لأهل الدنيا أعظم الليالي بركة، فعظُم قدرها، وعلَت بركتها، فهي خير من ألف شهر ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:١ - ٣].

إنَّ بركة القرآن العظمى تتحقق في تدبُّره وتفهُّمه والجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه، ثمَّ في الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه(٢).

وبركة القرآن تكمُن فيما يحمله من معان عظيمة؛ تنير الطريق، وتشفي الصدور، وتُسعد العامل بها في الدنيا والآخرة.

وقد وصف الله كتابه العظيم بالبركة، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وهو أحق أن يسمى مباركاً من كل شيء لكثرة خيره ومنافعه ووجوه البركة فيه)(٣).

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٦٨).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٨).

(٣) جلاء الأفهام (٣٠٤).

وإذا حصل من الناس التدبُّر والانتفاع، حصلت لهم من البركات وعمَّتهم الخيرات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وإذا أعرضوا وكفروا محقت بركات الأرض الطيبة وصارت بوراً: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٦-١٧].

"وكلما تدبَّر الإنسان هذا القرآن العظيم، وتذكَّر بما فيه، فإنه تحصل له بركته عليه في عمره وفي عمله، وفي يقينه وفي جميع أحواله، وإذا أردت أن تأخذ شاهداً على هذا، فانظر إلى أعمار من سبقنا من سلف في هذه الأمة، كيف يحصلون على الخير العظيم؟! ونتعجَّب كيف يكتبون هذا الشيء، فضلاً عن الإعداد له، وما يسبقه من تهيئة أبدانهم وقلوبهم وأفكارهم، كلُّ هذا ببركة هذا القرآن العظيم، فعليك أن تشدَّ يديك به، وأن تعضَّ عليه بالنواجذ، وأن تعلم أنك متى عملت به في ما وجّهه الله من تدبر آياته وتذكره، فإنك ستنال السعادة في الدنيا والآخرة"[(١)].

وبركات القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها، وتتجلَّى في أمور كثيرة منها:

١ – أنه شفاء لما في الصدور، إذا قرأه الإنسان بتدبُّر وتفكر؛ فإنه يشفي القلب من المرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وهو شفاء أيضاً من أمراض الأبدان، فمن قرئت عليه الفاتحة برئ من اللدغة كأنما نشط من عقال، فالبركة فيه من كل وجه.

---

(١) التعليق على القواعد الحسان لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦-١٧).

٢- أنَّه سبب لرفعة أهله وتميُّزهم في الدنيا والآخرة، كما ثبت عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[(١)].

ومن الرفعة في الدنيا: أنَّ صاحبَه مقدَّم على الناس في أمور كثيرة، منها الإمامة للصلاة، كما ثبت من حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله**»[(٢)].

وقدَّم النبي ﷺ أهل القرآن في اللحد عند دفنهم[(٣)].

ومن الرفعة في الآخرة: أنَّ الله تعالى يرفع صاحبه به درجات بكل آيةٍ كان يحفظها في الدنيا، كما جاء في حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[(٤)].

٣- ومن بركاته: أنه طريق الهداية، ولذا وصفه الله بأنه هدى وبيان ونور يكشف الظلمات ويبصر المؤمن بسبل الخير، قال سبحانه مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٩].

---

(١) سبق تخريجه ص(١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٦٧٣) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة.

(٣) كما في حديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ. أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٤٣) في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، وبرقم: (١٣٤٧) باب من يقدم في اللحد، وبرقم: (١٣٥٣) باب اللحد والشق في القبر، وبرقم: (٤٠٧٩) في كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد.

(٤) سبق تخريجه ص(١٩٣).

وهو سبب عظيم للثبات على الهداية: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وهو مبارك في اتباعه؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٧٦هـ): (فاستخراج بركة القرآن - التي من أهمها حصول الإيمان - سبيله وطريقه تدبر آياته وتأملها، كما ذكر أنَّ تدبُّره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه)[١].

٤- أنه جالب لكل خير، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل:٣٠].

٥- ومن بركاته: حصول الرحمة به، ولذا قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، ووصفه الله تعالى بأنه رحمة كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧].

٦- مبارك في آثاره العظيمة؛ فقد فتح المسلمون بالقرآن بلاداً كثيرة حين تدبَّروا قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

وقد حقَّق المسلمون ذلك حين أقاموا القرآن في حياتهم، ولو فعل المسلمون اليوم ذلك لملكوا الدنيا شرقاً وغرباً.

وقد بلغ ملك الأمة المحمدية ببركة هذا القرآن؛ مشارق الأرض ومغاربها وسيبلغ هذا الدين كل بيت وَبَر ومدَر بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل[٢].

---

[١] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (٧٥).

[٢] مصداق ذلك حديث تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ =

٧- من بركات القرآن: أنَّ من قرأه؛ فله بكل حرف عشر حسنات، كما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[1]؛ فيحصِّل المسلم خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عَزَّوَجَلَّ[2].

ومن بركة القرآن المتعلِّقة بذلك: أنَّ من قرأه لا يحرم أجره حتى لو لم يكن يعرف معناه، فالأعجمي الذي لا يعرف العربية لو قرأ القرآن دخل في عموم أجر القراءة.

٨- من بركات القرآن: أنَّ آياته ليست محصورة في زمان أو مكان بل هي ممتدة صالحة لكل زمان ومكان، ولذا صار تأثيره وأثره باقياً ما شاء الله له.

٩- من بركات القرآن: صرف النفس عن السوء ودفعها إلى الخير، وذلك لمن يقرأ القرآن موقناً به متدبِّراً له، فإنَّ له إضافة لثواب القراءة؛ ما يفيضه الله على روحه من نور المعرفة وحبِّ الآخرة.

١٠- من بركات القرآن: أنه يبارك الأعمار ويزكي الأعمال فلا تجد قلباً حواه، ولا عقلاً وعاه إلا بارك الله في عمره وعمله، وإنك ترى من بركة القرآن في حفظ الوقت والتسديد في الأقوال والأعمال لأهل القرآن ما ليس لغيرهم.

ومن شواهد ذلك قديماً: وصية إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦١٤هـ)[3]،

الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ». أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢٨/ ١٥٤) برقم: (١٦٩٥٦)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٧٩) برقم: (٩٥١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٧) برقم: (٨٣٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٠٥) برقم: (١٨٦١٩)، وصححه الألباني في تحذير الساجد (١٢١).

[1] سبق تخريجه ص(١٥١).

[2] انظر: شرح العقيدة الواسطية لشيخنا محمد بن عثيمين نور الله ضريحه (٤٣٧-٤٣٨).

[3] **إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي**= الجماعيلي، نزيل سفح قاسيون، وأخو الحافظ عبد الغني، الإمام، العالم، الزاهد، القدوة، الفقيه، عماد الدين، من خيار العلماء، وأعظمهم نفعاً، وأشدهم ورعاً، =

للضياء المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٤٣هـ)[١] في رحلته لطلب العلم: (أَكْثَر من قراءة الْقُرْآن، ولا تتركه فَإِنَّهُ يتيسر لَك الَّذِي تطلبه عَلَى قدر مَا تقرأ، قَالَ: فرأيت ذَلِكَ وجربته كثيراً، فكنت إِذَا قرأت كثيراً تيسَّر لي من سماع الْحَدِيث وكتابته الكثير، وإذا لَمْ أقرأ لَمْ يتيسر لي)[٢].

ومن أخبار المعاصرين في ذلك:

قال مصطفى الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٦هـ): (وقد زرت الأستاذ الخضري[٣] في وزارة المعارف، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية، وجعل يثبتني بقوة في الكرسي، كأنه لم يطمئن بعد إلى أني جلست، ثم فاض بكلام كثير، فكان فيما قاله: أنا الآن أعيش في غير زمني،... وقال لي: إنه يجلس إلى مكتبة في كل يوم ست ساعات، يقرأ ويؤلف أو ينسخ؛ لأن كلُّ كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم، قال: ولا يعتريه البرد ولا مرض من أمراضه، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة، وقال: إنَّ كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن)[٤].

والأخبار في ذلك كثيرة مستفيضة.

وأكثرهم صبرا على التعليم، داعية إلى السنة، قدم بغداد، وأقام بدمشق مدة، توفي سنة أربع عشرة وست مائة. انظر: تاريخ بغداد (١٥/ ١٣١)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٤٧)، ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ١٩٨).

[١] **الضياء المقدسي**= محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن، الإمام، الحافظ، القدوة، ضياء الدين، أبو عبد الله السعدي، المقدسي، الجماعيلي، ثم الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة، ولد بقسيون، ورحل للمشرق سنين، عالم جهبذ، له تصانيف مشهورة، منها فضائل الأعمال، توفِّي سنة ثَلَاث وَأَرْبَعين وست مائَة وَله أَربع وَسَبْعُونَ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٦)، الوافي بالوفيات (٤/ ٤٨).

[٢] ذكره ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠٥).

[٣] **الشيخ الخضري**= محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري: من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام. عين قاضيا في الخرطوم، وأستاذا للتاريخ في الجامعة المصرية، ومفتشا بوزارة المعارف. توفي ودفن بالقاهرة سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وأربعين للهجرة. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٦٩).

[٤] وحي القلم (٣/ ٣١٠) بتصرف يسير.

والعبرة في القراءة ليست بكثرة ما يقرأ؛ وإنما في البركة والنفع بما يقرأ ولو كان يسيراً، فالقرآن لم ينزل بركة على النبي ﷺ بألفاظه مجردة عن المعاني، بل إنَّ بركة القرآن في العمل به، واتخاذه منهجًا في الحياة يضيء سبيل السالكين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره)[١].

فالقرآن كتاب مبارك؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣ هـ): (هذا الكتابُ مباركٌ، أي: كثيرُ البركاتِ والخيراتِ، فَمَنْ تَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ به غمرته الخيراتُ في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سَمَّاهُ اللهُ مُبَارَكًا فهو كثيرُ البركاتِ والخيراتِ قَطْعًا، وكان بعضُ علماءِ التفسيرِ يقول: اشْتَغَلْنَا بالقرآنِ فَغَمَرَتْنَا البركاتُ والخيراتُ في الدنيا، تَصْدِيقًا لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]، ونرجو أن يكونَ لنا مِثْلُ ذلك في الدنيا. وهذا الكتابُ المباركُ لا يُيَسِّرُ الله للعملِ به إلا الناسَ الطَّيِّبِينَ المُبَارَكِينَ، فإنه كثيرُ البركاتِ والخيراتِ؛ لأنه كلامُ رَبِّ العالمين؛ إذا قَرَأَهُ الإنسانُ وتدبرَ معانيه ففي كُلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ في القراءةِ، إذا تَدَبَّرَ معانيه عَرَفَ منها العقائدَ التي هي الحقُّ، وعرفَ أصولَ الحلالِ والحرامِ، ومكارمَ الأخلاقِ، وأهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ، وما يصيرُ إليه الإنسانُ بعدَ الموتِ، وما يُسَبِّبُ له النعيمَ الأبديَّ، وما يسببُ له العذابَ الأبديَّ، فكله خيراتٌ وبركاتٌ؛ لأنه نورٌ يُنِيرُ الطريقَ التي تُمَيِّزُ بين الحسنِ من القبيحِ، والنافعِ من الضارِّ، والباطلِ من الحقِّ، فهو كُلُّهُ خيراتٌ وبركاتٌ، مَنْ عَمِلَ به غمرته الخيراتُ والبركاتُ في الدنيا والآخرةِ، وأصلحَ له اللهُ الدَّارَيْنِ)[٢].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٧٠).

(٢) العذب النمير من مجالس الشيخ الشنقيطي في التفسير (١/ ٧).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢]، قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٨٥هـ): (إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب، وهذا الكتاب الجديد، الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك، وصدق الله، فإنه والله لمبارك.. مبارك بكل معاني البركة.

إنه مبارك في أصله، باركه الله وهو ينزله من عنده.

ومبارك في محلِّه الذي علم الله أنه له أهل؛ قلب محمد الطاهر الكريم الكبير.

ومبارك في حجمه ومحتواه، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كلِّ فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإنَّ الذي مارس فنَّ القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فنَّ القول ولا يعالجون قضايا التعبير؛ أنَّ هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية، وأنَّ هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز- ولا في أضعاف أضعافه- عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات، وأنَّ الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرِّداً لا نظير له في كلام البشر.

وإنه لمبارك في أثره، وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل: ذلك أنَّ به من الله سلطاناً، وليس في قول القائلين من سلطان.

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب، وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه ﴿مُبَارَكٌ﴾ ففيها فصل الخطاب)[1].

إنَّ من اعتقد أنَّ هذا الكتاب العظيم هو الجد ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٤]، وأيقن أنه حق وموعظة وشفاء وهدى فأخذه بحقه، وأقامه في حياته وشأنه، وامتلأ قلبه بهذا المعنى، فأقبل عليه بقلب صادق، ونفس مستشرفة؛ رُزِق بركة القرآن، ووجد بغيته وحاجته فيه.

وإنَّ بركة القرآن على أهله المتدبِّرين العاملين واضحة جليَّة، وأقوال العلماء وتجاربهم شاهدة على أنَّ هذا الكتاب العزيز لا تفنى معجزاته ولا تنقضي حججه؛ فاللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك.

- المطلب الثالث: تنازع عظم أجر التلاوة، مع أجر التدبُّر:

هذه المسألة مما يكثر السؤال عنها عند ذكر التدبُّر وتلاوة القرآن، أيها أفضل: التلاوة بقصد تحصيل أعظم قدر من الأجر؟ أم القراءة المتأنية الخاشعة، المقصود منها حصول التدبُّر وفهم القرآن؟. وقد ذهب العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: ذهب بعضهم إلى أنَّ كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[2].

واستدلوا أيضاً بأنَّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ القرآن في ركعة[3].

---

[1] في ظلال القرآن (٢/ ١١٤٧).

[2] سبق تخريجه ص(١٥١).

[3] **ضعيف**. أخرجه عنه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤٣) برقم: (٨٥٩١)، والمروزي في قيام الليل (١٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٤٨) برقم: (١٨٣٧٨).

=

وذكروا آثارا عن جماعة من السلف في كثرة القراءة.

القول الثاني: أنَّ قلَّة القراءة مع التدبُّر أولى من كثرتها دون تدبُّر، وأنَّ أجر التلاوة يُرجى بأداء التلاوة، ولكن عِظم الأجر يُرجى بمزيد التدبُّر والاعتبار بما يتلوه القارئ.

واستدلُّوا لذلك بجملة من الأحاديث والآثار وأقوال السلف في ذلك.

ومن ذلك: أنَّ النبي ﷺ كان يقرأ القرآن قراءة هادئة، مترسلة، كما أمره ربه بقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦].

وقول الله له: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

فكان ﷺ يقرأ بالسورة فيرتِّلها حتى تكون أطول من أطول منها، كما ثبت من حديث حديث حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا (١).

وكانت قراءة رسول الله ﷺ مفسَّرة حرفًا حرفًا، كما وصفتها أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا (٢).

وروى القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٨٢) نحوه عن تميم الداري أنه قام بالقرآن في ركعة، وروى الترمذي في سننه (٥/ ١٩٦) برقم: (٢٩٤٦) ذلك أيضاً عن سعيد بن جبير، قال الشيخ الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣٥٧) معلِّقاً: (وروي عن عثمان بن عفان: أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وروي عن سعيد بن جبير، وقد أحسن الإمام الترمذي برواية هذا الخبر والذي بعده بصيغة التضعيف، لأن الركعة مهما طالت لا يمكن أن يقرأ فيها القرآن الكريم كاملاً، فضلاً عما في ذلك من مخالفة لسنة رسول الله ﷺ في الركوع والسجود والقيام، وحاشا لسيدنا عثمان أن يفعل مثل ذلك).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٣٣) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً، وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً.

(٢) سبق تخريجه ص(٥٨).

وكان ﷺ يمدُّ الحروف في نهاية الآية[1] ليسمح للعقل بتفهُّم الخطاب الإلهي، وللقلب بالتجاوب معه، والاتعاظ به، فإذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة دعا واستبشر، وإذا مر بآية فيها ذكر النار استعاذ بالله منها[2].

وظلَّ ﷺ ليلة كاملة يردد آية واحدة، كما روت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً[3].

وما رواه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى أَصْبَحَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨][4].

وكان ﷺ حريصًا على قراءة القرآن كل يوم، ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩١- ٩٢].

ولم يُؤثَر عنه ﷺ أنه قرأ القرآن كلَّه في ليلة واحدة[5].

ومما يؤكد هذا المعنى ما ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ؛ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ)[6].

---

(١) لحديث أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري أنه سُئِلَ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، وسبق تخريجه ص(٥٨).

(٢) انظر: تحقيق الوصال بين القلب والقرآن، لمجدي الهلالي (٦٣).

(٣) سبق تخريجه ص (٥٦).

(٤) سبق تخريجه ص (٥٦).

(٥) أخرج الصنعاني في المصنف (٣/ ٣٩) برقم: (٤٧١٤)، وابن راهويه في مسنده (٣/ ٧١٣) برقم: (١٣١٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٢٤) عن أم المؤمنين عائشة ل قالت: (لا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح)، وهي أخبرت عن علمها ل.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٧٥) في كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في ركعة، وبرقم: =

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٤هـ): (وأنَّ هذا كان قدْر قراءته غالباً، وهو نحو قوله: «قدر خمسين آية»، وأن تطويله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الوارد إنما كان في التلاوة والترتيل والتدبُّر، وما ورد من غير ذلك في قراءته في ركعة البقرة والنساء في حديث ابن مسعود؛ فنادر)[1].

ولذلك كان كثير من السلف يحرصون على التدبُّر وإطالة القراءة، وربما ظَلَّ أحدهم يردد الآية الواحدة إلى الصباح كما فعل النبي ﷺ، وقد ورد ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ[2].

وسُئِلَ مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٦هـ) عن رجلَين: قرأ أحدهما البقرة وآل عمران، والآخر قرأ البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما سواء، قال: (الذي قرأ البقرة وحدها أفضل، وقرأ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء:١٠٦])[3].

وعن مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٨هـ) أنَّه قَال: (لَأَنْ أَقْرَأَ فِي لَيْلَتِي حَتَّى أُصْبِحَ بـ: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِمَا، وَأَتَرَدَّدُ فِيهِمَا وَأَتَفَكَّرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهُذَّ الْقُرْآنَ لَيْلَتِي هَذًّا) أَوْ قَالَ: (أَنْثُرُهُ نَثْرًا)[4].

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٦٠هـ): (والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبُّره أحبَّ إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبُّر، ولا تفكُّر فيه، وظاهر القرآن يدلُّ على ذلك،

(٤٩٩٦) في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، وبرقم: (٥٠٤٣) باب الترتيل في القراءة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨٢٢) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذّ، وهو الإفراط في السرعة، وإباحة سورتين فأكثر في ركعة.

[1] إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣/ ١٩٧-١٩٨).

[2] سبق في المبحث الخامس من الفصل الأول، الكلام عن تكرار الآيات وترديدها.

[3] سبق تخريجه صفحة (١٧٣).

[4] سبق تخريجه ص(٢٦٠).

والسنة وقول أئمة المسلمين)[1].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (اعلم أنَّ تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بالتدبُّر)[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ثواب قراءة الترتيل والتدبُّر أجلُّ وأرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً، فالأول: كمن تصدَّق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً، والثاني: كمن تصدَّق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة)[3].

وقال أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فقراءة آيَة بتفكُّر وتفهُّم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعى الى حُصُول الايمان وذوق حلاوة الْقُرْآن)[4].

ولا شك أنَّ اعتبار الكيفية أولى من اعتبار الكمِّية؛ إذ جوهرة واحدة تعدل الوفاء من الدراهم والدنانير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ولا يخفى على أولي الألباب أنَّ المقصود بنزوله اتباعه، والعمل بما فيه، إذ العاملون به هم الذين جُعِلوا أهله، وأنَّ المطلوب من تلاوته تدبُّره، وفهم معانيه، ولذلك أمر الله بترتيله والترسُّل فيه، ليتجلَّى أنوار البيان من مشارق تبصرته، ويتحلَّى بآثار الإيمان من حقائق تذكرته)[5].

وقال ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٣٣هـ): (والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف والخلف، وهو أنَّ الترتيل والتدبُّر مع قلَّة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأنَّ المقصود

---

(١) أخلاق أهل القرآن (١٦٩).

(٢) الأذكار للنووي (١٠١).

(٣) زاد المعاد (١/ ٣٢٨)، ووافقه ابن الجزري ونقله. انظر: النشر في القراءات العشر (١/ ٢٠٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٥) قاعدة في فضائل القرآن (٥٤).

من القرآن فهمه والتفقُّه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه)[1].

والذي يظهر من خلال استقراء النصوص الواردة في فضل التلاوة، وفعل السلف وحالهم، وأقوال الأئمة المعتبرين: أنَّ الأولى أنْ يكون للمسلم قراءتان:

- قراءة ختمة بترتيل وفهم عام وحضور قلب أثناء التلاوة.

- وقراءة خاصة للتدبُّر والنظر والفهم والتطبيق.

ولا يعني في القراءة الأولى أن يقرأ القارئ القرآن هذّاً لا يفهم منه شيئاً، فإنَّ هذا داخل في النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦]، وفي مثل كلام ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (لاَ تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ)[2]، بل هي قراءة متأنية بحضور قلب، وصفاء ذهن، يفهم منها القارئ الحد الأدنى مما يقرأ.

وأما القراءة الثانية فهي التي يستفرغ فيها المسلم عمره وجهده لتكون مشروع حياة، وقد تستغرق سنوات من التدبُّر والفهم والتطبيق والعمل، وهي بنحو فعل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تعلَّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، وكذا فعل ابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حين قرأ البقرة في ثمان سنين[3]، فهي قراءة تدبُّر وفهم، لا قراءة سردٍ وعجلة. والله أعلم.

- المطلب الرابع: ترتيب أولويات طلب العلوم:

فإنَّ قراءة القرآن بلا تدبُّر قد تكون مفضولة، ومع التدبُّر تكون الفاضلة المقدَّمة لأنها أنفع لطالب العلم[4].

وإنَّ مفتاح علوم الشريعة كلها تدبُّر القرآن وفهمه، لأنه يحيي القلب أولاً، ويؤصِّل

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) سبق تخريجه ص(١٧٣).

(٣) سبق تخريجه ص(٢٤١).

(٤) انظر: تدبر القرآن - سلمان السنيدي (٤٤).

المسلم على قواعد الشريعة العظيمة، ويؤسسه على التوازن والاعتدال، ويمنحه الملَكة التي يستطيع بها استيعاب العلوم الشرعية المتنوعة.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) عن تكرار القرآن والفقه: أيهما أفضل وأكثر أجراً؟ فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الحمد لله، خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وكلام الله لا يقاس به كلام الخلق فإنَّ فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

وأما الأفضل في حقِّ الشخص: فهو بحسب حاجته ومنفعته؛ فإن كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلى تعلُّم غيره فتعلُّمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلى تكرارها، وكذلك إن كان حفِظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلى علم آخر.

وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه وهو لا يفهم معانيه فتعلُّمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه، وأما من تعبَّد بتلاوة الفقه فتعبده بتلاوة القرآن أفضل، وتدبُّره لمعاني القرآن أفضل من تدبُّره لكلام لا يحتاج لتدبُّره، والله أعلم) [١].

والتدرُّج في طلب العلم أصل مهم، ومنهجية ينبغي مراعاتها وعدم تجاوزها.

وإذا تعلَّم طالب العلم ما وجب عليه عيناً مما يقيم أمر صلاته وعباداته، فإن أولَ ما يبدأ به طريق العلم بعد ذلك؛ حفظُ القرآنِ الكريم وضبطُه وفهمه وتدبُّره، لأنه أصلُ العلومِ وأشرفُها، وسائرُ علومِ الشريعةِ تفيءُ إليه وترجع.

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٦٣هـ): (طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعدَّاها جملة فقد تعدى سبيل السلف ﷺ ومن تعدَّى سبيلهم عامداً ضلَّ، ومن تعداه مجتهداً زل، فأول العلم حفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وتفهُّمه، وكل ما يعين على فهمه

---

[١] مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٥-٥٦).

فواجب طلبه معه، ولا أقول: إنَّ حفظه كله فرض، ولكني أقول: إنَّ ذلك شرط لازم على من أحبَّ أن يكون عالماً فقيهاً ناصباً نفسه للعلم ليس من باب الفرض)[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (القرآن أصل العلم فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان ذلك له عونا كبيرا على مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ...)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدَّم على كثير مما تسمِّيه الناس علماً: وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضاً مقدَّم في التعلُّم في حق من يريد أن يتعلَّم علم الدين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقِّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين)[(٣)].

وقال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٣هـ): (يبتدئ أولاً بكتاب الله فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصل العلوم وأمُّها وأهمَّها)[(٤)].

والسلف الصالح ﷺ ما كانوا يبدؤون بطلب أي نوع من أنواع العلوم قبل أن يتمُّوا حفظ كتاب الله جلَّ وعلا وفهمه وتدبُّره، إذ لا يتصوَّر أن يتجاوز المتعلِّم كتاب الله ثم يبتغي بعد ذلك العلم، والقرآن هو أصل العلوم، ومنبع الهدى، والآيات البينات التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ وأودعها في صدور أهل العلم: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وكان العلماء لا يأذنون لطلابهم أن يبدؤوا بشيء قبل القرآن، ومن أخبارهم في ذلك:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٤).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم (٢١٥).

- ما حكاه عبد الملك بن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ)[١] قال: (أتيت عطاء -يعني ابن أبي رباح (١١٤هـ)- وأنا أريد هذا الشأن-يعني طلب العلم-، وعنده عبدالله بن عبيد بن عمير (١١٣هـ)[٢]، فقال لي عبد الله بن عبيد: قرأتَ القرآن؟ قلت: لا، قال: فاذهب فاقرأ القرآن ثمَّ اطلب العلم، فغبَّرت زماناً حتى قرأت القرآن)[٣].

- وعن أبي العيناء رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨٣هـ)[٤] قال: (أتيت عبدالله بن داود الخريبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١١هـ)[٥]، فقال: ما جاء بك؟ قلت: الحديث. قال: اذهب فتحفَّظ القرآن. قلت: قد حفظتُ القرآن، قال: اقرأ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس:٧١]، فقرأت العُشر حتى أنفذته)[٦].

---

[١] **عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج**= المكي، مولى أمية بن خالد، سمع الكثير من عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وروى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري، والأوزاعي، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، وكان من أوعية العلم، شيخ الحرم، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة. توفي سنة خمسين ومائة. انظر ترجمته: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩٩)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥).

[٢] **عبد الله بن عبيد بن عمير**= الليثي، يكنى: أبا هاشم، روى عن عائشة وابن عباس وابن عمر، وثقه أبو حاتم، توفي بمكة، سنة ثلاث عشرة ومائة. انظر ترجمته: الطبقات الكبرى (٥/ ٤٧٤)، التاريخ الكبير (٥/ ١٤٣)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٧).

[٣] أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٠١)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٧).

[٤] **أبو العيناء** = محمد بن القاسم بن خلاد اليمامي، مولى بني هاشم، يكنى أبا عبد الله، وأبو العيناء لقب له، وكان ضريراً، وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا، وأسرعهم جوابا، وأحضرهم نادرة، ولم يسند من الحديث إلا القليل، والغالب على روايته الأخبار والحكايات، وتوفي بالبصرة سنة اثنتين وثمانين ومائتين. انظر: معجم الشعراء للمرزباني (٤٤٨)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٨٩)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٠٨).

[٥] **عبد الله بن داود الخريبي**= من همدان، أصله من الكوفة، كان ينزل الخريبة من البصرة فينسب إليها، ومولده بالكوفة، كان ثقة، عابدا، ناسكا، مات سنة إحدى عشرة ومائتين، وقيل: سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: الثقات لابن حبان (٧/ ٦٠)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٦).

[٦] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨/ ٣٠)، والذهبي في السير (٩/ ٣٥١).

- وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢٧هـ): (لم يدعني أبي أشتغل في الحديث، حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان الرازي (٢٩٠هـ)[١]، ثم كتبت الحديث)[٢].

وهذه نماذج من أحوالهم مع تعلُّم القرآن وتدبُّره، وأنه أساس تحصيل العلوم كلها، والواجب بالبدء به في الأمر كله. والله أعلم.

- المطلب الخامس: مدَّة ختم القرآن الكريم:

فإنَّ فضيلة ختمه مترتبة على فهمه، وتدبُّره، وتأثُّر القلب به، ولم يرد حدٌ مؤقتٌ في السنَّة لأكثر مدَّة ختمه.

والأكمل والأرجى للتدبر والقراءة المعتدلة؛ أن يكون ختمه كلَّ شهر، عملاً بوصية النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**اقْرَأ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ**» قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، حَتَّى قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ**»[٣].

وعرف من الحديث أنَّ أقلَّ وقت للختم سبع ليال، لقوله ﷺ في الحديث: «**فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ**»، وعلى هذا كان فهم السلف الصالح ﷺ.

فمن ذلك ما جاء عن زيد بن ثابت أنه سئل عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي سَبْعٍ؟، فقال زيد: (حَسَنٌ، وَلَئِنْ أَقْرَأَهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ عِشْرِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَسَلْنِي لِمَ ذَاكْ؟ فَقَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ؟ قَالَ زَيْدٌ: لِكَيْ أَتَدَبَّرَهُ، وَأَقِفَ عَلَيْهِ)[٤].

---

[١] **الفضل بن شاذان الرازي**= بن عيسى، أبو العباس الرازي المقرئ، شيخ الإقراء بالري، حدث عنه: أبو حاتم، وابنه عبد الرحمن وقال: ثقة، وقرأ عليه: ابنه العباس بن الفضل، وقال عنه أبو عمرو الداني: لم يكن في دهره مثله في علمه وفهمه، وعدالته، وحسن اطلاعه، توفي في حدود سنة تسعين ومائتين. انظر: معرفة القراء الكبار (١٣٦)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٨٥).

[٢] ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٥)، والسبكي في طبقات الشافعية (٣/ ٣٢٥).

[٣] سبق تخريجه ص(٥٤).

[٤] سبق تخريجه (٢٣٠).

والذي يظهر من خلال استقراء نصوص السنة وما ورد عن السلف الصالح في ذلك: أنَّ مدَّة ختم القرآن متوقِّفة على حال الإنسان وفراغه وشغله، فهي تتفاوت من شخص لآخر، ومن زمان ومكان لآخر، وذلك لأمور:

الأول: ما علَّل به النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[(١)].

فدلَّ على أنَّ النبي ﷺ راعى حاله، ونهاه أن يختم في أقلَّ من سبع ليال، حتى لا يضيِّع مسؤولياته وواجباته التي أوجبها الله عليه.

وتدبُّر القرآن يحتاج إلى فراغ وصفاء ذهن، وكلَّما أعطى الإنسان القرآن وقته كلَّما ظهر له من تدبُّره والتأمل فيه ما يدفعه لفهمه والعمل به.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧٦هـ): (والاختيار أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين، ومصالح المسلمين العامة؛ فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدِّ الملل والهذرمة)[(٢)].

الثاني: أنَّ الوصية هنا لعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو صاحب لسان عربي فصيح، يتقن فهم اللغة ويحسن معرفة القرآن، فكيف يقال لمن استعجمت ألسنتهم، وضعفت أفهامهم -في الأزمنة المتأخرة- عن إدارك معاني القرآن، أنَّه يمكنهم ختم القرآن وتدبُّره في المدَّة التي كان يختم فيها أولئك!.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١١٥٩) في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوَّت حقاً.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (٦١).

الثالث: ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ) وغيره أحوال السلف في ختم القرآن، وذكر عن بعضهم أنه يختم في كل شهرين ختمة، والبعض في كل شهر ختمة، والبعض في عشر ليال ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان، وعن الأكثرين في كل سبع ليالٍ، وبعضهم في كل ستة، وعن بعضهم في كل خمس، وعن بعضهم في كل أربع، وعن بعضهم في كلِّ ثلاث ليال ختمة، وعن بعضهم في كلِّ ليلتين، وختم بعضهم في كلِّ يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ختمتين، ومنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ثلاثاً، وختم بعضهم ثمانِ ختمات أربعاً بالليل وأربعاً بالنهار.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة من أسماء من يفعل ذلك من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم في كل نوع من هذه الأنواع[١].

والأفضل ألا يختم القرآن في أقل من ثلاثة أيام، إلا في مكان وزمان فاضلَين.

ويحمل ما ورد في النهي عن الختمة في أقلَّ من ثلاثة أيام على معنى خاص؛ كالمداومة على ذلك، أو في أيام السنة التي لا مزية فيها؛ أما في الأزمان الفاضلة كشهر رمضان وغيره، فلا حرج على المسلم في ختم القرآن بأقلَّ من ثلاث لأنَّ الأفضل في الزمان والمكان الفاضل؛ الإكثار من العبادة مع إقبال النفس وانشراحها لعمل الخيرات.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٥هـ): (وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقلَّ من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضَّلة كشهر رمضان -خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر-، أو في الأماكن المفضلة -كمكة لمن دخلها من غير أهلها- فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن؛ اغتناماً للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدلُّ عمل غيرهم)[٢].

---

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (٥٩-٦٣).

(٢) لطائف المعارف (١٧١).

وكان الأسود النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥هـ)[١] يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين[٢].

وكان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان، ختم في كل ثلاث، فإذا جاء العشر، ختم كل ليلة[٣].

وكان علي الأزدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] يختم القرآن في رمضان كل ليلة[٥].

وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ) يختم القرآن في رمضان ستين ختمة[٦].

وكان ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٧١هـ) مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كلَّ جمعة، ويختم في رمضان كلَّ يوم[٧].

وقد كره بعض الفقهاء تجاوز مدَّة الشهر من غير ختم القرآن، والصحيح أنه لا يكره ذلك لأنَّ هذه الأحاديث خرجت مخرج الأفضلية والاستحباب.

---

(١) **الأسود بن يزيد** = بن قيس، أبو عمرو النخعي، وهو خال إبراهيم النخعي، كان الأسود مخضرماً، أدرك الجاهلية والإسلام، وحدث عن: معاذ بن جبل، وبلال، وابن مسعود، وعائشة، وطائفة حج ثمانين، من بين حجة وعمرة، كان صواماً، قواماً، حجاجاً، توفي سنة خمس وسبعين. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ١٤).

(٣) ذكره عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧٦).

(٤) **علي بن عبد الله بن سعد** = الأزدي البارقي، وبارق جبل كَانَ ينزله الأزد فنسب إِلَيْهِ، كنيته أَبُو عبد الله، من التابعين، روى عَن ابن عمر فِي الْحَج، ولم أقف على تاريخ وفاته. انظر: التاريخ الكبير (٦/ ٢٨٣)، رجال صحيح مسلم (٢/ ٥٨)، تهذيب الكمال (٢١/ ٤٠).

(٥) أخرجه عنه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤٣)، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات (٥/ ١٦٥)، وفي مشاهير علماء الأمصار (١٥٢).

(٦) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٣٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣٩٣)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٦).

(٧) ذكره عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٤/ ٨٤)، وفي السير (٢٠/ ٥٦٢).

والمقصود أنه ينبغي للمسلم أن يتعاهد القرآن، ويكون كثير المدارسة له ولا يهجره فيكون بعيدَ العهد به.

وينبغي للمسلم أن يجعل له وردٌ من القرآن؛ يقرؤه في ليل أو نهار، سواء كان ذلك داخل صلاة النفل أو خارجها لحديث أَبِي مُوسَى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»[1].

وقد كان الصحابة يواظبون على قراءة حزب معين كل ليلة وآثارهم في ذلك كثيرة، ولم يرد في الشرع قدر محدد من السور أو الآيات يقرؤها كل ليلة، والأمر في ذلك واسع، راجع إلى حال الإنسان وقدرته ووقته، وقد أطلق النبي ﷺ الحزب ولم يقيده بقدر في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»[2].

ولا بأس أن يحدد ورده من باب التنظيم والاجتهاد في الختم؛ فإن نشط في بعض الليالي طوَّل القراءة، وإن كسل قصَّرها، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، والأمر في ذلك واسع.

ويمكن أن يقال: إنَّ حال كلِّ أحد بحسبه معتبرة في المدَّة التي يختم فيها القرآن، ولو جعل المرء له ختمتين، ختمة على طريقة الورد اليومي الذي يداوم عليه ويختمها في كل شهر، وختمة أخرى يعتبر فيها حاله وصفاءه، وهي ختمة التدبُّر والتفكُّر وفهم القرآن فهو أحسن، والله أعلم..



---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٩١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهية قول: نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٤٧) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض.

المبحث السابع:

الآثار الإيجابية المترتبة على التدبُّر في حياة الفرد والأمة

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الآثار الإيجابية المترتبة على التدبُّر في حياة الفرد:

١) إتقان القرآن وفهم معانيه والعمل به.

٢) تحصيل بركة القرآن الكريم.

٣) حصول الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة:

٤) تحقيق الإيمان في نفوس أفراد الأمة.

٥) بناء الشخصية المسلمة المتوازنة (نفسياً واجتماعياً).

وقد جعلت الحديث حولها بين إيجاز وتفصيل على النحو التالي:

١) إتقان القرآن وفهم معانيه والعمل به:

من أعظم الآثار الإيجابية التي تترتب على تدبُّر القرآن الكريم إتقان القرآن وسهولة فهم معانيه، وتيسير حفظه على المسلم ليعمل به في حياته كلها.

وذلك أنَّ التدبُّر يحصل بعد الفهم العام لمعنى الآية، فمن وقف على آية يتدبَّرها بلغ الفهم الصحيح لها، فإذا استقرَّ الفهم لمعناها سهل رسوخها وحفظها وإتقانها.

ومن نظر في حال السابقين؛ وجد أثر التدبُّر عليهم، بتيسير إتقان القرآن، وتسهيل فهمه وحفظه، وحرصهم أن يدفعهم ذلك للعمل به.

ومن ذلك أنَّ أبا العباس بن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٠٩هـ)[١] كان متأدباً بآداب القرآن، وكان له كل يوم ختمة، وبقي في ختمة يستنبط مُوْدَعَ القرآن بضع عشرة سنة، يستروح إلى معاني مودعها، فمات قبل أن يختمها يتفهم ويتدبَّر[٢].

ما يدلُّ على أنَّ طول المدة كانت بسبب التدبُّر وفهم القرآن، واستنباط معانيه، ثمَّ العمل به، وكان أثر ذلك واضحاً في سيرهم.

وتدبُّر القرآن الكريم هو الباب لتطبيق القرآن وأوامره وأحكامه تطبيقاً حقيقياً، فإنَّ الإيمان إذا استقرَّ في النفوس تُرجمَ إلى أقوال وأفعال وسلوك صالح، حالهم حال من وصفهم الله بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة:١٥].

و"ليس الغرض من التدبُّر مجرَّد الترف العلمي، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصُّل إلى كشف المعاني للتعالي بمعرفتها واكتشافها، وإنما وراء الفهم غرض التذكُّر والعظة، والعمل بموجب العلم، وهذا التذكُّر المقصود لا يحظى به إلا أولو الألباب، وهم أهل العقول الحصيفة، والأذهان النظيفة، والقلوب الشريفة"[٣].

لقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب ولم يعملوا به، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩١].

---

[١] **أبو العباس بن عطاء** = أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي البغدادي، الزاهد، العابد، راج عليه حال الحلاج وامتحن بسببه، مات في ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة. انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٢)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٥٥).

[٢] أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٠٢)، وذكره عنه الذهبي في السير (١٤/ ٢٥٥).

[٣] قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله (٩-١٠).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١].

ونظير ذلك: قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال له بنو إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، فكما أنَّ فقد العلم جهل، ففقد العمل به جهل قبيح)[1].

فعلُم أنَّ تدبُّر القرآن لا يقفُ بالمؤمن عند مجرَّد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك إلى العمل والاستجابة لله ورسوله، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وأثر من آثاره.

ولا شكَّ أنَّ العمل بالقرآن الكريم وتطبيقه هو نتيجة من نتائج فهمه وتدبر معانيه، والعيش في رحابه الطاهرة، وهو من أعظم الآثار التي يحققها التدبُّر على الفرد.

٢) تحصيل بركة القرآن الكريم:

فبركة القرآن لا تنتهي، لأنه مبارك من كل وجه، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢].

وبركة القرآن يحوز قصب السبق فيها المتدبِّر له، العامل به، قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، فربط بين البركة وبين التدبُّر.

فإذا قرأ المتدبِّر القرآن حصَّل بركة الأجر المضاعف، وبركة شفاء القلب وانشراح الصدر، وحصَّل بركة زيادة الإيمان والهداية للصراط المستقيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فالقرآن هدى ونور.

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن (١٣٥-١٣٦).

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ**»[1].

ومن بركاته: مباركة وقت صاحبه وجهده، فتجده يقوم بأعمال كثيرة في وقت يسير، وتجد لديه البركة في ماله وولده، وفي علمه وفهمه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن بركة القرآن: أنه الصاحب الذي لا يخذل صاحبه أبداً: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٣-٤٤].

ومن بركته أنه يرتقي بصاحبه في الجنة: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[2].

٣) حصول الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة:

من تدبَّر القرآن وعمل به؛ حصَّل الحياة الطيبة المطمئنة باستجابته لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ الذي قال الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

وجزاء ذلك: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

فالقرآن هو النور الحقيقي لقلب المؤمن، ودليله وقائده: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، فمن عاش بالنور هدي الطريق، واستقامت حياته، واطمأن قلبه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

---

[1] سبق تخريجه ص(١٩٣).

[2] سبق تخريجه ص(١٩٣).

إنَّ ما يجده العبد من السعادة بالقرآن أعظم مما يجده صاحب المال بماله، وصاحب الجاه بجاهه، لأنَّ القرآن يملؤ القلب حلاوة وسعادة وأنساً.

جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: (من قرأ القرآن واتبع ما فيه؛ هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، وذلك بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣])[١]، فلا يضلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

وقال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ (١١٨هـ): (لا والله، ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمةً ونوراً، ودليلاً إلى الجنة)[٢].

وفي الآية "دلالة على أنَّ المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة، واتباعها لا يتكامل إلا بأن يستدلَّ بها وبأن يعمل بها، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضلَّ ولا يشقى"[٣].

والحياة الطيبة في الدنيا تتحقق لأهل القرآن، مع ما أعدَّه الله لهم في الآخرة في جنات النعيم من تحقق السعادة الأبدية الحقيقية.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ

---

[١] انظر: تفسير مجاهد (٤٦٧)، وأخرجه عنه الصنعاني في التفسير (٢/ ٣٧٩)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٤٣٨) برقم: (١٣٥٦١).

[٢] أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٢٦٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٧٢).

[٣] مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٠).

ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، فذكر الضلال والشقاء، فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان)[١].

ومن تدبَّر القرآن الكريم وجد أنَّ لفظ السعادة لم يرد إلا في موضعين كلها في الآخرة، وهي نتيجة عمل الدنيا، والاجتهاد فيها في العمل الصالح.

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

فاللهم إنا نسألك طيب الحياة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة.

٤) تحقيق الإيمان في النفوس:

من المقرر لدى أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمان قول وعمل؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[٢].

وثمَّة ارتباط في منهج أهل السنة والجماعة بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان شرطه العمل الصالح وإلا كان قولاً لا دليل عليه، والعمل الصالح شرطه الإيمان لكي يكون مقبولاً عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

ومن أعظم أسباب زيادة الإيمان تدبُّر القرآن الكريم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧).

(٢) انظر: كتاب السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٧٣)، الإبانة لابن بطة (٢٧)، شرح السنة للبربهاري (١٢٩).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧هـ): (لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان)[١].

وقد سبق من علامات تدبُّر القرآن الكريم: زيادة الإيمان في نفوس المؤمنين عند سماع مواعظ القرآن الكريم، حيث وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

"وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات، زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان"[٢].

ووجه زيادة الإيمان أيضاً: "أنهم يلقون له السمع، ويُحضرون قلوبهم لتدبُّره، فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأنَّ التدبُّر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبيِّن لهم معنىً كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يُحدث في قلوبهم رغبةً في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان"[٣].

ولقد كان المؤمنون يتواصَون فيما بينهم بزيادة إيمانهم إذا نزل القرآن الكريم.

قال تعالى مخبراً عنهم، وواصفاً حالهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]..

والمؤمن يقيس تدبُّره بهذا الأثر العظيم؛ فإن أورثه التدبُّر إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله ﷺ؛ فهو على جادة الطريق في تدبُّره، وإن كانت تلاوتُه مجرَّدَ ألفاظٍ يرددها، أو أصواتٍ

---

[١] رواه ابن المبارك في الزهد (٢٧٢)، والفريابي في فضائل القرآن (١٨١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن (١٥٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٧) برقم: (٣٣٨٦).

[٢] كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٠).

[٣] تيسير الكريم الرحمن (٣١٥).

يسمعها، فإنه لم يصل بعد إلى حقيقة تدبُّر القرآن الكريم.

والقرآن الكريم أحدث نقلة إيمانية عظيمة في نفوس الناس، فانقادوا لتوحيد رب العالمين، وغرست في قلوبهم معاني الإيمان واليقين.

كما أثمر الإيمان في نفوس الناس التقوى والإخبات لله تعالى والخوف والخشية منه ومراقبته في السر والعلن، فكان لذلك الأمر أثره في صلاح الأفراد والمجتمعات[١].

إنَّ التدبُّر الصحيح للقرآن يهدي صاحبه إلى تحقيق الإيمان وزيادته في نفسه؛ ذلك أنَّه يدفعه إلى العمل به، وامتثاله في كافة شؤون حياته، وفعل أوامره، وترك زواجره.

وهو من أعظم مقويات الإيمان، وأنفع دواعي زيادته، ويزيد إيمان العبد"ويقويه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرَّد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركِّب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة- يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير؛ فكيف إذا أحسن تأمُّله، وفهِم مقاصده وأسراره؟!، ولهذا كان المؤمنون الكمَّل يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣] "[٢].

وليس مجردُ السَّماع كافياً في حصول ذلك الإيمان، فإنَّ المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملُهم الإعراضَ والكفرَ والتكذيبَ والاستهزاءَ والتوليَ وعدمَ العملِ، كما حكى الله تعالى حالهم بقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧].

---

[١] انظر: الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلم، د. عبد الرحيم المغذوي ص(٤٦).

[٢] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (٧٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

فزادتهم لذلك الآياتُ رِجْسَاً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

فزيادة الإيمان تحصل لمن اعتنى بتدبُّر القرآن والعمل به، لا أن يقرأه قراءة مجرَّدة دون فهم أو تدبُّر، فكم قارئ للقرآن والقرآن حجيجه وخصيمه يوم القيامة!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (والإنسان يقرأ السورة مرات -حتى سورة الفاتحة- ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت؛ فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبُّر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه)[1].

ومن الآثار التي تظهر على متدبِّر القرآن من الناحية الإيمانية ما يلي:

أ - الإخلاص لله تعالى في الأمر كله:

فإنَّ متدبِّر القرآن يدفع تدبُّره أن يكون عمله كلُّه خالصاً لله رب العالمين، ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ويخيفه ويحذِّره قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣-٢٣٧).

ويدفعه للمزيد من الخير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (وهذان ركنا العمل المتقبل؛ لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ)[١].

وأخبار السلف مع القرآن، ومع العبادة كلها تقطر إخلاصاً في العمل، وصدقاً وصلاحاً في النية.

قال الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٨هـ)[٢]: كنت عند إبراهيم النخعي (٩٦هـ) وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل، فغطَّى المصحف، وقال: (لا يراني هذا أني أقرأ فيه كل ساعة)[٣].

وكان أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٢هـ)[٤]يدخل بيتاً ويغلق بابه ويدخِل معه كوزاً من ماء، فلم أدر ما يصنع، حتى سمعت ابناً له صغيراً يبكي بكاءه، فنهته أمه،

---

[١] تفسير ابن كثير (٥/ ٢٠٥).

[٢] **الأعمش** = سليمان بن مهران الكاهلي، من بني كاهل، أبو محمد الأعمش الكوفي، الإمام، شيخ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدثين، ثقة، ثبت، كان محدث الكوفة في زمانه، يقال: إنه ظهر له أربعة آلاف حديث، ولم يكن له كتاب، وكان يقرئ القرآن، وهو رأس فيه، وكان فصيحاً، مات سنة ثمان وأربعين ومائة، بالكوفة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٤٢)، رجال صحيح مسلم (١/ ٢٦٤)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٢٦).

[٣] حلية الأولياء (٤/ ٢٢٠).

[٤] **محمد بن أسلم الطوسي** = محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد الكندي، الإمام، الحافظ، الرباني، شيخ الإسلام، أبو الحسن الكندي مولاهم، الخراساني، الطوسي، كان من العباد الخشن المتجردين للعبادة المواظبين على إقامة السنة، كان يعظ الناس روية دون علمه وشهد دون نطقه، توفي لخمس بقين من المحرم، سنة اثنتين وأربعين ومائتين. انظر: الثقات لابن حبان (٩/ ٩٧)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٩٥).

فقلت لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: إنَّ أبا الحسن يدخل هذا البيت فيقرأ القرآن ويبكي فيسمعه الصبي فيحاكيه، فكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه واكتحل فلا يرى عليه أثر البكاء[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (فإنَّ المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً)[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها)[3].

فعلم من هذا أنَّ من أعظم آثار التدبُّر وثمراته على المتدبِّر إخلاصه لله تعالى في أعماله كلها، إذ هو بتدبُّره يقف مع آيات الإخلاص العظيمة، ويجدد فهمه لمعناه، ويرقّ قلبه شوقاً إلى ما عند الله سبحانه من الجزاء والنعيم المقيم.. فاللهم اجعلنا من المخلصين.

ب- علاج ضعف الإيمان في القلب:

فمن آثار التدبر العظيمة: تقوية ضعف الإيمان، وإصلاح فساد القلب.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحة البصيرة تثمر اليقين، وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة، وملاك ذلك كله أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا

---

[1] ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٤٣)، وابن الجوزي في المنتظم (١١/ ٣٠٣).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٥).

[3] الوابل الصيب (١٠).

فتسكنه في وطن الآخرة، ثمَّ تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها)[1].

وعلاج ضعف الإيمان في القلب يحصل بالوقوف على عجائب القرآن التي لا تنقضي، ودرره التي لا تنتهي.

فهو حين يتدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وعندما يتأمل في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما طلب أن يرى ربه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]؛ يستشعر عظمة الله تعالى فيزداد إيمانه، ويعظم في قلبه.

وحين يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يضعف تعلُّقه بالدنيا، ويقبل على الآخرة.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠).

وحين يقرأ بتدبُّر قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

لن يجرؤ على الإصرار على المعصية، أو ظلم الناس، أو الوقوع فيما يضعف إيمانه، ويرقق دينه.

وحين يتدَّبر قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، يقوِّي صلته بالله تعالى بالإيمان والتقوى؛ لينال الفضل المتمثِّل في ولاية الله وحفظه في الدنيا والآخرة، وانتفى عنه الخوف والحزن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وحين يعرف فضل إيمانه بالله وما أعدَّه الله له على عمله الصالح من تدبُّره لمثل قول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧]، بادر وسارع لكل ما يزيد إيمانه، ويحقق له هذا الفضل والجزاء العظيم من ربه الكريم.

وكذلك الحال وهو يتدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢١-١٢٣].

فهو بتدبُّر هذه الآيات ومثيلاتها يفهم حقيقة الحياة، ويزيد إيمانه، ويبتعد عن كل اعتقاد أو سلوك يشين دينه، أو يضعف إيمانه.

ج- قوة تأثير القرآن على القلوب والمشاعر:

وهذا أمر معلوم بالضرورة، لا ينكره إلا مكابر.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

فسلطان التغيير الفوري الذي يحدثه القرآن في نفوس المتدبِّرين له المؤمنين به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

فالقرآن مؤثِّر شديد التأثير على النفوس السليمة، والفطر المستقيمة.

لذا كان المشركون ينهون الناس عن سماع آياته، والتلذذ بخطابه، وفي هذا يقول الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وقال سبحانه واصفاً حالهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٥-٢٦].

قال الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٤هـ): (واعلم أنَّ قوة الدين، وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه، مع التدبُّر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة، وترك المعاصي والفساد بقدر تدبُّر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبُّره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصَّروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦])[١].

---

[١] تفسير المنار (٩/ ٤٦٣).

ومن المواقف التي سطَّرتها كتب التاريخ من قوَّة تأثير القرآن على القلوب والمشاعر لمن تدبَّره حقَّ التدبُّر:

- **الموقف الأول: قصة إسلام عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج عمرُ متقلِّداً بالسيفِ فلقيه رجلٌ من بني زهرة فقال له: أين تغدو يا عمرُ؟ قال: أريدُ أن أقتلَ محمداً، قال: وكيف تأمنُ بني هاشم وبني زهرة؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك! قال: أفلا أدلك على العجب؟! إن أختك وختنك قد صبآ وتركا دينك، فمشى عمرُ ذَامِراً -أي مُتَهَدِّداً- حتى أتاهما، وعندهما رجلٌ من المهاجرين يقال له: خباب -وهو ابن الأرت-، فلما سمع خبابُ بحسِ عمرَ، توارى في البيت، فدخل عليهما فقال: ما هذه الهَيْنَمَةُ-أي الصوت الخفي- التي سمعتها عندكم؟ وكانوا يقرأون ﴿طه﴾ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبأتما؟ فقال له ختنه: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً: فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها، فنفخها نفخة بيده فدمى وجهها. فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه، فقالت أخته: إنك رجس وإنه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، فقم فتوضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ: ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خبَّاب قول عمر، خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك - ليلة الخميس - «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمر بن هشام**»، قال: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى الباب حمزة وطلحة في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رأى حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَلَ القومُ من عمرَ قال: (نعم فهذا عمر فإن يرد الله بعمر خيراً يسلِم، ويتَّبع النبي ﷺ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً)، قال: والنبي ﷺ

داخل يوحى إليه، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال: «**ما أراك منتهياً يا عمر حتى يُنْزِلَ الله بك** -يعني من الخزي والنكال- **ما أنزل الله بالوليد بن المغيرة، اللهم اهد عمر بن الخطاب، اللهم أعزَّ الدين بعمر بن الخطاب**»، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (أشهد أنك رسول الله، وقال: اخرج يا رسول الله)[1].

---

[1] رواه ابن الجوزي في مناقب عمر (٢٠)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٢٠)، وفي سندها القاسم بن عثمان البصري، قال عنه الذهبي في الميزان (٣/ ٣٧٥): (قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها) ولم أقف على كلام البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٦٥).

وجاءت القصة من طرق أخرى، عن ابن عباس عند أبي نعيم في الحلية (١/ ٤٠).

وأوردها ابن إسحاق في السيرة (١٨١)، ونقلها عنه ابن هشام (١/ ٣٤٢) بقصة أخرى، وفيها: (حين بلغ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - قبل إسلامه- خبر إسلام أخته وزوجها، أقبل حتى انتهى إلى باب أخته ليغير عليها ما بلغه من إسلامها، فإذا خباب بن الأرت عند أخت عمر يدرس عليها: ﴿طه﴾، ويدرس عليها: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وكان المشركون يدعون الدراسة الهينمة، فدخل عمر فلما أبصرته أخته عرفت الشرَّ في وجهه فخبأت الصحيفة، وراغ خباب فدخل البيت، فقال عمر لأخته: ما هذه الهينمة في بيتك؟ قالت: ما عدا حديثاً نتحدث به بيننا، فعذلها، وحلف ظالا يخرج حتى تبين شأنها، فقال له زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: إنك لا تستطيع أن تجمع الناس على هواك يا عمر وإن كان الحق سواه، فبطش به عمر فوطئه وطئاً شديداً وهو غضبان، فقامت إليه أخته تحجره عن زوجها فنفحها عمر بيده فشجها، فلما رأت الدم قالت: هل تسمع يا عمر، أرأيت كل شيء بلغك عني مما يذكر من تركي آلهتك وكفري باللات والعزى فهو حق، أشهد الا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فائتمر أمرك، واقض ما أنت قاض.

فلما رأى ذلك عمر سقط في يديه، فقال عمر لأخته: أرأيت ما كنت تدرسين أعطيك موثقاً من الله لا أمحوها حتى أردها إليك، ولا أريبك فيها، فلما رأت ذلك أخته، ورأت حرصه على الكتاب رجت أن تكون دعوة رسول الله ﷺ له، فقالت: إنك نجس: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، ولست آمنك على =

- **الموقف الثاني: قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

"كان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش، حين منعه الله منهم، يحذِّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً. قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

ذلك، فاغتسل غسلك من الجنابة، واعطني موثقاً تطمئن إليه نفسي ففعل عمر، فدفعت إليه الصحيفة، وكان عمر يقرأ الكتاب، ﴿طه﴾ حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١-١٦]، وقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[التكوير:١-١٤]، فأسلم عند ذلك عمر، فقال لأخته، وختنه: كيف الاسلام؟ قالا: تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وتخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزى، ففعل ذلك عمر، وأسلم).

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسُف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك. قال: فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمْت وشهدْت شهادة الحق"[١].

ومن خلال هذين الموقفين تظهر قوة تأثير القرآن على القلوب والمشاعر، والأخبار في ذلك كثيرة مشهورة.

د- تحقيق الأمن النفسي والحفظ الإلهي والثقة بالله سبحانه:

والمقصود بالأمن النفسي: "هو أن تكون النفس آمنة مطمئنة عند وقوع البلاء أو توقُّعه، بحيث لا يظهر عليها قلق معيب أو جزع كثير، ولا اضطراب في الأحوال، أو ترك للأعمال، أو التهويل من شأن المصائب، أو التعظيم لمخططات الأعداء تعظيماً يفضي إلى اليأس والهوان، والإحباط والانزواء"[٢].

والقرآن العظيم ينبوع كل خير، وأساس كل بر، ومصدر كل علم، وأصل كل نعمة، أنار الله للذين التزموه الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق أمن الإنسان وسعادته، والسبيل للتخلص من أسباب ومصادر فقدان الأمن النفسي، والعلاج لكل أمراض النفس، ففيه التوجيه السديد لتربية النفس وصلاحها وسعادتها؛ وفيه التربية على مصادر وأسباب أمنها وطمأنينتها وسكينتها وفوزها في الدنيا والآخرة، وفيه وقايتها وعلاجها من أمراضها النفسية مثل الخوف والقلق والاضطراب.

---

[١] انظر: سيرة ابن هشام في السيرة (١/ ٣٨٢)، ولم أقف عليه في سيرة ابن إسحاق.

[٢] انظر: الأمن النفسي، د/ محمد حسن عقيل موسى (٩).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣].

المؤمن الذي يتدبَّر القرآن الكريم يسير في الحياة آمناً مطمئناً؛ لأنه يشعر على الدوام بمعية الله عَزَّوَجَلَّ له في كلِّ أحواله وأموره.

"وهو حين يتدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، يدرك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما يصلح الإنسان، فهو يقدر له الخير، والإنسان بعلمه القاصر لا يدرك فوق طاقة العقل، أو ما غاب عنه، ولذا؛ فالرضا بما يحل بالإنسان؛ من خير أو شر يجعل الإنسان إيجابياً، متفائلاً، فيغدوا منشرح الصدر، واثقاً بالله الذي خلقه، وقدّر له سبيله في هذه الحياة. ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، فالله العالم بما يصلح الإنسان، وقد يبتليه بالشر؛ ليربي فيه ملكة القوة، والإرادة، والتحمل، والصبر، والأمل، وعدم اليأس، كما يختبره بالخير؛ ليربي فيه صفة الشكر والحمد، وكلا الأمرين فيهما مصلحة للإنسان؛ وهذا ما يؤكده حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]"[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٩٩٩) في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

[2] انظر: بحث بعنوان: تدبُّر القرآن الكريم وصناعة الشخصية المسلمة، د/ سعيد بن راشد الصوافي- من بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

والمتدبِّر لكتاب الله يستصحب حفظ الله سبحانه له من كيد الشياطين، لأنه يعيش مع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

وأهل القرآن محفوظون بحفظ الله، يمشون في الأرض مطمئنين.

قال الثعلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٢٧هـ): (روى الكلبي عن رجل من أهل الشام، عن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف:٥٧]، والآية التي في النحل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل:١٠٨]، والآية التي في الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣] فكان رسول الله ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين[١].

قال كعب: فحدثت بهنَّ رجلاً من أهل الشام فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأ بهنّ فخرج هارباً وخرجوا في طلبه حتّى كانوا يكونون على طريقه ولا يبصرونه.

قال الكلبي: حدثت به رجلاً بالري فأسر بالديلم فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأهنّ وخرج هارباً وخرجوا في طلبه حتى جعل ثيابهم لتلتمس ثيابه فما يبصرونه)[٢].

ومن الأخبار في ذلك ما ذكره القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ) عن حادثة وقعت له فقال: (ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت

---

(١) لم أقف عليه وعلى صحته.

(٢) تفسير الثعلبي، الكشف والبيان (٦/ ١٠٤).

أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبلة، يعنون شيطاناً، وأعمى الله عَزَّوَجَلَّ أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك)[1].

والأخبار في ذلك كثيرة، والمقصود منها بيان الأمن النفسي لمتدبِّر القرآن، العامل به.

والمتدبِّر شديد الثقة في الله تعالى؛ حسَن الظنَّ به، وذلك لأنه تدبَّر آيات عظيمة، تعزز ثقته في ربه عَزَّوَجَلَّ، مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ لأم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص:٧].

فهي حين وثقت في وعد الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، كانت عاقبة ثقتها هذه خيراً كثيراً؛ إذ رجع إليها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخذت أجرة على إرضاعها له، وجعل الله له شأناً ومكانة كبيرة في العالمين: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩]، والحمد لله..

٥) بناء الشخصية المسلمة المتوازنة نفسياً واجتماعياً:

وذلك من خلال ما يلي:

أ) الأخلاق الفاضلة، والعلاقات الاجتماعية السليمة.

فما من خلق كريم إلا ودلَّ القرآن عليه، وما من مسلك جميل إلا وأرشد القرآن إليه.

ومن هنا كانت المنظومة القوية التي أرسى دعائمها القرآن الكريم، وأحاطها بسياج من الخلق والأدب الرفيع، والتعامل الذي لا يوجد له مثيل.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٧٠).

والمتدبِّر لكتاب الله من أحسن الناس خلُقاً، ذلك أنه وقف على آيات الأخلاق الفاضلة، فانتهجها وامتثلها في حياته وأمره كله، وتعلَّم من أخلاق المعلِّم الأول نبينا محمد ﷺ الذي وصفه الله وزكاه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

ومن الأمثلة القرآنية على الأخلاق الفاضلة والدعوة إليها -التي تعلَّمها المتدبِّر- ماجاء في سورة المؤمنون، من تعداد لبعض أوصاف المؤمنين الصادقين، وبيان بعض أخلاقهم التي تحلَّوا بها، في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩].

وفي سورة النور، قال تعالى مبيناً آداب الاستئذان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٧-٢٨].

ومن أجل حفظ الحرمات والأعراض وجَّه المؤمنين والمؤمنات لأخلاق ومسالك عالية رفيعة، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ

غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣٠-٣١].

ووصف الله عباد الرحمن بأوصاف أخلاقية راقية عالية هيأتهم أن: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾، فقال سبحانه في وصفهم في سورة الفرقان:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣-٧٥].

وفي آداب التعامل بين الناس، وبناء علاقات اجتماعية سليمة جاءت التوجيهات العظيمة بمعالي الأمور في نحو قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]، وقوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ [المؤمنون:٩٦]، وقوله: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤].

وجاءت جملة من التوجيهات الأخلاقية الفاضلة في سورة الحجرات، منها: ضرورة التبين والتثبُّت قبل نقل الكلام والأخبار، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦].

ومنها: تحريم السخرية بالناس، والتنابز بالألقاب، والظنّ السيء، والتجسس، والغيبة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات:١١-١٢].

والتوجيهات الأخلاقية العظيمة كثيرة في كتاب الله.

والمقصود: أنَّ المتدبِّر لكتاب ربه يعيش هذه الأخلاق الفاضلة واقعاً سلوكياً، ومنهجاً حياتياً لا ينفكُّ عنه، وهو من أفضل الناس في بناء علاقات اجتماعية سليمة، إذ قد عرف قيمة الأخلاق القرآنية، والقيم الاجتماعية في إصلاح النفس والمجتمع، وأدرك ضرورة التمسُّك بها للنجاة والسعادة في الدارين.

ب) ضبط الانفعالات النفسية.

ففي القرآن وصف دقيق لانفعالات الإنسان النفسية، كالخوف والحزن، والحب والبغض، والقلق والندم، والخجل والسخرية، وغيرها؛ ذلك أنَّ أسلوب القرآن في صياغة التعاليم والأحكام مبني على صياغة التعبير في أرقى أساليب العرب وكلامها، وسبر أغوار النفس البشرية وتجاربها، فيظهر التلاحم بين الروعة البيانية، والنفسية البشرية.

وإنَّ من آثار التدبُّر في بناء الشخصية المسلمة المتوازنة أن يكون المتدبِّر قادراً على ضبط انفعالاته النفسية، وممسكاً بزمام نفسه وما يطرأ عليها من أحداث وتغيُّرات.

فهو يملك نفسه عند الغضب؛ لأنه تدبَّر قول الله تعالى عن صفات المتقين الذين استجابوا لربهم: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

وهو أيضًا تدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وإذاخاطبه الجاهل أو جهل عليه، أثَّر فيه تدبُّره لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣].

وعند الحزن والضيق يهرع إلى ذكر الله ممتثلاً ما تدبَّره من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وعند الخوف من الناس أو غيرهم تجده أكثر ما يكون اطمئناناً وثباتاً، لأنه تدبَّر قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

والمتدبِّر يحسن التعامل مع أمراض الضيق والاكتئاب وغيرها؛ لأنه تدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

فهو يوقن أنَّ من أصابه بهذا الخلل النفسي؛ هو وحده القادر على أن يصرفه عنه، وأن يبدله بالخير الكثير.

ويتعامل أيضاً مع الخوف من المستقبل بكل هدوء وثبات، وثقة فيما عند الله، لأنه تدبَّر قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠].

وهو يحمل الحبَّ في قلبه للمؤمنين، لأنه تربى بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩].

وعند الاختلاف يحسن الظن، ويحمل الأمور على المحمل الحسن، ويسعى بالإصلاح لأنه تدبَّر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات:١٠]، ويدفع الإساءة بالإحسان لتدبُّره قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤].

وعند البغض والكراهية يكون المتدبِّر أكثر عدلاً وإنصافاً لأنه تدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [المائدة:٨].

وهو أشدَّ ما يكون كظماً للغيظ، لأنه يتحرَّى الأجر العظيم المترتِّب على ذلك، في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وإن سخر منه أحد أو استهزأ به؛ يكون أكثر ما يكون حلماً وصبراً؛ إذ تعلَّم ذلك من قصص الأنبياء في القرآن التي تدبَّرها وأحسن فهمها، فهو يعلم أنه لم يُبعث نبي في مجتمع على طول التاريخ إلا وقد استهزأ به بعض قومه، مثل قوم نوح، حينما استهزؤوا بنبيهم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يصنع السفينة، وأخبر الله عنه بقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

وضحك آل فرعون من موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف:٤٧].

ووجد نبينا محمد ﷺ من الاستهزاء الكثير ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:٤١].

والحاصل أنَّ المتدبِّر للقرآن يحسن التعامل مع استهزاء المستهزئين، ويبتعد عنهم ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٨].

والمتدبِّر أيضاً أشد ما يكون دفاعاً عن الحق، قوياً فيه، شديداً على أعداء الدين والملَّة، متدبِّراً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح:٢٩].

متوازناً بين الشدة واللين، والحزم والرفق، يضع كل شيء في موضعه، ينهج نهج القرآن الذي تدبَّره في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

والمقصود: أنَّ المتدبِّر للقرآن تظهر آثار التدبُّر على شخصيته المتوازنة، من خلال نفسيته السوية التي تضع الأشياء في موضعها، والحمد لله.

ج) حسن التعامل مع الأحداث والنوازل:

المتدبِّر للقرآن الكريم يُحسن التعامل مع الواقع، وتعاطي الأحداث والنوازل، لا يستسلم لليأس ولا الإحباط، لأنه تدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤١].

وهو يصحح الخطأ، ويقوِّم المسار في طريقه إلى الله تعالى؛ فيكثر الاستغفار والدعاء والتضرُّع إلى الله لأنَّه تدبَّر قول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

والمتدبِّر أيضاً -عند النوازل والأحداث- يصلح نيته، ويسابق لفعل الخيرات، ويبني حياته على التقوى والإيمان واليقين، ويدرك أنَّ لله حكمة في كلِّ بلاء ونازلة، قد يدركها العبد وقد لا يدركها.

المتدبِّر لآيات ربه يحسن ظنَّه به، ويدرك ويوقن — وهو يرى تسلُّط الأعداء ونصرهم الظاهر- أنَّ القوة لله جميعاً، وأنهم: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦].

وهو يوقن أنَّ قهر الله عَزَّوَجَلَّ فوق كل قهر، وأن كيده فوق كل كيد، وأنه يأخذ الظالم، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وهو يوقن أيضاً أنَّ ما يقع لأعداء الدين من التمكين إنما هو استدراج وإمهال من الله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق:١٧]، فيطمئن قلبه، وتهدأ نفسه.

المتدبِّر لكتاب ربه يحسن فهم الواقع والتعامل مع ماجريات الحياة معتمداً على قواعد القرآن في النصر والتمكين والفتن والنوازل، والتي منها:

<u>أولاً</u>: اليقين بأنَّ الله تعالى هو الفاعل الحقيقي للأشياء: فلا يحدث أمرٌ في هذا الكون إلا بإذنه ومشيئته، ولا يقع أمر إلا وهو فاعله الحقيقي سبحانه، ومن نماذج تدبُّر ذلك في القرآن الكريم:

قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين ألقي في النار: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٨]، وحين أراد الله أمراً آخر، وحفظاً ونجاة لنبيه: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وأيضاً: في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون أنموذجاً واضحاً لذلك؛ ذلك أنَّ فرعون علم أنه سيهلك على يد مولود من بني إسرائيل، فقتل كل المواليد، فأراد الله له أن يعيش موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قصر فرعون، ويتربَّى في بيته وتحت عينه.

وحين خرج موسى بقومه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -وهم مجموعة يسيرة، حديثي عهد بإيمان-، ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ [يونس:٩٠]، فمن نظر في أحوالهم ظنَّ أنهم مهزومون من فرعون؛ لقوة جنوده وبأسهم وعدَّتهم وعتادهم: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١]، فقابل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك بيقين أنَّ الله بيده كل شيء، وهو القادر وحده على نصرهم: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

فكانت النجاة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه، وكانت الهلكة لفرعون وجنوده.

فكل شيء بقدر الله وإرادته وتدبيره وحده لا شريك له.

ثانياً: قياس الأمور بحقائقها لا بظواهرها:

فلا يُعجب المتدبِّر بالكثرة أو القوة أو العدَّة، فقد ربى القرآن أهله على ذلك في مثل خبر غزوة حنين؛ حين قاس الصحابة الأمور بظواهرها لا بحقائقها، فجعل الله لهم من ذلك درساً وموعظة بليغة: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة:٢٥].

وقال عن معركة بدر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

فليست العبرة بالعدد؛ فهؤلاء قلة قليلة نصرهم الله رغم ضعفهم، وقلة عدَّتهم، وأولئك كثرة كاثرة لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً فهزموا.

ثالثاً: مراعاة السنن الكونية في فهم الواقع:

وجَّه القرآن الكريم إلى التعرف على السنن الكونية، وتدبّرها والإفادة منها في معرفة أسباب النهوض الحضاري والنصر والتمكين، لأجل تحقيقها، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥].

ومعرفة أسباب الانحطاط والتخلف والانهزام والإهلاك لأجل تجنبها، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧].

واليقين بأنَّ سنن الله في الكون لا تحابي أو تجامل أحداً: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢]، فلابدَّ من مراعاتها وحسن فهمها وتأملها لإدراك حقيقة الحياة، ونظام سير الكون الذي جعله الله تعالى.

ومن هذه السنن: أنَّ التغيير يبدأ من النفس، فمن أراد تغيير واقعه فليبدأ من تغيير نفسه، ومن أراد نصر الله له فليبدأ بنصرة الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧].

والبركة والغنى وسعة الرزق تتحقق بالإيمان والتقوى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

ومن سنن الكون: أنَّ للباطل جولة وللحق جولات، وأنَّ الغلبة للحق وأوليائه، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

ومن سنن الله العظيمة في الكون: أنه بعد الابتلاء يأتي التمكين.

فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابتلي بصنوف الابتلاء من البعد عن الأهل والوطن، وتعرَّض لفتنة النساء، وكانت النتيجة أن صار عزيز مصر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٥٦].

إن الابتلاء هو ضريبة النصر والتمكين، ودخول الجنة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

رابعاً: النظرة الإيجابية المتفائلة للحياة، والتخلص من قيود الظروف الراهنة.

فقراءة الواقع بروح متفائلة، والإيجابية في العمل لتغييره؛ للوصول إلى مستقبل أفضل؛ هو مما يربي عليه القرآن أتباعه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥]، فإذا اجتمعت معية الله مع العمل كان النصر والتوفيق والفلاح.

أما التخاذل والانهزامية وخوف العدو وتعظيم خططه وأعماله؛ نتيجته الضياع والضعف والخذلان: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٢]، فكان حكم الله فيهم: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٢٦].

خامساً: العمل الجاد الطويل، دون انتظار تحصيل النتائج:

فالقرآن الكريم يربي أتباعه على العمل والبذل، في نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]، وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وبيَّن أنه يجازي على مثقال الذر في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

ويربي القرآن على احتساب الأجر من الله تعالى على الأعمال، وأما انتظار النتائج لقطف الثمار، فليس لهم، ولا ينبغي أن يكون هو شغلهم الشاغل، وقد جاءت آيات القرآن مقررة لهذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨]، وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وغيرها من النصوص القرآنية التي تقرر هذا المعنى.

د) التوازن بين عمل الدنيا والآخرة.

المتدبِّر لكتاب الله يتوازن بين عمل الدنيا والآخرة، ويعتدل في التعامل مع أموره الدنيوية، مع اجتهاده في إخلاص النية واحتساب الأجر، حتى تكون أمور الدنيا هي بوابة النجاة في الآخرة.

وهذا ما ربَّى القرآن أتباعه عليه في آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود:١١٢].

لقد جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى الاعتدال والاستقامة والتوازن في مجالات الحياة كلها، من غير إفراط ولا تفريط، الأمر الذي ينشأ معه التوازن – لدى المتدبِّر لآيات القرآن– بين الدنيا والآخرة، وبين الحاجات النفسية والعقلية والجسدية، والتوازن في السلوك والمواقف.

ودعا القرآن إلى الاجتهاد في أمر الآخرة، مع عدم نسيان حظِّ الدنيا في قوله سبحانه: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص:٧٧].

كما جعل الله الدنيا طريقاً إلى الآخرة، فليس هناك فصل بين عمل الدنيا وعمل الآخرة؛ فعمل الدنيا يؤجر عليه المسلم متى صلحت النية، واستقام العمل.

"لقد وازن الإسلام بين مطالب الإنسان كلِّها في اتِّساق لا طغيان فيه لجانب على جانب؛ بل أكَّد على ذلك بالنهي عن الغلوِّ والإفراط، كما نهى عن التفريط والإهمال، وأمر بالتوسُّط والاعتدال في جميع الأحوال، ولم تأت الشريعة إلا بتنظيم تحقيق تلك المطالب، وبيان حدودها التي لا تتصادم مع فطرة الإنسان ووظيفته التي خُلق من أجلها، ألا وهي عبادة الله، وعمارة الأرض بالنافع والصالح، فأباحت الشريعة كل شيء فيه منفعة راجحة للإنسان، ونهت عن كل شيء فيه مفسدة ومضرَّة على حياة الإنسان أو عقله أو ماله أو جسده"[١].

ويؤكد ذلك أيضاً: أنَّ الإسلام حرَّم الرهبانية وحرمان النفس مما أحل الله من الطيبات، في جملة من نصوص القرآن الكريم، مثل فقال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٧]، ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [البقرة:١٦٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

ومن مظاهر الاعتدال والاتزان في القيم والمباديء: الموازنة بين نزعات النفس المختلفة وحاجاتها، وتوظيف طاقاتها.

فقد دعا الله عَزَّوَجَلَّ إلى إشباع حاجات الجسد المادية والغريزية من الطعام والشراب والنكاح وغيرها، دون إفراط أو تفريط، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١]، وقوله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣].

---

[١] من رسالة بعنوان: (حاجات البشرية في رسالة النبي محمّد ح)، إعداد: د. عادل الشدي، ود. عبد الرزاق معاش (٣٨)، ضمن كتيبات البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

ودعا إلى التعامل في الإنفاق، والطعام والشراب، وممارسة العمل والكسب وعامة أمور الحياة باعتدال وتوازن، وحرّم الاسراف والتبذير والتقتير في نحو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

ودعا إلى عدم المبالغة في الحب والكراهية، وكره كثرة النوم والبطالة، ودعا إلى الاعتدال في الكسب المادي وطلب المعيشة.

ولقد سخَر الله ما في الكون للإنسان لينتفع به، وليحسن استثماره، فلا يتركه هملاً غيرَ مستثمر، وسهَّل السبيل لاستكشاف الكون، والاستفادة من مكنوناته وكنوزه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

ودعا إلى احترام العقل، وتلبية حاجاته من العلم والمعرفة، وفسح المجال أمام عمليات الفكر والتفكير المنتج، ورسم أمامه حدود الالتزام وأسسه، في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

وحين تعامل القرآن مع الجانب النفسي من الإنسان تعامل مع مشاعره وأحاسيسه وعواطفه الإنسانية؛ من الحب والكراهية والرضا والسخط وغيرها.

وحتى لا تطغى بعض الأحاسيس والانفعالات الوجدانية والعواطف على بعض، فتختل حركة النفس؛ دعا إلى الاعتدال في الحب والكراهية وفي الغضب والسخط والرضا..

إلخ، ونظّم الانفعالات والمواقف النفسية تلك على أساس الالتزام بالقيم، لتبقى حركة الإنسان في دائرة الاعتدال والاستقامة النفسية.

ومن صور التوازن التي دعا إليها القرآن، قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور:٣٧]، "فهم مع تجارتهم لم يهملوا الجانب الروحي والتعبُّدي والخلقي الذي يدفع إليه الإشفاق من الحساب بين يدي الله في الآخرة، فلنتصوَّر كيف يكون سلوك مثل هؤلاء التجار بمثل هذه العقيدة وهذه الأخلاق، ثم لنتصوَّر كيف تكون الحياة فيه أناس كهؤلاء في مجالات أخرى من مجالات الحياة!

وقد أثبت التاريخ أن أمثال هؤلاء التجار المسلمين كانوا سببًا في دخول الإسلام إلى بلدان شاسعة المسافات، كأندونيسيا والسودان وغيرهما، دون أن تكون هناك جيوش فاتحة كما يزعم بعض الذين لم يقرؤوا التاريخ جيدًا"[١].

أيضاً: فقد وجَّه القرآن إلى تحقيق التوازن في الحقوق والواجبات بين الفرد والجماعة، ليوازن بين النزعة الفردية، والمصلحة الاجتماعية.

فدعا مثلاً إلى الإيثار لتهذيب النزعة الذاتية، وتقديم مصلحة الجماعة على النفس، قال تعالى واصفاً المؤمنين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وهكذا يتوازن المسلم -الذي تدبَّر القرآن وعمل به- ويستقيم أمره في أعمال الجسد والعقل والنفس والضمير، وفي جانب السلوك والتعامل.

---

[١] من رسالة بعنوان: (حاجات البشرية في رسالة النبي محمّد ﷺ، إعداد: د. عادل الشدي، ود. عبد الرزاق معاش (٤٠-٤١)، ضمن كتيبات البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

ولقد ضرب سيِّد المتدبِّرين، نبينا محمَّد ﷺ أروع الأمثلة العملية والتوجيهية في التوازن الروحي والمادي، وبلغ به الأمر إلى درجة الغضب الشديد ممن يخالف الفطرة البشرية، ومن الخبر في ذلك:

بلغه مرةً ﷺ أنَّ ناسًا أرادوا - مبالغةً في التعبُّد لله -؛ الامتناع عن النوم وعن الزواج وعن الأكل والشرب؛ فكان موقفه منهم حاسمًا؛ تحقيقًا لمنهج التوازن الذي بُعث به.

فعن أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

وهو ﷺ من أمر بتحقيق التوازن، بإعطاء كل ذي حق حقه.

وقال سلمان الفارسي لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ينصحه - حين رأى منه تقصيراً في حق أهله، واجتهاداً في الطاعة والصيام والقيام-: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٦٣) في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٤٠١) في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٩٦٨) في كتاب الصيام، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، وبرقم: (٦١٣٩) في كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلُّف للضيف.

وأيضاً: رغَّب ﷺ في العمل والكدِّ، وجعل ذلك من أطيب ما يأكل منه الإنسان.

فعَنِ المِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[1].. والله أعلم..

هـ) الرؤية المعرفية الكونية الشاملة.

لقد ربَّى رسول الله ﷺ أصحابه، وبنى المجتمع المسلم وفق تكامل وشمولية في الرؤية والفكر والمنهج الذي رسمه لهم القرآن الكريم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

والمتأمل في الواقع يدرك أنَّ سبب تأخر الأمة ناتج عن عوامل روحية، وعلمية، وسياسية، وجهادية، وعقدية، واقتصادية، وبالتصور الشمولي للواقع لن يجد له الدعاة والمصلحون برنامجاً إصلاحياً أفضل من ربط الناس بالتدبُّر الصحيح لكتاب الله تعالى، حتى تتبارك حياتهم، ويصلح أمر دينهم ودنياهم.

إنَّ خصوم القرآن وأعداء الدين يعملون على إبراز أهل القرآن بأنَّهم فئة جاهلة، أقرب ما يكونوا إلى السذاجة والجهل، والبعد عن المعارف العلمية المتخصصة؛ وقد أعانهم على صناعة هذه الفكرة وصياغتها؛ بُعد كثير من أهل القرآن عن التدبُّر الصحيح، والفهم العميق لكتاب الله تعالى، فكانت أخلاقهم وأحوالهم وأعمالهم بعيدة عن أحوال أهل القرآن.

ومن هنا.. فالمتدبِّر للقرآن الكريم لديه رؤية معرفية شاملة؛ في الآفاق والأنفس، وفي أمور الحياة عامة، فهو ليس محدود العلم والمعرفة، وليس جاهلاً بأمور دنياه؛ لأنَّه أحسن فهم القرآن؛ الذي هو كتاب الحياة كلها.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٠٧٢) في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

وتتجلَّى معالم هذه الرؤية المعرفية الشاملة -على متدبِّر القرآن- فيما يلي:

أولاً: الوقوف على عجائب الخلق في الكون والنفس:

فهو يتأمل في الكون بسماواته وأرضه وأفلاكه ونجومه، ويدرك أسرار بعض المخلوقات الأخرى، لأنه يعيش في منظومة فكرية، ورؤية ثقافية متنوعة شاملة.

المتدبِّر لكتاب الله تعالى يظهر عليه أثر العلم والمعرفة الشاملة التي تعتمد على إطلاق التفكير في الآفاق وفي الأنفس: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١].

فهو يرى كيف دعا الرحمن عباده، وأمرهم بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال[(١)].

والمتدبِّر لكتاب ربه يقوده تدبُّره إلى الاستنباط والاستقراء والاعتبار مع النظر المتوازن في موضوعين متكاملين يشرح أحدهما الآخر؛ الكتاب المسطور والكتاب المنظور، وهما متوائمان يستحيل تناقضهما أو تعارض آياتهما، فكلاهما مبني بناءً ربانيا سُننيا محكماً لا عبث فيه ولا صدفة ولا فراغ، وكلاهما جُعل للإنسان لعله يتذكر ويعتبر ويخشى، إذ التذكر والاعتبار والخشية علوم كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٨]، وَقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٦]، وَقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الأعلى:١٠-١١].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٨٦).

قال الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٤هـ): (جاء القرآن يلحُّ أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكر والتدبر والتذكر، فلا تقرأ منه قليلاً إلا وتراه يعرض عليك الأكوان، ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها، واستجلاء حكَم اتفاقها واختلافها: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت:٢٠]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج:٤٦]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً، وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به)[١].

لقد تضمَّن القرآن الكريم أسراراً بالغة في العلم والخلق؛ الأمر الذي شهد له القاصي والداني عبر التاريخ.

يقول موريس بوكاي (١٩٩٨م)[٢]: (وتناولتُ القرآن كلَّه منتهيًا بشكل خاص إلى الوصْف الذي يعطيه عن حشْد كبير من الظواهر الطبيعية الواضحة في النصِّ العربي الأصيل للقرآن، ومطابقة هذا النصِّ غير المترجَم للمفاهيم العلمية التي نملكها اليوم عن نفس الظواهر الكونية التي لم يكن ممكِنًا لأيِّ إنْسان في عصر محمد ﷺ أن يعرفها أو يمتلك منها أدْنَى فكرة، أوَّل ما يثير الدَّهشة في رُوح من يواجه القرآن أول مرة هو ثراءُ الموضوعات العلمية) [٣].

---

[١] تفسير المنار (١/ ٢٠٨).

[٢] **الدكتور/ موريس بوكاي**= طبيب جراحة فرنسي مشهور، ولد عام ١٩٢٠م، وتلقى تعليمه في مدرسة كاثوليكية، درس العربية، وكتب عن الإسلام والقرآن عدة مؤلفات، وكان معجباً بحضارة الإسلام، وقيل أنه أسلم بعد اكتشافه أن فرعون هلك غرقاً من خلال تحليل جثته المحنَّطة، ثم وجد ذلك في القرآن الكريم، توفي في باريس عام ١٩٩٨م. انظر: موسوعة ويكيبيديا على الانترنت: http: //ar. wikipedia. org.

[٣] التوراة والإنجيل بمقايس العلم الحديث- موريس بوكاي، ترجمة: علي الجوهري (ص١٤٤).

لقد دعا القرآن الكريم الإنسانَ إلى النظر في آفاق الكون من حوله، والتفكُّر في آلاء الله، وقراءة صفْحة الكون المفتوحة أمامَه، "في القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من: السموات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق.. إلى آخره وإذا كانت هذه الآيات قد ذكرت تلك المفردات في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق، استدلالاً على تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية، وقياساً عليها أحقية البعث الذي أنكره الكفار، فإنها مع ذلك قد جاءت في أسلوب وعبارة تفتح أمام العقل البشري آفاقاً واسعة للتفكير في دلالاتها عبر عصوره المتعاقبة من بعد نزول القرآن، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به.

وفي عصرنا الذي نعيشه، وفي غضون عشرات قليلة من السنين، وبالقياس إلى تاريخ البشرية الممتد وصلت المكتشفات العلمية المتعلقة بالكون في آفاقه، وفي أنفس مخلوقاته ما لم تصل إليه من قبل"[١].

وقد اهتمَّ المسلمون الأوائل بالبحث العِلمي، وأَوْلَوه عناية فائقة؛ لكونه تحقيقًا لتوجيهات الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين بالتفكُّر والتدبُّر في آيات الله المختَلِفة في الكون والنَّفْس والأُطُر الاجتماعية؛ فكان جهدهم في هذا المجال مِفتاحًا لتقدُّم العلوم وتطورها في شتَّى مجالات العلم والمعرفة، وانطلقت أبحاثهم من منطلقات إسلامية عظيمة، أسُسُها مبنية على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وأنَّه خلَقَ الإنسان وسخَّر له كل شيء؛ ليكون عبْدًا لله يَسْعى لمرضاته، ثم لخِدمة أمَّته ومجتمعه.

ومن تدبَّر قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣]؛ عرف وعْد الله لعباده

---

[١] عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل (٥٩-٦٠).

أن يُطْلِعهم على شيء من خفايا هذا الكون، ومن خفايا أنفُسِهم على السَّواء، حتَّى يتبيَّن لهم أنَّ هذا الدِّين، وهذا الكتاب، وهذا المنهج، وهذا القول الذي يقوله لهم؛ هو الحق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

ثانياً: الوقوف والاعتبار بأخبار الأمم السابقة.

فالمتدبِّر لكتاب الله تظهر عليه آثار معرفته التاريخية والكونية من خلال تأمُّله واعتباره بالسنن الإلهيّة مع الأمم والمجتمعات السابقة، لأنه تدبَّر قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧]، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا﴾ [آل عمران:١٣٧].

وحثَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسان على النظر والتأمُّل والتفكُّر في هذه الآيات العظيمة الباهرة المبثوثة في كتابه المنظور، كلُّ ذلك مما يصنع للمتدبِّر رؤية كونية ثقافية شاملة.

وبهذه الطريقة فقط من التفكير يستطيع الإنسان الحصول على تفسير شامل وصحيح عن الكون والحياة والإنسان، والموجِد لذلك كله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعلاقة بينهما.

ثالثاً: امتثال قواعد العلم وآداب المعرفة وتطبيقها.

فالمتدبِّر للقرآن الكريم يظهر أثره في تطبيقه لقواعد العلم وآداب تحصيله.

وقد جاء القرآن الكريم بجملة من القواعد والآداب المهمة للعلم وتحصيله، منها:

أ- إخلاص النية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تحصيل العلم، لأنَّ طلب العلم عبادة وقربة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

ب- التقرُّب إلى الله بالطاعات وترك الذنوب سبب لتحصيل العلم وتمكنه، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ج- العمل بالعلم، فالمتدبِّر لكتاب الله يعمل بعلمه لما عرفه وتدبَّره من الذم والتحذير لمن ترك العمل بالعلم، في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

د- الصبر والحلم والتواضع في طلب العلم، وفي قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر عبرة وتربية على هذه الآداب، في نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦]، وقوله: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الكهف:٧٠].

هـ- الصدع بالحق وعدم كتمان العلم: فالله عَزَّوَجَلَّ أخذ من العلماء الميثاق أن يبينوه ولا يكتمونه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

و- سؤال أهل العلم والخبرة، وهو ما جاء به الأمر في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، [الأنبياء:٧].

ز- عدم خوض الإنسان فيما يجهل، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦].

ح- عدم السؤال عن أشياء لا يضرُّ جهلها، ولا ينفع العلم بها، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة:١٠١].

ط- دعاء الله عَزَّوَجَلَّ لتحصيل العلم، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤].

رابعاً: توجيه العقل إلى العلم والمعرفة الشاملة:

فالقرآن الكريم هو الذي يوفِّر للعقل الرؤية الشاملة للوجود وامتداداته الزمانية والمكانية، والعقل وسيلة الإنسان لإبصار الآيات وتبيُّن معانيها، والإجابة عن الأسئلة الكثيرة في الكون، ولا تعارض بين العقل والوحي، إذ الوحي بالعقل يُتعقل ويُتدبر ويُفهم ويُطبق، كما العقل بالوحيِ يُوجه ويسدد.

لذا كانت الحاجة ضرورية لتجديد صلة العقل بالقرآن المجيد، وتوجيهه له، حتى يُحصِّل كل جيل منه حظَّه في التدبر والتلاوة والاستبصار والعلم.

وأعظم العلوم التي يربي عليها القرآن الكريم أهله: العلم بالله عَزَّوَجَلَّ وبكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعلم بما فرض الله وسنَّ رسوله ﷺ، وحسب هذا أن يوجه العقل للعلوم والمعارف، ويجعل له من الشمولية والفهم العميق في الحياة، فيسير فيها وفق ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

وقد وضع القرآن الكريم منهجًا للتربية العقلية، من أهم معالم هذا المنهج ما يلي:

١- تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتخمين، أو التبعية والتقليد.

٢- إلزام العقل بالتحرِّي والتثبُّت.

٣- دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون.

٤- دعوة العقل إلى التأمل في حكْمة ما شرع الله.

٥- دعوة العقل إلى النَّظر إلى سُنَّة الله في الناس عبْرَ التاريخ البشري؛ ليتَّعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول[١].

٦- أنَّ "للعقل حداً ينتهي إليه، كما أنَّ للبصر حداً ينتهي إليه"[٢]. والله أعلم..

- المطلب الثاني: الآثار الإيجابية المترتبة على التدبُّر في حياة الأمة:

الأول: **معرفة مقاصد الشريعة عموماً، والقرآن خصوصاً.**

الثاني: **النهوض الحضاري بالأمة.**

الثالث: **انتشار الإسلام والدعوة إليه وقوة التمسك به.**

ويتبيَّن المراد من ذلك على النحو التالي:

الأول: معرفة مقاصد الشريعة عموماً، والقرآن خصوصاً.

من أعظم الآثار الإيجابية على الأمة؛ الناتجة عن تدبُّر القرآن الكريم: معرفة مقاصد الشريعة والقرآن الكريم.

والمقاصد: (هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها سواء أكانت تلك المعاني حِكَماً جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين)[٣].

---

(١) انظر بحث في شبكة الألوكة بعنوان: منهج القرآن والسنة في بناء العقلية العلمية، الباحث: جمال عبد الناصر.

(٢) من كلام الإمام الشافعي، انظر: آداب الشافعي ومناقبه- لابن أبي حاتم (٢٠٧).

(٣) هذا تعريف الدكتور: نور الدين بن مختار الخادمي في كتابه: الاجتهاد المقاصدي (١/ ٥٢-٥٣)، وهو من أجود تعريفات المقاصد وأخصرها، وأدقها.

أ- أهمية معرفة المقاصد في التدبُّر:

من الأمور العظيمة التي يحصل بها معرفة مقاصد الشريعة واستيعابها؛ تدبُّر القرآن الكريم، فالمقاصد تتضمن معنى معرفة مرامي الشريعة القريبة والبعيدة؛ ليتحقق الهدف من التشريع؛ وذلك يحتاج إلى حسن النظر في عواقب الأمور، والتصور للمعنى المراد من اللفظ، من خلال إظهار المقصود بأبلغ لفظ، كما هو أسلوب القرآن في البيان.

ومقاصد القرآن الكريم وأسراره لا تنكشف ولا تتضح إلا بالتدبُّر العميق، مع التفكر في معاني النص ومدلولاته ودقة التأمل وطول النظر فيه.

ومن لم يفهم المقاصد ضلَّ في فهم معاني القرآن والسنة؛ إذ الشريعة مبناها على الكتاب والسنة، فإذا أُغفلت المقاصد فقد أُغفل جزء من الشريعة، ومن لم يفهم مقاصد الشريعة؛ ربما ضلَّ في حمل الظاهر أو المتشابه المحتمل لمعانٍ على المراد منه شرعاً؛ إذ الواجب حمل اللفظ على ما يوافق نصوص الشارع ومقاصده، وإبطال كل تأويل يخالف ذلك ويناقضه[1].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (إنَّ القرآن والسنة لما كان عربيين لم يكن لينظر فيهما إلا عربي، كما أنَّ من لم يعرف مقاصدهما لم يحلَّ له أن يتكلَّم فيهما؛ إذا لا يصح له نظر حتى يكون عالماً بهما، فإنه إذا كان كذلك؛ لم يختلف عليه شيء من الشريعة)[2].

ومن هنا عرف أنَّ الاختلاف في فهم القرآن منشؤه أحد أمرين: ضعف في اللغة العربية واستعمالاتها، أو جهل بمقاصد الشريعة، أو هما معاً[3].

ومن المعلوم أيضاً: أنَّ مقاصد القرآن هي الغايات التي أُنزل القرآن لأجلها، والحِكم والأسرار المودعة في نصوصه وأحكامه، وأنها صيغت بألفاظ وأساليب متنوعة حكيمة

---

(١) انظر: مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً- د/ محمد بكر حبيب (٤٨) بتصرف كثير.

(٢) الموافقات (٣/ ٢١٣).

(٣) انظر: تعليق د. عبد الله دراز على الموافقات (٣/ ٣١).

لتحقيق الغاية والمقصود منها المتمثِّل في التدبر؛ للاهتداء إلى ما فيها من مصالح وفوائد لإيجادها والانتفاع بها، أو إلى ما فيها من مفاسد وأضرار للتوقي منها واجتنابها.

وإنَّ ورود المقاصد والحكم في القرآن بصور متعددة، ومواطن مختلفة، وأساليب متنوعة دليل قاطع على فضيلتها ومنزلتها، وإشارة إلى ضرورة البحث عنها، واستخراج فوائدها وثمراتها النظرية والعملية، كما أنَّ كثرة التعليلات الجزئية وشمولها للنصوص القرآنية العامة والخاصة، دليل قاطع على أهمية التعليل باعتباره منهجاً قرآنياً في ربط النصوص بعللها وأسبابها، والأحكام بحكمها ومقاصدها، والوقائع بآثارها ونتائجها.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، فالتدبُّر إنما يكون لمن التفَت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبُّر)[١].

وهنا تبرز القيمة الكبرى لمعرفة وإدراك مقاصد التشريع عموماً، ومقاصد القرآن خصوصاً، فبمقدار هذه المعرفة يصل الإنسان إلى إدراك الغايات الكبرى من الخلْق والوجود، ويضطلع بمهمة العبودية لله والإعمار والإصلاح[٢].

فالمقاصد لا يستغني عن إدراكها ومعرفتها أحد، سواء كان مفسِّراً أو فقيهاً أو مفتياً أو قاضياً، أو داعيةً أو مربي.

وقد نبّه كثير من العلماء والأصوليين على أهمية المقاصد وضرورتها لفهم نصوص الشريعة.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتَّصف بوصفين: أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والثاني: المكمن من الاستنباط بناء على فهمه فيها)[٣].

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٠٩).

(٢) انظر: المدخل إلى مقاصد القرآن - عبد الكريم الحامدي (٧٥).

(٣) الموافقات (٥/ ٤١-٤٢).

ثم قال: رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا بلغ الإنسان مبلغاً، فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها فقد حصل له وصف هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله)[1].

(والحذر من زلة العالم، وأكثر ما تكون عند الغفلة عن اعتبار مقاصد الشارع في ذلك المعنى الذى اجتهد فيه)[2].

ب- الفرق بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن الكريم:

وقد فرَّق بعض أهل العلم بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن الكريم.

وفي ذلك قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية، وجدناها قد تضمَّنها القرآن على الكمال، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات، ومكمِّل كل واحد منها، وهذا كله ظاهر أيضاً؛ فالخارج من الأدلة عن الكتاب هو السنة والإجماع والقياس، وجميع ذلك إنما نشأ عن القرآن، وقد عدَّ الناس قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥] متضمِّناً للقياس، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧] متضمِّناً للسنة، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥] متضمِّناً للإجماع، وهذا أهمُّ ما يكون)[3].

وقال في موطن آخر: (ومنها: النظر إلى ما دلَّ عليه الكتاب في الجملة، وأنه موجود في السنة على الكمال زيادة إلى ما فيها من البيان والشرح، وذلك أنَّ القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلباً لها، والتعريف بمفاسدهما دفعاً لها... وإذا نظرنا إلى السنة وجدناها لا تزيد على تقرير هذه الأمور؛ فالكتاب أتى بها أصولاً يرجع إليها، والسنة أتت بها تفريعاً على الكتاب وبياناً لما فيه منها...)[4].

---

[1] الموافقات (٥/ ٤٣).

[2] الموافقات (٥/ ١٣٦).

[3] الموافقات (٤/ ١٨٢).

[4] الموافقات (٤/ ٣٤٦).

ومن هنا يتَّضح الفرق: "فإذا كانت مقاصد الشريعة هي الغايات التي وُضعت الشريعة لتحقيقها لمصلحة العباد، فإن مقاصد القرآن: هي المطالب والأهداف التي تُستهدف من النصوص القرآنية، من حيث أنَّ تلك النصوص المؤلفة من جمل وعبارات لها دلالات على معانٍ ومغازي؛ تتمركز تلك المغازي والمعاني حول هدف أو أهداف يشكّل ذلك الهدف أو تلك الأهداف المقاصد القرآنية.

وإذا كانت مقاصد الشريعة هي مطالب تُستهدف من سَنّ القوانين الشرعية، وإجراء الأحكام الفقهية؛ كالكليَّات الخمس التي ذكرها الفقهاء قديماً من حفظ النفس والدين والعِرض والعقل والمال؛ فحفظ هذه الأمور وغيرها من تلك الأمور الكلية والجزئية التي تُستهدف من سنن الشرعة الحنيفة؛ هي المقصد والهدف الذي يترتب على القوانين الشرعية، ففي الشريعة الحنيفة أحكام تُجرى في المجتمع للحفاظ على نظامه مع قطع النظر من كون تلك الأحكام في قالب نص أم لا، فإن مقاصد القرآن هي المطالب التي تُستهدف من النص القرآني اللفظي، وأما مقاصد الشريعة فهي الأهداف التي تُستهدف من الأحكام التشريعية الإجرائية فهما مصطلحان يختلفان مفهوماً ومضموناً، وإن اتحدا في بعض ما يصدقان عليه من بعض الأفراد كالعدالة.

وهكذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد حوى أصول مقاصد الشريعة من ضروريات وحاجيات وتحسينيات، كما حوى العديد من المقاصد العامة والخاصة والجزئية للقرآن وسوره آياته"[1].

---

(١) انظر بحث: الإدراك المقاصدي محدد من محددات التدبر، د/ محمد المنتار، ص(٨-٩)، من بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ.

ج- من مقاصد الشريعة التي تتحقق معرفتها بالتدبُّر.

ومن هذه المقاصد:

١- رفع الحرج.

فقد نصَّت آيات من القرآن الكريم على رفع الحرج ونفيه عن هذا الدين، آيتان منها تنفي الحرج عن الدين كله وبخاصة آية الحج، والآيات الأخر تنفي الحرج عن فئات معينة وفي حالات خاصة، وهذا لا يعني أنها قاصرة في الدلالة على من نصَّت عليهم الآيات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

- قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]، هذا الجزء من الآية الكريمة جاء ختاماً لبيان أحكام الوضوء والغسل والجنابة، والتيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله، مما يتبيَّن معه أن المشقَّة ليست هي الغاية في هذه التشريعات، إنما التكليف مع التخفيف للتطهير وإتمام النعمة.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

جاء تعقيباً بعدما أمر الله تبارك وتعالى عباده بالركوع والسجود والطاعات من العبادة وفعل الخير والمجاهدة في الله تعالى حقَّ جهاده، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

فدلَّ على أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يكلف عباده ما لا يطيقون، ولم يلزمهم بشيء يشقُّ عليهم إلا جعل لهم فرجاً ومخرجاً.

- وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩١]، وقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١]، [الفتح:١٧]، وهذه الآيات" أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شي سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو غرم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦][١].

فكلُّ هؤلاء ليس عليهم إثم ولا ذنب إذا تخلفوا عن الجهاد؛ إذا نصحوا لله ورسوله، وأقاموا في البلد، واحترزوا من إلقاء الأراجيف، وإثارة الفتن، وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين، إما بإصلاح مهمات بيوتهم، وإما بالسعي في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم، فإنَّ جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد[٢].

٢- التيسير والتخفيف.

وهذا من أهم المقاصد الشرعية التي وردت في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، فشاع في الأحكام التكليفية مقصد اليسر، وتلك هي إرادة الله عَزَّوَجَلَّ، وهي جلية بينة أيضاً في رفع الحرج ونفيه عن هذه الشريعة السمحة، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

فبيَّن أنه سبحانه وتعالى أراد بتشريعه الأحكام اليسر، واليسر: كل ما يجهد النفس ولا يثقل الجسم، أمَّا العسر فهو ما يجهِد النفس ويضرُّ الجسم، ودلالتها على المقصود ظاهرة جلية، فإذا أراد الله اليسر ونفى العسر فقد نفى الحرج.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٦/ ١٢١).

- وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]، فالله سبحانه وتعالى يسرد لهذا المخلوق الضعيف التخفيف والرحمة، واليسر ورفع الحرج والمشقة، وإزالة الضرر.

- قوله تعالى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨]. أي للحنفية السمحة السهلة التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر.

٣- حفظ الضروريات الخمس.

وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وقد دعت الشريعة للحفاظ عليها من جانب الوجود والعدم؛ بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران.

والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبِّت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم[١].

١- حفظ الدين:

وهو أكبر الكليات الخمس وأرقاها، ومعناه: تثبيت أركان الدين وأحكامه في الوجود الإنساني والحياة الكونية، ويقصد به الحفاظ على مصلحة الدين من جانب الوجود - أي إبقاؤه على سبيل الدوام — من خلال: الإيمان، والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما أشبه ذلك[٢]، وهذا الواجب الذي أوجبه الله على عباده بالرغم من

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ١٨).

(٢) انظر: الموافقات (٢/ ١٨-١٩)، علم المقاصد الشرعية للخادمي (٨١).

أنه حق الله على عباده إلا أنَّ مصالحه تعود عليهم في الدنيا والآخرة، وهو أيضاً وسيلة لتحصيل جميع الفضائل الضرورية.

وأما الحفاظ عليه من جانب العدم فمن أمثلته: تشريع الجهاد والترغيب فيه، وتحريم الردة، وتشريع حدِّ الردة، ونحو ذلك[1].

ومن الآيات التي جاءت بحفظ الدين:

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالحجج لائحة، والبراهين ظاهرة واضحة، والحقوق الأزلية معلومة، والحدود الأولية معلولة[2].

وقوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فأرسل الله الرسل حفظاً للدين، وتقويماً للعالمين.

٢- حفظ النفس:

ومعناه حفظ الأرواح من التلف أفراداً وعموماً، لأنَّ العالم مركَّب من أفراد الإنسان؛ ويكون عن طريق تشريع الحلال والحرام، الذي هو معيار النفع والضرر، ومرجع ذلك: أنَّ المصالح والمفاسد لا يستطيع العقل البشري أن يحيط بها إحاطة تامة، وإنما مرد ذلك إلى عالم الغيب والشهادة سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الذي قال: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

---

[1] انظر: مدخل إلى علم المقاصد- د/ فارس العزاوي (٤١).

[2] انظر: لطائف الإشارات (١/ ١٩٨).

أما الحفاظ على النفس من جانب العدم: فمن أمثلته: تحريم القتل، ومنع التمثيل والتشويه، ومعاقبة المحاربين وقطاع الطرق، وغير ذلك.

ومن الآيات التي جاءت بحفظ النفس:

قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩]، فجعل الله فيما فرض من القصاص في النفوس والجراح، ما يمنع الآخرين من القتل والإيذاء، فكان هذا الحكم لهم حياة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فمنع في هذه الآية من كلِّ ما يؤدي بالنفس البشرية إلى الهلكة.

ورتَّب سبحانه الوعيد الشديد، والعذاب الأليم لمن يعتدي على حرمة النفس البشرية، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣].

ومنع من الأطعمة التي تضرُّ النفس، وتهلكها، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة:٣].

٣- حفظ العقل:

والمقصود: حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، ومن مكانة العقل العظيمة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر الإنسان بالتفكُّر والتدبُّر والتأمل، وميَّزه بذلك عن كثير من المخلوقات، وأثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أصحاب العقول السليمة؛ المتفكِّرين والمتدبِّرين.

فبذلك حفظه من جانب الوجود؛ عن طريق نشر العلم وتعليمه، وأدواته التي ذكرها الله في كتابه[1]، وجاءت بذلك النصوص الكثيرة في الحثِّ على العلم وفضله.

ومن الآيات التي جاءت لحفظ العقل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار[2].

وأمر بدعائه بزيادة العلم، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

أما حفظه من جانب العدم: فبمنع أن يدخل عليه خلل يفضي إلى فساده، ومنع ما يعيقه ويعطله، كتحريم المسكرات والمخدرات والمفترات، وكل ما يغيب العقل عن دوره في التفكُّر والتدبُّر، وكمنع كثرة السهر ودوامه، وقتل الأوقات وإضاعتها، ووضع حدود للعقل لا يتعدَّاها؛ وذلك لأنَّ إطلاق العقل وتحريره بشكل مطلق يؤدي لا محالة إلى مفاسد لا تقلُّ خطورة عن مفاسد تعطيله وتحجيم دوره[3].

٤- حفظ النسل:

فإنَّ التناسل والتوالد أساس لإعمار الكون.

وحفظ النسب معناه: القيام بالتناسل المشروع عن طريق العلاقة الزوجية الشرعية.

---

(١) مثل: التفكُّر والتفكير والتدبُّر والتأمُّل والنظر وغيرها، ومن الرسائل العلمية النافعة، التي تناولت حفظ العقل بمزيد بيان، رسالة ماجستير بعنوان: (حفظ العقل عند ابن عاشور في تفسيره) للباحث: محمود باي، في كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية قسم الشريعة، في جامعة الحاج لخضر بباتنة بالجزائر. ورسالة ماجستير بعنوان: (إقامة الحدود في الشريعة الإسلامية لحفظ المال وحفظ العقل وأثرها في إصلاح المجتمع)، من كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر بالقاهرة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٧٢٠).

(٣) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (٣٠٣)، علم المقاصد الشرعية للخادمي (٨٢).

وحفظ العرض معناه: صيانة الكرامة والعفة والشرف. والمعاني الثلاثة المذكورة النسل، والنسب، والعرض.

وجاء ذلك عن طريق تشريع الزواج والترغيب فيه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء:٣]، وجعل الله الزواج من سنن المرسلين، كما قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

وكذلك بالوصية بتربية النشء، والعناية بغرس القيم الصالحة في نفوسهم.

أما الحفاظ عليه من جانب العدم: فيكون عن طريق تحريم الزنا وسد منافذه وذرائعه، كالخلوة والتبرج والنظرة بشهوة والملامسة والالتصاق، وتحريم اللواط والقذف، وتشريع العقوبة عليها.

وحفظ الأنساب -أي النسل- من التعطيل من الضروري، لأنَّ النسل هو خِلْفَة أفراد النوع، وتعطيله يؤول إلى اضمحلال النوع وانتقاصه، كما قال لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وعليه فيجب أن يحفظ ذكور الأمة من الاختصاء مثلاً، وأن تحفظ إناث الأمة من قطع الأرحام التي بها الولادة، ونحو ذلك مما يتعطَّل به النسل[2].

ومما امتنَّ الله به على عباده، أن خلق لهم أزواجاً يسكنون إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

---

(١) سبق تخريجه ص(٤١٠).

(٢) انظر: مقاصد الشريعة لابن عاشور (٣٠٤)، علم المقاصد الشرعية للخادمي (٨٣-٨٤).

وفيها دعوة لإعمال الذِّهن، وتدبُّر شأن هذا الأمر الإلهي العظيم.

٥- حفظ المال:

والمقصود به: حفظ المال من الإتلاف، وإنماؤه وإثراؤه وصيانته، فهو قوام الأعمال؛ لذلك عدَّ مقصدًا شرعيًا كليًا وقطعيًا لدلالة النصوص والأحكام عليه.

ومن أمثلة حفظه من جانب الوجود: الحثُّ على العمل، والضرب في الأرض، والبحث عن الرزق، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

ويكون حفظه أيضاً: عن طريق تداول المال، وإبعاده عن مواطن النزاع والخصومة والتضرر، والعدل فيه بوضعه في موضعه الذي وُجد من أجله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وأما حفظه من جانب العدم، فمن صوره: حفظ أجزاء المال المعتبرة عن التلف بدون عوض، ومنعه من الخروج إلى أيدي غير الأمة بدون عوض، والنهي عن التبذير والإسراف وإضاعة الأموال، وتحريم السرقة والحرابة، وتشريع العقوبة عليهما، ومنع إنفاق المال في الوجوه غير المشروعة، والحثِّ على إنفاقه في سبل الخير[١].

ومن الآيات التي جاءت بحفظ المال:

قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥]، وهذا أصل في حلِّ جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يردَ ما يدلُّ على المنع، ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة[٢].

---

[١] انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (٣٠٤)، علم المقاصد الشرعية للخادمي (٨٤).

[٢] انظر: تيسير الكريم الرحمن (١١٦).

ونهى سبحانه عن دفع المال للسفهاء حتى لا ينفقوه فيما لا ينفع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء:٥].

ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

ورتَّب عظيم العقوبة بقطع يد السارق لاعتدائه على أموال الغير في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨].

آيات الوصايا العشر:

وقد جاءت في القرآن آيات شملت الضروريات الخمس مجتمعة، وقد اعتنى بها العلماء في التفسير عموماً، ومنهم من أفردها بمزيد بيان وبحث مخصوص، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

فقد اشتمل قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ على حفظ الدين.

واشتمل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ على حفظ النفس.

واشتمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ على حفظ النسل والعرض.

واشتمل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ على حفظ العقل.

واشتمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ على حفظ المال.

والأمثلة على ذلك كثيرة.

٤ – الدعوة إلى إعمار الأرض وإقامة العدل فيها.

وهذه من مقاصد الشريعة التي تتحقق معرفتها بتدبُّر القرآن الكريم وفهمه.

ومن ذلك: الدعوة إلى الإصلاح والإرشاد، والنهي عن الفساد والبغي والمنكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

والدعوة إلى الوحدة والاتفاق والقوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وهذا الاعتصام والوحدة في الحق، يعين على إعداد العدَّة ضدَّ العدو، واجتماع القوة ضدَّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

ومن المقاصد الشرعية العظيمة: تحقيق العدل في الأقوال والأفعال:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، والعدل ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم.

وقال سبحانه آمراً بالقسط والعدل حتى مع الأقربين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وبيَّن أن هذا من أساس مهمَّة إرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد:٢٥].

قال العزُّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٦٠هـ): (وأجمع آية في القرآن للحثِّ على المصالح كلها والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، فإنَّ الألف واللام في العدل والإحسان للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دقِّ العدل وجلِّه شيء إلا اندرج في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل:٩٠]، ولا يبقى من دقِّ الإحسان وجلِّه شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان، والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان: إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة وكذلك الألف واللام في الفحشاء والمنكر والبغي عامة مستغرقة لأنواع الفواحش ولما يذكر من الأقوال والأعمال، وأفرد البغي -وهو ظلم الناس- بالذكر مع اندراجه في الفحشاء والمنكر للاهتمام به، فإنَّ العرب إذا اهتموا أتوا بمسميات العام، ولهذا أفرد البغي وهو الظلم مع اندراجه في الفحشاء والمنكر للاهتمام به، كما أفرد إيتاء ذي القربى بالذِّكر مع اندراجه بالعدل والإحسان)[1].

---

[1] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ١٨٩-١٩٠).

"والأصل في العقود جميعها هو العدل؛ فإنه بعثت به الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]"[١].

و"العدل في العبادات من أكبر مقاصد الشارع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [المائدة:٨٧]"[٢].

"وأمر العالم في الشريعة مبني على العدل في الدماء والأموال؛ والأبضاع والأنساب؛ والأعراض"[٣].

٥ - درء المفاسد، وإعمال المصالح.

تضمَّن القرآن الكريم أصول المقاصد ومكملاتها، وعامة النصوص الشرعية جاءت بتحقيق المصالح، ودرء المفاسد.

"ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"[٤].

و"الشريعة كلُّها مصالح؛ إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فتأمَّل وصيَّته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثُّك عليه أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحثُّ والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح"[٥].

---

[١] مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥١٠).

[٢] مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٥٠).

[٣] مجموع الفتاوى (١٨/ ١٦٧).

[٤] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٨).

[٥] المرجع السابق (١/ ١١)، وهو مبني على أثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سبق تخريجه.

"ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أنَّ الله أمر بكلِّ خير دقَّه وجلَّه، وزجر عن كلِّ شر دقَّه وجلَّه، فإنَّ الخير يعبَّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشرُّ يعبَّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]"[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (إنَّ الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين وشرَّ الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما)[٢].

"وبالجملة، فالمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة:

الأولى: درء المفاسد -المعروف عند أهل الأصول: بالضروريات-.

والثانية: جلب المصالح، -المعروف عند أهل الأصول: بالحاجيات-.

والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينيات والتتميمات.

وكلُّ هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها"[٣].

ومن خلال النظر في الكلام السابق لأهل العلم، نستخلص منه ما يلي:

أ- أنَّ القرآن دلَّ على أنواع المصالح جلباً لها، وعلى أنواع المفاسد دفعاً لها.

---

[١] المرجع السابق (٢/ ١٨٩).

[٢] مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٨).

[٣] أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٧).

ب- أنَّ القرآن الكريم عبَّر عن أنواع المصالح والمفاسد بألفاظ كليَّة جامعة، مثل: العدل، والإحسان، والخير، والبر، في جانب المصالح، والسر، والفحشاء، والمنكر، والبغي، في جانب المفاسد.

ج- أنَّ ما في الشريعة من المصالح قد تضمَّنه القرآن الكريم.

فالمقصود الأول من نزول القرآن الكريم هو بيان الحسنات والسيئات، والخير والشر، والنفع والضر، وعامة ذلك يرجع إلى درء المفاسد، وجلب المصالح[1].

٦- معرفة الحِكَم وعلل الأحكام.

فمن خلال تدبُّر القرآن الكريم أيضاً: تُعرَف الكثير من الحكم والعلل والأسرار والمقاصد الجزئية، التي تعلقت بأحكامها الفرعية، ومن أمثلة ذلك:

في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، حكمة إيجاب الصوم، والتي هي تحصيل التقوى.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِۖ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، حكمة اعتزال النساء في الحيض، والتي هي دفع الأذى.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ثمَّ قال بعد توضيح الأحكام: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وفي هذا بيان للحكمة من كتابة الدين والإشهاد عليه؛ أنَّ ذلك أقرب إلى اليقين والصدق، وأبعد عن الجهل والكذب، وسبب للحفظ والذكر، وأقرب إلى الاستقامة، وإلى زوال الشك والارتياب عن قلوب المتداينين.

---

[1] انظر: توظيف المقاصد في تدبُّر القرآن - د/ يوسف البدوي (٣٢) - من بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]، بيان أنَّ من حِكَم تحريم الخمر: إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، بيان أنَّ من حِكَم تحريم الزنا: فحشه، وسوء سبيله، ومفاسد مآله.

وفي قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج:٢٨]، توضيح أنَّ من حِكَم الحج: تحصيل المنافع، وذكر الله وتوحيده.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١]، بيان حكمة تشريع الزواج، والتي هي السَّكَن، والمودة، وإعمار الأرض.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣]، توضيح أنَّ من حكمة فرض الجهاد: تحصيل رضا الله ومحبته، ودفع الظلم عن المسلمين، والذبُّ عن دينهم ومنعتهم، ونصرهم على أعدائهم.

والحاصل: أنَّ القرآن الكريم ينطوي على أرقى المقاصد وأكبرها، وأعلى المصالح وأعظمها، فهو أصل الأصول ومصدر المصادر، وأساس النقول والعقول.

وإنَّ جميع المقاصد الشرعية المعتبرة والمعلومة والمقررة في الدراسات الشرعية إنما هي راجعة في جملتها أو تفصيلها، تصريحاً أو تضميناً إلى هدي القرآن وتعاليمه وأسراره وتوجيهاته.

وهناك أنواع كثيرة من المقاصد الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع مختلفة بالتصريح والإيماء تارة، والإجمال والتفصيل تارة أخرى[(١)].

د- من مقاصد القرآن الكريم التي تتحقق بالتدبُّر.

لقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن الكريم خاتماً للشرائع، ووثيقة ربانية محفوظة من التغيير، فيه الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]، ولما كان كذلك؛ تضمَّن المبادئ العامة، والمقاصد الأساسية للتشريع؛ ما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان.

ومقاصد القرآن حصرها العلامة ابن عاشور في مقدمة تفسيره، في أمور ثمانية هي:

الأول: إصلاح الاعتقاد، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهِّر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١]، فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

وإصلاح الاعتقاد يكون بتوحيد الخالق عَزَّوَجَلَّ والامتثال له، وإخلاص العبادة لله وحده، وقد دلّت على ذلك آيات كثيرة، منها بيان غاية الخلق في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

والتأكيد على أنَّ الخلْق خُلقوا لغاية عظيمة، ولم يوجَدوا عبثاً في نحو قوله سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

---

(١) انظر: علم المقاصد الشرعية للخادمي (٣٢).

وتأصيل لعظمة الخالق، وحثٌّ على ضرورة الصبر على عبادته سبحانه، في مثل قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥].

وأمر بإخلاص كلِّ الدين له، وتصفيته من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، إفراد له بالطاعة والعبادة، وعدم خلطها بشرك، فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم:٤]، وفسَّرت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا لما سئلت عن خُلُقه ﷺ فقالت: (كَانَ الْقُرْآنَ)[١].

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[٢].

وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب؛ بله خاصة الصحابة.

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٨].

---

[١] سبق تخريجه ص(٢٢١).

[٢] **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٢٤) برقم: (٣١٧٧٣)، وأحمد في مسنده (١٤/ ٥١٣) برقم: (٨٩٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) برقم: (٤٢٢١)، والبيهقي في الشعب (١٠/ ٣٥٢) برقم: (٧٦٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩)، وفي صحيح الأدب المفرد (٢٠٧).

ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب، وجزئيا في المهم، فقوله تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، المراد بهما: إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس.

الرابع: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسّي بصالح أحوالهم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وللتحذير من مساويهم قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم:٤٥]، وفي خلالها تعليم.

الخامس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقِّي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، والله سبحانه يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر:٩].

السادس: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

وقد يأتي في آية واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

أو في آيتين، مثل قوله سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، فيه ترغيب، ثم يأتي الترهيب في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٥٠].

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

السابع: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدى لأجله بمعناه، والتحدي وقع فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨] (١).

ويمكن أن يضاف على ذلك من المقاصد أمور منها:

الثامن: مخالفة الهوى: كما في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

فالإنسان مأمور بمخالفة هواه، والأصل: أن تكون محبة الإنسان، وبغضه، وإرادته، وكراهته؛ موافقة لحبِّ الله، وبغضه، وإرادته، وكراهته الشرعيين(٢).

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٩٠هـ): (المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلَّف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبدٌ لله اضطراراً)(٣).

التاسع: سياسة الأمة بالاتفاق والائتلاف وعدم التفرق والاختلاف:

وهذا باب عظيم في القرآن، يقصد منه صلاح الأمة، وحفظ نظامها، وتأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، وكلُّها من المقاصد العامة التي دعا إليها القرآن الكريم، ومما يدلُّ على ذلك الأمر بالاعتصام في مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ٣٩-٤١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٤٦)، (٢٨/ ١٣١).

(٣) الموافقات (٢/ ٢٨٩).

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذۡكُرُوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والنهي عن مشابهة الذين تفرَّقوا واختلفوا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخۡتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥].

والتحذير منهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمۡ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

والأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين، في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُوا۟ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ [الأنفال:١].

والنهي عن التنازع كما في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفۡشَلُوا۟ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [الأنفال:٤٦].

والثناء على أهل الشورى بينهم في قوله سبحانه: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الشورى:٣٨].

وغيرها من الآيات التي تأمر بالائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف[(١)].

وقد تكررت هذه المقاصد وتنوع ذكرها في آيات القرآن الكريم.

قال الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٤هـ): (إنَّ مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وإدخالهم في طور الرشد، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم، وترقية عقولهم، وتزكية أنفسهم؛ منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة، ومنها ما لا تحصل الغاية إلا بتكرار كثير لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ويينع ثمره، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١).

ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة، ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية.

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم، لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين، وقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢])[١]. والله أعلم.

الثاني: النهوض الحضاري بالأمة:

من الآثار الإيجابية على الأمة لتدبُّر القرآن الكريم؛ النهوض الحضاري بها، ورجوعها إلى مركزها ومكانها الحقيقي بين الأمم، والارتقاء بها في كافة ميادين الحياة؛ العلمية، والفكرية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ومن نظَر في حال العرب قبل القرآن عرف كيف كانوا يرزَحون في ظلمات بعضها فوق بعض؛ جعلت منهم أمَّة فاسدة الأخلاق، حاوية لأسوأ خصائص الجاهلية.

ولا أدلَّ على ذلك من قول أبي رجاء العطاردي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (١٠٥هـ)[٢]، حين قال: (ولم أر ناساً كانوا أضلَّ من العرب، وكانوا يجيئون بالشاة البيضاء فيعبدونها، فيجيء الذئب فيذهب بها، فيأخذون أخرى مكانها فيعبدونها)[٣].

---

[١] تفسير المنار (١١/ ١٧٠-١٧١).

[٢] **أبو رجاء العطاردي**= عمران بن ملحان التميمي، البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة، ولم ير النبي ﷺ، وكان عابداً، كثير الصلاة وتلاوة القرآن، مات سنة خمس ومائة، وله أزيد من مائة وعشرين سنة. انظر: الاستيعاب (٣/ ١٢٠٩)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣).

[٣] ذكره في ترجمته ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢١٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٤).

وقَالَ: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجَراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثمَّ جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به)[١].

حتى جاء الإسلام بالعظمة، ونزل القرآن بالحكمة، وتدبَّره القوم؛ فتغيَّر وجه الأرض، ونهض هؤلاء وارتقوا حتى عانقوا الجوزاء، بنهضة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

نزل القرآن الكريم فأضحت هذه الأمة به قائدة الأمم؛ فتح المسلمون به الأمصار، وملكوا الأقطار، وكسروا به الأكاسرة، وقصروا به القياصرة، وبلغوا به من المجد مبلغاً في زمن يسير مقارنة بأزمنة سنن التغيير في الكون.

روى عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، أنه قال ذات يوم في خطبته: «... **وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**»[٢].

وخطب ﷺ يوماً الأنصار فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي**»، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: (اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ)[٣].

وفي هذا دلالة على النهضة الشاملة التي تحققت برسالة النبي ﷺ ودعوته التي كانت بالقرآن الكريم.

لقد نهض القرآن بالأمة نهضة حضارية واضحة، ظهرت معالمها في مثل قول ربعى بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقائد الفرس: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٣٧٦) في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمالة بن أثال.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٦٥) في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٣٣٠) في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٠٦١) في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه.

عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله)[1].

لقد "أَصْلَحَهم القرآن لما استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكَّموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف"[2].

فهم حين أحسنوا التعامل مع القرآن تلاوة وفهماً وتدبراً وامتثالاً؛ أحسن القرآن وفادتهم، فتسنَّموا به ذروة المجد.

لقد ظهر أثر التدبُّر واضحاً عليهم في المواقف العصيبة، وعند التمكين والنصر، وفي السياسة والحرب، وفي شؤون حياتهم كلها. وسأقف على نماذج من ذلك:

النموذج الأول: في قصة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين فرغ من اليمامة، كتب إليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو باليمامة كتاباً قال فيه: (من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد والذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزَّ وليه، وأذلَّ عدوه، وغلب الأحزاب فرداً، فإنَّ الله الذي لا إله هو قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]. وعداً منه لا خُلف له،

---

[1] انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري (٣/ ٥٢٠)، المنتظم لابن الجوزي (٤/ ١٦٨).

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٢٢٧).

ومقالا لا ريب فيه، وفرض الجهاد على المؤمنين فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، فاستتموا بوعد الله إياكم، وأطيعوه فيما فرض عليكم، وإن عظمت فيه المؤنة، واستبدت الرزية، وبعدت المشقة، وفجعتم في ذلك بالأموال والأنفس فإنَّ ذلك يسير في عظيم ثواب الله؛ فاغزوا رحمكم الله في سبيل الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١]، ألا وقد أمَرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق، فلا يبرحها حتى يأتيه أمري، فسيروا معه، ولا تتثاقلوا عنه، فإنه سبيل يعظِم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته، وعظمت في الخير رغبته، فإذا وقعتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمري، كفانا الله وإياكم مهمات الدنيا والآخرة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[1].

فتعامل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -حين جاءه خبر النصر- بالمعايير القرآنية الدقيقة، وأسند الفضل لصاحب الفضل سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وطلب من الرعية الحفاظ على شرط النصر مهما كلَّفهم ذلك.

وهذا خطاب المؤمن الواثق، والقائد المحنَّك، الذي عاش مع القرآن الكريم متدبِّراً وممتثلاً، ومتبعاً وعاملاً، ومجاهداً.

النموذج الثاني: عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تدبَّر آيات الدعوة إلى الله، ووجوب نشر دين الله؛ أصدر قراره، وانتدب الناس إلى الخروج إلى بلاد فارس فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجْعة[2]، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين الطرَّاء[3] المهاجرون

---

[1] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٠٢) برقم: (١٨٦١٠).

[2] **النُّجْعَةُ** = طلب الكلأ والخير، وأصل النجعة طلب الْكلأ ثمَّ صَار كل طَالب حَاجَة منتجعاً. انظر: العين (١/ ٢٣٣)، جمهرة اللغة (١/ ٤٨٥).

[3] **الطُّرَّاء** = هم الَّذين يأْتونَ من مَكَان بعيد. انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٨).

عن موعود الله؟! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، والله مظهرٌ دينه، ومعزٌّ ناصره، ومولي أهله مواريث الأمم، أين عباد الله الصالحون؟! فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود)[١].

فحين استشعر عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثِقل الأمانة، وعِظم المسؤولية، حثَّ الناس للخروج للدعوة إلى الله، وانتدبهم لذلك.

النموذج الثالث: خطب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يوم القادسية، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: (إنَّ الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، إنَّ هذا ميراثكم، وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها، وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعزُّ من وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرِّب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا؛ تذهب ريحكم، وتوبقوا آخرتكم)[٢].

فها هو بعد انتصار وفرح، يربط الناس بالمنهج الشرعي، ويثبِّت القيم الخالدة العظيمة في نفوسهم، فحذَّرهم من الاغترار بالدنيا ومنافستها والركون إليها حتى لا تزول النعمة من ربهم، وتذهب ريحهم: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، وهذا منهج المتدبِّرين لكتاب رب العالمين.

---

[١] ذكره عنه الطبري في تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٤٥)، المنتظم لابن الجوزي (٤/ ١٤٥).

[٢] ذكره عنه الطبري في تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٥٣١)، المنتظم لابن الجوزي (٤/ ١٧١).

فالأمة تحتاج إلى يقظة ضمير، وإعمال فكر، وتدبُّر عميق، حتى ترجع إلى نهوضها الحضاري بين الأمم، فتعمل بهذا الكتاب العظيم، بعلم وبصيرة، ومنهج واضح ثابت.

لقد تمثَّلت مظاهر النهضة الحضارية في القرآن الكريم -لمن تدبَّره- في أمور كثيرة، أشير لها بإشارات، وأسأل الله العون والتوفيق، وأن يعيد للأمة مجدها وعزَّها وسؤددها وكرامتها.

ومن هذه المظاهر العظيمة:

أ- هداية القرآن للتي هي أقوم.

إنَّ من أبرز مظاهر النهضة الحضارية في القرآن الكريم أنه ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، "على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية، ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

و ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلُّها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلِّعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

و ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشقُّ التكاليف على النفس حتى تملَّ وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

و ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض؛ الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

و ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلُّها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام"[1].

وقد كتب العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ) في تفسير هذه الآية الكريمة نحواً من ستين صفحة وهو يتحدث عن نماذج عالجها القرآن، وهدى لأقوم الطرق في حلها[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه الآية الكريمة أجمل الله عَزَّوَجَلَّ فيها جميع ما في القرآن من الهدى؛ إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة، من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم؛ بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة)[3].

ثم سرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من المسائل العقدية والاجتماعية.

---

[1] في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٥).

[2] كما ألَّف الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٢هـ) مجلدين كبيرين حول هذا الموضوع بعنوان: الأنوار الساطعات لآيات جامعات، أو: البرهان المحكم في أنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم.

[3] أضواء البيان (٣/ ١٧).

لقد كان من أعظم أسباب التأثير الذي أحدثه النبي ﷺ في نفوس المدعويين؛ هو الصفاء الخُلُقي العظيم الذي كان يمارسه في حياته وتعاملاته، والتي جعلت هرقل يقول بعفوية: (فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ)[1].

فلو امتثل المسلمون المنهج القرآني في حياتهم، فتدبَّروا القرآن وعملوا بما فيه؟ لصاروا مشاعل الهدى والنور في أرجاء المعمورة، ولعادت لهم نهضتهم وعزَّتهم وحضارتهم، ولملؤوا الدنيا عدلاً وعظمة ورفعة، والله سبحانه غالب على أمره؛ ولذا يدعو عباده إلى العودة إلى القرآن وتطبيقه والعمل به، حتى ترجع لهم قوتهم وهيبتهم.

ب) إبراز المشكلات الاجتماعية والأخلاقية، وعلاجها.

لقد نهضت الأمة حين تدبَّرت كتاب الله، وعملت به، فتلاشت مشكلاتها الاجتماعية والسلوكية، ولم يعد لها أثر ظاهر؛ ذلك أنَّ جيل القرآن الأول كان حازماً في قبول الأمر وتنفيذه، جازماً في الامتناع عما نهي عنه، ومن أمثلة ذلك:

الأول: حين نزلت آية تحريم الخمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فَقَالَ الْقَوْمُ: (فَقَدِ انْتَهَيْنَا يَا رَبَّنَا)[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: ((٢٩٤٠) في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام، وبرقم: (٤٥٥٣) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٧٣) في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

[2] أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٤/ ١٥٦٩) برقم: (٨٠٨).

الثاني: حين أنزل الله براءة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا في حادثة الإفك، قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ - وكان ينفق على مِسطَح بن أثاثة لقرابته منه وفقره- والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]، قال أبو بكر الصديق: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: (والله لا أنزعها منه أبداً)[1].

الثالث: عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد دُرِست ليس بينهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بِشْرٌ أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهِ أَسْطَامًا فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، فَبَكَى الرَّجُلَانِ، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لِصَاحِبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا.. أَمَّا إِذَا فَعَلْتُمَا هَذَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ لِيُحَلِّلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ**»[2].

---

[1] سبق تخريجه ص(٢٤٥).

[2] أصل الحديث في الصحيحين: أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٤٥٨) في كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، بلفظ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»، وبرقم: (٢٦٨٠) في كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، وبرقم: (٦٩٦٧) في كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضى بقيمة الجارية الميتة، ثمَّ وجدها صاحبها فهي له، ويرد القيمة، ولا تكون القيمة ثمناً، وبرقم: (٧١٦٨) في كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، وبرقم: (٧١٨١) باب من قضي له بحقِّ أخيه فلا يأخذه فإنَّ قضاء الحاكم لا يحلّ، وبرقم: (٧١٨٤) في باب القضاء في قليل المال وكثيره سواء. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧١٣) في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة. وزيادة القصة أخرجها إسحاق ابن راهويه في مسنده =

فقد كان الناس على مستوى رفيع من الوعي والأخلاق الراقية، وكانوا يتعاملون بالمروءات فتقلُّ بينهم الخصومات، مما خفَّف الأعباء عن القضاة.

ومن ذلك: قصَّة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عيَّنه أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاضياً على المدينة؛ فمكث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة كاملة لم يختصم إليه اثنان، ولم يعقد جلسة قضاء واحدة[1].

وقال أبو وائل شقيق بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٠٤هـ)[2]: (اختلفتُ إلى سلمان بن ربيعة[3] حين قدم على قضاء الكوفة أربعين صباحاً لا أجد عنده فيها خصماً)[4].

وسبب ذلك: أنَّ القوم لَّما عملوا بالقرآن، وانتهجوه في حياتهم؛ "عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثرَ منه، وما عليه من واجب فلم يقصّر في أدائه أحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقّدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج

(٤/ ٦١) برقم: (١٨٢٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٥٤١) برقم: (٢٢٩٧٤)، وأحمد في مسنده (٤٤/ ٣٠٨) برقم: (٢٦٧١٧)، وصححها الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٨١٧).

[1] ذكره عنه وكيع في أخبار القضاة (١/ ١٠٤)، والطبري في تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٢٦)، والمسعودي في التنبيه والإشراف (٢٥٤)، وابن الجوزي في المنتظم (٤/ ٧٠).

وقال ابن عبد البر في التمهيد (١١/ ٩٧): (إن أبا بكر لم يكن له قاض وهذا أمر لم أعلم فيه خلافاً). والله أعلم.

[2] **شقيق بن سلمة** = أَبو وائل، الأَسَدِيّ، أدرك النَّبيَّ ﷺ، وما رآه، وحدث عن: عمر، وعثمان، وعلي وجماعة من الصحابة، ثقة، كثير الحديث، قال عنه الذهبي: (كان هذا السيد رأسا في العلم والعمل)، مات سنة اثنتين وثمانين. انظر: التاريخ الكبير (٤/ ٢٤٥)، مشاهير علماء الأمصار (١٥٩)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦١).

[3] **سلمان بن ربيعة** = الباهلي، اختلف في صحبته، وهو أول قاضٍ قضى لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة في العراق، وشهد القادسية والمدائن، وقتل في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سنة خمس وعشرين للهجرة في (بلنجر) من أرض الترك، وهي اليوم في داغستان. انظر: تاريخ خليفة خياط (١٥٥)، المعارف لابن قتيبة (٤٣٣)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٤٦٢).

[4] الجوهرة في أنساب النبي وأصحابه العشرة (١/ ٣٤٧).

ساعدوه، وإذا أصيب عزّوه وواسوه، دينهم النصيحة، وخلّتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيم يختصمون؟ "[١].

ج) شمولية القرآن الكريم على النظريات والقواعد في العلوم الحياتية المختلفة.

لقد اشتمل القرآن الكريم على نظريات علمية، وقواعد حياتية متنوعة؛ جعلت منه مصدراً لعلوم كثيرة مما جعله كتاب الحضارة والرقي للبشرية متى تمسَّكوا به.

حين تمسَّك به الرعيل الأول ومن تبعَهم بإحسان؛ وتدبَّروه وأحسنوا فهمه وتطبيقه؛ نهضوا بالأمة حضارياً وفكرياً وثقافياً، وصار علماء المسلمين على مرِّ التاريخ هم الأطباء والمفكِّرون والمهندسون والفلكيون والسياسيون والاقتصاديون، وأهل التربية والإصلاح والابتكار، والتجريب والاستثمار، والبحث والزراعة والصناعة، حتى بلغوا ذروة المجد، وسادوا العالم، وأُخذت عنهم العلوم والمعارف العظيمة.

لقد تضمَّن القرآن الكريم نظريات وقواعد حياتية غيَّرت وصنعت نظريات العلماء في كافة العلوم والتخصصات، وسأضرب لذلك أمثلة واضحة:

المثال الأول: في الكون والخلْق والإنسان.

وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، منها: بيان أطوار خلق الإنسان وأحواله، ونفسيته، وطبيعته، ونحو ذلك في آيات كثيرة، كقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل:٧٠]، وقوله تعالى واصفاً مراحل

---

[١] ينسب هذا الكلام لعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة القضاء، وفيها أنه طلب الإعفاء من القضاء، فسأله أبو بكر: أمن مشقّة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ قال عمر: لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة لي عند قوم مؤمنين.. وذكر هذه الصفات، ولم أجده في عامة كتب أهل العلم، ولم أقف عليه، ولم أجد سنداً له، وإنما يذكره بعض الوعاظ المعاصرين دون إسناد، وانظر: موارد الظمآن لدروس الزمان (٣/ ٥٥٨).

خلق الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٥]، وبيان نفسية الإنسان وطبيعته في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، وكم أمضى علماء الغرب في العصر الحاضر أعماراً، وأنفقوا أموالاً طائلة ليصلوا إلى اكتشاف مراحل خلق الإنسان، والغوص في أسرار النفس البشرية، ليفاجئوا بعد جهد وبحث بأنَّ ذلك موجود في القرآن من عند الحكيم العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها أيضاً: بيان عظمة الكون وبديع خلقه، في خلق السماوات والأرض والجبال والبحار، في نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون:١٧]، وغيرها.

وقد أمضى العلماء أيضاً أعماراً وأنفقوا أموالاً في دراسة الجبال- على سبيل المثال-، ومحاولة معرفة أسرارها وفوائدها، ليجيب القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ:٦-٧]، فالجبال أوتاد الأرض لئلاَّ تميد بأهلها، والوتد يكون منه جزء ظاهر على سطح الأرض، ومعظمه غائر فيها، ووظيفته التثبيت لغيره.

إنها بينة علمية شاهدة بأنَّ مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال، وعالم أسرار السموات والأرض القائل: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦].

ومنها: بيان أحوال وأوصاف خاصة لم يكتشفها العلم التجريبي إلا بعد أكثر من ألف عام، كوصف الحاجز بين البحرين الذي توصل علماء البحار إلى اكتشافه في هذا العصر بعد تقدُّم العلوم؛ وهو البرزخ الذي يفصل بين كل بحرين ويتحرَّك بينهما، ويكون مناسباً لما فيه من كائنات حية تعيش في تلك البيئة، فيحافظ معه كلُّ بحر على خصائصه التي قدَّرها الله له.

وقد جلَّى الله تعالى في كتابه حقيقة هذا الحاجز قبل أربعة عشر قرناً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١]، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢][(١)].

المثال الثاني: في قواعد الملْك والسياسة.

فقد بيَّن الله تعالى في كتابه الكريم قواعد الملك والسياسة الشرعية للرعية في قصص وآيات عديدة، منها:

* قصة ذي القرنين في سورة الكهف، فقد كان مِلكاً عادلاً متواضعاً؛ وضع قواعد عظيمة في أسس القيادة منها على سبيل الإيجاز:

---

(١) وللاستزادة حول الأبحاث العلمية المتخصصة حول هذه الموضوعات، انظر: أبحاث الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، على موقع الهيئة على شبكة الانترنت: (http: //www. eajaz. org).

١- القدرة على إدارة الاجتماعات والإنصات للناس: فلقد كان القوم خائفين مضطربين، لأنهم في أزمة كبيرة، فأنصت لهم ذو القرنين واستمع إليهم وهم يعرضون المشكلة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف:٩٤].

٢- تصدير الثقة بالله تعالى، وتهدئة الموقف: فقد أحسن في بثِّ الطمأنينة في نفوسهم بربطهم بالله تعالى أولاً، ثمَّ فيما آتاه الله من إمكانات وقدرات على حلِّ المشكلة: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف:٩٥].

٣- تواضع القائد: فلقد ضرب ذو القرنين المثل الأعلى في هذا بقوله: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ [الكهف:٩٥]، فأعاد الفضل لله، ومنه يستمدُّ العون والتوفيق.

"وذو القرنين لا يُذكر لأنه ملِك، ولكن يذكر لأعماله الصالحة، وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالاً، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ [الكهف:٩٥]، وحين يتمّ السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف:٩٨]"[1].

٤- التعاون والعمل الدؤوب لمواجهة العدوان في قوله: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف:٩٥].

إضافة إلى أنهم كانوا: ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف:٩٣]، فاجتهد وتعاون معهم لإيجاد طريقة للتخاطب معهم، وحلِّ مشكلتهم؛ حتى حوَّلهم إلى قوة بشرية هائلة متحفزة، تنتظر الأوامر الموجَّهة لها، لتعمل بجد خلف قيادة مؤمنة وحكيمة، لتنفيذ أكبر مشروع على الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٥٨).

٥- القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة في الوقت المناسب: فالقرارات التي أصدرها ذو القرنين جاءت قوية مناسبة: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، ﴿ٱنفُخُواْ﴾، ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٦].

٦- القدرة على تكوين فِرَق العمل، وتوزيعه بينهم: ففريق لإحضار قطع الحديد، وفريق للتجهيز والمعاونة، وثالث لإيقاد النار.. وهكذا حتى تمَّ تنفيذ المشروع في صورته البديعة القوية.

* ومن أمثلة القواعد القرآنية في السياسة: ارتكاب أخفِّ الضررين لدفع أعلى المفسدتين، ومثال ذلك: ما فعله الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما خرق السفينة؛ فقد كان في خرقه لها ضرر، ولكنه فعل ذلك ليدرأ ضرراً أشد، وهو مصادرة السفينة من قِبَل الملك الظالم الذي كان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، فخرْقُ السفينة ضرر، ولكنه أقل ضرراً من ضياع السفينة كلها، فلم يمكن إزالة الضرر الكبير إلا بحصول الضرر الأقل.

* ومن أمثلة قواعد الملك والسياسة في القرآن الكريم في قصَّة بلقيس- ملكة سبأ- مع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يستنبط المتدبِّر منها قواعد عظيمة في الملك والسلطان، ومن ذلك:

أ- ضرورة تفقُّد الرعية والسؤال عنهم: كما فعل سليمان في تفقده للطير، فافتقد الهدهد، وتوعَّده بعقوبة حازمة إن كان قد تفلَّت دون عذر أو حجَّة واضحة: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢٠-٢١].

ب- التيقُّن من الأخبار والتثبُّت منها: فلما رجع الهدهد وأخبر سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بخبر ملكة سبأ وقومها: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٧-٢٨]، فسارع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للتحقق من الخبر، والتيقن منه، دون اندفاع وعجلة، وهكذا هي أفعال العظماء والقادة المنصفين.

ج- الاستشارة لأصحاب الحلِّ والعقد: فبعد أن ألقي الكتاب على بلقيس وقرأته، جمعت قومها للمشورة، وهنا يتَّضح أيضاً أن العقلاء لا يستأثرون بآرائهم وأفكارهم، بل يشاوروا أهل النصح والرأي والخبرة: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:٣٢-٣٣].

ج- بيان حال الملوك إذا دخلوا البلاد: جاء ذلك في جواب بلقيس ملكة سبأ حين أشار عليها قومها بالحرب والقوة: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

والأمثلة كثيرة على ذلك في كتاب الله تعالى على قواعد الحكْم والملْك، والسياسة الشرعية لمن تدبَّر كتاب الله تعالى.

المثال الثالث: في قواعد الرزق في القرآن الكريم.

فقضية الرزق من القضايا التي تشغل الناس كثيراً، وقد ضع الله تعالى في كتابه لمن تدبَّره قواعد للرزق الذي تكفَّل به سبحانه للناس مهما كانوا، وأينما كانوا، ومن ذلك:

أ- **أنَّ أرزاق الخلْق كلهم على الله تعالى**، الذي قال في كتابه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

وقال سبحانه مقرراً هذه القاعدة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦ – ٥٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

ب- **أنَّ الرزق مكفول من الله تعالى**، مما يذهب معه الهمُّ والحرص، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات

٢٢- ٢٣]، وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١].

"فيه إخبار بأنَّ رزق الجميع على الله تعالى، والله سيسبب لهم ما ينفقون على الأولاد وعلى أنفسهم، وفيه بيان أنَّ الله تعالى سيرزق كل حيوان خلَقه مادامت حياته باقية، وأنه إنما يقطع رزقه بالموت، وبين الله تعالى ذلك لئلا يتعدى بعضهم على بعض، ولا يتناول مال غيره إذ كان الله قد سبب له من الرزق ما يغنيه عن مال غيره"(١).

ج- الرزق يؤتيه الله من يحبُّ ومن لا يحب، فكثرة الرزق لا تدلُّ على محبة الله: فالله سبحانه يرزق الجميع، وقد يزيد أهل الضلال والجهل في الرزق، ويوسع عليهم في الدنيا، وقد يقتِّر على أهل الإيمان، فليس العطاء دليل المحبة والاصطفاء، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

د- أنَّ الله يبارك الرزق بالطاعة ويمحقه بالمعصية.

فالرزق يبارَك بالطاعة، وتُمحَق بركته بالمعصية، وإن كان ظاهره كثيراً؛ لأنَّ ما عند الله تعالى لا ينال إلا بطاعته؛ قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٢٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن لذلك، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

المثال الرابع: في قواعد التعامل مع الخلْق.

وقد تضمَّن القرآن الكريم قواعد عظيمة في التعامل بين الناس، تسوس أمورهم، وتصلح شؤونهم، ومن هذه القواعد القرآنية العظيمة:

١- قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وهذه قاعدة تكرر ذكرها في القرآن في أكثر من موضع إما صراحة أو ضمناً، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]، والقول الحسن يشمل الحسَن في هيئته ومعناه، وهذه القاعدة القرآنية العظيمة في الأخلاق والسلوك والتعامل يحتاجها المسلمون بكثرة، وتقضي بإذن الله على الكثير من الخلافات والصراعات بين الناس والأمم.

وقد نبَّهت آية الإسراء إلى خطورة إهمال هذه القاعدة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهذه القاعدة وإن كانت في سياق العلاقة بين الأزواج بعد الطلاق، إلا أنها تعمُّ العلاقات كلها بين الناس، فالحياة لا تخلو من جوانب مشرقة، ومن وقفات وفاء بين الناس

بعضهم بعضاً، فإن قدِّر تفارق الأبدان فلا ينسى ما كان بين الناس من مواقف الفضل والوفاء، ولئن تفارقت الأبدان، فإنَّ الجانب الخلُقي يبقى.

٣- قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦].

هذه القاعدة القرآنية الكريمة جاءت ضمن سياق الآداب العظيمة التي أدب الله بها عباده في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

وقد دلَّت هذه القاعدة على أنَّ خبر العدل مقبول غير مردود، وأنَّ الله سبحانه لم يأمر بردِّ خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملةً، وإنما أمر بالتبيِّن، وتضمَّنت هذه القاعدة أيضاً: ذمَّ التسرع في إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها.

وهذه القاعدة تنطبق على حياة الناس كلِّها، فلا ينقل أحد عن النبي ﷺ حديثاً إلا وهو يعلم صحَّته، ولا يتكلَّم عن أحد من أهل العلم بشيء إلا وهو متيقين من قائله، وهي قاعدة يحتاجها الزوجان، والآباء، والأبناء جميعاً، ولله كم من بيت تقوَّضت أركانه بسبب الإخلال بهذه القاعدة القرآنية العظيمة.

فالواجب على كلِّ مؤمن معظم لكلام ربه أن يتقي ربه، وأن يتمثل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1].

٤- قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع، وهي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد، وفي الآية أمر بثلاثة أشياء، هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية.

---

[1] وللاستزادة من القواعد، انظر كتاب: قواعد قرآنية - د/ عمر المقبل.

الأول: العفو، وهو خالص الشيء وجيده، والسهل الذي لا كلفة فيه.

الثاني: الأمر بالعرف، وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف.

الثالث: الإعراض عن الجاهلين، وهم السفهاء، بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أوقى لأذاهم من الإعراض عنهم[1].

وبعد.. فإنَّ الأمة متى تدبَّر أفرادها القرآن، وتمسَّكوا به تمسُّك الجيل الأول؛ عادت لها نهضتها وريادتها العلمية والثقافية والاجتماعية بين الأمم، وسادت الدنيا بأسرها.

د) الارتقاء بالعلم والتعليم وتحصيل العلوم والمعارف الأصيلة.

إنَّ من مظاهر النهوض الحضاري بالأمة الذي أنتجه القرآن الكريم وتدبُّره؛ الارتقاء بالعلم والتعليم، وتميُّز الأمة المسلمة في تحصيل العلوم والمعارف كلها.

لقد نزل أول ما نزل على قلب رسول الله ﷺ، قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:١-٥].

ومنذ نزول تلك الآيات المباركات؛ طويت صفحات الجهل والخرافة والوهم والتخلُّف العلمي والفكري، وابتدأت صفحات من العلم والمعرفة والعقل والفكر الصحيح، والمتأمل في أحوال المجتمعات البشرية قبل الإسلام وبعده يدرك ذلك.

وقد تضمَّن كتاب الله تعالى الإشارة إلى أهمية العلم، وتميز العالم، والهدف من التفكير الصحيح في آيات عديدة من كتابه الكريم، منها:

الحثُّ على العلم والتزود منه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وبيان خشية العلماء لله في نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

---

[1] انظر: تفسير المنار (٩/ ٤٤٤-٤٤٧).

وبيان رفعة أهل العلم عن غيرهم درجات، كما في قوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩][(١)].

ومن تدبَّر القرآن الكريم؛ وقف على عظيم الاهتمام بالدين والعقل، والحثِّ على التفكير في الكون، والتتبُّع لمعرفة قوانين الحياة الطبيعية، وتسخير قواها للإنسان، واعتبر ذلك من أَجَلِّ العبادات، وهذه مزيَّة للإسلام، لم يسبقه فيها دين من الأديان.

والناظر في دلالات النصوص القرآنية، وإرشادات النبي ﷺ في أحاديثه، تتضح له أهمية العلوم الكسبية –مقرونة بعلوم الوحي– كمؤهَّل أساس للاستخلاف في الأرض وعمارتها، فقد رفع القرآن الكريم المسلمين إلى مستوى من الفهم والإدراك لسنن الله في الكون، حتى فهموا آيات الله المرئية من كتابه المنظور، كما فقهوا آياته المتلوة من كتابه المسطور، فاجتمعت لهم بذلك قراءتان: قراءة الكون، وقراءة الوحي في تناسب لم تعرفه أمة من الأمم[(٢)].

لقد فهم السلف الصالح أهمية الاستخلاف في الأرض وعمارتها – من خلال تدبّر القرآن–، وأهمية التقدُّم العلمي كمؤهَّل أساس لحمل أمانة الخلافة في الأرض، فلم يجدوا حرجاً من اقتباس العلوم الكونية من الطب، والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات وغيرها، من أمم الحضارات القديمة؛ مثل: اليونان والفرس والروم، وتطوير هذه العلوم بضبطها بضوابط شرعية، وإضافة إسهامات بارزة فيها، على نحو غير مسبوق شمولاً وتميّزاً، وتصحيحاً للمسار، حتى ليخيّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم تكن علوماً حياتية، أو معارف حضارية.

---

(١) انظر: الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلم، د. عبد الرحيم المغذوي ص(٥٤).

(٢) انظر: سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، د/ حسين شرفة (٥٥٢).

"ويشهد لذلك الانطلاقة الكبرى، والازدهار الهائل اللذان عرفهما العالم الإسلامي - على مدار عصور حضارتهم الزاهرة — في مجالات العلوم المختلفة، حتى أضحَت حواضر المسلمين في بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها قِبلة لطلاب العلم من أقاصي الدنيا ومختلف الملل"[١].

لقد أخذ القرآن المسلم، وطاف به في أعماق هذا الكون، وهداه إلى أسراره، وأوحى إليه أن يتأمَّل فيه ويتدبَّر ويتعلَّم؛ ليسخِّره لمنفعته، ويستخدم عقله في ذلك.

وحين عرف المسلمون الأوائل أنَّ العلم يفتح لهم آفاق الحياة والقوة، ويبني لهم قواعد المجد والعزة، وأدركوا مبلغ الحاجة إليه في بناء مجتمعاتهم، ودعم سلطانهم؛ دفعهم ذلك لخوض بحار العلوم المتنوعة، وتوجَّهت عزائمهم إلى طلبها على اختلافها، فبحثوا في آيات الله الشرعية والكونية، وأقاموا في كل قطر مناراً للعلم، وحملوه إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولم يقفوا عند نتاج عقولهم وأفهامهم، بل اتجهوا إلى علوم السابقين فاستخرجوها من زوايا النسيان والإهمال.

وبهذه النهضة العلمية، استطاع المسلمون أن يعملوا عمل الأقوياء، وأن ينتقلوا في سرعة لم يعهد لها مثيل في تاريخ النهوض؛ من الأمية، إلى العلم والقيادة الفكرية العالمية، فأصبحوا أساتذة العالم، وقادة الفكر، ورواد العلوم والفنون، يدرسونها للأجيال المعاصرة كأحسن ما يكون الدرس والتعليم، ويدونونها للأجيال كأحسن ما يكون التأليف والتدوين، وينشرونها في شعوب كانت تائهة في عماء الجهل وظلمته.

لقد تقدَّم المسلمون في كلِّ ميادين الفكر الإنساني عندما أعملوا عقولهم في البحث والدراسة، وانتهجوا نهج القرآن العقلي الذي وضح لهم.

وهذا الاتجاه من القرآن الكريم لاستعمال العقل؛ هو الذي هدى المسلمين في المقام الأول للعمل على تنمية القوى العقلية، حتى كانت لهم حضارات رائعة، وما زالت تتحدى الحضارات الإنسانية عراقة وأصالة.

---

[١] سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، د/ حسين شرفة (٥٥٢).

كما أنَّ المسلمين استفادوا من ثقافات الأمم التي انتشر بينها الإسلام، والتي لم ينتشر فيها الإسلام، ولم يكونوا مجرَّد نقلة، بل كانوا مفكرين ناقدين مجددين؛ فكتبوا في الفقه ومناهج البحث، ودوَّنوا التاريخ، ووضعوا نظريات الاجتماع وأحدثوا أسساً عظيمة للفلك، والجغرافيا، والطب، والكيمياء، والطبيعة، والفلسفة، والرياضة، والهندسة، وكانوا واضعي طريق البحث التجريبي الذي كان أساساً للحضارة الأوروبية الحديثة.

لقد خلَّف المسلمون ميراثاً، كان لأوروبا نبراساً، اعتدت به في عصورها المظلمة الحالكة الظلام، وكانت مؤلفات العلماء المسلمين تدرس في جامعات أوروبا، وكان الأساتذة المسلمون يمدون أبناء أوروبا بما وهبهم الله من معرفة.

والإسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة متطلبات كل زمان ومكان؛ لأنه الدين الذي ارتضاه رب العزة للإنسانية في مسيرتها عبر الزمان[1].

الثالث: انتشار الإسلام والدعوة إليه وقوة التمسك به:

من الآثار الإيجابية الناتجة عن تدبُّر القرآن الكريم على الأمة؛ انتشار الإسلام بين الأمم، وقوة تأثيره في نفوس المدعوين؛ ذلك أنهم رأوا نماذج مؤثرة للإسلام وأهله، ووقفوا فيه على حقائق عظيمة أبهرت عقولهم، وأسَرت نفوسهم، فلم يملكوا معها إلا الإيمان بالله وحده سبحانه، وحمل همِّ الدين، والدعوة إليه بين المسلمين، والتعريف به، والترغيب إليه عند غير المسلمين.

فسَادَ الدين وانتشر؛ حين تدبَّر أهله كتابهم العظيم، وعملوا به في مفردات حياتهم.

والدّعوة إلى الله إحدى المَهام الرئيسيّة للمسلمين، ومَعلم بارزٌ يَنفردون به بين الأُمم، وهم مسؤولون أمام الله يوم القيامة عن قيامهم بالتَّبليغ، أو تَقاعسهم عنهم.

لقد بَلَغ الدين ما بَلَغ حين تدبَّر أهله قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

---

[1] انظر: مقالاً بعنوان: حضارة المسلمين وأثر القرآن في تنمية القوى الإنسانية، للشيخ/ أحمد السائح - من علماء الأزهر- من موقع طريق الإسلام على شبكة الانترنت.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وتمثَّلوا الرحمة والشفقة على عباد الله حين تدبَّروا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، واجتهدوا في الدعوة إلى الله، بالحكمة الأسلوب الحسن، حين تدبَّروا قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]، فنشروا العلم والقرآن في أنحاء الأرض.

ونفَّذوا أوامر الله جَلَّجَلَالُهُ التي أمر بها نبيه ﷺ، حين قرن العبادة بالإسلام وتلاوة القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢].

وتمسَّك أهل الإسلام به ونشروه حين تدبَّروا قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:٤٣-٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

لقد كان تأثير القرآن في نفوس سامعيه عظيماً، ومن أمثلة ذلك:

- حين جاء الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ فقال: اقرأ عليَّ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]؛ فقال: أعِدْ، فأعاد النبي ﷺ، فقال: (والله إن له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وما يقول هذا بَشَرٌ)[1].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٥٢).

- حين اشتد أذى المشركين -قبل الهجرة النبوية- لَمَّا حاصروا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب، فحينذاك أذن النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، فخرج أبوبكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يريد الهجرة للحبشة، فلقيه مالك بن الحارث (ابن الدغنّة) وهو سيد قبيلة القارَة، وهي قبيلة لها حلف مع قريش، وتعهد أن يجير أبا بكر ويحميه لكي يعبد ربه في مكة، قال الراوي: (فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ، وَلاَ القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ)[١].

فكان نساء قريش وأبناؤهم يزدحمون ويكتظون حوله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مأخوذين بجمال القرآن.

- النجاشي -ملك الحبشة- أسلم لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ الآيات من أول سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١]، بكى حتى أخْضَلَ لحيته، وبكتْ أساقفته حتى أَخْضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاَ عليهم، ثمَّ قال النجاشي: (إنَّ هذا والله والذي جاء به موسى لَيَخرُج من مشكاة واحدة)[٢].

فآمن النجاشي رَحِمَهُٱللَّهُ وأسلم، وحسُن إسلامه، حتى إنَّ النبي ﷺ جاءه الوحي وهو في المدينة بنبأ وفاته؛ فصلَّى عليه صلاة الغائب، وقال لأصحابه: «صَلُّوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ مَاتَ بِغَيْرِ أَرْضِكُمْ»، فَقَامُوا فَصَلَّوْا عَلَيْهِ[٣].

- وحين لقي النبي ﷺ جماعة من الخزرج، فجلسوا معه، فدعاهم ﷺ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فلما كلمهم ﷺ قال بعضهم لبعض: (يا قوم..

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده.

[٢] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٤) من حديث جعفر بن أبي طالب (١٧٣٩)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٧٩) برقم: (٨١)، وصححه أحمد شاكر، والألباني في فقه السيرة (١١٥).

[٣] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/ ٦٩) برقم: (١٦١٤٦)، وابن ماجه في سننه (٢/ ٤٩١) برقم: (١٥٣٧) من حديث حذيفة بن أسيد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٥٧).

اعلموا والله أنَّ هذا النبي الذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه)، فأجابوه لما دعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، ثم انصرفوا عنه ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا، ثمَّ رجعوا إلى المدينة، فدعوا إلى الإسلام حتى لم يبقَ دار إلا دخلها الإسلام[1].

"ولم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن، وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن"[2].

وأخبار الذين أسلموا بالقرآن كثيرة، تتكرَّر عبر العصور والدهور، إلى زماننا هذا، والحمد لله رب العالمين.

"إنَّ هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما صلح به في الأمس، إيمان به إيماناً يخالط شغاف قلب المؤمن، واستعذاب للتضحية في سبيله بما يعتزُّ به المرء من مال ونفس، واعتزاز بما جاء به من تشاريع ومبادئ وتقاليد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده، ودعوة له بالعمل الصالح والقوى الطيبة، وعدم القضاء إلا بحُكمه، وجعل الحياة في كل جوانبها لا تقوم إلا عليه"[3].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

"أقسم سبحانه أنَّ كلَّ أحد خاسر إلا من كمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على

---

(١) **حسن**. أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣٣) من حديث عاصم بن قتادة، وذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٤٢٨)، وابن كثير في السيرة النبوية (٢/ ١٧٦) عن ابن اسحاق، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١٥٦).

والبيهقي في الشعب (١/ ١٧٩) برقم: (٨١)، وصححه أحمد شاكر، والألباني في فقه السيرة (١١٥).

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي (٧١).

(٣) من مقدمة كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ للندوي (١٥).

القرآن وتفهمه وتدبُّره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته"[1].

إنَّ إصلاح الأمة ونهضتها لا يأتي بالحظ والتمني والصدفة، بل هو سلسلة من التربية القرآنية العملية والواقعية المستمرة للأفراد والمجتمعات، ودعوتهم إلى الإسلام والتمسُّك به، والحياة الطيبة في دوحته.

لقد جعل الله جزاء الإيمان والعمل الصالح والنافع داخل المجتمع؛ الحياة الطيبة الهانئة المستقرة النامية، والمفعمة بالمحبة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، وتلك الحياة الطيبة هي حصيلة فهم وتدبر، واستحضار القرآن الكريم وتنزيله في كل مناحي الحياة اليومية للمسلم، مما يجعلها ناهضة نامية متطورة، تؤول إلى التعاون والتماسك، والتآلف والبناء الحضاري.   والله أعلم..



[1] مدارج السالكين (١/ ٣٠).

المبحث الثامن:

الآثار السلبية المترتبة على هجْر التدبُّر في حياة الفرد والأمة

هجْر التدبُّر هو من هجْر القرآن الكريم الذي شكى النبي ﷺ بسببه قومه إلى ربه عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠][١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (وترك تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه)[٢].

"ومعلوم أنَّ كلَّ من لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم -أي تصفُّحها وتفهُّمها، وإدراك معانيها والعمل بها-؛ فإنَّه معرض عنها، غيرَ متدبِّر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات؛ إن كان الله أعطاه فهماً يقدِر به على التدبُّر"[٣].

وإنه"لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما؛ واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ؛ عرض لهم من ذلك فسادٌ في فِطَرهم، وظلمةٌ في قلوبهم، وكدَر في أفهامهم، ومحْق في عقولهم، وعمَّتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم حتى ربَى فيها الصغير، وهرِم عليها الكبير، فلم يروها مكراً، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام

---

(١) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواع هجر القرآن ومنها: (والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه) وهذا واضح لمن استقرأ نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية. انظر: الفوائد (٨٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).

الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصِّدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظُّلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلَت، وراياتها قد نُصِبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقُلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس"(١).

من الآثار السلبية التي تترتَّب على هجر التدبُّر، ما يأتي في المطالب العشرة التالية:

- المطلب الأول: ضعف الإيمان وغياب أثره:

الإيمان هو إكسير الحياة، وسبب صفائها وسعادتها ورونقها وبهاءها، وإذا انقطع الهواء عن الجسد؛ فكيف له أن يعيش وينمو!.

"والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكَّر فيه متفكِّر إلا ويطول حزنه، ويعظم خوفه؛ إن كان مؤمناً بما فيه"(٢).

و"الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] "(٣).

---

(١) الفوائد لابن القيم (٤٨-٤٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨٧).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٦٥).

وضَعْف الإيمان هو أساس المعاصي، وهرم الضياع، والتساهل بالدين، والتعلُّق بالدنيا والشهوات، وهو باب الانحراف عن الصراط المستقيم.

فإذا ضعف الإيمان في قلب العبد انهمك في المعاصي، فأطفأت نور الإيمان في قلبه، وإذا ضعف الإيمان ضعف حبُّ الله تعالى في قلبه.

وبسبب ضعف الإيمان صار الكثير من الناس يقدِّمون الأسباب على الأعمال، وهذا يسبب الخسارة في الدنيا والآخرة، فالواسطة بين المؤمنين وربهم هي الأعمال لا الأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وجميع الأنبياء جاءوا ليدلُّوا الناس على الإيمان بالله والعمل الصالح.

"فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أنَّ العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين"[١].

وإذا ضعف الإيمان ظهرت آثار ذلك على العبد؛ فيقلَّ علمه بالله، ويضعف عمله بدين الله؛ وعامة الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر إنما منشؤها وأساسها: ضعف الإيمان وغياب أثره على الفرد.

وضعف الإيمان يقود صاحبه إلى العمى، والسير في الظلمات.

وقد ضرب الله تعالى مثل ذلك بقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

لقد عاش أهل الإيمان في أمن وطمأنينة وسكينة وراحة بال، حين عاشوا مع القرآن فهماً وتطبيقاً، ومن أمثلة ذلك في سير الصالحين، ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) عن شيخ

---

[١] مختصر منهاج القاصدين (٣١٠).

الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) أنه قال له: (ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)(١).

ومن أخطر ما يسببه ضعف الإيمان بهجر القرآن؛ الإعراض عن الله سبحانه، إذ الإعراض عنه سبب للجهل به عَزَّوَجَلَّ؛ ومن أعرض عن تدبُّر آيات القرآن، ولم يسعَ في معرفة ربه عَزَّوَجَلَّ؛ حُرِم معرفته تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، فكان الإعراض عن الله، نتيجة جهله به سبحانه، كما قال في كتابه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤]، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

ويتكرَّر منه الإعراض مع كل آية يوعظ بها: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

فأكثر أهل الباطل جهلوا الحق فأعرضوا عنه، وقليل من أهل الباطل عرفوا الحق فجحدوه؛ ولذا فإنَّ المعرضين في تاريخ البشر أكثر من الجاحدين.

ولقد جعل الله أهل الإعراض أظلمُ عباده، فلا أحد أشدَّ ظلماً منهم، فقلوبهم مغطاة فلا تفقه التذكير، وآذانهم صمٌّ عن سماعه، فلا يهتدون بالقرآن مهما دعوا إليه، ومهما ذكِّروا به؛ وتلك عقوبة من الله تعالى لهم على إعراضهم عنه سبحانه، فهم لا يسيرون فيما ينفعهم، بل يرتكسون في الضلال؛ ويجادلون بالباطل، وعنهم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

فاللهم إنا نعوذ بك من هجر القرآن وتدبُّره، ونسألك زيادة الإيمان بالتدبُّر.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (٤٨).

- المطلب الثاني: الفصل بين الواقع والقرآن الكريم:

من تأمل نصوص الكتاب الكريم، وجد الارتباط الوثيق بين القرآن وواقع الحياة، ووجد فيه بيان كل شيء، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وجاء بالإيمان والعدل، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥].

وبعث الله الرسل بالكتاب والعدل فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

ومن هجر تدبُّر القرآن وقع في هاوية الفصل بين الواقع والحياة.

فمن اللحظة التي يؤمن فيها الإنسان بأنَّ الله واحد، وهو خالق الكون ومصدر النعم وإليه المصير، وبيده الحساب؛ من تلك اللحظة يتبدَّل سلوك الإنسان؛ فلا يسجد لصنم، ولا يشهد الزور، ولا يأكل الربا... إلخ، بل يتحمَّل -في سبيل ذلك- العذاب الأليم، ولا يرجع عن الحق، ومن هنا ارتبط القرآن بحياة الناس العملية؛ فالدين والحياة في الإسلام لا يفترقان.

والعلم في الإسلام له أهداف محددة أهمها أن يحقق به الإنسان العبودية لله تعالى، وأن يحقق به تطبيق منهجه في الحياة: حياة الفرد وحياة الجماعة، والحياة في المجتمع على وجه العموم، ويوظف العلم فيما ينفع الناس، ويجعل كلمة الله هي العليا، ويمكِّن لدين الله في الأرض، ويهيئ للناس كلهم التقدُّم والرفاه، وهذا يخالف ما يتصوره البعض؛ من أنَّ العلم الإلهي يتعلَّق بالعبادات فقط وربما بالأخلاق، أما العلوم المتعلِّقة بالكون وربما بالحياة الدنيا فهي من صنع الإنسان.

فالله سبحانه وتعالى، خلق الإنسان وأودع فيه العقل والفؤاد والبصر والسمع وغير ذلك من وسائل اتصاله بالعالم الخارجي، وأمره بأن ينظر، ويتفكَّر، ويتدبَّر ليصل إلى بديع خلق الله في نفسه وفي الكون، وأمدَّه بوسائل البحث والنظر.

والله هو الذي استخلف الإنسان في الأرض وأمره بعمارتها، وهذا الاستخلاف ليس مطلقًا، وتلكم العمارة ليست بدون قيود، بل يحكمها منهج أنزله -الله سبحانه- ليطبقه الإنسان في حياته الدنيا في مختلف شئونها، بما في ذلك اكتساب معارف وخبرات جديدة في أثناء كدحه لعمارة الأرض إنفاذاً لأمر الله[1].

إنَّ فصل القرآن عن الواقع والحياة يحيل الحياة إلى ضنك وجحيم، يظلُّ يبحث المرء عن سببه فلا يعرفه، ويبقى الدهر ينسب الخلل إلى أمور لا علاقة لها به، لكنه الإعراض عن المنهج الذي يضيء الطريق لسالكيه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

لقد فهم السلف الصالح القرآن وتدبَّروه؛ فأصبح لهم كتاب حياة عرضوا عليه أعمالهم، وتدبَّروا مخاطبة القرآن لهم، فاستنبطوا من آياته بصائر واضحة استعانوا بها في مسيرة حياتهم، فحلُّوا مشاكلهم، ووجدوا النور الذي أضاء لهم الطريق.

ثمَّ خلَف من بعدهم خلْف؛ أساؤوا فهم القرآن، وفصلوه عن واقع حياتهم، فضلُّوا وأضلوا، وهلكوا وأهلكوا حين نظروا إلى القرآن أنه كتاب يدعوهم إلى الزهد في الدنيا فقط، ويذكِّرهم بالموت فقط، فأصبح بالنسبة لهم كتاب موت لا كتاب حياة، فساقهم ذلك أن يبحثوا عن سعادتهم وبناء حياتهم في غيره، وينشدوا ضالتهم في شيء سواه، علَّهم أن يجدوا القيم والمناهج والتعاليم التي تسعدهم في حياتهم وتبني لهم مجدهم.

---

[1] انظر: الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية (١٤٠).

ففصلوا بين القرآن والحياة، ورفضوا أن يجعلوا القرآن دستوراً لهم في الأمر كله، لأنهم لم يعقلوا منه سوى أنه كتاب زهد وتقشُّف في الدنيا فحسب، رغم أنَّ نصوص القرآن جاءت بالموازنة بين الدنيا والآخرة، في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

لقد نتج عن هذا الفصل بين واقع الحياة وفهم القرآن مفاسد عديدة، من أهمها:

أ- اتباع الهوى، والوقوع في الشهوات.

فالفهم الحيوي والواقعي للقرآن يعني: كبت الشهوات والأهواء، وترك الكثير من العلاقات الاجتماعية والارتباطات والتنازلات عنها، وأهواء الناس لا ترضى بذلك، وبالتالي فهموا القرآن ككتاب ميت، وانطلقوا في حياتهم كما يشتهون ويريدون.

ب- الفهم الخاطئ للدين.

ذلك لأنَّ من فصلَ بين الواقع والقرآن فهمَ أنَّ الدين لا يهتمُّ بواقع الحياة؛ لأنه يأمر أتباعه بالعزلة والانزواء عن الناس والمجتمع، ويهتمُّ بالآخرة ولا يُعير الدنيا أي اهتمام، والقرآن كذلك كما زعم.

ج- اعتبار القرآن كتاباً متعالياً عن الإدراك البشري.

فالذين يعتبرون القرآن مجموعة من الألغاز والأحاجي والرموز الغامضة لا يستطيعون أن يتدبَّروا القرآن بل حتى أن يفهموه.

وهكذا يصبح القرآن كتاباً لا روح فيه -والعياذ بالله- لا يستطيع الدفع والتحريك، بعد أن كان دهراً هو المحرك الأساس للأمة الإسلامية على طريق النمو والتقدم[١].

---

[١] انظر: بحث بعنوان: التدبُّر مفهومه اكتسابه وإشكالياته، د/ عبد الله علي جوان- من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

إنَّ من تدبَّر القرآن الكريم وجده كتاباً شاملاً لكل مناحي الحياة، يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، فهو يناقش علوم الشريعة والفلك والطبيعة والكيمياء، وغيرها.

وربما كان تقسيم العلم في الأزمنة المتأخرة إلى علوم دينية وأخرى دنيوية، أو شرعية وغير شرعية؛ أمر تسبب في فصل القرآن عن الواقع في حياة الناس، فالدين في الإسلام مرتبط بالحياة، وعلى هذا فإنَّ اعتبار العالم ملك لله تبارك وتعالى، واعتبار الناس فيه عباداً لله، يحيون وفق مشيئته، وحسب تعاليمه، لهو الدين بمعناه الصحيح، وهو في نفس الوقت الأساس الذي تقوم عليه الشريعة الإسلامية، وإنَّ مثل هذا التصور للحياة البشرية على هذه الأرض يؤدي إلى تحويل جميع العلوم الدنيوية إلى علوم دينية، أما تقسيم العلوم إلى قسمين: ديني، يدرس من وجهة النظر الإلهية، وآخر: دنيوي، يدرس من وجهة النظر الأخرى المقابلة؛ فإنه يفضي بأجيالنا إلى الاعتقاد بأنَّ الدين شيء والحياة شيء آخر، وأنَّ كلا منهما يسير في مجرى لا صلة له بالآخر[1]. والله أعلم.

- المطلب الثالث: الجهل بالمقاصد وأصول الاعتقاد وكيد الأعداء:

إنَّ هجر تدبُّر القرآن الكريم يسبب غموض الرؤية، وغياب الهدف، حتى يتخبَّط المرء في الحياة، وتلتبس عليه الأمور، حتى يصير في أمر مريج.

وللجهل صور عدَّة تتمثَّل مجملها فيما يلي:

أ- الجهل بمقاصد القرآن الكريم والشريعة.

فما التبس الطريق على الخلق إلا بالزيغ عن المنهج القويم؛ الراجع للجهل بالمقاصد والغايات للقرآن الكريم والشريعة.

---

[1] انظر: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها- علي أحمد مدكور (٢١٢).

"فالنصوص لن تتنزَّل على الواقع إلاَّ بآلة المقاصد، والواقع لن يَنصلح إلاَّ بالنصوص، والوصفة الصحيحة للإصلاح تؤخَذ بالكلِّ لا بالجزء"[(١)].

وإذا كان التدبُّر يبصرِّ المرء بمقاصد القرآن الكريم والشريعة؛ فإنَّ غياب التدبُّر وهجر القرآن يعمي صاحبه عن الحقّ، فيجهل هذه المقاصد العظيمة؛ وربما اعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ القرآن الكريم لا يستطيع الإنسان بما فيه من نقصان أن يصل إلى فهمه ومعرفة مقاصده؛ لأنه كتاب الله، حتى إن بعضهم يقول: إنَّ القرآن كله متشابه، ولا يجوز لنا أن نتكلَّم في محكمه، وهذا من الجهل الذي وقع لهم بسبب الإعراض عن تدبُّره وفهمه، وإلا فإنَّ الله سبحانه قال في كتابه: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر:١٧].

إنَّ غموض الرؤية على قارئ القرآن دون تدبُّر وفهم، توقعه في الزلل والخطأ، لذا قال بعض العلماء: (إنَّ العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم؛ يقول: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:١٨]، وهو ظالم نفسه، ﴿لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٦١]، وهو منهم)[(٢)].

ب- الجهل بأصول الاعتقاد.

ومن الأصول العقدية التي جاء بها القرآن الكريم:

١- توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بالمعرفة والإثبات: وهذا توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

٢- توحيد الطلب والقصد: ويشمل توحيد الله بأنواع العبادة، وكما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

---

(١) انظر: بحث منشور بشبكة الألوكة بعنوان: الحاجة إلى فهم المقاصد، الباحث: أ/ حنافي عبد الجواد، http: //www. alukah. net

(٢) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (١/ ١٠٧)، إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٥).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

كما يتضمَّن هذا النوع من التوحيد: اتباع ما شرعه الله لعباده من أحكام الحلال والحرام، والكفر بما سوى ذلك من الشرائع الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

٣- الإيمان بالرسول ﷺ وتصديقه فيما أخبر: مصداق قول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، ويشمل هذا: الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، والكتب المنزَّلة، والملائكة، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه، كما يشمل: طاعته ﷺ فيما أمر، واتباع شريعته، والانتهاء عمَّا نهى عنه.

٤- موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، والبراءة من الشرك والمشركين: كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢][1].

ومن أراد معرفة خطر الجهل بالعقيدة فلينظر مثلاً في حال الخوارج، وكيف يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي، وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إِلَى فُوقِهِ**»[2].

---

(١) انظر: الجهل بمسائل الاعتقاد (٣٥٩-٣٦١).

(٢) سبق تخريجه.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (يعني ـ والله أعلم ـ أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأنَّ الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف المسموعة فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم،... قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا» إلى آخره[١])[٢].

ج- الجهل بكيد الأعداء ومكرهم وخططهم.

فالقرآن الكريم كشف حِيَل الأعداء المتربصين بهذه الأمة؛ من منافقين وكفَّار، وبيَّن الأسباب التي يكيدون من أجلها الإسلام وأهله، وكشف أساليبهم وألاعيبهم ومكرهم في آيات كثيرة من القرآن، منها:

بيَّن سبحانه عداوة اليهود، والمشركين للمؤمنين، ومودة النصارى لهم، في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢].

وكشف طريقة المنافقين في التحاكم، وصدودهم عن الله والرسول إذا دُعوا إلى تحكيمهما، في نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦٠-٦١].

---

[١] تتمة الحديث: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٠٠) في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٧٣) في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[٢] الموافقات (٢/ ٦٩١).

ثمَّ بين شيئاً من أحوال المنافقين وما يضمروه في قلوبهم على المسلمين، وحذَّر من موالاتهم، في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:٨٨-٨٩].

وفضح سبحانه موقفهم من النصر الذي يحققه المسلمون، والهزيمة التي قد تلحق بهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وحذَّر من اختلاطهم بالمؤمنين، والسماع لهم ولأفكارهم، في نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

ووضح طريقتهم في إقناع أهل الإيمان بأفكارهم، أو محاولة التلبيس عليهم بالحلف واليمين الفاجرة، فقال سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

وعن تعاونهم على المنكر ونهيهم عن المعروف؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

وعن وعودهم وتواطئهم مع الكفَّار، وكذبهم عليهم، لتحقيق مصالحهم فقط، قال أ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر:١١-١٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المنثورة في القرآن، والتي كشفت عوار الأعداء، وبيَّنت كيدهم ومكرهم وأساليبهم وخططهم، وطرق التعامل معهم، ولو تدبَّرها أهل الإيمان، واتَّخذوها منهجاً في السياسية معهم؛ لتبدَّلت أحوالهم، وعزُّوا بعد ذل.

إنَّ الجهل بأنواعه الناشئ عن هجر تدبُّر القرآن الكريم يشكِّل خطراً كبيراً، وتكمن خطورته فيما يلي:

أولاً: نسبة أمور إلى الشريعة ليست منها.

فالإفراط بالقياس، والتوسع باستخدام الرأي وإهمال المقاصد الربانية؛ يوجب التعارض والتضارب في أحكام الشريعة؛ ذلك أنَّ أصحاب الرأي والقياس يميلون إلى الرأي والقياس فاضطرهم ذلك أن يعارضوا بين كثير من النصوص والقياس، ثم اضطربوا؛ فتارة يقدِّمون القياس وتارة يقدِّمون النص، وتارة يفرِّقون بين المشهور وغير المشهور، فاعتقدوا أنَّ كثيراً من الأحكام شرعت على خلاف القياس.

ثانياً: التحايل على الأحكام الشرعية.

فيُظهِر الجاهل الأمرَ المستحدث المحرَّم في صورة مشروعة وهو ليس كذلك؛ بحجَّة أنه لم يرد نهي مخصوص فيه، ويتحايل على الأحكام، ولو علم لعرف أنَّ الشارع يسدُّ الطريق إلى المفاسد بكل ممكن، والمحتال يفتح الطريق إليها بحيله، وفي هذا من المفاسد العظيمة ما رأينا بعض آثاره في الأزمنة المتأخرة، والله المستعان.

ثالثاً: الطعن في صلاحية الشريعة وخلودها.

فالجهل يجعل أفعال الناس وأعمالهم ضرْباً من العبث، لأنَّ الأمور مرتبطة بغاياتها ومقاصدها وأسبابها، وبالجهل يسير الناس خلف سراب، وتبدد الجهود.

إنَّ الاجتهاد في الدين المبني على العلْم الصحيح هو دليل خلود هذا الدين، وعلامة على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، والجهل بذلك نوع من محاصرة النص الخالد، والحكم العملي بعدم صلاحيته لكل زمان ومكان.

رابعاً: عدم معرفة دلالات النصوص واستنباط الأحكام:

فصحابة رسول الله ﷺ كانوا يعيشون بين مصدَر الشرع -النبي ﷺ-، فلم يكونوا بحاجة إلى قواعد لفهم النصوص واستنباط الأحكام، كما أنهم كانوا يعرفون اللغة العربية وبلاغتها، ويدركون المقصد من النص، ولكن بعد مضي الزمن أصبح الناس غرباء عن لغتهم، يحتاجون إدراك بلاغتها وشرح معانيها، فجهلوا الدين والأحكام.

ومن هنا كان لا بد من فهم القرآن وتدبُّره، ولا بد من معرفة المصالح والغايات التي نزل القرآن لأجلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة؛ فيفرق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقلّ شراً على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرَّين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإنَّ من لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين، لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)[1].

خامساً: الجهل يحول بين النصِّ وفهمه وتدبُّره، وبين استنباط الحكم من الأدلة المتعارضة والمسائل المستجدة: والشريعة لا تعارض فيها ولا تناقض، وإن المجتهد يلجأ إلى الدليل عند

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٣٠٥).

الحكم، وإن ظهر له دليل آخر يعارض الدليل الأول كان لزاماً عليه أن يعمل لأجل التوفيق بين الدليلين، وإنَّ خير معين لهذا التوجيه هو العلم بمقاصد الشريعة، التي هي الحكم الفصل بين الدليلين، والله أعلم.

- المطلب الرابع: الخوض في الفتن، والتخبُّط في كيفية التعامل معها:

إنَّ الإعراض عن تدبُّر القرآن الكريم وهجره، يحدث تخبُّطاً واضحاً في مواجهة الفتن التي تحيط بالإنسان وتنزل به.

والقرآن الكريم فصَّل أحوال الفتن وأنواعها، ووضع أموراً واضحة للتعامل معها، والنجاة منها، وبيَّن أحوال الأنبياء في مواجهة الفتن، ودور المنافقين في زرعها وبثِّها بين الناس، وزرع الفرقة والاختلاف، وإثارة العصبية والتعصُّب بين المسلمين.

كما بيَّن دور أعداء الله من شياطين الإنس والجن في الصدِّ عن سبيل الله؛ بالإغراء والإغواء، وصرف الناس عن القرآن، ومحاولة إغراقهم في الشهوات والشبهات.

إنَّ التدافع بين الحق والباطل سنة كونية، وهو في حقيقته تدافع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل؛ أي بين المؤمنين وبين غيرهم، لأنهم الذين يسعون إلى إقامة شؤون الحياة على أساسها؛ فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع بين الفريقين، مما يزيد الفتن والخطوب والابتلاءات والمحن.

وقد تطرَّق القرآن لمظاهر الفتن، وبيَّن أسبابها، وحذَّر منها، ورسم سبل النجاة منها.

وعليه.. فمن هجر القرآن الكريم وانصرف عن تدبُّره؛ كان عرضة للسقوط في الفتن، وصعب عليه الخروج منها، خصوصاً في أزمنة الفتن العظيمة التي يرقق بعضها بعضاً، وينسي آخرها أولها.

إنَّ أعظم الفتن وأشدها خطرًا: فتنة الناس عن دينهم، فالاعتداء على الدين أعظم جُرمًا من الاعتداء على النفوس، وأعظم دعاة الفتنة هم المنافقون؛ حيث يتستَّرون بدعاوى مختلفة،

يفتنون بها المسلمين عن دينهم، ويصفون المصلحين بدعاة الفتنة، وقد أخبرنا الله عنهم بأنهم سقطوا في الفتنة، فهم في وحل الفتنة يخوضون.

ورسم القرآن الكريم طريقاً واضحاً عند اشتداد الأمور وظهور الفتن، وبيَّن حال أهل الإيمان والتقوى عند حلولها، ومن أمثلة ذلك:

ما ذكره الله عن المسلمين في الأحزاب، وموقفهم عند اشتداد الكرب، ووقوع المصيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٢-٢٥].

وقال تعالى مطمْئِناً لأهل الإيمان، آمراً لهم بالصبر الجميل والتحمل للأذى أمام الفتن التي تواجههم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

وقال سبحانه على لسان نبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يوجِّه قومه وينصح لهم عند حلول الفتن: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

وبيَّن القرآن أنَّ الفتن سبب في رجوع الناس إلى الله واعتصامهم بحبله، فقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

لذلك: فإنَّ من هجَر القرآن وتدبُّره فقد النور الذي يضيء الطريق إذا ادلهمت الخطوب، وتشابكت الدروب، وأظلمت بالناس الفتن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ولا يمكن لأحد أن ينجو من الفتن إلا بالتمسُّك بهذا الأصل، واتخاذه منهج حياة، وإنَّ الإعراض عن تدبُّر كتاب الله سبب كبير في قبول الفتن وتشرُّبها.

ولقد كان سلف الأمة يهرعون إلى القرآن عند الفتن والمحن..

قال جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٦٢هـ): (وأوصيكم بالقرآن، نور الليل المظلم، وهدى النهار، فاعملوا به على ما كان فيه من جهد وفاقة، فإن عرض بلاء فقدِّم مالك دون نفسك، فإنَّ تجاوزهما البلاء؛ فقدِّم نفسك ومالك دون دينك، واعلم أنَّ المحروب من حرب دينه، وأنَّ المسلوب من سلب دينه، وأنه لا فقر بعد الجنة، ولا غنى بعد النار، وأنَّ النار لا يفكُّ أسيرها، ولا يستغني فقيرها)[1].

وقال عبد الرحمن بن أبي أبزى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٧٢هـ): قلت لأبيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - لَمَّا وقع الناس في أمر عثمان - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أبا المنذر ما المخرج؟ قال: (كتاب الله، ما استبان لك فاعمل به وانتفع، وما اشتبه عليك فكِلْه إلى عالمه)[2].

نسأل الله السلامة والعافية، والنجاة من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

- المطلب الخامس: تفشي الأمراض النفسية والمشكلات الاجتماعية:

إنَّ هجر تدبَّر القرآن الكريم يؤدي للعديد من الأمراض والعوارض النفسية والاجتماعية الكثيرة، بل إنَّ الأمراض بأنواعها تحيط بمن هجر تدبُّر القرآن الكريم من كل جانب، وهذا مصداق كلام ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن تدبَّره حقَّ التدبُّر عرف ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤]، جاءت في سورة طه والتي مطلعها: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه:١-٣].

---

[1] ذكره المروزي في مختصر قيام الليل (١٧٣)، والذهبي في السير (٣/ ١٧٤).

[2] ذكره المروزي في مختصر قيام الليل (١٧٣)، وأخرجه البخاري في الأوسط (١/ ٦٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف:٣٦]، جاءت في سورة الزخرف والتي مطلعها: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧]، جاءت في سورة الجن والتي مطلعها: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

فالحياة الضنك، وتهيئة الشيطان، وسلوك العذاب وسبيله؛ كلُّ ذلك يعود على هاجر القرآن بالعديد من المشكلات والأمراض والظواهر التي لا يعرف لها حلاً في الدنيا، وقد تورث على قلبه غِشاوة فيعرض عن الحق؛ حتى يلقى الله فيجد جزاء عمله.

والقرآن الكريم شفاء عملي من كلِّ داء، مصداق قول الله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، فترى أثره الواضح في راحة البال، وهدوء النفس، وطمأنينة القلب، وسكينة الروح.

وإنَّ من أكثر الأمراض النفسية انتشاراً مع هجر التدبُّر: الاكتئاب الناتج عن كثرة الهموم والأحزان، وضغوطات الحياة، فتثقل معه النفس، ويهِن القلب، وتقعد الجوارح، فلا يزال المرض بالمرء حتى يصير عاجزاً كسلاناً، مهموماً، محزوناً، لا ينفع نفسه وأهله وأمته، وكم في ذلك من ضرر واضح، وعاقبة وخيمة.

وكذلك: فإنَّ هجر التدبُّر يورث جملة من الأمراض الاجتماعية من تقطيع الصِّلات، وهجر الأقارب والأرحام، وتفكك المجتمع بكثرة الطلاق والنزاعات، وتفشي أمراض العنوسة وانتشار الفواحش، والعصبيات القبلية والفكرية، وضعف الأمانة، وظهور الخيانة، والتهاون بحقوق العباد، ونحو ذلك.

والقرآن الكريم هو المنهج النوراني الكامل، الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

وقد بيَّن في آيات عديدة أنَّ المستمسك به، التالي لآياته، الموقن بها، المحبِّ لها، الواثق في موعودها؛ سيعبُر لحظات الضعف بقوة، وسيكسر آلام الهمِّ بإيمان.

كما أنَّ المتمسِّك به سيتخطى الكثير من المشكلات في حياته، ويجد حلاً لعامة المشكلات التي ترد عليه.

- المطلب السادس: التفرُّق والتنازع والاختلاف:

من أبرز آثار هجر التدبر وقوع الفرقة والتنازع، واعتبار كل اختلاف في رأي أو منهج، من قبيل الخروج عن الدين والشرع، ومسوّغ للطعن في عقائد الآخرين.

"وإذا تدبرت كتاب الله تبيَّن أنه يفصل النزاع بين من يحسن الردَّ إليه، وأنَّ من لم يهتد إلى ذلك؛ فهو إما لعدم استطاعته فيعذر، أو لتفريطه فيلام"[١].

وقد أدرك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خطورة هجر التدبُّر والإعراض عنه، ووجدوا أنَّ التلاوة دون تدبُّر مدعاة لوقوع النزاع والخصام، الناجم عن سوء الفهم والتأويل لبعض كلام الله، فاجتهدوا في علاجه من أصله.

من ذلك ما جاء عن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٢هـ)[٢]، قال: خلا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذات يوم فجعل يحدِّث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس

---

[١] مجموع الفتاوى (٣٤/ ٦٣).

[٢] **إبراهيم التيمي**= ابن يزيد بن شريك التيمي، الإمام القدوة الفقيه، عابد الكوفة، أبو أسماء، وكان شاباً صالحاً قانتا لله، عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً. يقال: قتله الحجاج. وقيل: بل مات في حبسه سنة اثنتين وتسعين، وقيل: سنة أربع وتسعين ولم يبلغ إبراهيم أربعين سنة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٢٨٥)، التاريخ الكبير (١/ ٣٣٤)، تهذيب الكمال (٢/ ٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٠).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقال: (كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؛ وقبلتها واحدة؟)، فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا)، قال: فزبره عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وانتهره، فانصرف ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. ونظر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: (أعد عليَّ ما قلت). فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه[1].

فأدرك عمر وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أنَّ المسارعة في التلاوة دون تدبر؛ مدعاة للبعد عن الفهم السليم الذي يجرّ إلى وقوع الخلاف والخصام والسلوك المنحرف عن الصواب.

"وما قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا هو الحق، فإنه إذا عرَف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة؛ عرَف مخرَجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعدَّ ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجهاً. فذهب كل إنسان مذهباً لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بدٌّ من الأخذ ببادي الرأي، أو التأويل بالتخرُّص الذي لا يغني من الحق شيئاً، إذ لا دليل عليه من الشريعة، فضلُّوا وأضلُّوا.

وكان ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، يراهم شرار خلق الله، وقال: (إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين)[2].

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ (٩٤هـ): (مما يتبع الحرورية من المتشابه قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ويقرنون معها:

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٠٣)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ١٧٦) برقم: (٤٢)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب اسْتِتَابَة الْمُرْتَدين والمعاندين وقتالهم، بَاب قتل الْخَوَارِج والملحدين بعد إِقَامَة الْحجَّة عَلَيْهِم.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، ومن كفر عدَل به، ومن عدل بربه فقد أشرك بربِّه، فهؤلاء الأئمة مشركون، ومن أطاعهم فيخرجون فيفعلون ما رأيت، لأنهم يتأولون هذه الآية، وفتحت لهم هذه الآية باباً كبيراً، وقولهم فيه لغير الحق)(١).

فهذا معنى الرأي الذي نبَّه عليه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل القرآن فيه"(٢).

وهجر التدبُّر يوصل الأمة إلى حالة سيئة من الضعف والوهن والشتات والاختلاف، مما يؤدِّي للسقوط وذهاب القوة، وصدق الله تعالى بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦].

ومن مظاهر التفرُّق الذي يحصل بهجر التدبُّر: سقوط بعض علماء السوء في الفتن، والخوض في الأمور والنوازل الكبار بالهوى والرأي، دون احتكام صحيح متجرِّد لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وفي هذا من الخطر الواضح ما يبيِّن الأثر السيئ لهجر تدبُّر القرآن الكريم.

قال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]، حتى قال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف:١٧٦]. كذلك العالم الفاجر، فإن بلعام أوتي كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات، فشبِّه بالكلب؛ أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات، والآيات في ذلك كثيرة، وتنطبق على كل من يعرف آيات الله ولا يتبعها ويزيد كفراً وفسقاً بأنه يضلُّ المؤمنين بما عرف من العلم.

ولذلك قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه

---

(١) أخرجه ابن المنذر في التفسير (١/ ١٢١).

(٢) انظر: الموافقات (٢/ ٦٩٣).

ولا من فاسق بيّن فسقه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلفه بلسانه ثمَّ تأوله على غير تأويله)[١].

"وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم"[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطّاع الطرق)[٣]. نسأل الله السلامة والعافية..

- المطلب السابع: ضعف الأمة وتخلُّفها، وتسلُّط الأعداء عليها:

فمتى ابتعدت الأمة عن كتاب ربها تدبُّراً وعملاً؛ بدت فيها مظاهر الضعف والهوان، والتهاوي والخذلان.

"وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبُّر القرآن، وجعله كالرقى والتعاويذ التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجلُّ فائدة الصلاة - وهي عماد الدين - بتلاوة القرآن مع التدبُّر والتخشُّع، فإذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة"[٤].

---

[١] أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وأهله (٢/ ١٢٠٤).

[٢] من كلام ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٠٦).

[٣] الفوائد (٦١).

[٤] تفسير المنار (٩/ ٤٦٣).

ومن صور الضعف والتخلُّف الواقع في الأمة ما يلي:

أ- الضعف العلمي والتراجع الحضاري:

لقد ارتقى المسلمون في الماضي بسبب تمسُّكهم بدينهم، وتطبيق كتاب ربِّهم واقعاً في حياتهم، وتحوَّلوا بهدايته "من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدينة، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدَّلوا بأرواحهم الأولى أرواحًا جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا إليه من عزٍّ ومنعة، ومجد وعرفان وثروة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن"[1].

وحين ابتعدوا عن منهج ربِّهم، وتدبُّر كتابه والعمل به؛ فقدوا ذلك المجد، وأصبحوا في ذيل الأمم ومؤخرة القوم.

إنَّ الرفعة والتقدُّم التي حققها الرعيل الأول، لم تحصل لهم لمجرد انتسابهم إلى الإسلام، وإنما بتطبيقه واقعاً عملياً في حياتهم، وتمسُّكهم بكتاب ربِّهم والعمل به، وهذا وعد الله الذي لا يُخلف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

إنَّ من أهمَّ أسباب الضعف والتراجع الحضاري للأمة أمور منها:

١- الجهل، وعدم الحرص على العلم والتعليم، والرضا بالعلم الناقص.

٢- فساد الأخلاق للعامة والخاصة، وهذا أفقد الأمة الكثير من الفضائل التي حثَّهم عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها القرآن سلف الأمة.

٣- الجبن والهلع: فالأمة التي كانت لا تهاب الموت، أصبح الكثير من أفرادها يحرصون على الحياة حرصاً لا مثيل له، فتعلَّقوا بها، وتمسَّكوا بزخرفها الزائل.

---

[1] لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، لشكيب أرسلان (٤١).

٤- اليأس والقنوط: فالكثير من الناس حين يرون ما أصاب المسلمين من ضعف يصيبهم يأس وقنوط لذلك، ولو تدبَّروا القرآن لأوقفهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٥- نسيان المسلمين لماضيَهم المجيد: فالمسلمون فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً حين تمسَّكوا بقيم الإسلام السامية، واعتصموا بحبله المتين، واستحضار هذا المجد يقوي من عزائم الرجال الصادقين، ويزرع فيهم الأمل بالنصر والتمكين.

٦- ضَياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين: فلقد أضاع الإسلامَ جاحدٌ وجامدٌ؛ أمَّا الجامد الذي لا يريد أن يُغيِّر شيئًا، ولا يرضى أن يدخل أقلَّ تعديل أو اجتهاد على أصول التعليم الإسلامي ظنًّا منه أن ذلك من الاقتداء بالكفار، وأنَّ أنظمة التعليم من وضع الكفار، فمنع كلَّ جديد، وحارب كلَّ وسيلة، حتى كان سبباً للتخلُّف والبعد عن معرفة العصر ولغته وتقدُّمه.

ومثله مِثْل الجاحد أيضًا الذي يريد أنْ يُلغِي كلَّ شيء قديم من دون نَظَرٍ فيما هو ضارٌّ أو نافع، فهو يريد أنْ يُفَرنِج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مُقوِّماتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم.

وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

إنَّ تأخُّر المسلمين في القرون الأخيرة ليس من تمسُّكهم بالشريعة — كما زعم الجاحدون- ، بل هو من الجهل بالشريعة، أو من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي.

ولَمَّا كانت الشريعة جاريةً على حَقِّها كان الإسلام عظيمًا عزيزًا، وأيُّ عظمة أعظم ممَّا كان عليه الإسلام في أيَّام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلاً.

إنَّ أنظمة القرآن وقواعده هي معيار التقدُّم الحضاري، وحين درس الأعداء ذلكك ومارسوه في حياتهم ومجتمعاتهم، وأبعدوا عنه المسلمين، وحين قدَّسوا العلم والتعليم ورفعوا شأنه؛ ارتقوا في مقاييس الحضارة الدنيوية، وصارت لهم القوة والغلبة في شؤون الحياة.

"وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم؛ أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام"[1].

لقد كان القرآن بلا ريب سببَ نهضة المسلمين وفُتوحاتهم المدهشة، ممَّا أجمَعَ على الاعتِراف به المؤرِّخون شرقًا وغربًا، لكنَّه لم يكن سببَ انحطاطهم فيما بعدُ، كما يَزعُم المُفتَرون الحاقدون الجاحدون، بل كان السبب في تردِّي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخِرِ الأمر من الإسلام بمجرَّد الاسم، ولكنَّ الإسلام اسمٌ وفعلٌ[2].

نسأل الله أن يستعملنا في طاعته، ولا يستبدلنا.

ب- الهزيمة النفسية، والانبهار بالأمم الأخرى:

إنَّ الهزيمة النفسية، من أشدِّ الأمراض فتكاً بالأمة، ومن أكبر مداخل الأعداء عليها.

ومن تدبَّر القرآن، وجد أنَّ مما يبثُّه الأعداء؛ روح الهزيمة النفسية في الأمة، وتتوارث ذلك حناجر النفاق فيها، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب:١٣].

أو تجدهم يلمِّعون الأعداء وقوَّتهم، ويجعلونهم القدوات، في مثل قول الله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١].

وربما ظهر في الأمة في مراحل ضعفها، وبعدها عن تدبُّر القرآن؛ من يبثُّ روح الهزيمة فيمن حوله، في أصعب الظروف وأحلكها، كما قال سبحانه في قصة موسى وفرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١].

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٦).

[2] بتصرف من كتاب: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، لشكيب أرسلان (٧٥-١٣٠).

فالأمة حين تبتعد عن كتاب ربها وتدبُّره وتطبيقه؛ يصبح لديها هيبة من أعدائها، وقناعة بأنَّ عدوَّهم لا يُهزم أبداً، مع كونها أمة أخبرها نبينا محمد ﷺ أنها تُنصر بالرعب مسيرة شهر[١]، لكن ذلك يحصل إذا تمسَّكت بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ.

و"من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كلَّ ثقة بأنفسهم، وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحقّ أو بباطل أنَّ علَّته قاتلته؟ "[٢].

ومن أبرز أعراضها ومظاهرها ما يلي:

* الإعجاب بما لدى الخصوم من إمكانات وتطور، والقناعة بأنه لا يمكن للمسلمين أن يصلوا إلى ما وصل إليه القوم.

* الرضا بالواقع على المستوى الشخصي أو الجماعي، وعدم الإقدام على تغييره أو تحسينه أو الارتقاء به، واليأس من إمكانية ذلك.

* التبعية والتقليد للخصوم في مجالات الحياة العلمية والعملية؛ كالطب والهندسة والصناعة والاقتصاد وغيرها.

* اختفاء الهوية الإسلامية في المخبر والمظهر واللغة، والاستحياء ربما من إظهارها.

---

(١) للحديث الذي رواه جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٣٥) في كتاب التيمم، وبرقم: (٤٣٨) في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا». وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٥٢١) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

(٢) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، لشكيب أرسلان (١٤١).

* استمداد الثقافة والعلم من مصادر الخصوم فقط، والتعامل معها كنصوص قطعية مسلَّمة، دون محاولة للبحث والتنقيب وإظهار ما لدى المسلمين من حضارة تاريخية كانت يوماً سبباً في صنع حضارة الخصوم.

ومن أعظم أسبابها: ضعف الإيمان والركون إلى الدنيا، والجهل بالدين وبصلاحيته لكِّل زمان ومكان، والغفلة عن مكامن القوة فيه، إضافة إلى الحرب النفسية التي يستخدمها الأعداء في تثبيط عزائم المسلمين وإضعافهم، بعد معرفتهم لنقاط الضعف فيهم.

إنَّ الهزيمة النفسية قد تكون سبباً فيما يصيب الأمة، وقد تكون نتيجة لإخفاقات في السياسة والتربية والإدارة، وأي علَّة من علل الأمة هي نتيجة لعلة أخرى سابقة عليها، وسبب لعلة أخرى نتجت عنها. فتسلط العدو المتكرر، قد ينتج عنه هزيمة نفسية وضعف في الأمة، ويأس من الانتصار عليه، وربما كان أيضًا موقظًا للأمة، ومفتقًا لطاقاتها الكامنة، وباعثًا للحمية في نفوس أبنائها، في دفعه والتخلص من سيطرته.

وهي كأي ظاهرة أخرى؛ تأتي نتيجة أخطاء متراكمة عبر السنين، ولا تزول فجأة، فسنَّة الله في التدرُّج ثابتة، سواء في نشأة الظاهرة أو في رفعها.

والهزيمة النفسية أيضاً إذا وقعت فهي عبارة عن روح يسري في الأمة، فتصيب المطيع والعاصي والعالم والجاهل والمتبوع والتابع، بل إنَّ العالم والمفكر يسخِّر كل منهما عقله وعلمه لترسيخ الهزيمة من حيث لا يشعران، ويرى كل منهما أن ما يراه هو الحكمة والصواب، وإنَّ من أكثر الناس تأثرًا بالهزيمة النفسية واستسلامًا لها ودفاعًا عنها، ليس العامة وإنما هم رؤوس الناس وعلماؤهم والمتبوعون فيهم.

إنَّ الهزيمة النفسية تكون بالشعور بهزيمة القيم والمبادئ أمام الواقع، أو الشعور بهزيمة الشخص نفسه أمام المبدأ. وعادةً ما يصاحبها عدد من المشاعر؛ مثل الشعور بالعجز وضعف الإرادة عن التغيير، والإعجاب بما عند الخصم من تراث وحضارة، أو رغبة في

تقليده والاقتداء به، واحتقار الذات أو التخلي عن الهوية.

وإنَّ للأعداء أساليب وطرق لإحداث الهزيمة في نفوس المسلمين، من ذلك:

١- الدهشة الحضارية، حيث يبرز العدو حضارته ومافيها من جمال وقوة، حتى يصاب من يراها من الإغراء بالدهشة ويستسلم له.

ومن أمثلة ذلك: ما فعله رستم، مع رِبْعِيّ بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبل معركة القادسية، حين بُسِطت لرستم البُسُط والنمارق، ووضع له سرير الذهب، وأُلبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب، فأدرك ربعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطته، فتعامل مع مفاتن الحضارة الفارسية باستعلاء، واستطاع المحافظة على إرادته والتمسُّك بما يريد[١].

٢- تغييب السبل البديلة في الخيارات الحضارية، والتصوير للطرف الضعيف أنَّ سبيل النجاة واحد وهو سبيل الخصم فقط، وأنَّ التطوير الاقتصادي والتقدُّم الإداري لا يتمُّ إلا من خلال الطرق التي سلكها الخصم.

٣- التجهيل بالهوية والتاريخ، ومن يجهل هويته وتاريخ أمته لا يبالي بأي حضارة أخذ، ولا يجد فرقًا بينه وبين خصمه الذي لا يريد له الخير[٢].

ومن تدبَّر القرآن الكريم حقَّ التدبُّر ما كان لمثل هذه الهزيمة أن تدخل نفسه، أو تؤثِّر فيه؛ لأنه سيقف على قواعد قرَّرها القرآن للنصر والهزيمة، من أبرزها:

- أنَّ النصر ليس بكثرة العدَّة ولا العتاد، ولا بالقوة أو الشجاعة؛ بقدر ما هو بالعقيدة والمبادئ، وبالصبر والمصابرة، فـ"بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدِّين"[٣].

---

[١] انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٥١٨-٥١٩)، المنتظم لابن الجوزي (٤/ ١٦٧).

[٢] ينظر بحث بعنوان: الهزيمة النفسية- د/ عبدالله الصبيح منشور على شبكة الانترنت: islamtoday. net

[٣] من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وقال سبحانه: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ [الأنفال:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦].

وقد تعلَّم المسلمون الأوائل درساً في ذلك حين أعجبوا بكثرتهم في حنين، وقالوا: (لَنْ نُهْزَمَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ)[1]، فهزموا، وقال الله لهم: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة:٢٥].

- ومن تدبَّر القرآن: وجد تحديد المشكلة بوضوح، في نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥].

- واستلهم منه قوَّة المواجهة النفسية، وعدم الاستسلام لما يبثُّه الأعداء من أمور توهن القوى، وتميت الهمم، في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

- ومن تدبَّر القرآن وقف على الأمر بأخذ الدين بالقوة، والاستقامة عليه بعزم وحزم، في مثل قول الله تعالى: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥]، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢]، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢]. كل ذلك سبب بإذن الله لمقاومة الهزيمة النفسية والقضاء عليها.

- وفي القرآن مواجهة للوهن الذي يصيب النفوس أحياناً، بتوضيح أنّ كيد الكافرين مهما كان قويّا فإنّه لا ينبغي أن يخيف المسلمين لأنّ الله عَزَّوَجَلَّ موهنه ومضعفه: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨].

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١٢٨) برقم: (٦٥١٨).

- وفي القرآن بيان أنَّ المسلمين هم الأعلون بنصرة الله لهم، فلا ينبغي أن يطلبوا الدّخول في سلم العدوّ، لأنَّ حليفهم وناصرهم لا، ولم، ولن يهزم أبداً، ومن كان الله معه فكيف يخاف من عواقب معركة مهما كانت: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

- وفيه الدعوة إلى الابتعاد عن المهزومين والمتشائمين: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٦-٨٧].

- وفيه الدعوة إلى البعد عن الإعجاب والركون إلى القوم الظالمين، في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:١١٣].

وفي الجملة.. من تدبَّر القرآن نجا بإذن الله من هذا المرض العضال، وكان القرآن سبباً لارتفاع همَّته، وانتصار نفسه على أعدائه، فتدرَّج في معالي الأمور، حتى ترجع العزَّة للدين وأهله.. والحمد لله على فضله ورحمته.

ج- تسلُّط الأعداء على الأمة، وضعف مواجهتهم:

عرف أعداء هذه الأمة قوَّة تأثير القرآن على صلاح المسلمين، فأخذوا في المكرِ والتخطيط لصرْف المسلمين عنه، وإبعادهم عن تدبُّره وفهمه.

وحين تهجر الأمة القرآن وتدبُّره؛ يتسلَّط أعداؤها عليها.

ولقد كان من أهداف المشركين -حين وجدوا قوَّة تأثير القرآن على من استمع إليه- صرف الأنظار والأسماع عنه، وسعوا إلى تحقيق ذلك بكلِّ الوسائل الممكنة، من صدِّ الناس عن القرآن، وإثارة المزاعم والشكوك حوله، وظنوا أنَّ ذلك سيكون سبباً لانتصارهم وغلَبتهم على المسلمين، وهو ما وضَّحه تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وهو عين المنهج الذي سار عليه أعداء الدين قديماً وحديثاً.

قال وِلْيَامْ جِيفُّورْدْ بلغريف (١٨٨٨م)[١]: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم تبعده عنها إلا محمد وكتابه)[٢].

"ولاشك أن المناعة الذاتية الجبارة التي خلقها القرآن في المسلمين قد حالت بينهم وبين الانحدار الحضاري، أو السقوط المدوي أمام التكالب الأممي لجحافل التتار والصليبيين في الماضي، وأمام الغزو الاستعماري في العصر الحديث، وكذلك جعلت من إمكان تنصير المسلمين مرهونة بإبعادهم عن القرآن وصرف أنظارهم عنه، وقد تجلّى انكشاف تلك الحقيقة الثمينة التي أكَّدها غلادستون (١٨٩٨م)[٣]لقومه: (مادام هذا القرآن موجوداً في فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان)[٤]"[٥].

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن

---

[١] **وِلْيَامْ جِيفُّورْدْ بلغريف**= (William Gifford Palgrave)، منصِّر وجاسوس ودبلوماسي بريطاني، عاش في الفترة ما بين (١٨٢٦م – ١٨٨٨م)، وهو من أشهر الرحالة الذين زاروا جزيرة العرب، شارك في تأسيس "دائرة المعارف العامة البريطانية "، وتعلَّم اللغة العربية، وتنقل بين الدول منصِّراً. انظر: موسوعة ويكيبيديا– الموسوعة الحرة: (http: //ar. wikipedia. org /wiki).

[٢] الغارة على العالم الإسلامي (٩٣).

[٣] **غلادستون**= وزير بريطانيا الأول، وأحد موطِّدي أركان الإمبراطورية في الشرق، تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا أربع مرات، مات سنة ١٨٩٨م، وكان واحدًا من أشهر القادة السياسيين البريطانيين في أوائل القرن التاسع عشر. كان قائدًا علمانيًا بارزًا في كنيسة إنجلترا وألف عدة كتب في اللاهوت، واشتهر بكونه خطيبًا وخبيرًا ليبراليًا مخلصًا. انظر: موسوعة ويكيبيديا: (http: //ar. wikipedia. org /wiki).

[٤] الإسلام على مفترق الطرق– محمد أسد (٤٣).

[٥] الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم– د/ عبدالراضي محمد (١٣).

العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم)[1].

ويقول المنصِّر تاكلي: (يجب أن يستخدم كتابهم -أي القرآن الكريم-، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضدَّ الإسلام نفسه لنقضي عليه تماماً، يجب أن نري هؤلاء الناس أنَّ الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأنَّ الجديد فيه ليس صحيحاً)[2].

لقد بيَّن القرآن الكريم أسباب القوَّة والضعف، ووضَّح وفصَّل كيد الأعداء وخطط المجرمين ومكائدهم ضدَّ الإسلام وأهله، ولمَّا ابتعدت الأمة عن تدبُّر القرآن الكريم وهجرته، تفرَّقت بها السبل في كل وادٍ سحيق، وفقدت مركزها ومكانتها وعزَّتها وسؤددها، وجنت عاقبة ذلك خسراً.

إنَّ المتأمل في واقع الأمة المسلمة اليوم، يرى كيف وصلت إلى درجة من الضعف والوهن والاختلاف، ضعف في عقيدتها، وفي قوتها، وفي اقتصادها وفي قراراتها، وضعف في تسيير شئون نفسها، فأدى ذلك إلى تكالب أعدائها عليها، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، محاولين تحطيمها والإجهاز عليها.

إنَّ تقدُّم أهل الكفر والنفاق حيناً، وتمكُّنهم وقوَّتهم وتسلُّطهم؛ ليس بسبب تمسُّكهم بمنهج صحيح أو دينٍ حق، بل بسبب ترك المسلمين سبل العزَّة والقوة، وعمل أولئك ببعض قوانين التمكين، جعل لهم الدولة والرفعة زمناً.

وقد يسبق النصر للمؤمنين أذى من العدو وغلبة له؛ فإنَّ نصر الله تعالى للمؤمنين حسب سنته تعالى في نصره لهم لا يأتي عادة دون جهد يبذلونه، وتضحية يقدِّمونها في مدافعتهم لأهل الباطل، مما قد يترتب عليه عادة أذى شديداً يلحقهم من أهل الباطل وغلبة لهؤلاء المبطلين على المؤمنين.

---

[1] قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله- جلال العالم (١٣).

[2] التبشير والاستعمار في البلاد العربية- د. مصطفى خالدي، ود. عمر فروخ (٤٠).

وهذا لا يتعارض مع سنة الله في نصر المؤمنين، لأنَّ الأمور بخواتيمها وعاقبتها، والعاقبة دائماً للمتقين، ولله الحكمة فيما يصيب المؤمنين من أذى قبل بلوغهم النصر الحاسم على أهل الباطل، وعلى هذا يربِّي القرآن أتباعه، بنحو قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١].

إنَّ المسلمين لن ينتصروا إذا تقهقروا، وخالفوا أمر ربهم؛ ولو كانت الدنيا كلها معهم، فالنصر لن يكون إلا بنصر الله ونصرة دين الله وإقامته ظاهراً وباطناً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

والحقيقة التي لا بد أن تستقرَّ في ذهن كل مؤمن متدبِّر؛ أنَّ النصر لهذا الدين مهما تكالبت عليه قوى الأرض كلها: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

فمتى قوي المسلمون وتمسَّكوا بكتاب ربهم، وتدبَّروه وعملوا به؛ عادت لهم قوتهم وحضارتهم ورفعتهم، مصداق قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

نسأل الله أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويرفع الذلَّ والهوان عن المسلمين.

- المطلب الثامن: بروز التقليد الأعمى، وإهمال النصّ الشرعي:

لقد أدى إهمال فريضة التدبر إلى ظهور العقلية التقليدية، وهي عقلية لا تنمو ولا تترعرع إلا في أجواء الجهل والتخلُّف الحضاري، ولم يعرفها المجتمع المسلم إلا في عصور التأخُّر، وهجْر الكتاب وتدبُّره.

وقد عاب القرآن الكريم التقليد بمختلف صروفه وفنونه، وأنكر على المشركين تقليدهم الآباء والأجداد؛ ذلك أنَّ تقليدهم وقف حاجزاً بينهم وبين قبول الحق، وحال بينهم وبين الانصياع للإسلام، الذي ما رأوا فيه عيباً سوى تسفيه آراء أسلافهم وتقاليدهم التي درجوا عليها[1].

"لقد كان دين المشركين قبل الإسلام مبنياً على أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع من كان قبل ظهور الإسلام من الأمم الأولى، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٣-٢٤]، فأمرهم الله تعالى أن يتبعوا الحق فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وغير ذلك مما يدلُّ على أن أهل الجاهلية كانوا مقيَّدين بربقة التقليد، لا يحكّمون لهم رأياً، ولا يستعملون نظراً، ولا يشغلون فكراً، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة، وقضوا أعمارهم في الضلالة، وهكذا كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان"[2].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (اعلم أنَّ المقلِّد على غير ثقة فيما قلَّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتأمُّل والتدبُّر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة)[3].

وفي القرآن الكريم دعوة متواصلة لتحرير عقلية الفرد مما علق بها من تقاليد وعادات وأوهام؛ انحدرت من موروث الآباء والأجداد، أو من البيئة التي تحيط به منذ الطفولة في سبيل

---

(١) انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. د/ رقية العلواني (٢٦).

(٢) انظر: فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية، لمحمود شكري الألوسي (٢١٣).

(٣) تلبيس إبليس (٧٤).

التوصل إلى العقلية العلمية الناضجة، التي تبحث وتفكِّر وتستنبط بحرِّية وموضوعية.

فالعقل مطالب بالاحتكام إلى آيات القرآن الكريم، وعرض الآراء البشرية عليها، فما وافقها أخذنا به، وما خالفها أعرضنا عنه، فقد تعبَّدنا الله بالقرآن الكريم، ولم يتعبَّدنا بأقوال البشر[1].

- المطلب التاسع: الانصراف عن قراءة القرآن الكريم للكتب الفكرية والعقلية:

إنَّ من أخطر الآثار السلبية لهجر تدبُّر القرآن الكريم: الإنصراف والاهتمام البالغ بقراءة الكتب الفكرية المختلفة، والاعجاب بها، والانشغال بما جاء فيها عن كتاب الله، وقد يصل الأمر حدّ إتباعها رغم مخالفتها لبعض ما جاء في كتاب الله، نظراً للبعد الحاصل عن القرآن، وعدم الرجوع أو الاحتكام إليه، و"من لم يكن له في كتاب الله عِبرة؛ فليس له في هذه الكتب عِبرة"[2].

وورد عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تنفيرهم الشديد من كثرة الانشغال بالكتب وتدوين الأقوال والآراء، خشية الإنصراف إليها، والانشغال بها عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وانتهج كبار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ مثل عمر بن الخطاب وغيره؛ منهجاً دقيقاً يؤسس على أنَّ في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ غنية عن أي كتاب أو منهج، فأحاطوا القرآن الكريم بسياج منيع في سبيل الحفاظ على مبدأ الانصراف إليه، وتدارسه دون غيره، وهذا ما يفسرّ لنا حملتهم على كل من حاول تدوين سنن أو أقوال في كتب ومؤلفات.

من ذلك قول عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً)[3].

---

[1] انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. د/ رقية العلواني (٢٦-٢٧).

[2] من قول أبي زرعة الرازي حين سئل عن كتب فيها بدع وضلالات، أخرجه عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٢١١)، وذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١٥٠)، والذهبي في الميزان (١/ ٤٣١)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٨٠).

[3] أخرجه عنه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ٢٥٧)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٤٠٧)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٥).

وخطب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: (أعزم على من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هكذا الناس، حيث يتَّبعون أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم)[1].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (إنما هلك أهل الكتاب قبلكم، أنهم أقبلوا على كتب علمائهم، وتركوا كتاب ربهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[2].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (إنما ضلَّ من كان قبلكم بالكتب)[3].

وقال الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٥هـ): (يأتي على الناس زمان يكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا يُنظَر فيه)[4].

وعنون ابن عبد البرّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦٣هـ) في كتابه جامع بيان العلم: (باب ذكر كراهية كتابة العلم وتخليده في الصحف)[5]، وذكر جملة من أقوال السلف، وشدة كراهتهم الإفراط في الكتابة والتدوين لآرائهم، خشية الانشغال بها والإنصراف عن القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما في باب فهم القرآن: فهو دائم التفكُّر في معانيه، والتدبُّر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرَضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبِله، وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا ردّ وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه)[6].

ولا يُفهم من ذلك أن ترمى تلك الثروة التراثية العظيمة التي وصلت إلينا بعد جهود

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١٤)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤١٩)، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٦)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٨٠).

(٤) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٩).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٦٨).

(٦) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠).

هائلة من علمائنا السابقين ﷺ، إلا أنَّ المقصود أن يوجَّه الاهتمام الأول إلى القرآن الكريم، ويستعان بها كتبه السابقون ﷺ في تدبُّر الكتاب وفهمه[١].

إنَّ من كانت نفسيته سوية، فتنظر في جوهر البرهان، وليس في شكليات الخطاب، فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجرُّد، أما من يعاني من عاهات في شخصيته الفكرية؛ فيقدِّم وهج المظهر اللغوي على جوهر البرهان؛ فهذا النوع المريض من الناس قد يحتاج لبعض الكتابات الفكرية التي تخدعه[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول؛ كان أنفع له، لأنَّ نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جلية لم تفرح نفسه به، ومثل هذا قد يستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته، لا لكون العلم بالمطلوب متوقفاً عليها مطلقاً، فإنَّ من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته؛ لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيجب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات وهذا يسلك معه هذه السبيل)[٣]. والله أعلم.

- المطلب العاشر: انتشار الخرافات والمعتقدات الفاسدة:

من آثار هجر التدبر: انتشار الخرافات[٤] والمعتقدات الفاسدة بين الناس.

وحين يضلُّ الإنسان عن الحقِّ يظنُّ أنه خرافات، كما كان من حال سحرة فرعون حين قالوا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [طه:٥٨]، فوصفوا المعجزات

---

(١) انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. د/ رقية العلواني (٢٨).

(٢) انظر: الطريق إلى القرآن - إبراهيم السكران (٥٣-٥٤).

(٣) الرد على المنطقيين (٢٥٥).

(٤) **الخُرَافةُ**= حَدِيث مُسْتَمْلَحٌ كَذِبٌ، ويقال: كَانَ خُرَافَةُ رجلا استهوَتْه الجنُّ فَرجع بعجائبَ رَآهَا فيهم فقِيلَ لكلِّ عجِيبٍ كَذِبٍ: خُرَافَةٌ. انظر: جمهرة اللغة (١/ ٥٨٨)، تهذيب اللغة (٧/ ١٥١) مادة: خ ر ف.

بالخرافات لخلوِّ قلوبهم من الحق الذي جاء عن الله.

ومثل ذلك، وصف الكفار للقرآن بأنه أساطير الأولين، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

فحين حُرموا تدبُّر القرآن الكريم؛ وصفوه بالخرافة، ووقعوا هم في خرافة الشرك، وعبادة الأصنام.

إنَّ البنية العقلية العميقة لبني الإنسان تتقبَّل الخرافات بيسر وسهولة، ذلك أنَّ الخرافة سابقة في وجودها على كلٍّ من العلم والفلسفة معاً، وينشأ ذلك من رغبة الإنسان الجامحة لتفسير الأشياء المحيطة به، ولديه نزوحاً قوياً لاكتشاف عتمة المستقبل أيضاً، وهو حين يبتعد عن كتاب ربه - مصدر العلم ودليل الحقائق الغيبية والمرئية - فإنَّ الخرافات والأساطير ستجد في نفسه قبولاً كبيراً.

فالخرافات عبارة عن أفكار وممارسات وعادات لا تستند إلى تسويغ عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي، لا على مستوى النظرة، ولا على مستوى التطبيق؛ ومن ثمَّ فإنها بعيدة عن المنطق وعن الموضوعية، ولا يستطيع الذي يتمتَّع بتفكير منطقي عال أن يعصم ذهنه من الخرافة إذا لم يكن يملك قدراً جيداً من العلم؛ وذلك لأنَّ المنطق هو القواعد الفكرية التي نستنتج بواسطتها معرفة معينة من معرفة مسلَّمة سابقة.

تستقي الخرافة وجودها واستمرارها من الجهل والتخلُّف في نواحي الحياة المتنوعة.

وفي تدبُّر القرآن الكريم ما يحمي المسلم من التفكير الخرافي، وحين يهجر التدبُّر يشيع الجهل، وتفسد عقائد الناس، لتصبح مشكلتهم الأساسية سوء فهم الإسلام والقرآن، ومن ثمَّ تنتشر فيهم الخرافة والسحر والشعوذة وقراءة الكفِّ والفنجان لتصبح في المجتمع المسلم غير المتعلِّم؛ قريبة من انتشارها في المجتمع غير المسلم.

وقد لاحظ علماء الاجتماع أنَّ انتشار الخرافة يتَّسع كلما زادت درجة الجهل والقهر والعجز وفقد الثقة بالنفس؛ لأنَّ من شأن هذه الأمور أن تنأى بالإنسان عن البحث الموضوعي والمنهجي، مما يجعله يلجأ إلى الخرافة بوصفها أداة جيدة لتفسير الظواهر[1].

إنَّ اللجوء إلى السحرة وغيرهم، يكون عند غياب العقلية المنهجية ذات التفكير السليم، التي تعالج الواقع بحكمة وموضوعية، نابعة من فكر أصيل مستمد من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، فيلجأ الناس إلى الهروب من الواقع ومعالجته عن طريق المشعوذين والدجالين، في محاولة للتخلص من الواقع الأليم الذي يعيشونه.

وكلها أمراض اجتماعية وفكرية مترتبة على انتشار الجهل والتقليد وغيرهما من الأمراض الفكرية والاجتماعية التي باتت تهدد كيان الأسرة والمجتمع[2].

وكما أنَّ التدبر في كتاب الله وآياته في الآفاق والأنفس مفتاح لكل خير وصلاح، فإنَّ هجر التدبر ونبذه مفتاح لكل شرّ ومعول هدم في كيان الفرد والمجتمع، وسمٌّ زعاف يقتل قدرات الأفراد، ويضيق الخناق على مواطن الإبداع والتفكير السليم فيها، وجُلُّ ما نراه ونحياه في مجتمعاتنا من تخلُّف وتأخر وضعف وتمزق أسري وغياب حضاري، ما هو إلا نتيجة من نتائج إهمال تدبُّر القرآن الكريم والإعراض عنه. والله المستعان.



(١) انظر: تكوين المفكر - د. عبد الكريم بكار (١٧٢-١٧٣).

(٢) انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. د/ رقية العلواني (٢٩).

الفصل الثالث

حكم تدبُّر القرآن ومراتبه

وفيه ثلاثة مباحث:

- ❖ **المبحث الأول**: أحكام التدبُّر.
- ❖ **المبحث الثاني**: أنواع التدبُّر.
- ❖ **المبحث الثالث**: درجات التدبُّر.

المبحث الأول: أحكام التدبُّر

تدبُّر القرآن الكريم عبادة عظيمة لتعلُّقه بأشرف كتاب، واقترانه بأصدق كلام.

ومن سبَرَ وتأمَّل في حكم تدبُّر القرآن الكريم سينتهي إلى ثلاثة أحكام التكليفية، وهي: الوجوب، والاستحباب، والتحريم[١]، وتفصيل ذلك في المطالب التالية:

- المطلب الأول: الوجوب:

وهو الأصل الذي دلَّت عليه عامة الأدلة الشرعية، فالتدبُّر واجب شرعي على كل مكلَّف، كلٌ حسب قدراته وطاقاته الإدراكية القابلة للاكتساب والزيادة وبذل الوسع في تعلُّم وتفهُّم كتاب الله، فلا يُعذر أحد بعدم التدبُّر في آيات الله وقد يسّره الله للذكر والعمل بما جاء فيه، ولا يكون هذا ولا يتأتى إلا بالتدبُّر وبذل الجهد لتحقيق ذلك[٢].

والتدبُّر أيضاً واجب في الأمور الواجبة، كآيات الفاتحة، والعقيدة، والفرائض والأركان التي لا يصح إيمان عبدٍ إلا بها.

وأوجب الله على المسلمين تدبُر القرآن الكريم، وإمعان النظر في آياته، وإطالة الوقفة أمامها، والتزود بالعلوم الضرورية من أجل دقة النظر، وصوابية الفهم، وصحة النتائج والدلالات التي يخرج بها من القرآن.

وبيَّن لنا أنه أنزل الكتاب لنتدبر آياته، ونخرج من هذا بالفهم والعلم والذكر، وأنَّ هذا التدبُّر وسيلة تكوين اللبِّ الحي، والعلم النافع، والعقلية العلمية المنهجية الواعية، وأنه هو الذي يُنشِّط العقل وُيمرِّنه، وُيريِّضه الرياضة العلمية النافعة.

---

(١) هذه الأحكام ظهرت لي من خلال الاستقراء، وإلا فلم يسبق لي الوقوف على من خصص الحكم بهذه الثلاثة فقط. والله أعلم.

(٢) انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق.د/ رقية العلواني (١٣).

وتدبُّر القرآن لا ينتهي، فلو توافرت عليه كل العقول - المختلفة في ثقافاتها واهتماماتها - حتى قيام الساعة ما استَنفدَت علومَه ومعانيه ودلالاته[1].

ويمكن تقسيم أدلة ذلك إلى قسمين:

أ) آيات جاءت بالأمر بالتدبُّر والحضِّ عليه، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وفي هذه الآية استفهام إنكاري، جاء في سياق الإنكار على المنافقين عدم تدبُّرهم القرآن، وجاء الاستفهام "للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم ؛ مع توفُّر أسباب التدبُّر لديهم"[2].

والمؤمنون داخلون في خطاب الآية من باب أولى، لأنَّهم أهل الانتفاع بتدبُّر القرآن الكريم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ودلَّت الآية على أنَّ تدبُّر القرآن سبب للتخلُّص من النفاق، واستقرار الإيمان في النفوس، وهذا من أوجب الواجبات، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (يقول تعالى آمراً عباده بتدبُّر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهُّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادَّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد)[3].

---

[1] انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات- د.صلاح الخالدي (١١).

[2] انظر: التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

[3] تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٤).

والأمر في الآية صريح، وإذا أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأمر فهو للوجوب، فدلَّ على وجوب التدبُّر.. والله أعلم.

- وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وفي الآية استفهام إنكاري توبيخي تعجُّبي، ينكر الله فيه على كفار مكة عدم تدبُّرهم للقرآن الكريم الذي يلقى على مسامعهم ليل نهار، ويوبخهم على ذلك الإعراض، ويتعجَّب من حالهم في إعراضهم عن الهداية [1].

ودلَّت الآية على وجوب التدبُّر الذي يحرر العقول والقلوب من شبهات الكفر والضلال؛ إلى جنات الإيمان والهدى، فإنَّ من تدبَّر القرآن تدبُّراً صحيحاً متجرِّدًا؛ لا يملك أن يظلَّ معرضاً عنه، ومن ترك تدبُّره أوقعه ذلك في الضلال المبين.

فهم "إن تدبَّروه تدبُّراً صادقاً، علموا أنه حق، وأنَّ اتباعه واجب، وتصديق من جاء به لازم"[2].

- وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

تضَّمَّنت هذه الآية بيان الغاية العظمى التي من أجلها نزل القرآن، وجاء الخطاب فيها بالحثِّ والإغراء، والإخبار عن الكتاب بنعوت وصفات بعضُها شاهد على أنه ميسَّر للذكر والتناول، وبعضها أمارة على أنه حقيق بالتأمل والتدبُّر.

---

[1] انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٤١).

[2] أضواء البيان (٥/ ٣٣٩).

واللام في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ جاءت للتعليل، وهي نصّ صريح في تحديد الغاية من إنزال القرآن الكريم للتدبر والتذكر، ولا خلاف بين الأصوليين في الأخذ بالعلة إذا كان منصوصاً عليها، والعمل بها من باب العمل بالنصِّ الصريح[1].

فإذا كان هذا الكتاب العظيم المنزَّل من عند الله تعالى الموصوف بالبركة، قد نزل لغاية عظيمة؛ نصَّت الآية عليها وبيَّنتها، وهي نزوله من أجل أن يتدبَّره الناس ليعملوا به؛ دلَّ ذلك على وجوب التدبُّر، وأنَّ من لم يستجب لأمر القرآن، ويطوِّع نفسه لتعاليمه، فيكون القرآن سبباً لإنقاذه من النار ودخوله الجنة؛ لم ينتفع ببركة القرآن، وكان من الخاسرين في الدارين.

ولما كانت النتيجة التي ترجى من التدبُّر هي ما يورثه من الخشية والخوف من الله تعالى، الذي يورث الاستجبة لأمر الله، فتتعظ العقول والقلوب بذلك وتحيا؛ دلَّ ذلك أيضاً دلالة واضحة على وجوب تدبُّر القرآن الكريم، فإنَّ عِظَمَ الأمر من عِظَمِ مُصدره، وعَظَمة الخطاب من عَظَمة المتحدِّث به، والأمور بمقاصدها.

فدلَّ ذلك أيضاً على وجوب التدبُّر.

- وقال جلَّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وجاءت هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين، وهو ما أقرَّه أكثر المفسِّرين.

ومن تأمَّل هذه الآية وجد أنَّ الله تعالى حصر فيها الناس في قسمين: إما متدبِّر للقرآن على طاقته ؛ أو أنَّ على قلبه قفل - والعياذ بالله -.

---

[1] انظر: المعتمد في أصول الفقه (٢/ ١٦٣)، الإحكام للآمدي (٢/ ١١٨)، البحر المحيط في أصول الفقه (٧/ ٢٣٧)، التقرير والتحبير على تحرير الكمال بن الهمام (٢/ ٢٩٨).

وتوجيه التدبُّر للمنافقين والكافرين يدلُّ على أنَّ التدبُّر المطلوب منهم مما يمكنهم فعله، لكنه ليس شاملاً لكلِّ ما يدخل في مفهوم التدبُّر.

وقد نصَّت الآية الكريمة صراحة على أنَّ القلوب المنغلقة الغليظة القاسية لا تتدبَّر الذِّكر الحكيم، وهذا يعني بمفهوم المخالفة: أنَّ القلوب المنفتحة اللينة السليمة الخالية من الأهواء والأمراض هي التي تتدبَّر القرآن، وهذا يتحقَّق بالصورة المثلى في قلوب الخلَّص من المؤمنين، وبذلك تكون تلك الآية قد نصَّت على أداة التدبُّر الحقيقي، ووسيلته الصحيحة، وهي القلوب المفتوحة لا الغليظة القاسية[١].

وقد دعا القرآن في الآيات السابقة إلى التدبُّر دعوة مباشرة وصريحة، وأبان أنَّ علَّة نزول القرآن هي التدبُّر.

- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾(إذا مرَّ بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مرَّ بذكر النار تعوَّذ بالله من النار)[٢]، أي بالتدبُّر في تلك الآيات.

وعامة المفسِّرين على أنَّ معنى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حقَّ اتباعه، وهو قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وأبو رزين، وعكرمة، وسفيان الثوري، وعطاء، ومجاهد وإبراهيم النخعي[٣].

ومعلوم أن الاتباع لا يكون إلا بعد الفهم والتدبُّر، وما لا يتحقق ويتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٣٩).

(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢١٨) برقم: (١١٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٦٦-٥٦٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢١٨) برقم: (١١٥٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٣).

- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

فبيَّن جلَّ وعلا أنَّ من حكم إنزاله أن يبين ﷺ للناس ما أنزل إليهم، ولأجل أن يتفكَّروا[١].

ب) آيات جاءت بذمِّ من ترك التدبُّر:

لقد ذمَّ الله سبحانه المعرض عن آيات ربه في آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:٥٧].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه:٩٩-١٠٠].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة:٢٢].

ومن الإعراض ترك التدبُّر والتفهُّم لكتاب الله تعالى.

- وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]. ففي الآية ذمَّ سبحانه وتعالى المحرِّفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرَّد التلاوة من دون تفهُّم وتدبُّر، وهي الأماني[٢].

كما أنَّ في الآيات السابقة في الأمر بالتدبُّر ذمٌّ واستنكار لمن أعرض عنه، والذمُّ والاستنكار لا يكون إلا عن أمر منهي عنه[٣].

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

---

[١] انظر: أضواء البيان (٦/ ٣٤٥).

[٢] انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ١٠٤٩)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ١٢٣).

[٣] انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٦/ ٣٤٥).

وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يسمعونه، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه؛ فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (هجر القرآن أنواع... هجر تدبُّره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلِّم به منه)[2].

"ومعلوم أنَّ كلَّ من لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهما يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجْر قومه هذا القرآن،... وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أنَّ تدبُّر القرآن وتفهُّمه وتعلُّمه والعمل به، أمر لا بدَّ منه للمسلمين"[3].

"والإنسان قد يهجر القرآن فلا يؤمن به ولا يسمعه ولا يصغي إليه، وقد يؤمن به ولكن لا يتعلمه، وقد يتعلمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبره، وقد يحصل التدبُّر ولكن لا يعمل به، فلا يحلُّ حلاله ولا يحرِّم حرامه ولا يحكمه ولا يتحاكم إليه ولا يستشفي به مما فيه من أمراض في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشخص بقدر ما يحصل منه من الإعراض"[4].

- وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة:٥].

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٨).

[2] الفوائد (٨٢).

[3] انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٢٥٧).

[4] فتاوى اللجنة الدائمة (٤/ ١٠٤) من الفتوى رقم: (٨٨٤٤).

قال الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥٢٠هـ)[١]: (فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملَّتنا، ثمَّ لا يفهمه، ولا يعمل بما فيه)[٢].

- وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، فيه "حثٌّ على تأمل مواعظ القرآن، وبيان أنه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدِّعة؛ أي متشققة من خشية الله"[٣].

وفي الآية "توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلَّة تخشُّعه عند تلاوة القرآن وتدبُّر قوارعه وزواجره"[٤].

وقد أودع الله تعالى في الإنسان القدرة العقلية التي يستعملها في تدبُّر آيات الله في الكتاب والكون، وعلى هذا كان الذم لمن ترك التدبُّر فيهما على اعتبار أنه قام بتعطيل قدرات إنسانية ميَّزه الخالق بها عن غيره من المخلوقات.

"ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه؛ لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له، وأنى تطيقه وهو يقول: تعالى جده وقوله الحق: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ

---

[١] **أبو بكر الطرطوشي** = محمد بن الوليد الفهري الأندلسي، نزيل الإسكندرية، أحد الأئمة الكبار، كان إماماً عالماً زاهداً ورعاً متقشفاً، وله تصانيف كثيرة، مات في جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (١٣٥)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٩٠).

[٢] انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٢٥٧).

[٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ٤٤).

[٤] الكشاف للزمخشري (٤/ ٥٠٩).

﴿جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]. فأين قوة القلوب من قوة الجبال، ولكنَّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة"[1].

وثناء القرآن الكريم على أصحاب العقول والألباب، حين اعتبر تنمية القدرات العقلية المختلفة من أشرف الأعمال، والتدبُّر من سمات أهل العلم والعقل؛ دليل على شرف التدبُّر ووجوبه.

– وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٩]، فيه بيان أنَّ من أسباب حلول العذاب العاجل للأمم في الدنيا؛ الإعراض عن آيات الله، وعدم تدبُّرها والعمل بما جاء فيها.

وأما في السنة النبوية فلم ترد أحاديث صريحة مرفوعة للنبي ﷺ تدلُّ وتأمر بتدبُّر القرآن الكريم، ولكن جاءت السنة بأخبار وأحاديث تدلُّ على تدبُّره ﷺ للقرآن الكريم وتأثره به، سبقت في تمهيد البحث.

وقال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨٢هـ): (فإنَّ الله سبحانه كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه وما أراد، وفهم رسول الله ﷺ، وحفظ تعالى كتابه وسنة رسوله إلى يوم التناد؛ بأنَّ كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يحتاج في معناها إلى علم النحو، وإلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما سارع به إلى معرفة المراد منها عند قرعها الأسماع من دون نظر إلى شيء من تلك القواعد الأصولية، والأصول النحوية، فإنَّ من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٠]، يفهم

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٤).

معناه من دون أن يعرف أنَّ (ما) كلمة شرط، و﴿تُقَدِّمُواْ﴾ مجزوم بها لأنه شرطها، و﴿تَجِدُوهُ﴾ مجزوم بها لأنه جزاؤه، ومثلها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، ومثلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠]، يَفهم من الكلِّ ما أريد منها من غير أن يعرف أسرار العلوم العربية، ودقائق القواعد الأصولية، ولذا ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه -وهو كلام غير معرَب في الأغلب- بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه، ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً ولا غيره مما سقناه بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ غاية الذكاء والانتقاد، وهؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه، ويفتت منه الأكباد، وتدمع منه العيون، ويدركون من ذلك ما لا يدركه العلماء المحققون[1]، ويسمعون أحاديث الترغيب والترهيب، فيكثر منهم البكاء والنحيب، وأنت تراهم يقرؤون كتباً مؤلفة من الفروع الفقهية... ويفهمون ما فيها، ويعرفون معانيها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها، فليت شعري ما الذي خصَّ الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة

---

(١) من شواهد ذلك فيما سمعته من صاحب القصة: رجل أمريكي مسلم، لا يحسن العربية، سمع قول الله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر:٢٧-٣٠]، سمعها بنغمة ترتيل خاشعة، فأسَرتْه كلماتها دون أن يعرف معناها، وحين عرف المعنى جعل يفكِّر في شيء واحد فقط: ماذا لو سمعنا هذا النداء من الله؟ وأخذ يبكي بكاءً طويلاً ويقول: بعضنا سيسمع هذا النداء الغالي من الله مباشرة.. يقول: لذا أجد هذه الآيات عزيزة على قلبي وطموحي وأملي أن أسمع تلك الكلمات من الله، وأبنائي ووالدي كذلك، فسبحان من بصَّر هذا الأعجمي، وفتح على قلبه بتدبُّر هذه الآيات.

معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وإنَّ استنباط معانيها قد صار حجراً محجوراً، وحرماً محرَّماً محصوراً)[١].

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفهم منه وجوب التدبُّر على كلِّ أحد، وعدم اختصاصه بالعلماء دون غيرهم.

"وينبغي التنبيه على أنَّ تدبُّر المسلم العامي للقرآن الكريم فيما يقف تدبُّره على فهم معانيه، ينبغي أن يكون منضبطاً بتفسير الأئمة الثقات له، فإن عرضت له فكرة أو خاطر حول آية ولم يكن متيقناً أنَّ ما عرض له لا يخالف التفسير، فلا ينبغي أن يصرّح بهذا الرأي الذي وقع عليه مباشرة، ولا أن يزعم أنَّ ما ظهر له هو تفسير الآية أو معناها، لأنَّ القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي، ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يشيع ذلك، حتى يستوثق من صحَّته عند أهل العلم، وإلا كان هذا الذي يحسبه تدبُّراً ضرباً من التفسير بالرأي؛ فتحًا لباب شرٍّ مستطير، كحال بعض المنحرفة من الزنادقة وأصحاب التفسيرات الباطنية، فإنهم أخذوا من الآيات معانٍ لا تمتُّ للغة القرآن ولا لأحكام الشريعة بصلة؛ اتباعاً لأهوائهم، وما تمليه عليه شياطينهم، وزعموا أنَّ ما هم عليه هو لباب الحقيقة، فضلُّوا وأضلُّوا"[٢].

- المطلب الثاني: الاستحباب:

إذا كان التدبُّر واجباً في الآيات التي تتعلَّق بالأركان والواجبات والعقائد والأديان؛ فإنَّه يستحب ويسنُّ في غير ذلك، كالقصص والأخبار والأمثال.

---

[١] إرشاد النُّقاد إلى تيسير الاجتهاد (١٥٨-١٦٠) بتصرف يسير.

[٢] أفلا يتدبرون القرآن - أ.د/ ناصر العمر (١٤١-١٤٢) بتصرف يسير.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٨٩هـ): (وينبغى لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيد، وأنَّ القصص لم يرد بها السمَر بل العبَر، فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتَبه سيده بمقصود)[١].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٩١١ هـ): (وتسنُّ القراءة بالتدبُّر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب... وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كلِّ آية، ويتأمَّل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرَّع وطلب)[٢].

إنَّ تدبُّر القرآن، وتفهمّه، وتعلّمه، والعمل به، أمر استُقرّ عليه في القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية، وهو لازم للمسلمين في كلّ زمان ومكان، وثواب قراءة الترتيل والتدبّر أجلُّ وأرفعُ قدراً[٣].

وإعراض كثير من الناس عن التدبّر في كتاب الله تعالى، والنّظر فيه، وتفهّمه، والعمل به، وبالسنّة الثابتة المبيّنة له؛ من أعظمِ المناكر وأشنعِها، وإن ظنّ فاعلوه أنهم على هدى، والله المستعان[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ولهذا ندب الله عَزَّوَجَلَّ عباده إلى تدبُّر القرآن، فإن كلَّ من تدبَّره أوجب له تدبُّره علماً ضرورياً، ويقيناً جازماً: أنه حقٌّ وصدقٌ، بل أحقّ كل الحق،

---

[١] مختصر منهاج القاصدين (٥٤).

[٢] الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٦٨-٣٦٩).

[٣] انظر: زاد المعاد (١/ ٣٢٨).

[٤] انظر: أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).

وأصدقُ كلَّ صدق، وأنَّ الذي جاء به أصدَق خلق الله، وأبرَّهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢])[1].

- المطلب الثالث: التحريم:

والتدبر المحرَّم هو ما لم تتوفَّر فيه شروط التدبُّر الصحيح.

ويحكم بتحريمه إذا لم يصحَّ المعنى المتدبَّر، بأن وُجِد له معارض شرعي راجح، أو كانت دلالة الآية عليه غير صحيحة.

وما لا يدركه العقل من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، وهو ما يسمى بالمتشابِه الكليِّ، وهذا لا يجوز وقوع التدبُّر فيه؛ لأنَّه لا يعلمُه إلاَّ اللهُ، فالواجب الإيمان به دون الدخول في اجتهادات لبيانه، وهو مما لا يحصل بيانه من جهة العقل، ومتى وقع طلبها من جهته حصل الانحراف والزيغ في شرع الله[2].

والتدبُّر المحرَّم أيضاً ما أوقع في انحراف في العقيدة أو التفسير ونحو ذلك.

وأبرز الفرق التي وقعت في التدبُّر المحرَّم ثلاثة؛ هم: المعتزلة[3]،.................

---

[1] مدارج السالكين (٣/ ٤٣٧).

[2] انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسِّر - أ.د/ مساعد الطيار (٢٠٢).

[3] **المعتزلة**= فرقة كلامية نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي الأول، يرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء الغزال مجلس الحسن البصري لقول واصل بأنَّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين؛ ليس كافراً ولا مؤمناً، وهذه الفرقة تعتد بالعقل وتغلو فيه وتقدِّمه على النقل، مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وهم ينفون الصفات عن رب العالمين سبحانه، وينفون الحوض وعذاب القبر، =

والرافضة[1]، والصوفية[2].

وزعموا أنَّ الله تعالى لم يخلق أفعال العباد، وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية، وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية، وقد استقر مذهب الاعتزال على خمسة أصول وهي:

أولاً: التوحيد، وهو عندهم نفي صفات الباري جل وعلا، وإثبات أسماء لا معاني لها كقولهم عالم بلا علم..

ثانياً: العدل، وحقيقته عندهم نفي قدر الله عزوجل ومشيئته النافذة على خلقه، وأن العباد خالقون لأفعالهم.

ثالثاً: إنفاذ الوعيد، وهو أن مرتكب الكبيرة عندهم إذا لم يتب فهو من الخالدين في النار.

رابعاً: المنزلة بين المنزلتين، وهو قولهم إنَّ الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمناً ولا كافراً.

خامساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه جواز الخروج على الأئمة عندهم وقتالهم بالسيف. انظر: الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (١٥٨، ٢٤٥، ٢٤٧)، الفَرْق بين الفِرَق لأبي منصور الإسفراييني(٩٥)، الفصل في الملل والأهواء والنِّحل لابن حزم (٢/ ٩٥-٩٦)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٦)، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار للعمراني (٦٨-٦٩)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (١/ ٦٤).

[1] **الرافضة**= إحدى الفرق التي انحرفت عن منهج أهل السنة والجماعة، وهم كلُّ من فضل علياً على الخلفاء الراشدين قبله رضي الله عنهم جميعاً، ورأى أن أهل البيت أحق بالخلافة، وأن خلافة غيرهم باطلة، وأصح الأقول في ظهورهم يوم معركة صفين، والرافضة الإمامية الاثنا عشرية هم الواجهة البارزة للرافضة في العصر الحاضر، وقد أطلق عليهم الإمامية لأنهم جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي تشغلهم وسُمُّوا بالاثنى عشرية لأنهم قالوا باثني عشر إمامًا دخل آخرهم السرداب بسامراء على حد زعمهم، وهم يعملون لنشر مذهبهم ليعم العالم الإسلامي، وعمدة كلامهم في الإمامة والمفاضلة بين أصحاب النبي ﷺ. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل لابن حزم (٢/ ٨٩)، (٤/ ١٣٧)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (١/ ٦٤)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام د.غالب عواجي (١/ ٣٠٨)، أصول مذهب الشيعة الإمامية د.ناصر القفاري (١/ ٤٠).

[2] **الصوفية**= من التصوُّف، وهي حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعاتٍ فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت =

ويرجع سبب انحرافهم في التدبُّر إلى أمور منها:

١) اعتقاد المعاني الباطلة، ثمَّ حمل الآية عليها، مما يترتب عليه انحرافاً في العقيدة.

٢) الجهل بالتفسير الصحيح الذي أدى إلى الخطأ في فهم معنى باطن القرآن.

٣) تقديم العقل على النقل، مما ترتَّب عليه رفض جملة كبيرة من السنة النبوية وردِّها، مما يستوجب معه ردُّ الكثير من المعاني الصحيحة.

ومن أمثلة ذلك:

- في قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]، فهم منها وتدبَّر بعض المنحرفين أنه لا يكون لأحد اختصاص بشيء أصلاً، وهو أخذ باللازم، وهو لازم فاسد، لأنه أسس على معنى فاسد، بسبب الجهل بالتفسير الصحيح للآية.

- وفي قول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف:١٤٣]، من التدبُّر الفاسد المحرم فيها: نفي الرؤية على التأبيد في الدنيا والآخرة، كما قرر ذلك المعتزلة، فأنكروا رؤية الله في الآخرة بناءً على هذا التدبُّر الفاسد، المبني على تأويل وفهم سقيم.

- وفي قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) إجماع أهل العلم كلِّهم على أنَّ المقصود باليقين في الآية:

تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً مميزة معروفة باسم الصوفية، ويتوخّى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة، لا عن طريق إتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة والتصوف جنوح عن طريق الحق الذي اختطَّه أهل السنة والجماعة. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (١/ ٢٤٩)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام د.غالب عواجي (٣/ ٨٦١).

الموت[1]، إلا أنَّ بعض الفرق الباطنية وغلاة الصوفية؛ فسَّروا اليقين بغير المعنى الصحيح؛ فقالوا: اليقين هو المعرفة، فإذا حصلت المعرفة فإنَّ التكاليف تسقط عن المكلَّف تلقائياً إذا تدرج فيها، ووصل إلى معرفة أن التكاليف إنما كانت موضوعة في الظاهر للجهال حتى يطلبوا العلم ويخرجوا عن مشقة التكاليف[2]، فأوصلهم تدبُّرهم الفاسد لهذا المعنى.

وهذا كفر وضلال وجهل، فإنَّ الأنبياء ε كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحقُّ من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس، وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة[3]، بل قد أمروا بذلك في نحو قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]، وقوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٢-٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وهذا خطأ بإجماع المسلمين -أهل التفسير وغيرهم- فإنَّ المسلمين متَّفقون على أنَّ وجوب العبادات كالصلوات الخمس ونحوها؛ وتحريم المحرمات كالفواحش والمظالم لا يزال واجباً على كل أحد ما دام عقله حاضراً، ولو بَلَغ ما بَلَغ، وأنَّ الصلوات لا تسقط عن أحد قط إلا عن الحائض والنفساء أو من زال عقله)[4].

ومن التدبُّر المحرَّم ما يذكره الباطنية عند بعض الآيات.

فقالوا مثلاً: "في الكعبة: النبي، والباب: علي، والصفا: هو النبي، والمروة: علي، والتلبية:

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٩٦).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٥٥٤)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام د.غالب عواجي (٢/ ٥٠٨).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٥٥٤).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٧٠)، وانظر: منهج الاستنباط من القرآن - د/ فهد الوهبي (٣٤٧).

إجابة الداعي، والطواف سبعاً: هو الطواف بمحمد ﷺ إلى تمام الأئمة السبعة، والصلوات الخمس: أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام... إلى سائر ما نُقِل من خباطهم الذي هو عين الخبال، وضحكة السامع، نعوذ بالله من الخذلان"[1].

و"من عجائب تحريفات الملاحدة الباطنية كما يتأولون العلميات مع العمليات ويقولون: الصلوات الخمس معرفة أسرارنا، وصيام رمضان كتمان أسرارنا، والحج هو الزيارة لشيوخنا المقدسين. وفتح لهم هذا الباب "الجهمية والرافضة" حيث صار بعضهم يقول: الإمام المبين: علي بن أبي طالب، والشجرة الملعونة في القرآن: بنو أمية، والبقرة المأمور بذبحها: عائشة، واللؤلؤ والمرجان: الحسن والحسين. وقد شاركهم في نحو هذه التحريفات طائفة من الصوفية وبعض المفسرين كالذين يقولون: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أبو بكر ﴿فَآزَرَهُ﴾ عمر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ هو عثمان ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩] هو علي، وقول بعض الصوفية: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧] هو القلب، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]، هي النفس، وأمثال هذه التحريفات، لكن منها ما يكون معناه صحيحاً وإن لم يكن هو المراد باللفظ، وهو الأكثر في إشارات الصوفية، وبعض ذلك لا يجعل تفسيراً؛ بل يجعل من باب الاعتبار والقياس، وهذه طريقة صحيحة علمية"[2].

ومن التدبُّر المحرَّم بعض ما يسمَّى بالتفسير الإشاري، وهو في غالبه بعد تأمُّل؛ نوع من التدبُّر في الآيات، وسبْر معانيها الظاهرة والباطنة[3].

---

[1] الموافقات (٤/ ٢٣٣) بتصرُّف.

[2] مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥١)، وانظر في مجموع الفتاوى أيضاً: (١٣/ ٢٣٦-٢٣٨)، (١٣/ ٣٥٩).

[3] **التفسير الإشاري**= هو تفسير القرآن بغير ظاهره لإشارة تظهر لأرباب الصفاء، مع عدم إبطال الظاهر، وقال الزرقاني في مناهل العرفان (٢/ ٧٨): (هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب =

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تفسير سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨٣هـ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥]، بأنه لم يرد معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمَّة مع شيء هو غير الله عَزَّوَجَلَّ)[١].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٩٦]، قال: (بيت الله عَزَّوَجَلَّ الذي

السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضاً) أهـ.

فهو يعتمد على أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ويقصد بالظاهر الشريعة وبالباطن الحقيقة.

قال سهل بن عبد الله التستري في تفسيره (٧٦) -وهو أول ما ظهر للصوفية من تفسير للقرآن-: (ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد حلالها وحرامها، والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عَزَّوَجَلَّ، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص) أهـ.

وهناك فرق بين التأويل الباطني الفاسد، وبين ما اصطلح على تسميته بالتفسير الإشاري، فبينهما فرق نبه عليه بعض المحققين من أهل العلم. قال الشيخ محمد الخضر حسين في كتابه بلاغة القرآن (١٥٠-١٥١) -ضمن موسوعة الأعمال الكاملة (٢/٥٨٨-٥٨٩)-: (فاعلم أنَّ أصحاب الإشارات غير من يسمونهم الباطنية؛ فالباطنية يصرفون الآية عن معناها المنقول أو المعقول إلى ما يوافق بُغْيَتَهم، بدعوى: أنَّ هذا هو مراد الله دون ما سواه، وأما أصحاب الإشارات، فإنهم كما قال أبو بكر بن العربي في كتاب: القواصم والعواصم: "جاءوا بألفاظ الشريعة من بابها، وأقروها على نصابها، لكنهم زعموا أن وراءها معاني غامضة خفية وقعت الإشارة إليها من ظواهر هذه الألفاظ، فعبَّروا إليها بالفكر، واعتبروا منها في سبيل الذكر". فأصحاب الإشارات لا ينفون- كما ينفي الباطنية وأذنابهم- المعنى الذي يدلُّ عليه اللفظ العربي من نحو: الأحكام، والقصص، والمعجزات، وإنما يقولون: إنهم يستفيدون من وراء تلك المعاني، وعلى طريق الاعتبار معانيَ فيها موعظة وذكرى. وعلى ما بين مذهبهم ومذهب الباطنية من فرق واضح، نرى في أهل العلم من نازعهم في إلصاق تلك المعاني بألفاظ القرآن، وقال: إن ما جاء في صريح القرآن والسنة من مواعظ وحكم يغني عن ارتكاب هذه الطرق البعيدة، التي هي- في الأصل- نزعة قوم شأنهم الصَّدُّ عن هدى الله، وتعطيل أحكام شريعته الغرّاء).

[١] تفسير القرآن العظيم - لسهل بن عبد الله التستري (٩٣).

بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول ﷺ يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس)[١].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (فإنَّ هذا المعنى لا تعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق بحال)[٢].

والتفسير الإشاري الصحيح هو ضرب من ضروب التدبُّر أو الاستنباط، وذلك لأمور:

أولًا: أن من ضوابط التفسير المهمة: بيان المعنى، فإذا بان المعنى، وتمَّ، فقد انتهى التفسير، وما وراء ذلك غالباً لا يخرج أن يكون من علوم القرآن التي ترتبط بالآية، أو من الاستنباطات المرتبطة بما دلَّت عليه الآية بأنواعها المتعددة.

ثانيًا: أنَّ التفسير يتعلَّق بظاهر النصِّ، وما خرج عن ظاهره، فهو من باب الاستنباط والتأمل والتدبُّر، سواءً أكان اعتبارًا —وهو التدبُّر- أو إشارة أو قياسًا أو مفهوم مخالفة أو غير ذلك من أدوات الاستنباط.

ثالثًا: أنَّ من ضوابط التفسير - أيضًا - تناسقه مع السياق، وكل معنى صحيح أُلحِق بالآية، وهو لا ينتظم مع سياق الآية، وله وجه ارتباط بها، فإنه لا يدخل في باب التفسير، وإنما يكون من باب الاستنباط والتأمل أو التدبُّر[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وجماع القول في ذلك أنَّ هذا الباب نوعان: أحدهما: أن يكون المعنى المذكور باطلاً؛ لكونه مخالفاً لما علم، فهذا هو في نفسه باطل فلا يكون الدليل عليه إلا باطلاً؛ لأنَّ الباطل لا يكون عليه دليل يقتضي أنه حق. والثاني: ما كان في نفسه حقاً لكن يستدلون عليه من القرآن والحديث بألفاظ لم يرد بها ذلك، فهذا الذي يسمونه إشارات، و"حقائق التفسير" لأبي عبد الرحمن فيه من هذا الباب شيء كثير.

---

(١) المصدر السابق (١٢٥).

(٢) الموافقات (٤/ ٢٤٧).

(٣) يمكن الاستفادة من بحث مختصر بعنوان: (الاستفادة من التفسير الإشاري في تدبر القرآن) للدكتور/ مساعد الطيار على موقعه على شبكة الانترنت.

وأما النوع الأول: فيوجد كثيراً في كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمسلمين في أصول دينهم...

وأما النوع الثاني: فهو الذي يشتبه كثيراً على بعض الناس، فإنَّ المعنى يكون صحيحاً لدلالة الكتاب والسنة عليه ولكن الشأن في كون اللفظ الذي يذكرونه دلَّ عليه، وهذان قسمان: أحدهما: أن يقال: إنَّ ذلك المعنى مراد باللفظ فهذا افتراء على الله...

والقسم الثاني: أن يجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس لا من باب دلالة اللفظ فهذا من نوع القياس فالذي تسميه الفقهاء قياسا هو الذي تسميه الصوفية إشارة، وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل كانقسام القياس إلى ذلك فمن سمع قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٩]، وقال: إنه اللوح المحفوظ أو المصحف فقال: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة وهي قلوب المتقين؛ كان هذا معنى صحيحاً واعتباراً صحيحاً، ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف)[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ: وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى: وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس: وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً)[٢].

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٠-٢٤٢).

[٢] التبيان في أقسام القرآن (٧٩).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (فصل: وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدَّم في المسألة قبلها، ولكن يشترط فيه شرطان:

أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية.

والثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

فأما الأول؛ فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً؛ فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب؛ لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدلُّ عليه، وما كان كذلك؛ فلا يصحُّ أن ينسب إليه أصلاً؛ إذ ليست نسبته إليه على أنَّ مدلوله أولى من نسبة ضدِّه إليه، ولا مرجِّح يدلُّ على أحدهما؛ فإثبات أحدهما تحكُّم وتقوُّل على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم، والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا.

وأما الثاني: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض؛ صار من جملة الدعاوى التي تدَّعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء.

وبهذين الشرطين يتبيَّن صحَّة ما تقدم أنه الباطن؛ لأنهما موفران فيه، بخلاف ما فسر به الباطنية؛ فإنه ليس من علم الباطن، كما أنه ليس من علم الظاهر)[(١)].

وبيَّن ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ) المسألة بمزيد تفصيل، فقال: (أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجري على ألفاظ القرآن ظاهراً ولكن بتأويل ونحوه فينبغي أن تعلموا أنهم ما كانوا يدعون أنَّ كلامهم في ذلك تفسير للقرآن، بل يعنون أن الآية تصلح للتمثُّل بها في الغرض المتكلَّم فيه، وحسبكم في ذلك أنهم سموها إشارات ولم يسمُّوها معاني، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية... (وعندي أن هذه الإشارات لا تعدو واحداً من ثلاثة أنحاء: **الأول**: ما كان يجري فيه معنى الآية مجرى التمثيل

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٣١-٢٣٢).

لحال شبيه بذلك المعنى، كما يقولون مثلاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، أنه إشارة للقلوب لأنها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس، ومنعها من ذكره هو الحيلولة بينها وبين المعارف اللدنية، ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤] بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال من لا يزكي نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل، ومن هذا قولهم في حديث: «لاَ تَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ»[1]، كما تقدَّم عن الغزالي.

الثاني: ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع هو غير معناها المراد وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده والذي يجول في خاطره، وهذا كمن قال في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾ [البقرة:٢٥٥] من ذل ذي إشارة للنفس يصير من المقربين الشفعاء، فهذا يأخذ صدى موقع الكلام في السمع ويتأوله على ما شغل به قلبه، ورأيت الشيخ محي الدين يسمي هذا النوع سماعاً ولقد أبدع.

الثالث: عبر ومواعظ وشأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا الحكمة حيث وجدوها فما ظنك بهم إذا قرأوا القرآن وتدبَّروه فاتعظوا بمواعظه فإذا أخذوا من قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦] اقتبسوا أنَّ القلب الذي لم يمتثَّل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالاً.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٢٢٥) في كتاب بدء الخلق، باب: «إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه»، وبرقم: (٣٣٢٢) في باب «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء»، وبرقم: (٤٠٠٢) في كتاب المغازي، باب، وبرقم: (٥٩٤٩) في كتاب اللباس، باب التصاوير. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢١٠٦) في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة.

ومن حكاياتهم في غير باب التفسير أن بعضهم مر برجل يقول لآخر: هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحاً إلا للنار، فجعل يبكي ويقول: إذن فالقلب غير المثمر لا يصلح إلا للنار.

فنسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية لأنها إنما تشير لمن استعدت عقولهم وتدبرهم في حال من الأحوال الثلاثة ولا ينتفع بها غير أولئك، فلما كانت آيات القرآن قد أنارت تدبُّرهم، وأثارت اعتبارهم؛ نسبوا تلك الإشارة للآية، فليست تلك الإشارة هي حق الدلالة اللفظية والاستعمالية حتى تكون من لوازم اللفظ وتوابعه كما قد تبيَّن، وكل إشارة خرجت عن حد هذه الثلاثة الأحوال إلى ما عداها فهي تقترب إلى قول الباطنية رويداً رويداً إلى أن تبلغ عين مقالاتهم، وقد بصرناكم بالحد الفارق بينهما، فإذا رأيتم اختلاطه فحققوا مناطه، وفي أيديكم فيْصَل الحق فدونكم اختراطه)[(١)].

وبناءً على ما سبق؛ فليس كلُّ ما نسب إلى التفسير الإشاري محرَّم غير صحيح؛ بل منه ما هو صحيح مقبول، جاء وفق الضوابط التي وضعها العلماء لهذا النوع من التدبُّر. والله أعلم..

- المطلب الثاني: أنواع التدبُّر باعتبار تنوُّع مطالب المتدبِّرين[(٢)]:

الأول: تدبُّره لمعرفة صدق من جاء به، وأنه حق من عند الله تعالى.

فحين يجد المتدبِّر "اتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإنَّ ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض"[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٤-٣٦).

(٢) انظر: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، بحث: مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل، د/ خالد بن عثمان السبت ص(١٦٥-١٧٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥٦٧).

وهو يرى صدق ما تضمَّنه من الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وما حواه من ألوان الأدلة والبراهين التي يخضع لها كلُّ مريد للحق، متجرِّد من الهوى، ويرى فصاحته وإعجازه للإنس والجن، عربهم وعجمهم، مما لا يتأتَّى للبشر مهما بلغت فصاحتهم(١).

وكذلك: ما اشتمل عليه من أنواع الهدايات، فهو يدعو إلى كل معروف وخير، وينهى عن كل منكر وشرّ، فلا تجد فيه ما يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشرِّ والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ومن شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإنَّ العادة تُحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة،... فإنَّ كلَّ من تدبَّره أوجب له تدبُّره علماً ضرورياً، ويقيناً جازماً: أنه حق وصدق، بل أحقُّ كلِّ الحقّ، وأصدقُ كل صدق، وأنَّ الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرَّهم، وأكملَهم علماً وعملاً، ومعرفةً، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية - من الفرح، والألم، والحب، والخوف- أنه من عند الله، تكلَّم به حقاً، وبلَّغه رسوله جبريل عنه

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٣٣٧)، تفسير الرازي (١٠/ ١٥١)، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٥)، تفسير الخازن (١/ ٤٠٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٦)، التحرير والتنوير (١/ ١١٥)، (٢١/ ٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٢٣-٢٢٤).

إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتجَّ هرقل على أبي سفيان حيث قال له: (فهل يرتدَّ أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟)، فقال: لا، فقال له: (وكذلك الإيمان إذا خالطَت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد)[1].

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ﴾ [الحج:٥٤]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧]، يعني: أنَّ الآية التي يقترحونها لا توجب هداية، بل الله هو الذي يهدي ويضلُّ، ثم نبَّههم على أعظم آية وأجلِّها، وهي: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨]، أي بكتابه وكلامه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل)[2].

الثاني: تدبُّره للوقوف على عظاته، وما حواه من العلوم والأخبار والقصص، وتعقُّل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥٥٣) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٤]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٧٣) في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٣٧-٤٣٨).

أمثاله، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ وما ورد فيه من أوصاف هذه الدار، وما بعدها من الجنة أو النار، حتى يستدرك العبد ما وقع له من تقصير، ويزداد من الإقبال والتشمير في طاعة الله تعالى[١].

قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٠٣هـ): (وأنت تتبيَّن في كلِّ ما تصرَّف فيه من الأنواع؛ أنه على سَمْت شريف، ومرقب منيف، يبهر إذا أخذ في النوع الربي، والأمر الشرعي، والكلام الإلهي، الدالِّ على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه: من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وأعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، وتنبيه وتلويح، وإشباع وتصريح، وإشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه، وتحميد كما يستوجبه، وإخبار عن كائنات في التأتي صدقت، وأحاديث عن المؤتنف تحققت، ونواهٍ زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحثٍّ على الجميل والإحسان؛ تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلوَّة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير معتاص على الأسماع، ولا متلو على الأفهام، ولا مستكرهٍ في اللفظ، ولا مستوحش في المنظر)[٢].

الثالث: تدبُّره لاستخراج الأحكام منه، سواء كان ذلك مما يتَّصل بالعقائد، أو الأعمال المتعلِّقة بالجوارح أو السلوك؛ إذ الأحكام تشمل ذلك كله بمفهومها الأوسع.

الرابع: تدبُّره للوقوف على وجوه فصاحته وبلاغته وإعجازه، وصروف خطابه، واستخراج اللطائف اللغوية التي تستنبط من مضامين النص القرآني.

---

[١] انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٧٩)، البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٩٨)، تفسير ابن كثير (٧/ ٩٤)، تفسير المنار (٩/ ٤٩١)، أضواء البيان (٢/ ٤٣٠).

[٢] إعجاز القرآن (٣٠١-٣٠٢).

الخامس: تدبُّره للتعرُّف على ضروب المحاجة والجدال للمخالفين، وأساليب الدعوة للناس على اختلاف أحوالهم، وطرق التأثير على المخاطبين، وسُبل الإقناع التي تضمَّنها القرآن الكريم.

السادس: تدبُّره من أجل الاستغناء به عن غيره سوى السنة فإنها شارحة له، ولقد "كان الصحابة إذا جلسوا يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، ولم يكن بينهم رأي ولا قياس، ولم يكن الأمر بينهم كما هو في المتأخرين: قوم يقرؤون القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقَّهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخر وصنعة اصطلاحية، بل كان القرآن عندهم هو العلم الذي يعتنون به حفظاً وفهماً وعملاً وتفقُّهاً"[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما في باب فهم القرآن؛ فهو -أي: قارئ القرآن- دائم التفكُّر في معانيه، والتدبُّر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم، عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية قبِلَه وإلا ردَّه)[2].

السابع: تدبُّره من أجل تليين القلب به وترقيقه، وتحصيل الخشوع، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وأخبار النبي ﷺ في ذلك، وأخبار أصحابه مشهورة لا تخفى.

---

[1] من كلام الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نقله عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مختصر الصواعق المرسلة (٥٣٦)، وأشار إليه في الفوائد (١٠٥)، ولم أقف عليه في غير ذلك.

[2] مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠).

الثامن: تدبُّره من أجل الامتثال والعمل بما فيه من الأوامر، واجتناب النواهي، "بأن يحلَّ حلاله، ويحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله"[١].

والعمل بالقرآن هو تأوُّله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه المرحلة هي الغاية العظمى من إنزال القرآن الكريم، وهي التي تمثَّلها الرسول ﷺ في حياته، ولا تكون إلا بفهم المعنى، وهي من آثار التدبر، وتخلُّفها يدلُّ على نقصٍ في الإيمان، إذ التمثُّل للقرآن وتأوُّله؛ هو الكمال الإيماني.

والواجب أن يقرأ القرآن بوعي وفكر؛ لا بالشفتين واللسان فقط، بل يجب أن يكون خشوعاً ومستقراً في القلب ومسكناً في العقل، حتى تؤتي القراءة ثمارها[٢].

ويمكن تقسيم الأنواع باعتبار مطالب المتدبِّرين إلى نوعين:

الأوَّل: وهو التفكُّر في آيات القرآن؛ ليوصل إلى مراد الله منها.

والثاني: التفكُّر في المعاني التي اشتمل عليها القرآن؛ مما دعانا الله للتفكر فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والتفكُّر في القرآن نوعان: تفكُّر فيه ليقع على مراد الربِّ تعالى منه، وتفكُّر في معاني ما دعا عباده إلى التفكُّر فيه)[٣].

فتدبُّر القرآن يتنوَّع بحسب تنوُّع مطالب المتدبِّرين، ويقع بينهم من التفاوت العظيم فيه، فمن مقلٍّ ومستكثر:

ولكِنْ تأخُذُ الآذانُ مِنْهُ ... على قَدَرِ القَرائحِ والعُلُومِ[٤]

والله أعلم.

---

[١] من أثر ابن مسعود، وسبق تخريجه.

[٢] فهم القرآن مناهج وآفاق (٤٩٠) من بحث: ضوابط منهجية لتدبر القرآن الكريم، د/ زكريا الزميلي.

[٣] مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

[٤] البيت لأبي الطيب المتنبي، انظر: ديوانه (٢٣٢).

المبحث الثاني: أنواع التدبُّر

يمكن تقسيم أنواع التدبُّر حسب اعتبارات مختلفة، إلى خمسة مطالب، وهذا التقسيم للأنواع باعتبارات مختلفة لاستيعاب ما يمكن أن يكون نوعاً للتدبُّر، وحتى يسهِّل التأصيل العلمي له.

- المطلب الأول: أنواع التدبُّر باعتبار العموم:

يمكن تقسيم التدبُّر بهذا الاعتبار إلى أنواع خمسة[1]:

النوع الأول: التدبُّر البياني المقروء والمسموع والمكتوب:

ومما يشتمل عليه هذا النوع من التدبُّر:

أ- تدبُّر آيات الأوامر والنواهي:

فإنْ كان مما قصَّر فيه المسلم من تطبيق أمر أو ارتكاب نهي؛ تاب وأقلع، وإن مَرَّ بآية استبشار، سأل الله خيرًا؛ كما ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ من حديث حذيفة قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذات لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ[2].

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ اللَّيْلَةَ التَّمَامَ فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ وَسُورَةَ النِّسَاءِ ، ثُمَّ لا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إلا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغِبَ،

---

[1] انظر: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، من بحث: التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات: التفسير والتأويل والبيان والاستنباط والفهم، أ.د/ عبدالله سرحان صـ(٢٧٤)، وبحث بعنوان: القول المؤثر في بيان أنواع التدبر، لمرشد الحيالي، منشور على شبكة الانترنت.

[2] سبق تخريجه ص(٥٧).

وَلا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ إِلا دَعَا اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَعَاذَ)[(١)].

فهذا مثال نبوي عملي لهذا النوع من التدبُّر؛ إذ التدبُّر والتأمُّل في الآيات هو الثَّمرة المطلوبة من تلاوةِ القرآن.

وقد كان التأمُّل في أوامر الله ونواهيه حاملاً لبعض السلف على التوبة والرجوع عن ارتكاب الذُّنوب، ومنهم الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٧هـ) فقد كانت توبته؛ بسبب سماع آية من كتاب الله، وتفكُّره في مواعظ الله، فأوجب ذلك له توبة ورجوعًا، وخشية وخضوعًا[(٢)].

ومن أمثلة تدبُّر آيات الأوامر والنواهي ما تدبَّره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ) في سرِّ العلاقة بين الآيتين الكريمتين، من قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيه إشارة إلى أنه تعالى يليِّن القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلَّتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضلُّ لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال)[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٧).

(٢) سبق ذكر القصة بتمامها في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١)، وانظر: إتحاف القاري بوسائل تدبر كلام الباري- عبدالرحمن الدهامي (١٤٩).

ب- تدبُّر إعجاز القرآن البياني في النظم والتركيب واللغة:

تضمَّن القرآن الكريم الإعجاز كلَّه؛ في نظمه ورسمه ومعناه، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إنَّ الكلام يقوم بأشياء ثلاثة: "لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم.

ومن تأمَّل القرآن وجد هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا يرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا يرى نظماً أحسن تأليفاً، وأشدَّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدُّم في أبوابها، والترقِّي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذى أحاط بكل شئ علماً، وأحصى كل شئ عدداً.

ومعلوم أنَّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتَّسق؛ أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله، وأنَّى لهم ذلك، وأمر معاناة المعاني التى تحملها الألفاظ، شديد بالغ الشدة؛ لأنها نتائج العقول، وولائد الأفهام، وبنات الأفكار[١].

"إنَّ القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره؛ فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكُّك ولا

---

[١] انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي (٣٦)، إعجاز القرآن للباقلاني (١٥).

تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظِّمت حروفه وكلماته، ونسِّقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره...."[1].

ومن أمثلة هذا: تدبُّر تعبير القرآن الكريم بكلمة: ﴿حَصْحَصَ﴾ التي وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

و ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وضح، وظهرَ وتبَلَّج واستبان، وذلك بانكشاف ما يغمره، والحَصْحَصَةُ: بَيان الحق بعد كتمانه، وأصله من قولهم: رجلٌ أحصُّ، وامرأة حصَّاءُ، وهو مَن ذَهَبَ شعره فانكشف ما تحته[2].

ولم يخرج حديث المفسِّرين حول هذه اللفظة عن تلك المعاني.

أي: تبيَّن وظهر بعد خفاء[3]، وثبت واستقر[4]، أو وقيل: هو مأخوذ من الحصةِ وهي القطعةُ من الجملة، أي تبيَّنت حصةُ الحق من حصة الباطل كما تتبين حصصُ الأراضي وغيرها[5].

---

[1] مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٦٠).

[2] انظر: العين (٣/ ١٤)، جمهرة اللغة (١/ ١٨٦)، المحكم (٢/ ٤٩٣)، المفردات في غريب القرآن (٢٣٧)، لسان العرب (٧/ ١٤) (حصحص)، عمدة الحفاظ (١/ ٤١٩).

[3] انظر: تفسير مجاهد (٣٩٧)، تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٣٣٩)، تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢١٧) برقم: (١٣١٨)، تفسير الطبري (١٦/ ١٣٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٧) برقم: (١١٦٩٢)، تفسير السمعاني (٣/ ٣٨)، معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٢٤٨)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٥٣)، زاد المسير (٢/ ٤٤٦)، تفسير الرازي (١٨/ ٤٦٨)، تفسير النسفي (٢/ ١١٧)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٤).

[4] انظر: الكشاف (٢/ ٤٧٨)، تفسير البيضاوي (٣/ ١٦٧)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٤).

[5] انظر: تفسير الرازي (١٨/ ٤٦٨)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٨)، اللباب لابن عادل (١١/ ١٢٨)، تفسير النيسابوري (٤/ ٩٥)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤١).

ويلاحظ أنَّ هذه المعاني التي ذكرها اللغويون والمفسِّرون لهذه الفريدة كلَّها متقاربة، وبتدبُّر ذلك يظهر ما يلي:

١- أنَّ تلك اللفظة الفريدة تضمُّ في طياتها تلك المعاني كلها، وجميعها مقبولة لا يرفضها المعني العام لسياق الكلام، ولا توجد لفظة أخرى تستطيع أن تحتوي على تلك الدلالات كلِّها مع فصاحتها وإيجازها.

٢- تشير الفريدةُ إلى عودة امرأة العزيز إلى صوابها، وانقلابها من امرأة والهة مصممة على الفاحشة علانيةً؛ إلى امرأة مقرةٍ بجرمها، معترفةٍ بخطئها دون خوف أو تهديد لها، وهذا أمر فريد؛ إذ لم يُعهد في عالم النساء أن تعترف واحدة منهن صراحة أمام جمعٍ غفير أنها راودت رجلاً عن نفسه؛ فكيف وهي امرأة العزيز.

ففي هذا الاعتراف شجاعة منقطعةُ النظير، وأوبةٌ للحق لا مثيل لها قديمًا وحديثًا، ومردُّ هذا كلِّه هو إيمانُها بربها، كما يفهم من قولها الذي حكاه الله عنها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢]، وقولها أيضًا: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣].

٣- تشير تلك الفريدة إلى تفرُّد هذا الموضع في القرآن كله ؛ إذ لم يرد الحديث عن هذا الموقف في أي سياق، أو موضوع آخر من الذِّكر الحكيم.

٤- هذه الفريـدة لوجازتهـا ودقتها في الدلالة علـى سطوع الحق، وظهوره بعد كتمانه جرت مجرى المثل في دقته وفصاحته وعذوبته كما أشار كثير من العلماء

٥- في هذه الفريدة قوة وجزالة ومتانة تتناغى بها مع ألفاظ الآية الجزلة القوية، فضلاً عن أن مجيئها على تلك الصيغةِ من تكرار الحاء والصاد يفيـد المبالغةَ في شدة وضوح الحق، وظهوره بعد خفائه وكتمانه ردحًا من الزمان، ولن تنهض لفظة أخرى من الألفاظ التي

تقاربها في المعنى بمثل ما نهضت به هذه الفريدة، وقد توافرت في تلك الفريدةِ شتى صنوفِ الفصاحة، ومختلفِ أنواع الجمال، ولا يمكنُ للفظـةٍ أخرى أن تحل محلَّها في هذا المقام فهـي أكثر وفاء بالمعنى المراد، وأحلى نطقاً وسماعاً[1].

ج- تدبُّر الأمثال القرآنية:

المثل في اللغة: الشبه والشبيه، وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه، وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً.

وأبلغ أنواع التمثيل هو تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسيَّة، والعكس كذلك.

والسَّبب في ضرب الأمثال هو: "أنَّ المعاني الكلية تُعرض للذهن مجملة مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرَّها، والمثل هو الذي يفصل إجمالها ويوضح إبهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها"[2].

وتدبُّر الأمثال: هو استخراج ما فيها من معاني وعبر، فيستدلُّ بها أولاً على صحة إخبار الله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا لأجل الاعتبار والاتِّعاظ، وأنْ نقيسَ حالنا على من ضرب فيهم المثل، فلا نقع فيما وقعوا فيه[3].

"والله سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده، -يدلُّهم على صحَّة ما أخبر به-، أن أهل العلم هم المنتفعون بها، المختصُّون بعلمها، فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً[4]،

---

[1] انظر: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، من بحث: التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات: التفسير والتأويل والبيان والاستنباط والفهم، أ.د/ عبدالله سرحان صـ(٢٧٦-٢٧٨).

[2] تفسير المنار- محمد رشيد رضا (١/ ١٩٧-١٩٨).

[3] انظر: بحث: القول المؤثر في بيان أنواع التدبر، لمرشد الحيالي، منشور على شبكة الانترنت.

[4] عدَّها ابن الجوزي في المدهش (١٦) ثلاثة وأربعون مثلاً، وسرد الآيات في ذلك، وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى (١٤/ ٦٥-٦٧) نحواً من سبعة وستين مثلاً.

وكان بعض السلف إذا مرَّ بمثل لا يفهمه يبكي، ويقول لست من العالمين[1]"[2].

و"ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحثِّ، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثمَّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفيِّ بالجليِّ، والغائب بالشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥]، فامتنَّ علينا بذلك لما تضمنته من الفوائد"[3].

ومن فوائد تدبُّر الأمثال في القرآن: الإيضاح والبيان: فليس الخبر كالمعاينة، ولا الظنُّ كاليقين[4].

ومنها: التثبيت والتذكر للمعنى الذي سيق لأجله المثل: ومعلوم أنَّ المثل يكون في الذهن صورة؛ والصورة غالباً حاضرة في الذهن، وثابتة في الذاكرة.

ومنها: تحفيز العقل على التفكير في جوانب المثل وبالتالي فالتذكر به أثبت، ومعلوم أن الأفهام تتفاوت في استخراج درر الأمثال من فوائد وحكم، بل هو من مناطات إعجاز القرآن، فإنَّ كل عصر يمكنه أن يستمدَّ من الأمثال فوائد غير سابقيهم حسب ما يستجد من أحوالهم، وهذه أحد أهم سبل تدبُّر القرآن والتذكر به.

---

(١) سبق تخريج أثر عمرو بن مرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨هـ) قال: (ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣].

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٤٥).

(٤) أسرار البلاغة (١٢١).

ومنها: استعمال المثل في أسلوب الترغيب أو الترهيب من أجل أنْ تتقبله النفوس، وتتنافس فيه، إنْ كان مرغوبًا محبوبًا مثل: تشبيه مَن يقاتلون في سبيل الله كأنَّهم بنيان مرصوص؛ ترغيبًا في الجهاد والحرص على التزوُّد ليوم الميعاد، وتنفر منه إنْ كان مكروهًا مبغوضًا، مثل: تمثيل آكل الرِّبا بالممسوس الذي يتخبَّطه الشيطان من المسِّ.

ومنها: التنفير من الاتِّصاف بصفة خبيثة يكرهها الله، مثل من آتاه الله الآيات البيِّنات، فخالف وكذَّب وانسلخ عن علم وبينة؛ قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥ - ١٧٧].

إنَّ الأمثال التي ضربها الله لنا في القرآن كثيرة[١]، وهي أبلغ في التأثير، وأوقع في النَّفس، وأقوى في الحجة من غيرها، وهي تذكرة لمن عقل وتاب.

ومن تدبَّر مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

---

[١] وممن اعتنى بالأمثال: شيخ الإسلام ابن تيمية، فكتب: قاعدة في أمثال القرآن، وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله مؤلف مستقل فيها، وتضمَّنت مؤلفاته الأخرى ذلك، مثل: إعلام الموقعين، والوابل الصيب، ولا تخلو كتبه غالباً من تناول هذا الموضوع، وقد كتب في أمثال القرآن كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين، منهم: القواريري (٢٩٨هـ)، ونفطويه (٣٢٣هـ)، وأبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري (٤١٢هـ)، وغيرهم كثير.
ومن أجود ما كتب في الأمثال القرآنية: الأمثال في القرآن لابن القيم، ورفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس للسيوطي، ومن المعاصرين: التبيان في أمثال القرآن لـ/ محمد الشوادفي، والأمثال في القرآن للدكتور/ محمد جابر الفياض، وغيرهم.

عرف كيف تبدَّلت الأزمان، وتغيَّرت البُلدان، لَمَّا تنكرت لنعم الله، وانتشر فيها الظُّلم والهمجيَّة، فتغير ما فيها من غنًى إلى فقر، ومن صحة إلى مرض، ومن أمان واطمئنان إلى خوف وقلق وبليَّة، ومن عيش رغيد إلى جوع شديد.

وتدفع المتدبِّر إلى تغيير الشرِّ إلى الخير، والمعصية إلى الطاعة، والتفرُّق إلى الوحدة، والكسل إلى الجدِّ والعمل، والحمد لله رب العالمين(١).

النوع الثاني: التدبُّر في خلْق الإنسان:

وهو ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

إنَّ من الآيات الواضحة التي وضعها الله أمام نظر الإنسان؛ آية خلقه من العدم، وبقائه منذ القدم، وهي من أكثر الآيات دلالة على ربوبيَّة الله؛ لأنَّها آية ظاهرة للعيان، واضحة لكلِّ إنسان، داحضة لكل بطلان؛ قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

وقد نوَّع القرآن في طريقة عرض الدلالة على هذه الآية التي تثبت قدرة الله، فتأتي غالبًا في صورة الاستفهام التقريري؛ لتكون أقوى في الاعتبار، وأكثر في الاتعاظ، وأبلغ في التدبُّر والاستذكار؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

ولما احتوته هذه الآية من معاني توجب التدبُّر في خلق الإنسان؛ قال جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قدِم المدينة ليسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر؛ فجاء والنبي ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا سمع قول الله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ

(١) انظر: بحث بعنوان: منهجيات في تدبُّر أمثال القرآن الكريم، د/ فلوة بنت ناصر الراشد- من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-، وبحث: القول المؤثر في بيان أنواع التدبر، لمرشد الحيالي، على شبكة الانترنت: http: //www.alukah.net/sharia/٠/٧٣٤٠/.

خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)(١).

وحيثما وقف الإنسان يتأمَّل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير؛ تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، وتناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحيِّر الألباب.

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة.. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها، هذه المعلومات والصور المختزنة، أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تستدعى فتجيء.. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى، فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر، تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول.

ثمَّ أسرار هذا الجنْس في توالده وتوارثه، خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدق تمثيل، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟!.

وإنَّ وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة؛ لتدهش العقول وتحيِّر الألباب، وتغمر النفس بفيض من الإيمان، لا يتماسك له وجدان!، وإنَّ وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات، بل أمام النطق ذاته.

---

(١) سبق تخريجه ص(١٢٠).

نطق هذا اللسان، وتصويت تلك الحنجرة، إنها عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيراً، ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبُّر يجدد وقعها، كلُّ ذلك ينبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله.

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق، لا ينقضي منها العجب: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

وكلُّ فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا في شكله وملامحه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره، ففي هذا الخلْق الإلهي العجيب الذي يضمُّ ملايين الملايين، كلُّ فرد نموذج خاص، فلا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور! وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون.

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب، فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات، والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها، ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لملاحظتها وتدبُّرها، فيتأمل هذا الخلق العجيب، الكامن في ذات نفسه، وهو عنه غافل مشغول[١].

لقد حثَّ القرآن على تدبُّر خلق الإنسان، وكيفية تكوينه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الحج:٥].

---

[١] انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٧٩-٣٣٨٠).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧].

إنَّ معرفة الإنسان لنفسه، والنظر فيما تنطوي عليه ذاته من العوالم والأسرار؛ يحقق خالص الإيمان بالله تعالى.

والتأمُّل في أطوار الخلق في الرحِم، والتأمُّل في نظام الطعام والشراب، وتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة بموازين محددة، ووظائف واضحة، ونظام توزيع الدم من القلب إلى الجسم من خلال الشرايين، وعودته للقلب من خلال الدورة الدموية، والتنفس والهواء، والسمع والبصر، والإحساس، والنسيان، والتذكُّر، والعلم والجهل، والمشاعر المتغيرة داخل هذه النفس البشرية، كلها آيات عظيمة من آيات الله سبحانه في هذا الخلْق العجيب.

إنَّ الأجهزة الدقيقة في جسم الإنسان التي لم يصل العلم الحديث بما يملك من وسائل الأجهزة والمعدات والمختبرات إلى معرفة الشيء اليسير منها كل ذلك يدلُّ على عظمة الصانع وقدرته: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

النوع الثالث: التدبُّر في الكون والآفاق والملكوت العظيم:

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

وهذا النوع من التدبُّر هو الاستدلال بالآيات التي أودعها الله في الكون الفسيح، وما فيه من الآيات الظاهرة العجيبة، والصنع البديع، التي تدل على ربوبيَّة الله للعالم، وأنه يستحيل إيجاد مثل هذا النظام الدقيق من تلقاء نفسه، وأنه لا بُدَّ لهذا العالم من موجد عليم حكيم، ومن أعظم الآيات الظاهرة الباهرة: خلق السموات والأرض وما حوى من نجومٍ وأفلاك وأقمار ومجرات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

"إنَّ التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم، وصورة حيَّة من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار في صميم الكون، بالليل والنهار.

والقرآن يوجِّه القلوب والأنظار توجيهاً مكرراً مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأ صفحاته تقلَّب، فتتبدى في كلِّ صفحة آية موحيَة، تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقرِّ في صفحات هذا الكتاب، وفي تصميم هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلْق، ومودعه هذا الحقّ، مع الحبِّ له والخشية منه في ذات الأوان.

وأولو الألباب: أولو الإدراك الصحيح.. يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشفّ مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته...

والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشئها استقبال مشهد السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولي الألباب تصويراً دقيقاً...، وإنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، وبين التفكُّر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار.. فيسلك هذا التفكُّر مسلك العبادة، ويجعله جانباً من مشهد الذِّكر.. فيوحي بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين.

الحقيقة الأولى: أنَّ التفكر في خلق الله، والتدبُّر في كتاب الكون المفتوح... هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر، ولو اتصلت العلوم الكونية، التي تبحث في

تصميم الكون، وفي نواميسه وسننه... لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة، ولاستقامت الحياة- بهذه العلوم- واتجهت إلى الله...

الحقيقة الثانية: أنَّ آيات الله في الكون، لا تتجلى على حقيقتها الموحية، إلا للقلوب الذاكرة العابدة، وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم- وهم يتفكَّرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار-؛ هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار... ومن ثمَّ تكون الحصيلة المباشرة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾..

ما خلقت هذا الكون ليكون باطلاً، ولكن ليكون حقاً، الحق قوامه، والحق قانونه، والحق أصيل فيه...

ثمَّ تتوالى الحركات النفسية، تجاه لمسات الكون وإيحاءاته: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾...

إنَّ إدراك الحقِّ الذي في تصميم هذا الكون وفي ظواهره، معناه- عند أولي الألباب- أنَّ هناك تقديراً وتدبيراً، وأنَّ هناك حكمة وغاية، وأنَّ هناك حقاً وعدلاً وراء حياة الناس في هذا الكوكب، ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدِّم الناس من أعمال، ولا بدَّ إذن من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحقُّ والعدل في الجزاء.

فهي سلسلة من منطق الفطرة والبداهة، تتداعى حلقاتها في حسِّهم على هذا النحو السريع، لذلك تقفز إلى خيالهم صورة النار، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها، هو الخاطر الأول، المصاحب لإدراك الحقِّ الكامن في هذا الوجود.. وهي لفتة عجيبة إلى تداعي المشاعر عند ذوي البصائر"[1].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٤٤-٥٤٦) بتصرف كثير.

لقد حضَّ القرآن على معرفة علوم الكون، وحثَّ على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

"ودلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس، ولا شك أنَّ دلائل الآفاق أجلُّ وأعظم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]"[1]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٢]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، إنَّ في إحياء الأرض بعد موتها بالمطر إذا نزل وأنبتت دليل على البعث؛ فالذي أحيا الأرض بعد موتها يحيينا بعد موتنا إذا شاء سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧].

إنَّ التدبُّر في الكون المفتوح أمام أعيننا، له فوائد عظيمة منها:

١- الخشية وزيادة الإيمان: إنَّ تدبُّر مثل هذا النَّوع من الآيات والتأمُّل فيه عبادة توجب الأجر والثَّواب، وزيادة الإيمان، وأنَّها توجب الخشية لله سبحانه، والتي هي من ثمار الإيمان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وطريق ذلك التفكُّر والتدبر، وهو لا يَحصل بمجرَّد النظر، بل يستوجب دراسةَ ما له علاقة بالعلوم والمعارف الموصلة لذلك، ومن هذا الباب يدعو القرآن إلى تقليب البصر مرَّة ومرتين؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ

---

[1] مفاتيح الغيب للرازي (٩/ ٤٦١)، ومع ذلك فدلائل الأنفس أبلغ وقعاً وتأثيراً في الاعتبار.

﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣]، وقد يتوجَّب ذلك بسبب أنَّ وسائل العلم أصبحت متاحة ومشاعة، وأصبحت وسائلها مطروقة ومذاعة.

٢- الدعوة إلى الله والإقناع: لقد تطوَّرت وسائل التعليم وإيصال المعلومة في عصرنا الحاضر، والقرآن الكريم تحدث عن حقائق كونيَّة وعلميَّة، ووجَّه الأنظار إلى تقليب الأبصار إلى خلق السموات والأرض، والبشر ليسوا على مستوى واحد من التفكير، فهم ما بين مؤمن تكفيه أدنى إشارة، ومشكك ومُلْحِد غير متيقن، يَحتاج إلى حشد من أدلة عقليَّة، والقرآن مليء من الأدلة العقليَّة التي يدرك المرء من ورائها دقَّة الكون والنظام، وأنَّ وراءه خالقًا عظيمًا، وصانعًا بديعًا، وهذا السرُّ في كون الآيات التي سيقت لبيان خلق الله، وبديع صنعه، تنتهي غالبًا بما يدعو إلى إعمال الفكر والعقل؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

النوع الرابع: التدبُّر في سنن الله في خلْقه وعباده (السنن الكونية):

إنَّ لله سننًا في الكون وقوانين في الطبيعة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ولا يُمكن لأيِّ قوة أن تعطِّل أو ترد سنة الله، "والأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، والقرآن يقرِّر هذه الحقيقة، ويعلِّمها للناس كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيِّز محدود من المكان.

ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطِّراد النواميس، ويوجِّه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم، ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس... فسنة الله لا تتبدَّل ولا تتحوَّل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟

﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [الروم:٤٤]"[1].

إنَّ السنن الكونية يقينية؛ لأنها ليست من وضع الإنسان، وإنما عرفناها من علم الله تعالى المطلق الذي لا يخطئ أبداً.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

سنن الله في هذا الكون تسير على وفق ما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، ولا تحيد ولا تميل، ولا تحابي ولا تجامل، ولا تتأثر بالأماني وإنما بالأعمال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧].

إنَّ التدبُّر في سنن الله في الأمم والشعوب والدول؛ يفتح الآفاق لإصلاح النفس وتصحيح العمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقد قصَّ القرآنُ الكريمُ أخبار الأمم الخالية، وما حلَّ بها ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم، حتى لا يصيبهم ما أصابهم: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

---

[1] في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٤٩-٢٩٥٠).

وجعلَ الله ثُلثَ القرآن قصصًا[1]، حتى يستقرِئَ المُسلمون سُنن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

إنَّ التأمُّل في التاريخ يجلِّي معرفة سنن الله في الكون: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧].

ومن عرفَ التاريخَ وسُننَ الله فيه، ونظر فيه بقلب واعي؛ تعلَّم من أخطاء السابقين، وكان له بهم عِظة؛ فالسعيدُ من وُعِظ بغيره، ومن جهِل تاريخه، عجز عن صياغه مستقبله، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

ومن خالفَ منهج الله، وسارَ تبعاً للأهواء؛ فإن سُننَ الله لا تُحابِي أحدًا، قال سبحانه: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:٥١].

ومن تدبَّر السنن؛ رجع إلى نفسه وأحواله وأخلاقه، وسبَر أعماله، وأعمل القياس والعقل، وغيَّر حاله، عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

لقد ترك الله في الأرض بعض آثار السابقين، الذين عمروا الدنيا، وبنو مساكنهم وديارهم ثمَّ هلكوا، وبقية آثارهم تدلُّ عليهم ليعتبر من جاء بعدهم بهذه الآثار، وحتى لا يعمل مثل عمل

---

[1] فالقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد وثلث قصص وثلث أمر ونهي. انظر: مجموع الفتاوى (٩/٣٠٦)، (١٧/٢٠٧).

الذين حلَّ بهم الدمار، وبقيت ديارهم شاهدةً عليهم: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥-٤٦]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢]، ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨].

ومن السنن الكونية، التي جاء بها القرآن:

أولاً: الابتلاء، يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣]، في سورة العنكبوت التي تسمى سورة الابتلاء والامتحان.

ولا يُمكَّنُ المؤمن حتى يُبتلَى، وفي الابتِلاء تمحيصٌ وتربيةٌ ونقاءٌ وارتِقاءٌ، والتمكينُ في الأرض لا يُعطَى لأُناسٍ لأنهم من ذرية قومٍ مُؤمنين؛ بل لأنهم هم أنفسُهم مُؤمِنون، قال الله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فرغِبَ أن يكون هذا العهدُ في ذريَّته، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله تعالى لنبيِّه: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

وفيه دلالة على أنه لا يُمكَّنُ للمُسلمين في الأرض إلا وهم مُستقيمُون على طريقتِه.

وهذه السنَّة ثابتة غير متغيرة؛ كما قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣) في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وبرقم: (٤٩٥٣) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]، وبرقم: =

وسأل هِرَقل أبا سفيان بن حرب: (سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟، فَزَعَمْتَ: أَنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ)[1].

فالابتلاء وسيلة هامة لتمييز الصفوف، وتمحيص القلوب، ومعرفة العدو من الصديق، والمؤمن الصادق من المنافق المخادع.

الثانية: التمحيص، وهذه السنة تعتبر نتيجة مترتبة على سنة الابتلاء وفائدة لها؛ فيمحِّص الله بالابتلاء ما في الصدور، ويخرج ما في القلوب: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميِّز أهل الإيمان من أهل النفاق؛ كما ميَّزهم بالمحنة يوم أحد)[2].

الثالثة: سنة التَّمكين، وهذه السنة لا تتحق إلا بعد سنَّة التمحيص، سأل رجل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ) فقال: يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: (لا يمكَّن حتى يبتلى، فإنَّ الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلمَّا صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة)[3].

(٦٩٨٢) في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٦٠) في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧) في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وبرقم: (٢٨٠٤) في كتاب الجهاد والسير، باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾ [التوبة:٥٢]، والحرب سجال، وبرقم: (٤٥٥٣) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٤]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٧٣) في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٩٧).

(٣) الفوائد (٢٠٨)، زاد المعاد (٣/ ١٣).

فهذه السنن مرتبطة ببعضها، فلا تمكين بلا تمحيص، ولا تمحيص بلا ابتلاء؛ إذ متى تحققت أوائلها تحققت أواخراها..

إنَّ من مقتضيات التمكين اليقين بنصرة المؤمنين إن نصروا الله وأعزوا دينه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

وكذلك اليقين بهلاك المفسدين الظالمين مهما طال الليل، وتقلَّبت الأيام: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

فالإعراض عن شرع الله ودينه مؤذِن بظهور الفساد وزوال العمران؛ ومن ثمَّة فالتزام الإيمان والتقوى هو ضمان استمرار واستقرار المجتمع الإنساني: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

الرابعة: سنة التغيير، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، فلن يغيِّر الله حال أمة أو قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا وجد التغيُّر من قوم غير الله حالهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

"فأخبر تعالى أنه لا يغيّر نعَمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه، فيغيّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه. فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليه جزاءً وفاقًا، وما ربّك بظلاّم للعبيد، فإنْ غيَّر المعصيةَ بالطاعة غيّر الله عليه العقوبةَ بالعافية، والذلَّ بالعز"[١].

---

[١] الداء والدواء (١٨٠).

الخامسة: مداولة الأيام بين الناس، فالأحوال لا تدوم على أحد، بل تدالُ من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

هي الأمور كما شاهدتُها دول ... مــن سرَّه زمن ســاءته أزمـان

السادسة: التدافُعُ بين الحقِّ والباطِل، وهي سنة ثابتة ومطَّردة، حكمت كل المجتمعات البشرية، وتجلَّت في شتى مناحي الحياة والأحياء، قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان[١]

ولولا أنّ الله يدفع ببعض أهل الطاعة والإيمان؛ بعض أهلِ المعصية والشرك به؛ لهلك أهل الأرض بعقوبة الله إياهم، أو لغلب المشركون عَلَى الأرض، فقتلوا وخرَّبوا[٢].

فيدفعُ الله بأهل الحقِّ أهلَ الباطل، وللباطِل جولةٌ، وللحقِّ جولاتٌ، ولا يُسلِّطُ الله أعداءَه على أوليائِه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، والغلَبَةُ للحقِّ وإن طالَ الزمان، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

---

(١) البيتين هما مطلع القصيدة المشهورة أبي البقاء الرندي (٦٨٤هـ) في رثاء الأندلس، ولم أقف له على ديوان مطبوع، وقد أورد قصيدته كاملة التلمساني في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤/ ٤٨٧)، والهاشمي في جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢/ ٣٨٥).

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٢٠٩)، تفسير الطبري (٥/ ٣٧٢).

وقد أباد الله كثيرًا من الأمم التي تَمَرَّدت على سننه، معتقدةً أنَّه بإمكانها تغيير ما وضعه الله من نظام، وأخبر سبحانه عن تدمير الأقوام السالفة؛ بما يكون تَذْكِرة للأقوام الحاضرة، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم:٩].

السابعة: الاستدراج: بالإمهال للعاصي والكافر، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢].

ويكون الاستدراج بالنِّعم حتى يفرح المرء ويغترَّ، ثم يأتيه عقاب الله على حين غفلة، كما قال سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وأيضاً: يفتَحُ الله أبوابَ كل شيءٍ على الكفار كلما أوغَلوا في الكفر؛ استِدراجًا لهم، لكي يزدادوا إثمًا، وليحمِلُوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران:١٧٨].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤]»[1].

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٤٧) برقم: (١٧٣١١)، وقال عنه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٢٠١): إسناده جيد، وقوى إسناده أيضاً في السلسلة الصحيحة (٤١٣).

الثامنة: سنة التدرُّجُ في العمل وتغيير النفس والحياة، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا)[١].

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٠هـ) لأبيه: (يا أبت، مالك لا تنفِّذ الأمور؟ فو الله ما أبالي لو أنَّ القدور غلَت بي وبك في الحق!)، فقال له عمر: (لا تعجل يا بنيَّ؛ فإنَّ الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرَّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة، ويكون من ذلك فتنة)[٢].

النوع الخامس: التدبُّر في طريق الآخرة.

فالدنيا دار سفر لا دار إقامة، ومنزل عبور لا موطن حبور، فينبغي للمؤمن أن يكون فيها على جناح سفر، يهيئ زاده ومتاعه للرحيل المحتوم، والسعيد من اتخذ لهذا السفر زاداً يبلغه إلى رضوان الله تعالى والفوز بالجنة والنجاة من النار.

"والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخسَّتها، وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة"[٣].

ومن تدبَّر طريق الآخرة في القرآن زهد في الدنيا، بترك ما لا ينفع في الآخرة، والتورُّع بترك ما يخاف ضرره في الآخرة[٤].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٩٣) في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

[٢] ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (٥/ ١٨٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٤٦).

[٣] مدارج السالكين (٢/ ١٢).

[٤] هذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع، وهي من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، واستحسنها ابن القيم رحمها الله. انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢).

ومما جاء في القرآن من ذلك:

١- قوله سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤].

٢- وقوله: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٧٧].

٣- وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى:٢٠].

٤- قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

وهذه الآية جمعت "بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والحضِّ على فعل الخير، والزجر عن فعل الشر"[1].

وغير ذلك من نصوص القرآن الكريم التي توضِّح طريق الآخرة، وتزهِّد في الدنيا.

قال النبي ﷺ مبيناً حقارة الدنيا: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ الراوي بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟**»[2].

---

[1] بدائع الفوائد (٤/ ٨).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٥٨) في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

وهذا النوع من التدبُّر يُشهِد الإنسان الآخرة "حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرِّق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة، وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر"[١].

ولا غنى للمَرْء عن هذا النَّوع من التدبُّر، خاصَّة عند غلبة الشهوات، وتحجُّر القلوب، وكثرة الفتن والشبهات، وهو من أعظم ما يعين على مواصلة الدَّرب، وبلوغ القصد، وتحمُّل الكرب.

معرفة طريق الآخرة والتزوُّد لها، والاستعداد لها، وتيقن المرء أنه سيرحل عما قريب، تاركًا ما وراءه من مال وبنين، ولا ينفعه هناك إلاَّ العمل الصالح، وما قدمه من خير وجهاد ودعوة، وعمل مُثمر؛ كان هذا النَّوع يسمى عند السَّلف علمًا ومعرفة..

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٥هـ) بعد أنْ ذَكَرَ أصناف العلوم وأنواع المعرفة: (فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيُّد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثمَّ الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهُّمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل)[٢].

ثمار تدبُّر طريق الآخرة:

تدبُّر هذا العلم والعمل به يقلب المحنة إلى مِنْحة، والبليَّة إلى عطيَّة، ويَجعل المرء يعيش في سعادة غامرة، وبهجة عامرة، وإن كان قليل الثروة والمال، بل وإنْ كان فاقدًا لهما، وقد نُقِلَ عن أئمة الهدى ما يَدُلُّ على السعادة الحقيقية التي يشعرون بها في الخلوات، بل في الملمات ودخول السجن، وطول القيام في الظلمات فيه.

---

[١] مدارج السالكين (١/ ٤٥٠)، وانظر: أصول الدعوة- للدكتور/ عبد الكريم زيدان (٣٢٩).

[٢] بيان فضل علم السلف على علم الخلف (٧٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة...

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه...

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها)[(١)].

إنَّ كلَّ ثمار الإيمان من القناعة بالقليل، والتزوُّد ليوم الرحيل، والخوف من الجليل، وانشراح النُّفوس وإشراقها، والصبر على المصائب وشرورها؛ من أعظم أسبابها تدبُّر طريق الآخرة؛ ذلك لأنَّ سلوك طريق الآخرة يجمع مصالح الدنيا والدين، وصحَّة الجسد وسعادة النفس والقلب، وحسن التفكير، وراحة البال، وغير ذلك مما فيه مصلحة العَبْد في الدُّنيا والآخرة.

نسأل الله أن يجعلنا ممن تدبَّر القرآن فعرف حقيقة الدنيا، وعمر الآخرة بالطاعات.

---

(١) الوابل الصيب (٤٨) بتصرف يسير.

- المطلب الثالث: أنواع التدبُّر باعتبار النصَّ المتدبَّر في القرآن الكريم[1]:

الأول: تدبُّر النصوص الظاهرة المعنى.

والمقصود به: استخراج ما خفي من النصِّ القرآني الظاهر المعنى، فعمل المتدبِّر فيه إعمال العقل في النصِّ القرآني بوسائل التدبُّر الصحيحة، لاستخراج مكنون ذلك النصّ، وعرض ما ينتج من فوائد ومعانٍ على شروط صحتها ليسلم له ما تدبَّره.

ومن أمثلة ذلك: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨]، يؤخذ منه: "أنَّ كلَّ من له تطلَّع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر"[2].

ومن أمثلة ذلك أيضاً: في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]، "استنبط بعض الأذكياء منها: أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعُلم أنه أرحم بهم منهم"[3].

ومن الأمثلة: في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، "لم يقل: ما كتب علينا لأنه أمر يتعلَّق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيراً فهو له في العاجل، وإن كان شراً فهو ثواب له في الآجل"[4].

ومن أمثلة ذلك أيضاً: دلالة قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، على صحَّة الوكالة، وهي أقوى آية في إثباتها[5].

---

[1] هذا المطلب وما بعده استفدته من كتاب: منهج الاستنباط من القرآن الكريم (١٠٢-١٨٣).

[2] انظر: تيسير الكريم الرحمن (١٦٥).

[3] انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

[4] من تدبُّر الوزير ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٢).

[5] انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٢٠).

الثاني: تدبُّر النصوص غير ظاهرة المعنى (خفية الدلالة).

فيلزم المتدبِّر مع هذه النصوص الرجوع للتفسير، ومعرفة معنى الآية قبل تدبُّرها؛ إذ عدم معرفة التفسير الصحيح سبيل للغلط والخطأ في استخراج المعنى المتدبَّر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (فمن لم يحكِّم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثُر غلطه، ودخل في زمرة من فسَّر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بدَّ له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتَّقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتَّسع الفهم والاستنباط)[1].

ومن أمثلة هذا النوع:

- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١].

يستفاد منها: أنَّ كل من رُبِّي على عادة سيئة، لابد أن ينزع إلى عادته مهما طال فراقها، ودنيء الأصل مهما هذَّبته لابد أن يقابل النعمة بالكفران، والحسنة بالسيئة.

ووجهه: أنه لما كان القوم فلاّحة نزعوا إلى أصلهم الردئ، وأعمالهم السيئة وإلى عادتهم وديدنهم، فبطروا ما كانوا فيه من النعمة، وطلبت أنفسهم الشقاء[2].

- وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

تدبَّر منها بعض العلماء: أنه لما كان مطلع شمس النبوة المحمدية من مكة، ومشرق أنوارها لاجرم.. أمر الله المؤمنين بالتوجه إلى تلك الجهة في أعظم عباداتهم وهي الصلاة، ليكونوا متذكِّرين تلك النعمة فلا ينسونها، وليظلوا متذكِّرين أنَّ هذا الدين المبين، من هناك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٤)، وانظر: منهج الاستنباط في القرآن الكريم (١١١).

(٢) انظر: جواهر الأفكار ومعادن الأسرار لابن بدران (٢١٢-٢١٣).

نشأته، ومن تلك البقاع مبدؤه فيزدادون حبًا لمن أتى به، على وجه يقتدون به في أفعاله وأقواله، والله أعلم[١].

الثالث: التدبُّر من النصِّ الواحد.

بحيث يكون التدبُّر والاستنباط من نصٍّ واحد مفرد بلا ضمّ إلى نصٍّ آخر، وهو الأكثر وجوداً في كتب العلماء، ومن أمثلة ذلك:

- في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ [الكهف:٩٤]، "في هذه الآية دليل على اتخاذ السُّجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرُّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكلفون، ويطلقون كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"[٢].

- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس:٧١- ٧٢]، "السرُّ في إفراده هذه النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه: أنَّ بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأنَّ أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضِّرة متمدِّنة"[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ﴾ [الشورى:٢٢]، فيه تنبيه على أنَّ الفسّاق من أهل الصلاة كلُّهم في الجنة؛ لأنَّه خصَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنَّات، وهي البقاع الشَّريفة من الجنة، فالبقاع التي دون تلك الروضات، لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٤].

---

[١] انظر: المصدر السابق (٣٧١).

[٢] انظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٥٩).

[٣] انظر: تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٢٤١).

[٤] انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/ ٥٩٣)، اللباب لابن عادل (١٧/ ١٨٧).

الرابع: التدبُّر بالربط بين نصين أو أكثر.

وهو ما يسمى بدلالة التركيب، "وهو ضمُّ نصٍّ إلى نص آخر، وهي غير دلالة الاقتران، بل هي ألطف منها وأدقُّ وأصحُّ"(1).

ومن أمثلة ذلك:

- في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]، إلى قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، فِهم بعض المتدبِّرين لهذه الآيات: أنَّ التشديد في السؤال والتَّعنُّت فيه موجب للتشديد في التكليف، ولهذا نهانا الله عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [التوبة:١٠١](2).

- تدبَّر ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٦هـ) قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٣]، وأخذ منها: أنَّ الأنبياء ثم أزواجهم ثم سائر أصحاب رسول الله ﷺ وجميعهم في الجنة، لأنَّ النصَّ جاء بأنَّ من صحب النبي ﷺ فقد وعده الله تعالى الحسنى، وصحَّ بالنصِّ أنَّ كل من سبقت له من الله تعالى الحسنى، فإنَّه مبعد عن النار لا يسمع حسيسها، وهو فيما اشتهى خالد، لا يحزنه الفزع الأكبر(3).

---

(1) إعلام الموقعين (١/ ٢٧٣).

(2) انظر: جواهر الأفكار ومعادن الأسرار لابن بدران (٢٢٧-٢٢٨).

(3) انظر: المحلى لابن حزم (١/ ٦٥).

- مِن تدبُّر قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا ﴾ [الأنعام:٧٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ [فاطر:٨]، فهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا من الآيتين أنَّ الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها(١).

والتدبُّر بالربط بين النصوص يفتح آفاقاً معرفية واسعة لدى المتدبِّر، ويوجد وحدة موضوعية ذهنية مترابطة بين آيات القرآن الكريم لدى المتدبِّر، وهو من أكثر أنواع التدبُّر تأثيراً وربطاً للمعنى. والحمد لله.

- المطلب الرابع: أنواع التدبُّر باعتبار الصحة والبطلان:

وهو نوعان:

الأول: التدبُّر لمعنى صحيح. والمعنى الصحيح هو ما ثبت فيه أمران:

١- صحة دلالة الآية على المعنى المتدبَّر في الآية.

٢- صحة المعنى المتدبَّر في ذاته، بحيث لم يوجد ما يعارضه أو يدلُّ على بطلانه.

والتدبُّر الصحيح هو: ما توفَّرت فيه شروط التدبُّر الآتي ذكرها في الباب الثاني.

ومن أمثلة التدبُّر الصحيح ما يلي:

- في قوله تعالى: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ [الحج:٢٧]، في تقديم الرجال على الركبان فائدة جليلة؛ "وهي أنَّ الله تعالى شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهُّم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدَّم الرجال اهتماماً بهذا المعنى، وتأكيداً، ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم لأنَّ نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إنَّ الله تعالى لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما

---

(١) ذكره عنه أبو طالب المكي في قوت القلوب في معاملة المحبوب (١/ ٢٩٧)، والغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٨١).

توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ به جبراً لهم ورحمة"[1].

- وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، دون أن يقول: فأخرجنا لوطاً وأهل بيته، قصداً للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط"[2].

الثاني: التدبُّر لمعنى باطل.

وهو ما لم تتوفر فيه شروط التدبُّر الصحيح، ويحكم ببطلانه إذا لم يصحَّ المعنى المتدبَّر، بأن وجد معارض شرعي راجح، أو كانت دلالة الآية عليه غير صحيحة.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- فهم بعض المعتزلة من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢]، أنها: "إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأنّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها"[3].

وقد جاء هذا الفهم "على طريقة الاعتزال[4]؛ أنَّ من يدخل النار لا يخرج منها أبداً، سواءً كان كافراً أم فاسقاً"[5]، وقالوا: "فمرتكب الكبائر غير مؤمن لأنه يدخل النار للأخبار الدالة على ذلك، ومن دخل النار يخزى لهذه الآية، والمؤمن لا يخزى لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨]"[6].

---

[1] انظر: بدائع الفوائد (١/ ٦٩).
[2] انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٨).
[3] الكشاف للزمخشري (١/ ٤٥٥).
[4] انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٧١٢-٧١٨).
[5] البحر المحيط في التفسير (٣/ ٤٧٢).
[6] الإكليل في استنباط التنزيل (٧٥).

وهذا مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، فقد تواترت النصوص الدالة على عدم كفر مرتكب الكبيرة، وعدم خلوده في النار إن دخلها، ما لم يستحل، وهذا من الأصول الاعتقادية المجمع عليها بين أهل السنة والجماعة[1].

- وفهم بعض الجهَّال من قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص:٤٢]، أنَّ هذه الآية دليل على جواز الرقص[2].

---

[1] **مسألة حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة**: الذنوب عند أهل السنة صغائر وكبائر، والكبيرة عند أهل السنة: هي كل ذنب ختم بعذاب أو لعن أو عقوبة في الدنيا، وقيل: إنها ما أوجبت حداً في الدنيا أو حداً في الآخرة، والصغائر: ما لم يكن فيها ذلك. وعند أهل السنة أن الكبائر لا تنقض الإيمان ولا تنافيه فعليه فمرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، أما حكمه في الآخرة فإن مرتكب الكبيرة إذا مات وهو مصر على شيء من الكبائر فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه، ولا يخلد في النار أحد من أهل الإسلام. والأدلة على ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فجعل الله ما دون الشرك تحت المشيئة.

وكذلك حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ**» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ. أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٨) في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبُّ الأنصار، وبرقم: (٤٨٩٤) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة:١٢]، وبرقم: (٧٢١٣) في كتاب الأحكام، باب بيعة النساء. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٠٩) في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو تحت المشيئة. انظر: متن الطحاوية بتعليق الألباني (٦٢)، اعتقاد أئمة الحديث للجرجاني (٦٤)، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار للعمراني (١/ ٦٤)، العرش للذهبي (١/ ٥٠)، الإيمان بين السلف والمتكلمين للغامدي (٥٥)، أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة د/ سعود الخلف (٢/ ٤٤).

[2] انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (٢٣٠)، الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢١٥).

وهذا باطل لما جاء به الشرع من تحريم الرقص، ولما فيه من جهل بالمعنى الصحيح.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (هذا الاحتجاج بارد، لأنه لو كان أمر بضرب الرَّجل فرحاً كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرَّجُل لينبع الماء، قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أُمِر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد انْحلَها تحكُّم الهوام دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾[البقرة:٦٠]، [الأعراف:١٦٠]، دلالة على ضرب المحادِّ بالقضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع)[١]. والله أعلم..

- المطلب الخامس: أنواع التدبُّر باعتبار الفوائد:

النوع الأول: التدبُّر في المسائل العقدية:

القرآن كتاب التوحيد والعقيدة الأول، "تضمَّنت آياته الكريمة من أول سورة الفاتحة إلى خاتمة سورة الناس الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وتوجيه العباد إلى الإخلاص في عبادته، وقد وجهت هذه الدعوة من خلال الاستدلال على التوحيد من الآفاق والأنفس، وبمختلف الأساليب والطرائق، والحجج والبراهين التي تدخل الطمأنينة إلى كل قلب ينبض بالحياة ويستهدف الحقيقة، وتقنع كل عقل استنار بنور الحق وتغلب على هوى النفس"[٢].

ولا زال العلماء عبر العصور يعتنون بإثبات ذلك، وتدبُّره من القرآن الكريم.

ومن الأمثلة التطبيقية لذلك ما يلي:

---

[١] تلبيس إبليس لابن الجوزي (٢٣٠)، ولم أقف على كلام ابن عقيل في المطبوع من كتاب الفنون.

[٢] مباحث في التفسير الموضوعي د/ مصطفى مسلم (١٦٢)، وانظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم د/ فهد الوهبي (١٥٧).

- في مطلع سورة الفاتحة؛ وصف الله تعالى نفسه بعد قوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، بأنه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، لأنه لما كان في اتصافه بـ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ترهيب، قرنه بـ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لما تضمَّن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع[1].

- في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، قدَّم العبادة على الاستعانة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأنَّ العبادة قسْم الرب وحقه، والاستعانة مراد العبد، ومن الطبيعي أن يقدِّم العبد ما يستوجب رضا الرب ويستدعي إجابته قبل أن يطلب منه شيئاً، وهو هنا التذلل لله والخضوع بين يديه بالعبادة، فكان القيام بالعبادة مظنَّة استجابة طلب الاستعانة[2].

- في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠]، "لَمَّا كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة، جعله الله تعالى نكالاً لمن ادَّعى الربوبية، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، إذ على قدر الذنب يكون العقاب، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء؛ انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء"[3].

- في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨]، "نهى الله المؤمنين- بعد ما بين لهم بغي المخالفين وإعراضهم-

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٩).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٩٧)، وانظر: ليدَّبروا آياته (المجموعة الأولى) (٤٤).

(٣) البحر المحيط في التفسير (١/ ٣٢٠).

أن يتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين؛ لأنَّ اتخاذهم أولياء- بعد أن سفَّه الآخرون دينهم، وسفَّهوا أحلامهم في اتباعه- يعدُّ ضعفاً في الدين، وتصويباً للمعتدين"(١).

فعبَّر بصيغة النفي لا النهي، مبالغة في التقرير.

- في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]، لقد جمع النبي ﷺ الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله، والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق، فإذا مات عبد الله، بقيت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية؛ لأنَّ أصحاب العقائد الحقة أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص(٢).

- في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، "نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنها تقتضي أنَّ كل ميِّت على ذنب دون الشرك لا نقطع له بالعذاب وإن كان مصراًّ، والثانية: أنَّ تعليقه بالمشيئة فيه نفعٌ للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع"(٣).

- دلَّ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، ونحو ذلك، على: أنَّ من كذَّب برسول واحد فهو مكذِّب بجميع الرسل، فكلٌّ من هؤلاء "إنما جاءه رسول واحد، ولكن كانوا مكذِّبين بجنس الرسل لم يكن تكذيبهم بالواحد بخصوصه" (٤).

- في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، ولم يقل: فصلِّ لنا؛ لما في لفظ الربِّ من الإِيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته، فضلاً عن فرْط إنعامه" (٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٥)، وانظر: ليدَّبروا آياته (المجموعة الأولى) (٦٥).

(٢) انظر: فقه السيرة (٢٧١).

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤١٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٣٨)، (١٩/ ١٨٥).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٥)، وانظر: ليدَّبروا آياته (المجموعة الأولى) (٦٥).

ونحو هذه المسائل والفوائد العقدية، ويدخل في ذلك التدبُّر في عظمة الله تعالى، وبيان قدرته، والتأمُّل في آياته الشرعية والكونية، والحمد لله.

النوع الثاني: التدبُّر في مسائل الإعجاز:

والمقصود بالإعجاز: إثبات القرآن عجز الخَلْق عن الإتيان بما تحدَّاهم به[1].

فالقرآن كتاب معجز؛ لما تضمَّنه من العلوم الإلهية، والبراهين الواضحة والمعاني العجيبة التي لم يكن الناس يعلمونها، ولا يصلون إليها، ثم جاءت فيه على الكمال، وعجزوا عنه أيضاً لفصاحته وحسن نظمه[2].

ومن الأمثلة التطبيقية للتدبر في مسائل الإعجاز.. ما يلي:

- من تأمَّل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١]، وفي الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢]، وجد أنه "ذكر السماع عند ذكر الليل والإبصار عند ذكر النهار؛ لأنَّ الإنسان يدرك سمعه في الليل أكثر من إدراكه بالنهار، ويرى بالنهار أكثر مما يرى بالليل"[3]، ففيه إشارة إلى المقصود.

- في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٣-٤]، مِن تدبُّر هذه الآية: يُعلَم أنَّ القادر سبحانه على تسوية البنان على صعوبته دقته وبصمته؛ قادر سبحانه ولا يعجزه أن يجمع العظام ويعيدها كما أنشأها أول مرة.

---

[1] انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (٦٩)، مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ٣٣١).

[2] انظر: تفسير ابن جزي (١/ ٤٥٤).

[3] ذيل طبقات الحنابلة، من كلام الوزير ابن هبيرة (٢/ ١٤٨).




وقد فُهِمَت الإشارة إلى البنان فهماً دقيقاً واضحاً؛ في القرن التاسع عشر الميلادي، عندما اكتشف علماء الطبِّ أنَّ الخطوط الدقيقة الصغيرة الموجودة على البشرة في رؤوس الأصابع تختلف من شخص لآخر، وهي تظهر في جلد الجنين وهو في بطن أمه، وتتكامل تماماً عند مولده، ولا تتغيَّر مدى الحياة، ومهما عرض له من إصابات وحروق وأمراض، كما أنه لا تتطابق تمام التطابق من شخص إلى آخر، بل لا بد من فوارق تميز أحدهما عن الآخر[1].

فيبقى ذلك معلَماً بارزاً على مرِّ الأجيال والعصور يشير إلى مصدر القرآن الكريم: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان:٦].

وإنَّ خلْقاً بهذه الصفة والكيفية والإتقان؛ يدلُّ على عظمة الخالق سبحانه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وفي خلق بصمة خاصة لكلِّ مخلوق دلالة أنَّ كلَّ إنسان مسؤول عن نفسه وعمله، فلا يصحُّ منه أن يحتجَّ لفساده بضلال الناس أو فسادهم.

- في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣].

فالله تعالى تحدَّى المشركين بأنَّ آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لن يستطيعوا خلق ذبابة، وهي مخلوق ضعيف محتقر عند الناس، ومن باب أولى لا يمكنهم خلْق ما هو أعلى منه وأكثر إبداعاً ودقة وصنعاً.

وهذا الذباب الضعيف فيه من الإعجاز ما يُذهِلُ الألباب، فهو يحمِلُ بين جناحيه داءً ودواءً؛ كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «**إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً**»[2].

---

[1] انظر: مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم (٢٢٢-٢٢٤).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٧٨٢) في كتاب الطب، باب إذا وقع الذباب في الإناء.

وإذا كان هذا هو خلقَ الذُّباب؛ فكيف بخلق الناس، وكيف بخلق السماوات والأرض، وصدق الله العظيم القائل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

النوع الثالث: التدبُّر في المسائل اللغوية والبلاغية:

القرآن الكريم نزل على أفصح اللغة وأبلغها، والمقصود بتدبُّر المسائل اللغوية فيه: استعمال القرآن الكريم، فمتى ما صحَّ الاستعمال في القرآن فهو دليل على صحَّته لغةً، فالقرآن يستدلُّ به في اللغة ولا يستدلُّ عليه، وليس كلُّ ما جاز في العربية جاز حمل القرآن عليه[١].

ومن الأمثلة التطبيقية للتدبر في المسائل اللغوية.. ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، الإحسان فوق العدل، وذلك أنَّ العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ أقلَّ مما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له، فالإحسان زائد على العدل، فتحرِّي العدل واجب، وتحرِّي الإحسان ندب وتطوّع، ولذلك عظَّم الله ثواب أهل الإحسان[٢].

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، فالإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ راجعة إلى السمع والبصر والفؤاد، وهو دليل على جواز الإشارة بـ «أولئك» لغير العقلاء، تنزيلاً لتلك الحواس منزلة العقلاء لأنها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ

---

(١) انظر: قواعد التفسير- د.خالد السبت (١/ ٢٤١).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (٢٣٧)، بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي (٢/ ٤٦٥).

(٣) انظر: تفسير السمعاني (٣/ ٢٤٢)، الدر المصون (٧/ ٣٥٣)، اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٢٨٥)، التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٢-١٠٣)، أضواء البيان (٣/ ١٥٦).

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]، "هي خمس كلمات، متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشدُّ تألُّفاً من الشيء المؤتلِف في الأصل، وأحسنُ توافقاً من المتطابق في أول الوضع"[١].

- في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩].

فالتوجيه لطلب الرزق جاء بالأمر: ﴿فَٱمْشُوا۟﴾ والأمر بحضور صلاة الجمعة جاء بلفظ: ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ مع أنَّ السعي من المشي، إلا أنَّ فيه معنى الهمة والنشاط وزيادة الحركة، فالرزق مضمون بالمقادير الربانية فعلى الإنسان أن يتَّخذ الأسباب برفق، ليصل عن طريقها إلى ما قسم الله له من رزق، والمشي برفق سبب يحقق له المقسوم، والسعي الحثيث لا يزيده إلا انشغالاً عن خيرات أخرى تنفعه، أما في التوجه لذكر الله وعبادته فقد أمر الله بطلبه عن طريق السعي، الذي فيه الهمة والنشاط والرغبة الشديدة والحركة الشديدة، التي عبَّر عنها القرآن في موطن آخر بقوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالأمر بالمشي هنا هو دلالة على معنى مقصود، لا تدلُّ عليه كلمة: ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾[٢].

النوع الرابع: التدبُّر في المسائل الفقهية والأصولية.

تضمَّن القرآن الكريم آيات تتضمَّن الأحكام الفقهية المتعلِّقة بمصالح العباد وأمورهم. ولا زال العلماء على مرِّ العصور والدهور يتدبَّرون القرآن، ويعنون باستخراج المسائل

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١٩٤).

(٢) انظر: قواعد التدبُّر الأمثل (٤٣٦-٤٣٧).

والقواعد الأصولية منه، وسوف أذكر في هذا النوع بعض الأمثلة التطبيقية على التدبُّر الفقهي من كلام العلماء وفهمهم، ومن ذلك ما يلي:

- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، "دليل على أن كلَّ مدعي دعوى، محتاج إلى تثبيتها وإقامة البرهان عليها، ثم لا يقبل ذلك البرهان، إلا أن يكون مأخوذاً عن الله – جلَّ وتعالى – لقوله في الآية التي قبل هذه حيث ادعى القوم أن لا تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٨٠].

فلم يصحِّح لهم دعواهم إلا بعهد لهم يكون عنده، أو ضمان يسبق منه لهم، ليكون الارتياب زايله عن صحتها، ومحققاً لها"(١).

- ودلَّ قول الله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨]، على أنَّ الأصل في العبادات أنها توقيفية، يعني: الإنسان لا يتعبَّد لله بشيء إلا بما شرع(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، جاء التعبير ب: (على) لكونه "من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، وإنما ذكر الله سبحانه الحجَّ بأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وتقوية لفرضه"(٣).

- ومن ذلك: تدبُّر الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ) لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان للقصاب (١/ ١٣٦).

(٢) انظر: تفسير سورة البقرة لشيخنا محمد العثيمين (٢/ ٦٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٧٤)، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٢).

مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، واستخرج منها دليلاً على أنَّ الإجماع حجَّة شرعية[١].

- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

تدلُّ على أنَّ الأمر يقتضي الفور، وهو الذي عليه جمهور الأصوليين.

ووجهه: أنَّ الله وبَّخ من لم يمتثل هذا الأمر، وهدده بأنه قد يعاجله الموت فينقضي أجله قبل أن ينظر فيما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينظر فيه; لينبِّه بذلك على وجوب المبادرة في امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ[٢].

- تدبَّر بعض العلماء قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤]، وفهموا أنَّها تدلُّ على مشروعية صلاة الجنازة؛ فلما نهى عن الصلاة على المنافقين؛ دلَّ على مشروعيتها في حقِّ المؤمنين[٣].

- من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف:٦٥]، يستفاد منها: "أنَّ العقود تنعقد بما يدلُّ عليها من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات وعقود

---

[١] قال المزني والربيع: (كنا يوماً عند الشافعي، إذ جاء شيخ، فقال له: أسأل؟ قال الشافعي: سل، قال: أيش الحجة في دين الله؟ فقال الشافعي: كتاب الله، قال: وماذا؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة، قال: ومن أين قلت اتفاق الأمة، من كتاب الله؟ فتدبَّر الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساعة، فقال الشيخ: أجلتك ثلاثة أيام، فتغير لون الشافعي، ثمَّ إنه ذهب فلم يخرج أياماً، قال: فخرج من البيت في اليوم الثالث، فلم يكن بأسرع أن جاء الشيخ فسلَّم فجلس، فقال: حاجتي؟ فقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نعم، أعذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، لا يصليه جهنم على خلاف سبيل المؤمنين، إلا وهو فرض، قال: فقال: صدقت، وقام وذهب، قال الشافعي: قرأت القرآن في كلِّ يوم وليلة ثلاث مرات، حتى وقفت عليه). انظر: أحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٩).

[٢] انظر: أضواء البيان (٢/ ١٦٣).

[٣] انظر: تفسير مفاتيح الغيب للرازي (١٦/ ١٥٩)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢١).

المعاوضات، لأنَّ يوسف ﷺ ملك إخوته بضاعتهم التي اشتروا بها ميرتهم من حيث لا يشعرون...، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي، لأنَّ الفعل والرضا يدلُّ على ذلك"(١).

- في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأنَّ ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان:١٩]، والمعنى: قد كذَّبكم أصنامكم بقولكم، لأنَّكم ادَّعيتم أنها آلهة وقد أقررتم أنها لا تنفع، فإقراركم يكذِّب دعواكم(٣).

وفيها عند التدبُّر: أنَّ الإقرار إذا كذَّب الدعوى ولم يوافقها لم ينفع صاحبه، ولا يعمل به.

النوع الخامس: التدبُّر في المسائل التربوية والسلوكية:

تمتاز تربية القرآن بأنها عامة وتامة وواضحة، لأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان؛ قال الله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢].

ومن أمثلة التدبُّر في آيات التربية والسلوك، ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٩٤]، "فيه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان -عند مؤاخذته غيره- أحوالاً كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلِّم التلميذ بسوء إذا قصَّر في إعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم، فيعتادون التشديد عليهم، وتطلُّب عثراتهم"(٤).

---

(١) الفوائد المستنبطة من قصة يوسف (٥٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤).

(٣) من كلام الوزير ابن هبيرة، انظر: ذيل طبقات الحنابلة، (٢/ ١٤٧).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ١٦٨).

- وفي قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣]، بيان إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء، ولا يرى أثرًا للإجابة، ولا يتغيَّر أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس؛ لعلمه أنَّ الحق سبحانه أعلم بالمصالح، أو لأنَّ المراد منه الصبر أو الإيمان؛ فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم، لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء...، أما سمعت قصَّة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بقي ثمانين سنة في البلاء، ورجاؤه لا يتغير، فلما ضمَّ إلى فقد يوسف فقد بنيامين؛ لم يتغير أمله...

وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤].

ومعلوم أنَّ هذا لا يصدر من الرسول ﷺ والمؤمنين إلا بعد طول البلاء، وقرب اليأس من الفرج، فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضْجر من كثرة الدعاء؛ فإنك مبتلى بالبلاء، متعبَّد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله، وإن طال البلاء[(١)].

- وفي قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢]، "المراد منه: كن أنت أيها القائل على الحق ليمكِّنك أن تقول: احكم بالحق، لأنَّ المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق"[(٢)].

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، "جمَع الشافع، ووحَّد الصديق: لكثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصديق، ألا ترى أنَّ الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق- وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك- فأعزُّ من بيض الأنوق[(٣)]"[(٤)].

---

(١) صيد الخاطر (٤٣٩).

(٢) من تدبُّر الوزير ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٥).

(٣) **الأنوقُ** = على فَعولٍ: طائرٌ، وهو الرَّخَمَةُ. وفي المثل: " أعزُّ من بَيضِ الأنوقِ " لأنها تُحرِزه فلا يكاد يُظْفَرُ به، لأنَّ أوكارها في رؤوس الجبال، والأماكن الصعبة البعيدة. وهي تحمق مع ذلك. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٦٤٥)، معجم ديوان الأدب (٤/ ١٨٣)، الصحاح في اللغة (٤/ ١٤٤٧) مادة: (أنق).

(٤) الكشاف (٣/ ٣٢٢-٣٢٣).

- يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [القصص:٨٠]، أنَّ"إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء، فمن كان هكذا فهو عالم، ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم"[١].

- قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩]، فيه أنَّ "هذا من تمام برِّ الوالدين، كأنَّ هذا الولد خاف أن يكون والداه قصَّراً في شكر الربِّ عَزَّوَجَلَّ، فسأل الله أن يلهمه الشُّكر على ما أنعم به عليه وعليهما، ليقوم بما وجب عليهما من الشُّكر إن كانا قصَّراً"[٢].

- في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤]، "لَمَّا كان الركوب مباشرة أمر خطِر، واتصالاً بسبب من أسباب التلف؛ كان من حقِّ الراكب وقد اتَّصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلِت من قضائه، ولا يدع ذكْر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه"[٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم:٨]، من فوائد الآية عند التدبُّر: "أنَّ ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام، فإنَّ قوله: لا تكذِب ولا تحلِف ولا تشتُم ولا تهمِز: ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبِّساً بهذه الأخلاق؛ لما فيه من تشريفه وبراءته"[٤]. ونحو هذه الأمثلة كثير.. والله أعلم.

---

[١] من تدبُّر الوزير ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٧).

[٢] المصدر السابق.

[٣] الكشاف (٤/ ٢٣٩).

[٤] مجموع الفتاوى (١٦/ ٦٤).

المبحث الثالث: درجات التدبُّر

تتفاوت درجات التدبُّر باعتبار تنوع وتفاوت المتدبِّرين في درجاتهم العقلية والعلمية من جهة، وباعتبار المقصد من التدبُّر من جهة أخرى.

ويمكن تقسيم التدبُّر إلى درجات قياسًا على ما قسَّم به ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا التفسير بقوله: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً لا ينضبط لنا.

والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلاً عظيماً، وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، بل من الأخبار ما إذا سمعه بعض الناس ضرهم ذلك، وآخرون عليهم أن يصدقوا بمضمون ذلك ويعلموه... والقرآن مورد يرده الخلق كلُّهم، وكل ينال منه على مقدار ما قسم الله له)[2].

ويمكن تقسيم درجات التدبُّر، إلى مطالب؛ باعتبارات ثلاث:

الأول: باعتبار تفاوت المتدبِّرين.

الثاني: باعتبار إدراك المعنى المتدبَّر.

الثالث: باعتبار الأثر على المتدبِّر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرد على المنطقيين (٢٥٥).

- المطلب الأول: درجات التدبر باعتبار تفاوت المتدبّرين:

ويمكن تقسيمه إلى درجتين[1]:

الأولى: تدبُّر العامة، وهو ما يُدرَك بأدنى تأمل، ويمكن تحقيقه بتصفح الآيات وإدراك معانيها الواضحة المفهومة لغة؛ من بشارةٍ ونذارةٍ، وأوامر ونواهي، وتوجيهات وقصص ونحوها، بقصد الانتفاع بها في الاعتبار والتأثر والاستجابة وغيرها. ومثالها: آيات إثبات صدق الرسالة، ومخاطبة الفطرة البشرية ونحوها.

الثانية: تدبُّر الخاصة –من العلماء وأهل العلم وطلبته–، ويكون بالوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها، والتبصُّر بمقاصدها وهداياتها، والانتفاع بها إيمانًا وعلمًا، لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وهذا يُدرَك بمزيد تأمُّلٍ ونظرٍ ودقة ملاحظةٍ وقوة فطنة، ويتحقق بالوقوف عند معاني الآيات ومراميها وأسرارها، والاستنارة بهداياتها ومقاصدها ؛ والانتفاع بها علماً وإيماناً وعملاً، وأهل هذه المرتبة هم الراسخون في العلم والإيمان.

ويدخل في تدبُّر الخاصة؛ تدبُّر العلماء الربانيين؛ الذي يُدرَك بشهود القلب التام، وفتْح الله تعالى، والبصيرة الوقَّادة، والقريحة الصافية، والذكاء اللمّاح، والنظر الثاقب، والفهم العميق لدلالات الآيات ونهاياتها، بقصد تقوية الإيمان، وازدياد الخشوع، والتطبيق الأمثل، واستكشاف المقاصد، واستنباط الأحكام.

---

[1] انظر: بحث بعنوان: أثر تدبُّر القرآن الكريم في الفقه المقاصدي، د/ مبارك المصري –من بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ–، وانظر: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، من بحث: مفهوم التدبُّر في ضوء القرآن والسنة والآثار، د/ محمد بن عبدالله الربيعة، صـ(١٨٥).

وهذه مرتبة عزيزة صعبة المنال لمن لم يجدِّد العهد مع قلبه في طهارته، وتمام تعلُّقه بمقلِّبه سبحانه في كلِّ شؤون حياته، وهذا التدبُّر هو ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم؛ الذين رزقوا العلم والعمل بالقرآن، وهو أرقى المراتب.

ومثال هذه الدرجة من التدبُّر: بعض تدبُّرات النبي ﷺ والصحابة، مما خفيت دلالته الظاهرة.

وعامة المباحث السابقة من هذا البحث تتعلَّق بالدرجات كلِّها، وما يأتِ بعد هذا الفصل هو مما يتعلَّق بالتدبُّر الخاص، المتعلِّق بالعلماء وطلبة العلم المختصين.

- المطلب الثاني: درجات التدبر باعتبار إدراك المعنى المتدبَّر:

وتنقسم إلى درجتين[1]:

الأوَّلى: أن يكونَ التَّدبُّرُ لمعرفةِ المعنى المرادِ بالآيةِ، وقد يتعلَّقُ الأمرُ بآيةٍ تكونُ متشابهةً على المتدبِّرِ فيتطلَّبُ المعنى الصَّحيحَ لها، فيكون تطلُّبُه هذا تدبُّر، وهذا يعني أنَّ التَّدبُّرَ يتعلَّقُ بالمعنى، وفي الغالب يكونُ هذا في فهم المتشابهِ النِّسبيِّ الذي قد يخفى على قوم ويعلمه آخرون.

وأمثلةِ هذا القسمِ كثيرةٌ، منها ما يقعُ من بحثِ آيةٍ مشكلةٍ، ومنها نقاشاتُ المفسِّرينَ التي يظهرُ فيها ترجيحُهم لوجهٍ من وجوهِ التَّفسيرِ، وغيرها مما يحتاجُ إلى اختيارٍ من أجلِ البيانِ، واللهُ أعلم.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (وإنك لتمرُّ بالآية الواحدة فتتأمَّلها وتتدبَّرها؛ فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثر عليك فلا تكُ من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافياً للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحاً بذلك)[2].

---

[1] انظر: بحث: مفهوم تدبُّر القرآن، من كتاب: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، د/ مساعد الطيار صـ(٧٢).

[2] التحرير والتنوير (١/ ٩٧).





ومن أمثلة هذه الدرجة: عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢].

فالدابة معلومة المعنى، مجهولة الكيفية وزمن الخروج، وما يمكن أن يقع التدبُّر فيه هو المعنى والحكمة من خروج الدابة.

الثَّانية: أن تكونَ الآيةُ ظاهرةَ المعنى لا تحتاجُ إلى تفسيرٍ، أو تكونَ قد تبيَّن المعنى الصحيحُ لها للمتدبِّرِ، وهو تدبُّرٌ لاستخراجِ الحِكَمِ والأحكامِ والآدابِ وغيرِها.

ومن أمثلةِ هذه الدرجة من التَّدبُّر: ما ذكره ابن القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) في الرسالة التبوكية، من تفسير قصَّةِ إبراهيم في سورة الذَّارياتِ، قال: (فصل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢] [محمد:٢٤]، فإن قلت: إنك قد أشَرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشِف لي حجابه، وكيف تدبُّر القرآن وتفهُّمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟.

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتطلَّعت إلى معناها، وتدبَّرتها، فإنما تطَّلع منها على أنَّ الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أنَّ الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبُّرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمَّنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها، وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة، وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة، وكيف تضمَّنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة، وكيف تضمَّنت الأخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمَّنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمَّنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر، وتضمَّنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات...)[1]. والله أعلم.

- المطلب الثالث: درجات التدبر باعتبار الأثر على المتدبّر:

والمقصود به اعتبار الأثر الذي يُحدثه التدبُّر على صاحبه، وهي أربع درجات[2]:

الأولى: التفكُّر والنَّظر والاعتبار:

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢١٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٢١].

وهذا مطلب المتجرِّد للحق، وهو من أشرف الأعمال، لأنَّ الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، وكذلك فإنَّ التفكُّر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرَّد؛ فإنَّ التفكُّر يوجب له انكشاف حقائق الأمور، فيفرِّق بين الوهم والحقيقة، ويمنع نفسه عن

---

(١) الرسالة التبوكية - زاد المهاجر إلى ربه- (٦٣-٦٤).

(٢) انظر: بحث: مفهوم تدبُّر القرآن، من كتاب: مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل)، د/ مساعد الطيار صـ(٧٨)، وكتاب: تدبر القرآن- لسلمان السنيدي (٦٧-٨٦).

الوقوع في الذنوب لما يدركه من عواقبها الوخيمة، ويدفعه ذلك للعمل، ونبذ الراحة والكسل، ويحرر صاحبه من عبودية الدنيا والتعلُّق بها، وينقله من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى.

وتدبُّر كلام الله يثمر معرفة الله، ومعرفة صفاته وأفعاله، وتنزيهه سبحانه عما لا يليق به، ووصفه بما هو أهل له من الجلال والإكرام.

وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصَّها في كتابه؛ تورث الإيمان بأنه على كلِّ شيء قدير، وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم، وعزيز حكيم، والفعال لما يريد، وسع كلَّ شيء رحمة وعلماً، وأنَّ أفعاله تعالى كلّها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة؛ لا يخرج شيء منها عن ذلك.

وهذه الدرجة توصل للدرجة التي تليها وهي:

الثانية: التأثُّر وخشوع القلب:

الخشوع: "قيام القلب بين يدي الربِّ بالخضوع والذل، والجمعية عليه"[١].

وهو معنى يلتئم من التعظيم، والمحبة، والذلِّ والانكسار.

وحقيقته: تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وقد أجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على الجوارح، فخشوع الجوارح نتيجةً لخشوع القلب، وخشوع النفاق: أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع[٢].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٦).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٤/ ١٥٥)، مدارج السالكين (١/ ٥١٧).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً علو نفاق، قال سهل بن عبد الله: لا يكون خاشعاً حتى تخشع كل شعرة على جسده، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣].

قلت: هذا هو الخشوع المحمود؛ لأنَّ الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرِقاً متأدِّباً متذلِّلاً)[١].

"ورقَّة القلب عند أهل القلوب هو خشوعه وخوفه وذلّه وانكساره وإخباته، فمن أعطاه هذا في قلبه لم يضرّه ما منعه من بكاء عينه، فإن رحج له بفيض العين فهو فضل، ومن أعطاه بكاء العين وحرمه خشوع القلب وذلّه وخضوعه وإخباته فهو مكر به؛ وهذا هو حقيقة المنع وعدم النفع"[٢].

"فخشوع القلب لذكر الله، وما نزل من الحق؛ واجب"[٣].

لذلك كان تدبُّر القرآن الكريم من أعظم ما يورث خشوع القلب وخضوعه لله.

ومما يؤكِّد ارتباط التدبُّر بخشوع القلب وتأثره: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

---

[١] الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٧٥).

[٢] قوت القلوب في معاملة المحبوب (١/ ٣٩٢).

[٣] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٢٩).

وحديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**»، فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ؟ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ! هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟» قَالَ جُبَيْرٌ بن نُفَيْر: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؟ الخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا[(١)].

وطريقة تحصيل الخشوع بتدبُّر القرآن: "أن يتأمَّل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود؛ ثم يتأمَّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنَّ ذلك أعظم المصائب"[(٢)]، وهذه الدرجة من التدبُّر توصل للدرجة التالية وهي:

الثالثة: الاستجابة والخضوع:

"إنَّ القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. وكفى.. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وجد القلب

---

(١) **صحيح**. أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٣٣) برقم: (٢٩٦)، والترمذي في سننه (٥/ ٣١) برقم: (٢٦٥٣) في أبواب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٢٧٩) برقم: (٣٠٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٦) برقم: (٢٠٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٣)، وفي تخريج اقتضاء العلم العمل (٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٧)، وانظر: تدبر القرآن للسنيدي (٧٢).

الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب! وإنَّ الإنسان ليقرأ النصَّ القرآني مئات المرات ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النصُّ القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق"[1].

والمقصد الأعظم من تدبُّر القرآن هو الاستجابة لأمر الله، والخضوع له، والاستقامة على نهجه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣].

والاستجابة والانقياد لأمر الله تعالى من موجبات الخشوع، فالخاشع إذا خولف وردَّ عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد[2].

وقد وجَّه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥].

فالمنهج الشرعي قائمٌ على الاستجابة والمبادرة والتطبيق لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، ويخشى على من خالف ذلك أن يحول الله بينه وبين قلبه، ويوقعه في الفتن والشبهات والشهوات التي تعميه وتطغيه، وربما جمع الله له مع ذلك أن يوليه سبيل الظالمين،حتى يصلى جهنَّم معهم، كما

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٣٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٦).

قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وهكذا كان شأن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين؛ المتابعة والتنفيذ والتطبيق لأمر الله وشرعه، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

إنَّ الرعيل الأول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ "لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد الذوق والمتاع... إنما كان يتلقَّى أحدهم القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه، وشأن الحياة التي يحياها هو وقومه... إنَّ هذا القرآن لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، - وإن كان هذا كله من محتوياته-؛ إنما جاء ليكون منهاج حياة"[1].

وإنَّ التاريخ يشهد بالاستجابة الرفيعة النادرة التي تميَّز بها الجيل الأول في جميع أمورهم.. ومن أمثلة تلك الاستجابة الرفيعة:

الأول: حين نزلت آية تحريم الخمر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، فَقَالَ الْقَوْمُ: (فَقَدِ انْتَهَيْنَا يَا رَبَّنَا)[2].

الثاني: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)[3].

---

[1] انظر: معالم في الطريق (١٤-١٥)، تدبر القرآن للسنيدي (٧٩).

[2] سبق تخريجه. في المبحث السابع من الفصل الثاني.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٧٥٨) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

الثالث: حين دعاهم ﷺ إلى الهجرة، استجابوا له على الفور، فهانت عليهم أموالهم وأنفسهم وعشيرتهم وأرضهم، ونسوا لذاتهم، وهجروا راحتهم، وبذلوا مهجهم؛ استجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ[1].

الرابع: لما دعاهم ﷺ بعد غزوة أحد في اليوم التالي على الفور إلى الخروج مرة أخرى في غزوة حمراء الأسد، استجابوا له استجابة المؤمنين الصادقين، فخرجوا للغزو ودماؤهم لم تجفَّ بعد من أحد، وهم ناجون من الموت في معركة أمس، ولم ينسوا بعدُ هولها ومرارتها وشدة كربها.

وفي ذلك جاء ثناء الله عَزَّوَجَلَّ عليهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران:١٧٢]، أي من بعد ما نزل بهم الضرُّ، وأثختنهم الجروح، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤][2].

إنَّ الاستجابة الفورية لأمر الله سبحانه هي الغاية المقصودة من التدبُّر، وهي درجة عالية من درجات تدبُّر القرآن، بل هي المقصود الأسمى، والغاية العظمى من التدبُّر.

الرابعة: استخراج الحِكَم والأحكام:

وهذه الدرجة من لوازم العلم، وتدلُّ على كمال القلب ونور البصيرة، وتثمر في القلب التبصُّر بحقائق الإيمان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فاعلم أنَّ الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحِكَم، فهذا قلبه يوقعه على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٢١)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٨٥)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤).

[2] انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢١)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣١٢)، السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٩٧).

كانت له نوراً على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيماناً وبصيرة)[١].

ومن لطيف التناسب أنَّ آية الاستنباط جاءت عقِب آية التدبُّر في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٢-٨٣]؛ فوجَّه الأمر بالتدبُّر للعموم، وخصَّ الاستنباط بأولي العلم، إذ بينهما فرْق لا يُشكل على من تأمَّله.

وحتى يتحقَّق التدبُّر السليم، وتُستَخرج الأحكام والحِكم من الآيات؛ لابدَّ من سلامة المقصد، ومعرفة مواطن الأحكام، وإتقان العلوم المؤهِّلة لذلك، ومراعاة مقاصد الشريعة وغاية القرآن، وعمل الأسباب الموجبة له من العمل والزهد[٢].

ولما كان كلام الله تعالى صدقاً، وخبره حقاً؛ كان ما يدلُّ عليه مطابقةً وتضمُّنًا وملازمةً كلُّ ذلك مراد من كلامه[٣].

وهذا يستدعي "قوَّة فكر، وحسن تدبُّر، وصحَّة قصد، فإنَّ الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكنُّ الصدور، وبما تضمَّنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدَّمها، وتتوقف هي عليه، ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب"[٤]. والله أعلم..



[١] مدارج السالكين (١/ ٤٤٢).

[٢] انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢١٦)، تدبر القرآن للسنيدي (٨٣-٨٤).

[٣] انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٤).

[٤] القواعد الحسان لتفسير القرآن (٣٢)، وانظر: تدبر القرآن للسنيدي (٨٤-٨٥).

فهرس المحتويات